جهود المالكية

في تقرير توحيد العبادة

تأليف

د. عبدالله بن فهد بن عبدالرحمن الفريخ

دار التوحيد للنشر

سلسلة الرسائل الجامعية
(٣)

جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة

تأليف
عبد الله بن فهد بن عبد الرحمن العرفج

دار التوحيد للنشر
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار التوحيد ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العرفج، عبد الله بن فهد بن عبد الرحمٰن

جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة. /عبد الله بن فهد بن عبد الرحمٰن العرفج. ـ الرياض، ١٤٢٧هـ

٦٠٦ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٧ ـ ٠ ـ ٩٧٣١ ـ ٩٩٦٠

١ ـ التوحيد ٢ ـ العقيدة الإسلامية ٣ ـ الفقهاء المالكية أ ـ العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٨٧/ ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٢٨٧/ ١٤٢٧

ردمك: ٧ ـ ٠ ـ ٩٧٣١ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

الناشر

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ ص ب: ١٠٤٦٤ ـ الرمز البريدي: ١١٤٣٣

هاتف وناسوخ: ٤٢٨٠٤٠٤ ـ ١ ٠٠٩٦٦

البريد الإلكتروني: E-mail:dar_ attawheed.pub.sa@naseej.com

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

فإن توحيد العبادة هو الذي بعث الله من أجله الرسل وأنزل الكتب، وشرعت الشرائع، وقامت سوق الجهاد، والجنة والنار. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وحيث كان بتلك المنزلة؛ فقد رغبت أن يكون موضوع الدكتوراه مرتبطًا به، سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه البدع والخرافات بين المسلمين، وأشاح الشرك بوجهه القبيح على بعض العبادات، فصرفت لغير الله تعالى، وكل ذلك بسبب التفريط في هذا الركن الرّكين، والأس المتين: توحيده تعالى بالعبادة، وإسلام الوجه له تعالى دون أحد سواه.

أسباب اختيار الموضوع:

أولًا: أهمية المذهب المالكي، وانتشاره في الآفاق، ففي الموضوع دعوة لمن زل في أمر توحيد العبادة من المنتسبين للمذهب خاصة وللمسلمين عامة.

ثانيًا: ربط كثير من الناس توحيد العبادة بعلماء مذهب دون سواه، وهذا سوء فهم للموضوع من جهة، وهضم من جهة أخرى لجهود العلماء الآخرين الذين أبلوا بلاءً حسنًا في بيانه، وأدوا الأمانة في إبلاغه. ولذا قال الميلي ـ بعد أن ذكر جهود بعض الأئمة في الدعوة إلى التوحيد: «وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص، ولكنه دين الله العام»[(١)].

ثالثًا: إبراز الجهد الكبير لعلماء المالكية ـ كغيرهم من علماء الأمة ـ في عنايتهم بتوحيد العبادة الذي جاءت به الرسل، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. والعلماء ورثة الأنبياء في ذلك.

رابعًا: الانحراف الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ ـ ولا يزال ـ إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة، كما قال تعالى ـ عن قوم نوح ـ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

فناسب طرق هذا الموضوع ومعالجته على ضوء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

---

(١) رسالة الشرك (٥٧).

*** المقدمة، وتتكون من:**

- بيان أهمية الموضوع.
- أسباب اختيار الموضوع.
- خطة البحث.
- منهج البحث.

*** التمهيد، وهو في نشأة المذهب المالكي.**

*** الباب الأول: التوحيد، وفيه فصلان:**

*** الفصل الأول:** معنى التوحيد، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التوحيد في اللغة والشرع.

المبحث الثاني: معنى «لا إله إلّا الله».

المبحث الثالث: شروط «لا إله إلّا الله».

المبحث الرابع: التوحيد أول دعوة الرسل.

*** الفصل الثاني:** توحيد المعرفة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: إقرار الكفار بتوحيد المعرفة.

المبحث الثاني: الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة.

*** الباب الثاني: العبادة، وفيه فصلان:**

*** الفصل الأول:** تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا.

أولًا: تعريف العبادة لغةً.

ثانيًا: تعريف العبادة اصطلاحًا.

* **الفصل الثاني**: أنواع العبادة وشروط صحتها، وفيه المباحث الآتية:

المبحث الأول: الأعمال الباطنة، وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: المحبة.

المسألة الثانية: الخوف والرجاء.

المسألة الثالثة: التوكل.

المسألة الرابعة: الصبر.

المسألة الخامسة: التوبة.

المبحث الثاني: الأعمال الظاهرة، وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الذكر.

المسألة الثانية: الدعاء.

المسألة الثالثة: الذبح.

المسألة الرابعة: النذر.

المسألة الخامسة: الطواف.

المبحث الثالث: شروط صحة العبادة.

* **الباب الثالث: الشرك، وفيه تمهيد وفصلان:**

* **تمهيد**.

* **الفصل الأول**: التعريف بالشرك وبيان سببه، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بيان حقيقة الشرك.

المبحث الثاني: بيان سبب الشرك.

منهج البحث:

المنهج الذي سرتُ عليه في إعداد هذا البحث كالآتي:

أولًا: قمتُ بقراءة كتب المالكية بدءاً بكتب التفاسير وشروح الأحاديث وكتب الفقه والأصول والطبقات والتراجم فيما هو من مظان البحث، واستخرجت منها ما يخص توحيد العبادة.

ثانيًا: أورد المسائل من غير توسّع في تقريرها، إلا ما تدعو الحاجة الملحة إليه؛ لأن المراد هو جمع جهود المالكية فقط دون من سواهم، إذ لا يراد به التأليف العام في توحيد العبادة.

ثالثًا: ذكرتُ في المقام الأول كلام الإمام مالك رحمه الله في الغالب، إذ هو إمام المذهب المعتبر عندهم، واعتنيتُ بنقل كل ما أثر عنه فيما يخص الموضوع.

رابعًا: نقلتُ الأقوال السليمة المأثورة عن علماء المالكية؛ لأن المقصود إبراز جهود علماء المالكية الصحيحة التي تدخل ضمن البحث، ولأن الحق يؤخذ ممن جاء به ويقبل، ولكي يتوسع في دائرة النقل عن علماء المالكية.

خامسًا: نبهتُ على الأقوال التي رأيت أن فيها ملحظًا أو مخالفةً في الحاشية مراعيًا الآداب الشرعية في ذلك.

سادسًا: عزوتُ الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن.

سابعًا: خرّجتُ الأحاديث النبوية الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيتُ بهما في التخريج، وأذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة من فتح الباري بالنسبة للبخاري ولصحيح مسلم الصحيح نفسه، وإن كان في غيرهما ذكرتُ من خرّجه من الأئمة أو بعضهم، مع بيان

الحكم على الحديث.

ثامنًا: بيّنتُ معاني الألفاظ الغريبة من كتب اللغة وغريب الحديث.

تاسعًا: ترجمتُ للأعلام المذكورين في صلب البحث عند أول موضع، ما عدا الصحابة ﷺ ومن اشتهر من الأئمة. واعتنيت بكتب التراجم والطبقات من المالكية.

عاشرًا: حرصتُ على النقل من المصادر الأصيلة، وما لم أتمكن من الوقوف عليه عزوت إلى مصدر علمي موثق.

حادي عشر: ذيّلتُ الرسالة بفهارس لمحتوياتها اشتملت على ما يلي:

١ ـ فهرس الآيات القرآنية.

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية.

٣ ـ فهرس الأعلام.

٤ ـ فهرس المصادر والمراجع.

٥ ـ فهرس الموضوعات.

وفي الختام فإني أشكر الله تعالى على أن منّ عليّ بإتمام هذا البحث وإخراجه على هذا النحو، فما كان منه من صواب فمن الله تعالى وحده، فله الحمد والمنة، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

وإني لأرجو من كل مطلع على هذا الجهد البشري القاصر أن يجود على كاتبه بما يراه من خلل أو وهم أو خطأ وله خالص الدعاء بالثواب الجزيل.

وختاماً الله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تَمهيدُ

في نشأة المذهب المالكي

إنّ في الحديث عن المذهب المالكي ونشأته ما يدعو أولًا إلى الحديث عن إمام المذهب الذي أسسه ونُسب إليه المذهب، فناسب هنا التعريف بإمام المذهب، وعلى هذا سيكون الكلام في هذا التمهيد محصورًا في الفقرتين الآتيتين:

أولًا: الإمام مالك.

ثانيًا: المذهب المالكي.

أولاً: الإمام مالك

١ ـ اسمه ونسبه:

هو إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي، وأصبح قبيلة من حمير بن سبأ الأكبر، وهو عبد شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان(١).

٢ ـ مولده:

ذكر القاضي عياض أن مولده كان في سنة ٩٣هـ في المدينة النبوية. قال:

---

(١) انظر ترتيب المدارك (١/ ١٠٥)، السير للذهبي (١/ ٤٨)، الانتقاء لابن عبدالبر (٩ـ١١)، التمهيد (١/ ٨٩ـ٩٠).

«والأشهر فيما روي من ذلك قول يحيى بن بكير: إن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة»[١].

٣ ـ طلبه للعلم:

قال الذهبي: «طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهّل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدّث عنه جماعة وهو صبيٌّ شابٌّ طريٌّ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات رحمه الله»[٢].

وأما حديثه عن طلبه للعلم وتحمله للمشقة في ذلك فيقول: «كنت آتي نافعًا نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس إلى خروجه، فإذا خرج أدعه ساعةً كأني لم أرده ثم أتعرّض له فأسلّم عليه، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أجلس عنه، وكان فيه حدّة، وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل»[٣].

وقد بلغ من حرصه على الطلب أنه سعى إليه حتى في يوم العيد، قال: «شهدت العيد فقلت: هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعتُه يقول لجاريته: انظري من على الباب، فنظرت فسمعتُها تقول: مولاك الأشقر مالك، قال: أدخليه. فدخلتُ، فقال: ما أراك بعد انصرفت إلى

(١) ترتيب المدارك (١/ ١١٨). وذكر الذهبي في السير (٨/ ٤٩) قول القاضي عياض في سنة مولد الإمام ورجّحه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٥).

(٣) ترتيب المدارك (١/ ١٣٢).

منزلك ؟ قلت : لا . قال : هل أكلتَ شيئًا ؟ قلت : لا . قال : فاطعم ، قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تُحدّثني ، فحدّثني سبعة عشر حديثًا»[١] .

٤ ـ منزلته العلمية وثناء الناس عليه:

خرّج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال : **«ليضربنّ الناس أكباد الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»**[٢] .

قال سفيان بن عيينة : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس .

وقال القاضي عياض : «وهذا هو الصحيح عن سفيان ، رواه عنه الثقات والأئمة : ابن مهدي ، وابن معين ، وذؤيب بن عمامة ، وابن المديني ، والزبير بن بكار ، وإسحاق ابن أبي إسرائيل ؛ كلّهم سمع سفيان يفسّره بمالك ، أو يقول : أظنه ، أو : أحسبه ، أو : أراه ، أو : كانوا يرونه»[٣] .

وأورد الذهبي قول أبي عبدالله الحاكم ـ وذكر سادة من أئمة التابعين ، كابن المسيب ، ومن بعده في المدينة ـ : «فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره حتى انقرضوا وخلا عصرهم ، ثم ذكر شيوخ مالك المشهورين ـ إلى أن قال ـ : وكلهم يفتي بالمدينة ، ولم يتفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل حتى خلا هذا العصر ، فلم يقع بهم التأويل في «عالم المدينة» .

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٣٤) .

(٢) خرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٩٩) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن حبان (٢٣٠٨) ، والحاكم (١/ ٩١) ، والبيهقي (١/ ٣٨٦) . قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد (١٥/ ١٣٥ـ١٣٧ رقم ٧٩٦٧) : إسناده صحيح .

(٣) ترتيب المدارك (١/ ٧١) .

ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها، فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق، واعترفوا له، وروت الأئمة عنه ممّن كان أقدم منه سنًا»[(١)].

وقال الذهبي: «ولم يكن بالمدينة عالم بعد التابعين يشبه مالكاً في العلم والفقه والجلالة والحفظ»[(٢)].

وقد أثنى على مالك عدد من أئمة الإسلام:

قال الشافعي: «إذا جاءك الأثر عن مالك فشدّ به يدك».

وقال: «إذا جاء الخبر فمالك النجم»[(٣)].

وقال: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك، لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك»[(٤)].

وقال ابن المبارك: «لو قيل لي: اختر للأمة إماماً، اخترت لها مالكاً».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومن مثل مالك متبع لآثار من مضى؟ مع عقل وأدب»[(٥)].

وقال يحيى بن معين: «كان مالك من حجج الله على خلقه»[(٦)].

وقال أبو الحسن الدارقطني: «لا نعلم أحداً تقدّم أو تأخّر اجتمع له ما اجتمع

---

(١) السير (٨/ ٦١).

(٢) السير (٨/ ٥٨).

(٣) قال الزواوي: «يريد بقوله: فمالك النجم، يعني قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ والله أعلم».

(٤) الانتقاء (٢٣_٢٤)، الحلية (٦/ ٢٢)، ترتيب المدارك (١/ ١٤٩).

(٥) ترتيب المدارك (١/ ١٥٤).

(٦) الانتقاء (٣١)، السير (٨/ ٩٤).

لمالك»[١].

وقال النسائي: «ما من أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس، ولا أحد أمنَ عليّ بالحديث منه»[٢].

٥ ـ صفاته:

قال زياد بن يونس: «كان ـ والله ـ مالك من أعظم الخلق مروءة، وأكثرهم صمتًا»[٣].

وقال الحارث بن مسكين: «رحم الله مالكًا، ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة، أمر له بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل منزلًا غير المنزل الذي كان فيه، ولا استفاد منه غلة ولا صنعة ولا تجارة»[٤].

وكان رحمه الله كثير العبادة والصلاة، كثير العمل في السر.

قال ابن الماجشون: «والله ما علمناه إلّا بصلاح وعفاف»[٥].

وقال ابن وهب: «قيل لأخت مالك بن أنس: ما كان شغل مالك بن أنس في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة»[٦].

وقال ابن المبارك: «رأيت مالكًا فرأيته من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرة بينه

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٧٧).

(٢) الانتقاء (٣١).

(٣) ترتيب المدارك (١/ ١٢٧).

(٤) ترتيب المدارك (٢/ ٥٧).

(٥) مناقب مالك للزواوي (١٣٧).

(٦) مناقب مالك للزواوي (١٣٨).

وبينه، وذلك أني كثيرًا ما كنتُ أسمعه يقول: من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه فينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية»[١].

وقال أبو بكر الأوسي: «كان مالك كثير القراءة طويل البكاء»[٢]. إلى غير ذلك مما يطول ذكره عن هذا الإمام، ولعل فيما أوردته ما يكفي لإظهار فضله وعلوّ منزلته رحمه الله.

٦ ـ وفاته:

توفي الإمام مالك رحمه الله تعالى في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩هـ وعمره ست وثمانون سنةً، ودُفن بالبقيع[٣].

ثانيًا: المذهب المالكي

نشأته وكيفية انتشاره:

نشأ الإمام مالك في المدينة النبوية، وأخذ العلم وتلقى الرواية عن علمائها، ولم يخرج منها إلّا إلى الحج، فساد جميع أقرانه، وفاق أهل زمانه، فسمّي: عالم المدينة، وإمام دار الهجرة، واشتهر خبره في الأمصار، وانتشر في سائر الأقطار، وضربت إليه أكباد الإبل، وارتحل الناس إليه من كل مصر، وأتوه من كل قطر.

فروى عنه أهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل العراق، وأهل خراسان، والشام،

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٥١).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٥٣).

(٣) انظر: التمهيد (١/ ٩٢)، ترتيب المدارك (٢/ ١٤٦)، السير (٨/ ١٣٠ـ١٣٥).

ومصر، وإفريقية، والأندلس[١].

مما كان له أكبر الأثر في انتشار مذهبه في الأمصار.

«وقد خلص علم فقهاء المدينة إلى مالك بن أنس رحمه الله، وكانت زكانة رأيه وصلابة دينه وقوة نقده قد هيأت له بتوفيق الله تعالى ذلك المقام الجليل، مقام الضبط والتصحيح والتحرير»[٢].

وقد كانت هذه الشخصية التي اتسم بها مالك من عنايته بالحديث وروايته مع حرصه على الفقه والاستنباط آثارها في دروسه وتلاميذه الذين اعتنوا بسماعاتهم من الإمام مالك ودوّنوها، كما فعل ابن وهب، فقد ألف «في سماعه من مالك ثلاثين كتابًا»[٣]، «ولم يكن مالك يتكلم بشيء إلّا كتبه ابن وهب»[٤].

قال القاضي عياض: «غلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر، وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس، وصِقِلِّية، والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من السودان، وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً، وضعف بها بعد أربعمائة سنة، وظهر بنيسابور وكان بها وبغيرها أئمة ومدرّسون»[٥].

وكان دور التلامذة الذين قدموا على مالك كبيراً في نشر مذهبه، ففي مصر انتشر علم مالك في حياته، فكانت بعد الحجاز من أول البلاد التي انتشر فيها علم مالك،

---

(١) مناقب الإمام مالك للزواوي (٤٩).

(٢) كشف المغطا لابن عاشور (٨).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ٢٤٢).

(٤) ترتيب المدارك (٣/ ٢٣٢).

(٥) ترتيب المدارك (١/ ٦٥).

وكثر بها تلاميذه حتى صدر العلم عنهم من بعده، كابن القاسم[١]، وأشهب[٢]، وابن وهب[٣]، وأصبغ[٤]، وغيرهم من المصريين.

بل إن المدوّنة ـ التي تعدّ مرجعاً مهمًا لمسائل الإمام مالك وفتاويه ـ صدرت عن ابن القاسم بمصر، وأخذها عنه أولًا أسد بن الفرات، ثم أخذها منقّحة من بعده سحنون[٥].

وفي إفريقية وبلاد المغرب فقد حلّ المذهب المالكي محل مذهب أبي حنيفة على يد ابن زياد، والبهلول بن راشد من تلامذة الإمام، وأسد بن الفرات، وسحنون من تلامذة ابن القاسم.

---

(١) هو عبدالرحمن بن القاسم العتقي، يكنى أبا عبدالله، أحد أشهر أصحاب مالك، فقيه جمع بين الزهد والعلم، وهو ناشر مذهب مالك في مصر، أملى الأسدية (المدونة) فكانت الكتاب للمذهب شرقًا وغربًا، وروايته للموطأ صحيحة. مات سنة ١٩١هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ٢٤٤ـ٢٦١)، والديباج (٢٣٩).

(٢) هو أشهب بن عبدالعزيز، أبو عمرو، ويقال: اسمه مسكين وأشهب لقب، روى عن مالك والليث، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين، كان فقيهًا نبيلًا، حسن النظر، وله مدونة تسمى مدونة أشهب، مات سنة ٢٠٤هـ، وقيل: ٢٠٣هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ٢٦٢ـ٢٧١)، والديباج (١٦٢).

(٣) هو عبدالله بن وهب، أبو محمّد القرشي، روى عن مالك والليث... نحو أربعمائة رجل من شيوخ المحدثين بمصر والحجاز والعراق. مات سنة ١٩٧هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ٢٢٨ـ٢٤٣)، الديباج (٢١٤).

(٤) هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع، رحل إلى المدينة ليسمع من مالك، فدخلها يوم مات، صحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وتفقه بهم، وكان فقيهًا نظارًا، من أعلم خلق الله كلهم برأي مالك. مات سنة ٢٢٥هـ. انظر: ترتيب المدارك (٤/ ١٧ـ٢٢)، والديباج (١٥٨).

(٥) مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه لمحمد أبو زهرة (٢٨٣). ط. دار الفكر ـ القاهرة.

بينما كان زياد بن عبدالرحمن الملقّب بشبطون[١]، وقرعوس بن العباس[٢]، والغازي بن قيس[٣]، ومن بعدهم: يحيى بن يحيى المصمودي[٤] صاحب الرواية المشهورة للموطأ، وعبدالملك بن حبيب[٥] مؤلف الواضحة: قد نشروا المذهب بدعم من السلطان؛ إذ «أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ابن

---

(١) زياد بن عبدالصمد اللخمي، المعروف بزياد شبطون، يكنى أبا عبدالله، سمع من مالك الموطأ وروى عن الليث، وهو فقيه أهل الأندلس على مذهب مالك، وأول من أدخل مذهب مالك الأندلس، له عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد. مات سنة ١٩٣هـ أو ١٩٤هـ، وقيل: ٢٠٤هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ١١٦ـ١٢٢)، وجذوة المقتبس (٢١٨ـ٢١٩).

(٢) قرعوس بن العباس بن قرعوس بن حميد، ويقال: عبيد، بن منصور بن محمّد بن يوسف الثقفي، من أهل قرطبة، سمع من مالك ومن الثوري وابن جريج والليث وغيرهم. كان فاضلًا ورعًا عالمًا بمذهب مالك وأصحابه، ولا علم له بالحديث. مات ٢٢٠هـ. انظر: الديباج (٣٢٥)، وجذوة المقتبس (٣٣٣).

(٣) هو أبو محمّد الغازي بن قيس الأموي القرطبي، الفقيه المحدّث، سمع من مالك الموطأ، ومن ابن جريج والأوزاعي وغيرهم. وهو أول من أدخل الموطأ وقراءة نافع للأندلس. وكان عالمًا فاضلًا ديّنًا ثقةً مأمونًا. مات سنة ١٩٩هـ. انظر: الديباج (٣١٤)، وشجرة النور (١/ ٦٣)، وترتيب المدارك (٣/ ١١٤).

(٤) هو يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي، جليل القدر، عالي الدرجة في الحديث، ولي القضاء في مواضع عديدة، سمع الموطأ من حديث الليث وغيره. مات سنة ٣٦٧هـ. انظر الديباج (٤٣٤).

(٥) هو عبدالملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي، أبو مروان، فقيه مشهور، متصرف في فنون من الآداب وسائر المعاني، كثير الحديث والمشايخ، ويقال: إنه أدرك مالكًا في آخر عمره، من تصانيفه: الواضحة في الفقه، والجامع، وتفسير الموطأ، وغيرها. مات سنة ٢٣٩هـ. انظر: بغية الملتمس (٣٧٦)، والديباج (٢٥٢).

هشام بن عبدالملك بن مروان الناس جميعاً بإلزامهم بمذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه، وذلك في عشر السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله تعالى»(١).

وفي المشرق امتدّ مذهب مالك إلى جهات الحجاز واليمن على يد أبي قرة القاضي(٢)، ومحمد بن صدقة الفدكي(٣)، وغيرهم، ومن ثم أتباعهم.

وفي العراق استقرّ بالبصرة على يد ابن مهدي، والقعنبي، وغيرهم. وقد كان لأصحاب مالك الأثر الكبير في ازدهار المذهب هناك، ولعل المالكيين المشارقة هم الذين وضعوا الأسس الأولى للمذهب، وأصوله التي بنى عليها المغاربة فيما بعد.

وفي خراسان وما وراء العراق دخلها المذهب على يد يحيى بن يحيى التميمي(٤)، وعبدالله بن المبارك.

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٢٦ـ٢٧).

(٢) هو موسى بن قرة بن طارق السكسكي، أبو قرة لقب له، روى عن مالك ما لا يحصى، منها الموطأ. وله المبسوط، أثنى عليه ابن حنبل خيرًا. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ١٩٦)، والديباج (٤٢١).

(٣) هو محمّد بن صدقة الفدكي، أبو عبدالله، كان يسكن ناحية المدينة، وسمع من مالك. وله عن مالك مسائل كثيرة وحديث. انظر ترتيب المدارك (٣/ ٣٥١).

(٤) هو يحيى بن يحيى بن بكير بن عبدالرحمن التميمي، الحنظلي، مولى لهم، لازم مالكًا مدةً للاقتداء به، وعدّه ابن عبدالبر في الفقهاء من أصحاب مالك، وكان ثقةً مأمونًا مرضيًا. قال ابن حنبل: ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثله، وذكر من فضله وإتقانه أمرًا عظيمًا. مات سنة ٢٢٦هـ. انظر ترتيب المدارك (٣/ ٢١٦).

وكان في الشَّام من أصحاب مالك: الوليد بن مسلم[١] وأبو مسهر[٢].

وهذا يبيِّن مدى انتشار المذهب المالكي في غالب الأمصار.

تقرير العقيدة والدفاع عنها عند الإمام مالك:

إنَّ المتأمِّل لأقوال الإمام مالك يجد عنايته الكبيرة بمسائل العقيدة، **فقد بيّن أن** أصل التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

قال الشافعي: سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال: «محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علّم أمته الاستنجاء ولم يعلّمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله**»، فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد»[٣].

فبين أن حقيقة التوحيد عنده رحمه الله إفراد الله تعالى بالعبادة، وذلك معنى كلمة «لا إله إلّا الله»، أي: لا مستحق للعبادة إلّا الله تعالى.

وقد ذكر في موطّئه تحت عنوان: «كتاب البيعة» حديث أميمة بنت رقية: أنها قالت: «أتيت رسول الله في نسوة بايعنه على الإسلام، فقلن: يا رسول الله! نبايعك

---

(١) الوليد بن مسلم بن أبي السائب، أبو العباس، مولى بني أمية، دمشقي، صنف التصانيف والتواريخ وعني بهذا الشأن أتم عناية. قال ابن حنبل: ما رأيت في الشاميين أعقل منه. مات سنة ١٩٥هـ، وقيل: ١٩٤هـ. انظر: ترتيب المدارك (١٥/ ٢١٩)، والتذكرة (١/ ٣٠٢).

(٢) أبو مسهر عبدالأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي، شيخ أهل الشام وعالمهم، روى عن مالك الموطأ وغيره من المسائل، وكان ممن امتحنه المأمون وأكرهه على أن يقول: القرآن مخلوق! قال ابن حنبل: رحم الله أبا مسهر ما كان أثبته. مات سنة ٢١٨هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ٢٢١)، والتذكرة (١/ ٣٨١).

(٣) السير (١٠/ ٢٦).

ألّا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف. فقال رسول الله ﷺ: **«فيما استطعتنّ وأطقتنّ»**. قالت: فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلمّ نبايعك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: **«إنّي لا أصافح النساء؛ إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة ـ أو: مثل قولي لامرأة واحدة ـ»**[1].

فإيراد مالك رحمه الله لهذا الحديث الذي فيه البيعة على التوحيد وعدم الشرك يدلنا على عنايته رحمه الله بأمر التوحيد.

وكذا إيراده حديث الفطرة.

وبما أن الخوض في الدين بالكلام قد وقع، فإن الإمام مالكًا رحمه الله من أشدّ الأئمة تمسّكاً بالسنة، واقتفاءً لآثار الصحابة ﷺ، والتابعين، ومن أشدّهم تحذيراً من الخوض في الدين بالكلام، وعلم الكلام، وأصحاب الأهواء الذين يرون أن الدين لا يعرف معرفة حقيقية إلّا بالكلام والجدل.

قال أبو طالب المكي: «كان مالك رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلّمين، وأشدّ نقضاً للعراقيين، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين»[2].

وقال أشهب بن عبدالعزيز: سمعت مالك بن أنس يقول: إياكم والبدع!

قيل: يا أبا عبدالله! ما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون[3].

---

(١) موطأ مالك (٢/ ٧٤٩). ط. دار الحديث ـ القاهرة.

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٣٩)، السير (٨/ ١٠٦).

(٣) مناقب مالك للزواوي (١٤٧).

وجاء في الاعتصام للشاطبي:

«وقال مالك: قبض رسول الله ﷺ وقد تمّ هذا الأمر واستكمل، وينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يتبع الرأي، فإنه من اتبع الرأي جاءه رجل أقوى في الرأي منه فاتبعه، فكلما غلبه رجل اتبعه أرى أن هذا بعد لم يتمّ»[(١)].

فقد حصر الإمام مالك الدين في الكتاب والسنة فقط، واتباع سلف الأمة في ذلك، وذكر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها.

ولا شكّ أنّ هذا من الإمام مالك ليبيّن الجهد الكبير للحفاظ على صفاء الدين ونقائه من لوثات البدع.

ومن ذلك هجر مالك لأهل البدع والأهواء، ونهيه عن مجالستهم، أو مكالمتهم والسلام عليهم، أو الصلاة خلفهم، أو عيادة مرضاهم.

قال معن بن عيسى: «إن رجلًا بالمدينة يقال له: أبو الجويرية، يرى الإرجاء، فقال مالك: لا تناكحوه!»[(٢)].

وقال في الإباضية القدرية: «لا يصلى على موتاهم، ولا تتبع جنائزهم، ولا تعاد مرضاهم»[(٣)].

وقال أيضاً: «بئس القوم أهل الأهواء! لا تسلّم عليهم»[(٤)].

وذلك لأنه يرى أنّ البدعة أشدّ خطرًا وأعظم جرمًا من ارتكاب الكبائر، ولذا

---

(١) الاعتصام (٢/ ١٥٥_١٥٦). ط. دار المعرفة ـ بيروت ١٤٠٢هـ.

(٢) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ٧٢٤_٧٢٥).

(٣) المدونة (١/ ١٨٢، ٢/ ٤٨).

(٤) شرح السنة للبغوي (١/ ٢٢٩)، فتح الباري (١١/ ٤٠).

قال: «إنّ العبد لو ارتكب جميع الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئًا لرجونا له أرفع المنازل؛ لأنّ كل ذنب بين العبد وبين ربه هو منه على رجاء، وصاحب البدعة ليس هو منها على رجاء، إنما يهوى به في نار جهنّم!»(١).

ومما يبيّن عنايته بمسائل الاعتقاد أيضاً مقالته المشهورة التي أصبحت من القواعد عند أهل السنة في الصفات.

فحين جاءه رجل فقال له: يا أبا عبدالله! ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: كيف استوى؟ قال مالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

وعلى كل حال؛ فجهود الإمام مالك وأئمة مذهبه في مسائل العقيدة عموماً، وتوحيد العبادة خصوصاً كثيرة جدًّا، وسوف أورد منها ما يتعلّق بالموضوع في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

*****

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٩)، والاعتصام (٢/ ٢٤٨).

(٢) عقيدة السلف للصابوني (١٧ـ١٩ رقم ٢٥ و ٢٦)، والجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٢٣).

الباب الأول

التوحيد

وفيه فصلان

الفصل الأول: معنى التوحيد، وفيه أربعة مباحث:

* **المبحث الأول**: التوحيد في اللغة والشرع.
* **المبحث الثاني**: معنى «لا إله إلّا الله».
* **المبحث الثالث**: شروط «لا إله إلّا الله».
* **المبحث الرابع**: التوحيد أول دعوة الرسل.

الفصل الثاني: توحيد المعرفة، وفيه مبحثان:

* **المبحث الأول**: إقرار الكفار بتوحيد المعرفة.
* **المبحث الثاني**: الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة.

الفصل الأول

معنى التوحيد

وفيه أربعة مباحث :

* **المبحث الأول** : التوحيد في اللغة والشرع .

* **المبحث الثاني** : معنى «لا إله إلّا الله» .

* **المبحث الثالث** : شروط «لا إله إلّا الله» .

* **المبحث الرابع** : التوحيد أوّل دعوة الرسل .

المبحث الأول

التوحيد في اللغة والشرع

كلمة (التوحيد) مصدر: وحّد يوحّد توحيداً، ومادة (وحّد) في اللغة تدور حول انفراد الشيء بذاته، أو بصفاته، أو بأفعاله، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه.

وإذا عدّي بالتضعيف فقيل: وحّد الشيء توحيداً، معناه: إما جعله واحداً، أو نسبه إلى الوحدانية[1].

والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له.

قال أبو القاسم التيمي[2]: «التوحيد على وزن التفعيل، وهو مصدر: وحّدته توحيداً... ومعنى وحّدته: جعلته متفرّداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته. والتشديد فيه للمبالغة؛ أي: بالغت في وصفه بذلك»[3].

قال الله تعالى ـ حكاية عن الكفار ـ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

---

(١) انظر: «الصحاح للجوهري (٢/ ٥٤٧) ط. دار العلم للملايين ـ بيروت، ومعجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠) مادة (وحد). ط. دار الجيل ـ بيروت.

(٢) هو إسماعيل بن محمّد بن الفضل بن العلي بن أحمد، القرشي التيمي الطلحي، الأصبهاني، الملقب بقوام السنة. قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة الحافظ، شيخ الإسلام». مات سنة ٥٣٥. سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٨٠). وانظر تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٧٧)، والمنتظم (١٠/ ٩٠).

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٠٥) للتيمي.

وقال الجرجاني[١]: «التوحيد في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد»[٢].

وقال ابن الأثير[٣]: «في أسماء الله تعالى (الواحد): هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر»[٤].

وقال الأزهري[٥]: «أما اسم الله جل ثناؤه (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره؛ لا يقال: رجل أحد، ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد، أي: فرد؛ لأن أحداً صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء... والواحد في

---

(١) هو علي بن محمّد الجرجاني، المعروف بالشريف الجرجاني، الحنفي، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مصنفًا، منها: «التعريفات»، وشرح «مواقف» الإيجي، ورسالة في فن أصول الحديث، وحاشية على الكشاف. وكانت وفاته بشيراز سنة ٨١٦هـ. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٥/ ٣٢٨)، والأعلام للزركلي (٥/ ٧).

(٢) كتاب التعريفات (٦٩). ط دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

(٣) هو مجد الدين، أبو السعادات المبارك بن محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني، الجزري ثم الموصلي، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤هـ، قرأ في الحديث والعلم والأدب. قال الذهبي: «القاضي الرئيس العلامة البارع الأوحد». صنف جامع الأصول، والنهاية، وشرحًا لمسند الشافعي. وكان ورعًا عاقلًا بهيًا ذا بر وإحسان، توفي سنة ٦٠٦هـ بالموصل، وله ٦٣ سنةً. انظر: السير (٢١/ ٤٨٨)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ١٤١).

(٤) النهاية في غريب الحديث (٥/ ١٥٩).

(٥) هو أبو منصور محمّد بن أحمد بن منصور الأزهري، الهروي، الأديب الشافعي، أحد أئمة اللغة والأدب، ولد في مدينة هراة بخراسان عام ٢٨٢هـ، ونسبه إلى جده الأزهر، عني بالفقه واشتهر به، ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها، وله غريب اللغة، وتفسير القرآن، وغريب الألفاظ. مات سنة ٣٧٠هـ بمدينة هراة. انظر: معجم الأدباء (١٧/ ١٦٤)، الأعلام (٥/ ٣١١).

صفة الله معناه: أنه لا ثاني له، يجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا يوصف به غير الله بخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه»[١].

والحاصل: أن التوحيد في اللغة: الجزم بالشيء أنه واحد. تقول العرب: واحد وأحد ووحيد، أي: منفرد، فالله تعالى واحد، أي: منفرد عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال.

فقولهم: «وحّدت الله» من باب: عظّمت الله وكبّرته، أي: علمته عظيماً كبيراً[٢].

التوحيد في الشرع:

إن معرفة التوحيد أمر بالغ الأهمية؛ إذ به يتحقق الدخول في الإسلام، ولذا كان السلف رحمهم الله من أعرف الناس بمعنى التوحيد الشرعي.

ومما يبين ذلك ما نقله القرطبي[٣] عن ابن المنذر من حكاية الإجماع في ذلك. قال: «وترجم ابن المنذر في كتاب الإشراف (ذكر صفة كمال الإيمان): أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن

---

(١) تهذيب اللغة (٥/ ١٩٧) للأزهري. ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٠٥) لقوام السنة. ط. دار الراية، ط. الأولى ـ الرياض ١٤١١هـ.

(٣) هو أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، المفسر، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف، من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، عشرون جزءًا، يُعرف بتفسير القرطبي، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة بأحوال الموت وأحوال الآخرة، مات سنة ٦٧١هـ. انظر: الديباج (٤٠٦)، ونفح الطيب (٢/ ٢١٠).

محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمّد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدًا، ويجب عليه ما يجب على المرتد»[١].

فما نقله القرطبي رحمه الله عن ابن المنذر من دعوى الإجماع مما يبين أن علماء المالكية اعتنوا بالتوحيد، وعرّفوه، وبيّنوا معناه كما نقل عن السلف، ولم يخالفوا في ذلك.

ومعنى التوحيد الذي دلت عليه النصوص الشرعية: هو أن الإقرار بشهادة أن لا إله إلّا الله أصل التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وجعل النبي ﷺ الدخول في الإسلام متوقفاً على الإقرار بالشهادة؛ كما في قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأني رسول الله...»**[٢].

ودرج على هذا سلف الأمة جيلا بعد جيل، وسلكه العلماء في بيان معنى التوحيد، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلّا الله[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٢)، والإجماع (١٥٤) لابن المنذر. دار طيبة.

(٢) الحديث خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم﴾ برقم (٢٥)، فتح الباري (١/ ٧٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، برقم (٣٢)، صحيح مسلم (١/ ٥١).

(٣) ولا يكفي مجرَّد الإقرار، بل لا بدّ من تحقيق معنى «لا إله إلّا الله»، كما قال ﷺ: «من قال لا إله إلّا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حرم مالُه ودمه وحسابه على الله ﷻ».

ولهذا لا تنفع هذه الكلمة بمجرّد التلفظ بها، ولا بمعرفة المعنى، ولا بالإقرار بذلك، ولا =

وفي هذا المبحث سأنقل كلام المالكية في بيان معنى التوحيد في الشرع، مراعيا التسلسل التاريخي في الغالب[١]، وقد أقدم بعض الأقوال؛ لقوتها ودلالتها على المعنى المقصود، وإن تأخّر القائل بها، مبتدئا بإمام المذهب الإمام مالك، وهكذا..

ومن ذلك ما جاء عن الإمام مالك في بيان المعنى الشرعي للتوحيد:

[١] قال المزني[٢]: سمعت الشافعي[٣] يقول: سئل مالك عن الكلام والتوحيد، فقال: محال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا**

= بعدم الإشراك بالله، بل لا بدّ أن يُضاف إلى كل ما سبق الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شكّ أو توقف لم يحرم ماله ودمُه.

وقد أشار بعض المالكية إلى هذا المعنى في كلامهم عن شروط «لا إله إلّا الله»، ويأتي.

(١) وذلك بحسب سنة الوفاة لكل علم.

(٢) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن مسلم المزني، صاحب الإمام الشافعي، من أهل مصر، كان عالمًا زاهدًا، مجتهدًا مناظرًا، محجاجًا غواصًا على المعاني الدقيقة، صنف كتبًا كثيرة في مذهب الشافعي، منها: الجامع الصغير، ومختصر المختصر، والمنثور، وكتاب الوثائق. مات سنة ٢٦٤هـ. انظر: طبقات فقهاء الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٧)، وفيات الأعيان (١/ ٢١٧).

(٣) هو محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبدالله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، إليه نسبة الشافعية كافة. قال الذهبي: الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، صنف التصانيف ودوّن العلم، وردّ على الأئمة متبّعًا الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبعُد صيته، وتكاثر عليه الطلبة. برع في الشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان ذكيًا مفرطًا، وله كتاب الأم في الفقه في سبع مجلدات، والمسند في الحديث، وأحكام القرآن، والرسالة في أصول الفقه. مات سنة ٢٠٤هـ. انظر: السير (١٠/ ٥)، والأعلام (٦/ ٢٦).

الله» . فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد[١] .

[٢] وبيّن الإمام مالك في كلامه عن المجزئ من الرقاب في الكفارات أنه لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة، وذلك بالإقرار بالشهادتين[٢]، فقال: «لا يجوز في شيء من الكفارات في العتق إلّا مؤمنة».

وروى مالك بسنده عن ابن مسعود ﷺ: أن رجلا من الأنصار أتى إلى رسول الله ﷺ بوليدة سوداء، فقال: يا رسول الله! إن عليّ رقبة مؤمنة، فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «**أتشهدين أن لا إله إلّا الله ؟**». فقالت: نعم. قال: «**أتشهدين أن محمدًا رسول الله ؟**» قالت: نعم. قال: «**أفتؤمنين بالبعث بعد الموت؟**». قالت: نعم. قال: «**أعتقها**»[٣].

فرواية مالك لهذا الحديث تبين أن الإقرار بالشهادتين مما يصدق به وصف الإيمان وينبئ عن حقيقة التوحيد.

[٣] قال ابن القاسم: «وسمعت مالكاً قال: بلغني أن رجلًا من المسلمين في بعض مغازي النبي ﷺ حمل على رجل من المشركين، فلما علاه بالسيف قال المشرك: لا إله إلّا الله ! فقال الرجل: إنما تتعوذ بها من القتل، فقتله. فأتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف لك بلا إله إلّا الله؟!**». فقال: يا رسول الله! إنما كان يتعوذ بها من القتل. فما زال يعيدها على النبي ﷺ، والنبي يعيد: «**فكيف لك بلا إله إلّا الله؟!**»، فقال الرجل: وددت أني أسلمت في ذلك

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٦).

(٢) المدونة (٣/ ٧٥)، وفي الموطأ (٢/ ٧٧٨): باب ما لا يجوز في العتق في الرقاب الواجبة.

(٣) الحديث رواه مسلم برواية أخرى، وفيها: أن النبي ﷺ سأل الجارية بقوله: «أين الله؟». قالت: في السماء.. كتاب المساجد (٥٣٧) (١/ ٣٨١ـ ٣٨٢).

اليوم، وأنه بطل ما كان من عملي قبل ذلك، وأني استأنفت من ذلك اليوم[1]»[2].

فرواية ابن القاسم عن مالك تبين أن الإقرار بالشهادتين يكفي لعصمة دم المشرك، وهو يبين معنى التوحيد؛ إذ به يدخل في الإسلام ويقبل منه.

[٤] ذكر الشافعي عمّن أخذ عنه ـ مثل مالك وغيره ـ في بيان السنة التي كانوا عليها قوله: «القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها؛ أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم، مثل سفيان[3]، ومالك، وغيرهم: الإقرار بشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله . . . »[4].

وبهذا يتبين لنا التوحيد الشرعي لدى الإمام مالك رحمه الله، وهو: الإقرار بشهادة أن لا إله إلّا الله.

[٥] وابن القاسم في هذا كمالك رحمه الله؛ فقد روى عن مالك أنه سأله:

«قلت: كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية حل وطؤها والصلاة عليها؟

(١) وهو حديث بعث النبي ﷺ أسامة ﷺ إلى الحرقات من جهينة: خرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث أسامة بن زيد إلى حرقات جهينة، برقم (٤٢٦٩)، فتح الباري (٧/ ٥١٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلّا الله، برقم (٩٦) صحيح مسلم (١/ ٩٦).

(٢) البيان والتحصيل (١٧/ ٢١٦). ط. دار الغرب، ط. الأولى ١٤٠٨هـ لبنان.

(٣) هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبدالله الثوري، الكوفي، كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين. قال ابن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري. مات سنة ١٦١هـ. انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٧١)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٨٦).

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٦٥).

قال: قال مالك: إذا شهدت أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله. . .»[(١)].

[٦] وذكر أيضاً في مسألة صبيان المشركين، فيما قاله سحنون[(٢)]: «قلت لابن القاسم: أرأيت من نزل بهم أهل الشرك بساحلنا، فباعوهم منا وهم صبيان[(٣)]، فماتوا قبل أن يتكلموا بالإسلام بعد ما اشتريناهم؛ هل تحفظ من مالك فيهم شيئاً؟ قال: نعم؛ لا يصلى عليهم حتى يجيبوا إلى الإسلام»[(٤)].

[٧] وذكر يحيى بن يحيى الليثي[(٥)] الرواية عن مالك فيما يجزئ من الرقاب،

---

(١) المدونة (١/ ١٧٩).

(٢) هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون، قاض فقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، وانتشرت إمامته في المشرق والمغرب، وسلم له الإمامة أهل عصره واجتمعوا على فضله وتقديمه، ومناقبه كثيرة. روى المدونة عن ابن القاسم عن الإمام مالك. مات سنة ٢٤٠هـ. انظر: ترتيب المدارك (٤/ ٤٥)، والأعلام (٤/ ٥).

(٣) المراد بالصبي والله أعلم: صغير السن الذي لم يبلغ، لحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عند البخاري: «أنّ رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني». قال نافع: فقدمت على عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة فحدثته الحديث فقال: إن هذا الحد بين الصغير والكبير، وكتب لعماله: أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة. فتح الباري (٥/ ٢٧٦).
وفي رواية الترمذي قال: «هذا حد ما بين الذرية والمقاتلة». عارضة الأحوذي (٧/ ٢٠٤). ط. دار الفكر.

(٤) المدونة (١/ ١٧٩).

(٥) هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي، أبو محمّد، من مصمودة طنجة، سمع يحيى مالكًا والليث، وحج، إليه انتهت الرياسة في العلم بالأندلس، وكان مالك يعجبه سمت يحيى وعقله، وسماه العاقل، وكان ثقة عاقلًا حسن الهدي والسمت، يشبه سمته سمت مالك. مات سنة ٢٣٤هـ، وقيل: ٢٣٣هـ، والله أعلم. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ٣٧٩)، والديباج (٤٣١).

فذكر حديث الجارية، مما يبين رأيه فيما يصدق به وصف الإيمان والتوحيد[١].

[٨] وأما سحنون فقد ذكر ابن رشد[٢] مذهبه في اشتراط الإجابة. فقال: «ومذهب القاسم، وروايته عن مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه»[٣].

ثم قال: «وهو مذهب سحنون».

فتبين معنى الإجابة عندهم؛ وهو الإقرار بالشهادة، وبها يحكم بالدخول في الإسلام، وهو معنى التوحيد الشرعي.

[٩] وذكر ابن رشد: «مذهب القاسم وروايته عن مالك: أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه»[٤].

وقد سبق[٥] روايته حديث الجارية، ومعنى الإجابة: الإقرار بالشهادتين

---

(١) موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي (٢/ ٣٢٩ـ ٣٣١). دار الغرب ـ ط. الثانية بيروت ١٤١٧هـ.

(٢) هو محمّد بن أحمد بن رشد (الجد)، فقيه الأندلس والمغرب، وقاضي الجماعة بقرطبة، معترف له بصحة النظر وجودة التأليف، بصيرًا بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية، كثير التصنيف، ألف كتابه: البيان والتحصيل في شرح كتاب العتبي المستخرج من كتاب الأسمعة، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلّدًا، وكتابه المقدمات، وكتاب اختصار الكتب المبسوطة. قال القاضي عياض: وكانت الرحلة إليه للتفقه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ. انظر: الغنية (٥٤). ط. دار الغرب ـ بيروت، ط. الأولى ١٤٠٢هـ، وبغية الملتمس للضبي (٥١).

(٣) البيان والتحصيل (٢/ ٢١٣ـ ٢١٤).

(٤) البيان والتحصيل (٢/ ٢١٣ـ ٢١٤).

(٥) انظر ص ٣٦.

للدخول في الإسلام.

فروايته وعدم اعتراضه يدل على أنه يرى ذلك[(١)]، وهو معنى التوحيد.

[١٠] وذكر ابن عبد البر[(٢)] أن الإقرار بالشهادتين شرط للخروج من الكفر، فعند حديث الجارية، واشتراط الإيمان في العتق. قال: «وفي حديث مالك هذا من الفقه أن من شرط الشهادة التي بها يخرج من الكفر إلى الإيمان مع الإقرار بأن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله: الإقرار بالبعث بعد الموت»[(٣)].

فنص على أنه لا بد للدخول في الإسلام من الإقرار بالشهادة.

[١١] وقال أبو الوليد الباجي[(٤)] عند شرحه لحديث الجارية: «وذلك يقتضي أنه

---

(١) ذكر ابن رشد رأي الباجي في مسألة أول واجب، ثم تعقبه وردّ عليه، مما يبين أنه يتعقب ما لا يراه. انظر المقدمات الممهدات (١/ ٥٨).

(٢) يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبدالبر النمري، الحافظ شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته، وأحفظ من كان بها لسنة مشهورة، علا ذكره في الأقطار، ورحل إليه الناس وسمعوا منه، ألف تواليف كثيرة مفيدة، منها: كتاب التمهيد، وهو عشرون مجلدًا، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، وكتاب الاستيعاب، وغيرها. مات سنة ٤٦٣هـ. انظر: ترتيب المدارك (٨/ ١٢٨)، والديباج (٤٤٠).

(٣) فتح البر بالترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (٢/ ٣٨) ط. مجموعة النفائس الدولية ـ مكتبة الرياض الحديثة، ط. الأولى ١٤١٦هـ. وانظر: الاستذكار (٢٣/ ١٧٠ـ ١٧١)، مؤسسة الرسالة ط. الأولى ١٤١٤هـ.

(٤) هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي، رحل إلى المشرق نحو ثلاثة عشر عامًا، وجل قدره بالمشرق والأندلس، كان فقيهًا نظّارًا محققًا محدّثًا متكلّمًا أصوليًا فصيحًا شاعرًا حسن التأليف، وكان وقورًا بهيًا مهيبًا جيد القريحة، حسن الإشارة، له من التصانيف: كتاب المنتقى في شرح الموطأ، عشرين مجلدًا، وكتاب المهذب في اختصار المدونة، وإحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب الإشارة في الأصول، وكتاب الحدود، وغيرها. مات =

حكم بكونها مؤمنة، دون أن يسألها عن نظر واستدلال، وكذلك كل من أتى ليؤمن أخذنا عليه الشهادتين، فإذا أقرّ بهما حكمنا بإيمانه، ولم نسأله عن نظره واستدلاله»[1].

فجعل الدخول في الإسلام متوقفا على الإقرار بالشهادتين، وهو معنى التوحيد.

[١٢] وقال الطرطوشي[2]: «اعلموا ـ أرشدكم الله تعالى ـ أن (لا إله إلّا الله) هي العروة الوثقى، ومركب النجاة، وسفينة نوح؛ من عدل عنها هلك، ومن ركبها خلص ونجا، وهي قطب الإسلام، وقاعدة الأديان، وما خلق الجن والإنس إلّا ليعبدوه بها»[3].

ثم ذكر الأحاديث مبتدئاً بحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس...**»، ثم قال:

[١٣] «وحسبك شرفاً وإجلالًا لهذه الكلمة: أن النبي ﷺ قال: «**لقّنوا موتاكم: لا إله إلّا الله**»[4].

فمفتاح الدخول في الإسلام (لا إله إلّا الله)، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى (لا إله إلّا الله)»[5].

= سنة ٤٧٤هـ، وقيل: ٤٩٤هـ. انظر: ترتيب المدارك (٨/ ١١٧)، والديباج (١٩٧).

(١) المنتقى شرح الموطأ (٦/ ٢٧٤) ط. الأولى ـ مطبعة السعادة، مصر ١٣٣٢هـ.

(٢) هو أبو بكر بن محمّد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي، الطرطوشي، الفقيه الزاهد، رحل إلى المشرق وتفقه على الشاشي الشافعي والجرجاني، وسكن الشام مدة ودرس بها. له من التصانيف: سراج الملوك، وكتاب بر الوالدين، وكتاب الحوادث والبدع. مات سنة ٥٢٠هـ. انظر: السير (١٩/ ٤٩٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٦٢).

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥) ط. الأولى ١٤٠٩هـ، دار الفكر المعاصر. بيروت ـ لبنان.

(٤) الحديث خرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلّا الله، برقم (٩١٦) (٢/ ٦٣١).

(٥) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧).

فذكر أن كلمة التوحيد هي «لا إله إلّا الله»، وأنها مفتاح الدخول في الإسلام، ولا يصح التوحيد إلّا بها، مما يجلي المعنى الشرعي للتوحيد.

[١٤] وأما أسد بن الفرات(١) فقد أنكر على بشر المريسي(٢) تأليفه كتاباً في التوحيد، مبيناً معنى التوحيد الشرعي.

جاء في ترجمته: «وكان رحمه الله تعالى يكفّر بشراً المريسي، ويتكلم فيه بأقبح الكلام، وبلغه أنه وضع كتاباً وسماه بـ«كتاب التوحيد»... فقال أسد: أوجهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر فيه كتاباً؟! هذه نبوة ادّعاها!»(٣).

فهذا يبيّن أن أسداً رحمه الله أراد التوحيد الشرعي؛ إذ إنّ الناس لا يجهلون الشهادتين.

[١٥] وعرّف الباقلاني(٤) التوحيد بقوله: «التوحيد له: هو الإقرار بأنه ثابت

---

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان، مولى بني سليم، قاضي القيروان، وأحد القادة الفاتحين، أصله من خراسان ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث، فنشأ بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث، لزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية وقدم بها إلى القيروان، وسمعها منه خلق كثير مع الموطأ، وانتشرت إمامته، كان شجاعًا حازمًا صاحب رأي، استعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه، وهو أول من فتح صقلية، ومات بها من جراحات أصابته سنة ٢١٣هـ. انظر: رياض النفوس (١/ ٢٦٤)، والديباج (١٦١)، والأعلام (١/ ٢٩٨).

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم، البغدادي المريسي، نظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم، وكفره عدة. مات سنة ٢١٨هـ، وقيل: ٢١٩هـ. انظر: السير (١٠/ ١٩٩)، وتاريخ بغداد (٧/ ٦١).

(٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (١/ ٢٦٤).

(٤) هو القاضي أبو بكر محمّد بن الطيب بن محمّد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني، =

موجود، وإله واحد فرد[(١)] معبود، ليس كمثله شيء، على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»[(٢)].

فتعريفه يجلي المعنى الشرعي؛ إذ نص على أن التوحيد هو الإقرار بالشهادة، كما في الآية الكريمة التي استدل بها.

[١٦] وبنحو ذلك قال أبو عمرو الداني[(٣)] في بيان معنى التوحيد الشرعي[(٤)].

= البصري المتكلم المشهور، كان على مذهب الأشعري، مؤيِّدًا اعتقاده وطريقته، انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته، وكان موصوفًا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره. مات سنة ٤٠٣هـ. انظر: السير (١٧/ ١٩٠)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢٧١).

(١) إطلاق وصف الفرد على الله ﷻ لم يرد. قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾. وجاء في حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجُلًا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلّا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**». قال الترمذي: حديث صحيح. السنن (٣٤٧٥) في الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ.

(٢) الإنصاف للباقلاني (٢٣). ط. الثانية، مؤسسة الخانجي ١٣٨٢هـ.

(٣) هو الحافظ المجوّد المقرئ الحاذق، عالم الأندلس، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأندلسي القرطبي، ثم الداني. قال الحميدي: هو محدث مكثر، ومقرئ متقدم، سمع بالأندلس والمشرق. وقال ابن بشكوال: كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن رواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وله معرفة بالحديث وطرقه، وأسماء رجاله ونقلته، وكان حسن الخط، جيد الضبط، من أهل الذكاء والحفظ والتفنن في العلم، دينًا فاضلًا ورعًا سنيًا، مات سنة ٤٤٤هـ. انظر: السير (١٨/ ٧٧)، ومعجم الأدباء (١٢/ ١٢٤).

(٤) انظر الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة والاعتقادات وأصول الديانات (٢٣).

[١٧] وأما ابن نصر البغدادي[١] فقد بين أن المرتد إذا تاب تقبل توبته، واستدل بآيات من الكتاب، وبقوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم...»**[٢].

فجعل الإقرار بالشهادة يكفي لعصمة الدم والرجوع مرّة أخرى إلى الإسلام بعد الردّة، وهذا يجلي المعنى الشرعي للتوحيد.

[١٨] وأما ابن بطال[٣] فعند شرحه لحديث عبادة: أن النبي ﷺ قال: **«من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم. ثم قال: االلّهمّ اغفر لي ـ أو دعا ـ؛ استجيب له، فإن توضأ قبلت صلاته»**[٤]. قال: «وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم لهجة ألسنتهم بشهادة

---

(١) هو عبدالوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي، أبو محمّد، قاض من فقهاء المالكية. قال ابن فرحون: كان حسن النظر، جيد العبارة، نظّارًا ناصرًا للمذهب، ثقة حجة، له نظم ومعرفة بالأدب، ولي قضاء بغداد، ورحل إلى الشام، ثم توجه إلى مصر فعلت شهرته، توفي فيها. له كتاب التلقين، وعيون المسائل، وكتاب المعرفة على مذهب عالم المدينة. مات سنة ٤٢٢هـ. انظر: الديباج (٢٦١)، والأعلام (٤/ ١٨٤).

(٢) المعونة على مذهب عالم المدينة (٢/ ٢٩٥). دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط. الأولى ١٤١٨هـ.

(٣) هو علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري، القرطبي ثم البلنسي، ويعرف باللجام، عالم بالحديث، له شرح لصحيح البخاري، والاعتصام في الحديث، وكتاب في الزهد والرقائق. قال الذهبي: كان من كبار المالكية. مات سنة ٤٤٩هـ. انظر: السير (١٨/ ٤٧)، والأعلام (٤/ ٢٨٥).

(٤) خرجه البخاري في كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل، برقم (١١٥٤) فتح الباري (٣/ ٣٩)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل برقم (٣٤١٤) (٥/ ٤٨٠)، وأبو داود في باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل برقم (٥٠٦٠) سنن =

التوحيد له، والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى»[١].

فذكر التوحيد، وأنه: شهادة أن لا إله إلّا الله، وهو معنى التوحيد الشرعي.

[١٩] وعند شرحه حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس. . .**»، قال: «فثبت أن الإسلام لا يكون إلّا بالمعاني التي تدل على الدخول في الإسلام؛ وهو الإقرار بالشهادتين، وترك سائر الملل».

[٢٠] وفي شرحه لحديث سيّد الاستغفار، وعند قوله في الحديث: «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**»[٢] قال: «يريد العهد الذي أخذه الله على عباده؛ حيث أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فأقرّوا له بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانية، وبالوعد ما قال على لسان نبيه: أن من مات لا يشرك بالله شيئاً، وأدّى ما افترض عليه أن يدخله الجنة. . .»[٣].

= أبي داود (٧١١)، والدارمي في باب ما يقول إذا انتبه من نومه برقم (٢٦٩٠) (٢/ ٢٠٢).

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ١٤٧ـ١٤٨).

(٢) عن شداد بن أوس أنّ رسول الله ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن يقول: اللهُم أنت ربي لا إله إلّا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت. من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**».

أما سبب تسميته بسيد الاستغفار فكما قال الطيبي: «لما كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها، استعير له اسم السيد، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور». فتح الباري (١١/ ٩٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٧٦).

فمراده بالوحدانية: توحيد العبادة؛ لأمرين:

أ ـ تقدمه توحيد الربوبية.

ب ـ وكذلك ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**يُقالُ للرَّجُل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنتَ مُفتدياً؟**». قال: «**فيقول: نعم!**». قال: «**فيقول: قد أردتُ منك أهونَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألّا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلّا أن تشركَ بي شيئاً**»[(١)].

[٢١] وبين أن حقن الدم بالأذان، لأجل ما فيه من الشهادة بالتوحيد، فقال: «إنما يحقن الدم بالأذان لأن فيه الشهادة بالتوحيد لله، والإقرار بالرسول»[(٢)].

[٢٢] وبين سبب هروب الشيطان عند سماع الأذان، فقال: «إنما يهرب ـ والله أعلم ـ من اتفاق الكل على الإعلان بشهادة التوحيد، وإقامة الشريعة، كما يفعل يوم عرفة لما يرى من الكل على شهادة التوحيد لله تعالى، وتنزل الرحمة عليهم، ييئس من أن يردهم عما أعلنوا من ذلك، وأيقن بالخيبة، بما تفضل الله عليهم من ثواب ذلك»[(٣)].

فنص على أن التوحيد هو شهادة أن لا إله إلّا الله، وبه تحقن الدماء، مما يجلي المعنى الشرعي.

---

(١) خرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٠٢) برقم (١٢٢٨٩)، والبخاري في باب أحاديث الأنبياء، الفتح (٦/ ٣٦٣) برقم (٣٣٣٤)، ومسلم في باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٤/ ٢١٦٠) برقم (٢٨٠٥).

(٢) شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٣٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٣٤).

[٢٣] وقال المازري[١] عند شرحه حديث: **«لقنوا موتاكم لا إله إلّا الله»**[٢]: «إن الشيطان يتعرض للإنسان ليفسد اعتقاده، فيحتاج إلى مذكّر ومنبّه له على التوحيد.

ويحتمل أن يريد ﷺ ليكون ذلك آخر كلامه، فيحصل له ما وعد به ﷺ في الحديث الآخر: «من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله، وجبت له الجنة»[٣]»[٤].

فنص على أن «لا إله إلّا الله» هي التوحيد الذي يحتاجه المؤمن عند فراقه الدنيا.

[٢٤] وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] قال ابن عطية[٥]: «لا إله إلّا الله: هي كلمة الحق، والعروة الوثقى». ثم استدل بحديث أبي طالب، وقول النبي ﷺ له: **«أي عم! قل: لا إله إلّا الله؛ أحاج**

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن علي بن عمر بن محمّد التميمي المازري، الفقيه المالكي المحدث، أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث، اطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب، وغير ذلك، وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب والفقه، شرحَ صحيح مسلم شرحًا جيّدًا سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرح كتاب التلقين لابن نصر. مات سنة ٥٣٦هـ. انظر: الديباج (٣٧٤)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢٨٥).

(٢) سبق تخريجه ص ٤١.

(٣) خرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٣) من حديث معاذ (، والبزار في مسنده (٧/ ٧٧) برقم (٢٦٢٥). والحديث صحيح، فصالح بن أبي غريب قال عنه ابن حجر: مقبول، ووثقه ابن حبان، وباقي رجال الإسناد ثقات، كما ذكره الأرناؤوط في حاشية مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٦٣).

(٤) المعلم بفوائد مسلم (١/ ٣٢٣). ط. الثانية ١٩٩٢م ـ دار الغرب الإسلامي.

(٥) هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي، أبو محمّد، مفسّر فقيه، أندلسي من أهل غرناطة، كان فقيهًا عالمًا في التفسير والأحكام والحديث والنحو واللغة والأدب، له نظم ونثر، وكان غاية في الدهاء والذكاء، وكان يكثر الغزوات، وله: المحرر الوجيز في =

لك بها عند الله»[١]، ثم قال: «وبفرضه عليه الصلاة والسلام قول: لا إله إلّا الله، جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة، ويخضعوا لها»[٢].

فبين أن لا إله إلّا الله هي كلمة الحق والعروة الوثقى، ومراده بذلك التوحيد، ويبيّن ذلك أنه ذكر أنها التي يتم تلقين الموتى بها عند الموت، لمخالفة الكفرة الذين لم يوحّدوا الله ﷻ ولم يعبدوه.

[٢٥] وأما ابن العربي[٣] فعند شرحه حديث: **«لو يعلم الناس ما في النداء. . .»**[٤] قال: «أما فضل النداء فمعلوم، وأصوله أربعة: أحدها: ما فيه من توحيد الله تعالى وتعظيمه، والشهادة لرسوله، والدعاء لعبادته»[٥].

= تفسير الكتاب العزيز، في عشر مجلدات. مات سنة ٥٤٢هـ. انظر: الديباج (٢٧٥)، والأعلام (٣/ ٢٨٢).

(١) خرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) برقم (٤٦٧٥)، الفتح (٨/ ٣٤١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، برقم (٢٤) (١/ ٥٤).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ٣٥٠). ط. القطرية الأولى ـ الدوحة ١٤٠٢هـ.

(٣) أبو بكر محمّد بن عبدالله بن محمّد المعافري، الإشبيلي المالكي، قاض من حفاظ الحديث، كان فصيحًا أديبًا شاعرًا، كثير الخير، مليح المجلس. صنف كتبًا في الحديث = = والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، ومنها: عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وأحكام القرآن، والعواصم من القواصم، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وغيرها. انظر: الديباج (٣٧٦)، والأعلام (٦/ ٢٣٠).

(٤) خرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان. الفتح (٢/ ٩٦) برقم (٦١٥)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها (١/ ٣٢٣) برقم (٤٣٧).

(٥) القبس (١/ ١٩٨) ط. دار الغرب الإسلامي ـ ط. الأولى ١٩٩٢م، بيروت. لبنان.

[٢٦] وقال ـ في معرض كلامه عن التوحيد ـ : «وبهذا المعنى وقع البيان في قوله ﷺ لأبيّ بن كعب : «**أي آية في القرآن أعظم؟**» . قال : ﴿**الله لا إله إلّا هو الحي القيوم**﴾ . قال : «**ليهنك العلم يا أبا المنذر!**»[(١)] .

وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها، كما صار قوله ﷺ : «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلّا الله** . . . » الحديث[(٢)] . أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع علوم التوحيد . . . فإن الله ﷻ جمع التوحيد كله في آية الكرسي . . . »[(٣)] .

[٢٧] وفي حديثه عن المجزئ من الرقاب في العتق، بعد استشهاده بحديث الجارية وقول النبي ﷺ فيه : «أتشهدين أن لا إله إلّا الله ؟»قال : «بيّن ﷺ شرط الإيمان، وحقيقة الإيمان . . . » . ثم قال : «ويثبت الإيمان بما أثبته النبي ﷺ، وهي شهادة الحق : لا إله إلّا الله محمّد رسول الله . . . »[(٤)] .

فسمى ما في النداء ـ من قول المؤذن : أشهد أن لا إله إلّا الله ـ توحيداً، وبين

---

(١) خرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (١/ ٥٥٦) برقم (٨١٠)، والإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٢) برقم (٢١٢٧٨) .

(٢) خرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٥/ ٥٧٢) برقم (٣٥٨٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٨٤) برقم (٨٣٩١)، وعبدالرزاق في مصنفه (٤/ ٣٧٨) برقم (٨١٢٥) .

قال الألباني رحمه الله بعد إيراده شواهد للحديث : «وجملة القول أنّ الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد» . اهـ السلسلة الصحيحة (٤/ ٨) برقم (١٥٠٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٢٦) . فالحديث حسن لغيره .

(٣) القبس (١/ ٢٣٢ـ ٢٣٣) . تحقيق د . محمّد عبدالله ولد كريم، ط . دار الغرب الإسلامي، ط . الأولى ١٩٩٢م ـ بيروت، لبنان .

(٤) القبس (٣/ ٩٦٦) .

أنها حقيقة الإيمان وشرطه، مما يجلي معنى التوحيد الشرعي.

[٢٨] وذكر القاضي عياض[١] أن عصمة الدم تحصل بقول: لا إله إلّا الله، فقال: «اختصاص عصمة النفس والمال بمن قال: لا إله إلّا الله، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان.. فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى بعصمته بقول: لا إله إلّا الله، إذ كان يقولها في كفره»[٢].

وبين عند حديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله...**»[٣] أهمية التوحيد، فقال:

[٢٩] «وقد نبه ﷺ على أفضلها بالتوحيد المتعين على كل مسلم، الذي لا يصح شيء من هذه الشعب إلّا بعد صحته»[٤].

فما ذكره يبين اهتمامه ببيان معنى التوحيد، فقد جعل عصمة الدم تتوقف على التوحيد، وأن «لا إله إلّا الله» هي التوحيد الذي عليه تتوقف صحة شعب الإيمان.

---

(١) هو القاضي عياض بن موسى بن عمرون، اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب، إمام أهل الحديث في وقته، كان عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، حافظًا لمذهب مالك رحمه الله، شاعرًا مجيدًا، خطيبًا بليغًا، صبورًا حليمًا، جميل العشرة، جوادًا، سمحًا كثير الصدقة، صلبًا في الحق. من تصانيفه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، والغنية، وترتيب المدارك، وإكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، وشرح حديث أم زرع، وغيرها. مات مسمومًا سنة ٥٤٤هـ. انظر: الديباج (٢٧٠)، والأعلام (٥/ ٩٩).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٢٤٦).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (١/ ٦٣) برقم (٣٥). وروى بعضه البخاري في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان. الفتح (١/ ٥١) برقم (٩).

(٤) إكمال المعلم (١/ ٢٧٢).

[٣٠] وعند قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم﴾ قال القرافي[١]: «لما حذّر تعالى من كتمان الحق، بيّن أنّ أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد».

وذكر أبو العباس القرطبي[٢] أن كلمة التوحيد هي: لا إله إلّا الله، وبها يحكم بالإسلام.

[٣١] قال عند حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله»: «ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط؛ حكم له بحكم الإسلام...».

[٣٢] «... ثم النطق بالشهادتين يدل على الدخول في الدين، والتصديق بكل ما تضمنه»[٣].

ونحو ذلك ما ذكره عند حديث عمرو بن العاص، وفيه: «وإن أفضل ما نُعِدُّ: شهادة أن لا إله إلّا الله»[٤]، بقوله: [٣٣] «أي: أفضل ما نتخذه عُدَّةً للقاء الله تعالى:

---

(١) هو أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن، شهاب الدين الصنهاجي، القرافي، أحد الأعلام المشهورين، انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك، كان بارعًا في الفقه والأصول والعلوم العقلية، أخذ الكثير من علومه على يد الشيخ عز الدين الشافعي الملقب بسلطان العلماء، صنف كتاب الذخيرة في الفقه من أجلّ كتب المالكية، وكتاب القواعد، وكتاب شرح التهذيب، وكتاب الانتقاد في الاعتقاد. مات سنة ٦٨٤هـ. انظر: الديباج (١٢٨)، والأعلام (١/ ٩٤).

(٢) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم، أبو العباس الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي من رجال الحديث، وكان من العلماء المعروفين في الحديث والفقه والعربية، وغير ذلك. له شرح على صحيح مسلم أحسن فيه وأجاد، سماه المفهم، واختصر صحيحي البخاري ومسلم. مات سنة ٦٥٦هـ. انظر: الديباج (١٣٠)، والأعلام (١/ ١٨٦).

(٣) المفهم (١/ ١٨٧-١٨٨). ط. دار ابن كثير - بيروت، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

(٤) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج =

الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وتصديق رسوله ﷺ، والنطق بذلك . . . ويتأكّد أمر النطق بالشهادتين عند الموت، ليكون ذلك خاتمة أمره، وآخر كلامه»[١].

[٣٤] وذكر عند حديث وفد عبد القيس، وفيه: قال: «**آمركم بالإيمان بالله وحده**». قال: هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله** . . .»[٢]، قال: «إنما قصد إلى ذكر الأركان الأربع، التي هي: التوحيد، والصلاة، والزكاة، ثم ظهر أنهم أهل غزو وجهاد، فبين لهم وجوب أداء الخمس . . .»[٣].

فجعل التوحيد هو شهادة أن لا إله إلّا الله، وهو معنى التوحيد في الشرع.

[٣٥] أما ابن أبي جمرة[٤]؛ فقد ذكر أن التوحيد هو قول: لا إله إلّا الله، عند شرحه حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله . . .»، قال: «فيه دليل لقول من يقول بأن الكفار ليس[٥] مخاطبين بفروع الشريعة؛ لأنه ﷺ أخبر

= (١/ ١١٢) برقم (١٢١).

(١) المفهم (١/ ٣٢٨).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. الفتح (١/ ١٢٩) برقم (٥٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (١/ ٤٦) برقم (١٧).

(٣) المفهم (١/ ١٧٥).

(٤) هو عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة، الأزدي الأندلسي، أبو محمّد، من العلماء بالحديث، مالكي أصله من الأندلس، ووفاته بمصر. مؤلف مختصر البخاري، وشرحه بهجة النفوس، والمرائي الحسان في الحديث والرؤيا. مات سنة ٦٩٥هـ. انظر: نيل الابتهاج (٢١٦)، والأعلام (٤/ ٨٩).

(٥) كذا في الأصل، والصواب: ليسوا.

أن القتال إنما يكون على التوحيد دون الفروع، والتوحيد ما ذكر من قوله: لا إله إلّا الله»[١].

[٣٦] وذكر أنه لا بد من الإقرار بكلمة التوحيد وإعلانها، فقد ترجم للحديث بعنوان: «حديث قتال المشركين حتى يعلنوا بكلمة التوحيد». ثم قال عند رواية: «**حتى يقولوا: لا إله إلّا الله**»: «على مقتضى ما جئتُ به وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الجلال والكمال، ونفي الشريك والضد»[٢].

فنص على أن كلمة التوحيد هي الإقرار بـ «لا إله إلّا الله»، ولا بد من إعلانها، وهو معنى التوحيد في الشرع.

[٣٧] أما ابن جزي[٣]؛ فقد بين أن الرسل متفقة على التوحيد الذي هو: لاإله إلّا الله. فعند قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤] قال: «رد على المشركين، والمعنى: هذا الكتاب الذي معي، والكتب التي من قبلي ليس منها ما يقتضي الإشراك بالله، بل كلها متفقة على التوحيد».

[٣٨] ثم إنه أفصح عن التوحيد الذي جاءت به الرسل، فقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ١٣٢).

(٢) المرجع نفسه (٣/ ١٣٢).

(٣) هو أحمد بن محمّد بن عبدالله بن جزي الكلبي، ويكنى أبا جعفر، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، كان من أهل الفضل والنزاهة، من كتبه: القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، والتسهيل في علوم التنزيل، ووسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم، وغيرها. مات ٧٤١هـ. انظر: الدرر الكامنة (١/ ٢٩٤)، والديباج (١٥)، والأعلام (٥/ ٣٢٥).

٢٥]: «الآية رد على المشركين، والمعنى: أن كل رسول إنما أتى بلا إله إلّا الله»(١).

فنص على التوحيد الذي جاءت به الرسل؛ وهو لا إله إلّا الله.

[٣٩] وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] بقوله: «المقصود الأعظم من هذه الآية: الأمر بتوحيد الله، وترك ما عُبد من دونه، بقوله في آخرها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة: ٢٢]، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا: لا إله إلّا الله، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام الذي قاعدته التوحيد»(٢).

[٤٠] وأما الزرقاني(٣) فعند شرحه لحديث الجارية، وفيه قوله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلّا الله؟...»، قال: «وفيه أنه لا بد مع الشهادتين من الإقرار بالبعث... والمعنى: أنه لا يحكم بالإسلام إلّا بالإقرار بالشهادتين، وكذا الإقرار بالبعث»(٤).

[٤١] وذكر محمّد بن يحيى المختار(٥) عند حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس**

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٥٢ـ ٥٣). ط. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

(٢) التسهيل (١/ ٧٠).

(٣) هو محمّد بن عبدالباقي بن يوسف الأزهري المالكي، أبو عبدالله، خاتمة المحدثين بالديار المصرية. قال المرادي: الناسك النحرير الفقيه العلامة، من كتبه: تلخيص المقاصد الحسنة، وشرح البيقونية، وشرح موطأ الإمام مالك. مات سنة ١١٢٢هـ. انظر: سلك الدرر (٤/ ٣٢)، والأعلام (٦/ ١٨٤).

(٤) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/ ٨٦). ط. دار المعرفة ـ بيروت ١٤٠١هـ.

(٥) هو محمّد بن يحيى بن محمّد المختار بن الطالب بن عبدالله الشنقيطي الولاتي، عالم بالحديث من علماء المالكية، من كتبه: إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك، وفتح الودود على مراقي الصعود، وشرح البخاري. انظر: شجرة النور (٤٣٥)، والأعلام (٧/ ١٤٢).

حتى يقولوا: لا إله إلّا الله. . .» الحديث[١]: «أي: إلى أن يقرّوا لله تعالى بالوحدانية، أي: التفرد بالألوهية، ولمحمد ﷺ بالرسالة من عند الله تعالى»[٢].

ومراده أن الكف عن قتال الناس متوقف على الإقرار بالشهادتين، وهو معنى التوحيد، وكذا جعل معنى الوحدانية: الإقرار بإفراد الله بالعبادة.

[٤٢] وعرف محمّد الأمين الشنقيطي[٣] التوحيد، وحدّ ضابطه، فقال: «توحيده جلّ وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد: هو تحقيق معنى لا إله إلّا الله»[٤].

[٤٣] وعند قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، قال: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلّا الله، جاء موضّحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٤ .

(٢) نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح (٧٧٠). ط. دار عالم الكتب ـ الرياض.

(٣) هو العلامة محمّد الأمين بن المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، كان عالمًا عاملًا ورعًا، اعتنى بالتفسير، ولد وتعلم بشنقيط (موريتانيا)، ودرس بها، ثم حج في (١٣٦٧) واستقرّ مدرّسًا في المدينة المنورة، ثم الرياض، وأخيرًا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. من كتبه: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وغيرها. مات سنة ١٣٩٣هـ. انظر: مقدمة أضواء البيان (١/ ١٩ـ ٢١) بقلم عطية محمّد سالم، والأعلام (٦/ ٤٥).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٤١٠).

﴿رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته»[١].

فنص على أنّ التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلّا الله، وهو معنى التوحيد في الشرع.

[٤٤] وذكر ابن باديس[٢] عند قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]: أنّ «هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة، ولا تقبل الأعمال إلّا به، وما أرسل الله رسولًا إلّا داعياً إليه، ومذكّراً بحججه، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة: لا إله إلّا الله»[٣].

فذكر أن «لا إله إلّا الله» هي دعوة جميع الرسل، والرسل دعوا إلى عبادة الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا يبيّن المعنى الشرعي للتوحيد.

[٤٥] وبين محمّد المكي الناصري[٤] أن قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٤).

(٢) هو عبدالحميد بن محمّد بن المصطفى بن مكي بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، أصدر مجلة الشهاب، وكان شديد الحملات على الاستعمار، له تفسير القرآن الكريم، اشتغل به تدريسًا زهاء ١٤ عامًا، وعرف باسم مجالس التذكير. مات سنة ١٣٥٩هـ. انظر الأعلام (٣/ ٢٨٩).

(٣) تفسير ابن باديس (٦٢). ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان. ط. الأولى ١٤١٦هـ.

(٤) هو محمّد المكي الناصري، رئيس رابطة العلماء وعضو مجلس الوصاية، عضو الأكاديمية =

﴿إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] يشير إلى عقيدة التوحيد الخالص[١]، ففسر معنى الآية: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أنه التوحيد.

[٤٦] أما محمّد بن أحمد الشهير بميارة[٢]، فقد ذكر عند نظم ابن عاشر[٣] عن الشهادتين:

قواعد الإسلام خَمس واجبات ‏ ‏ ‏ ‏ وهي الشهادتان شرط الباقيات

«ولما كانت بقية القواعد الأربع المذكورة بعدها مبنيّةً عليها، ولا يصحّ شيء منها إلّا بعد وجودها، كما يصرح به في قوله بعد: وهي الشهادتان شرط الباقيات سماها: أم القواعد، أي: شرطاً شرعيًا لصحة بقية القواعد»[٤].

[٤٧] وعند كلامه على كلمة التوحيد قال: «وجعلها الشرع ترجمة على ما في

= الملكية بالمغرب، أسس حزب الوحدة المغربي وترأسه، ثم حله بعد أن أحرزت المغرب استقلالها. وكان خطيبًا لأكبر مساجد المغرب، وانتخب أمينًا عامًا لرابطة علماء المغرب، وله من الكتب: الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، والتيسير في أحاديث التفسير. انظر الأعلام (٢/ ١٤٥).

(١) التيسير في أحاديث التفسير (١/ ٩٩).

(٢) هو محمّد بن أحمد بن محمّد، أبو عبدالله، ميارة، فقيه مالكي، من أهل فاس، من كتبه: الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام، والدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين. مات سنة ١٠٧٢هـ. انظر الأعلام (٦/ ١١).

(٣) هو عبدالواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأندلسي، فقيه، له نظم، نشأ وتوفي في فاس، له تصانيف منها: المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، ومنظومة في فقه المالكية، وتنبيه الخلان في علم رسم القرآن، وفتح المنان في شرح مورد الظمآن. مات سنة ١٠٤٠هـ. انظر الأعلام (٤/ ١٧٥).

(٤) الدر الثمين والمورد المعين لميارة (/ ٢١). ط. دار الفكر.

القلب من الإسلام، ولم يقبل من أحد الإيمان إلّا بها»[١].

فبين معنى التوحيد؛ إذ به يحكم للناس بالإسلام.

[٤٨] وقال ابن الحاج[٢] بعد إيراده حديث: «لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله»: «فليلقنه كلمتي التوحيد برفق، وذلك بأن يقول: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله»[٣].

ففسّر كلمة التوحيد بأنه قول: لا إله إلّا الله، وهو المعنى الشرعي.

*****

(١) الدر الثمين والمورد المعين (١/ ٥١).

(٢) هو محمّد بن محمّد بن الحاج، أبو عبدالله العبدري، الفاسي، نزيل مصر، لزم الشيخ أبا محمّد بن أبي جمرة وانتفع بذلك، جمع كتابًا سماه: المدخل، قال عنه ابن حجر: «كثير الفوائد، كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر، وله: شموس الأنوار وكنوز الأسرار، وبلوغ القصد والمنى في خواص أسماء الله الحسنى. مات سنة ٧٣٧هـ. انظر: الدرر الكامنة (٤/ ٣٥٥)، والأعلام (٧/ ٣٥).

(٣) المدخل (٣/ ٢٢٩). ط. دار الفكر ١٤٠١هـ.

المبحث الثاني

معنى كلمة التوحيد

كلمة التوحيد هي أصل الدين وأساسه، وكلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة، والجنة والنار، وهي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام حتى نبينا محمّد ﷺ. وهي كلمة التقوى، والعروة الوثقى.

وقد تظاهرت النصوص من الكتاب والسنة لبيان معنى توحيد العبادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فلم يقروا بهذه الكلمة، وذلك لأنهم يعلمون معناها، إذ لو كان مجرد قول لا يلزم منه نبذ جميع المعبودات سوى الله ﷻ لقالوها، ولذا أخبر الله تعالى واصفاً حال المشركين بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فعلموا ما يراد من هذه الكلمة، فلم ينطقوا بها.

وجميع الأنبياء إنما دعوا لعبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقد ردّ قوم هود ما دعا إليه نبيهم هود بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، فعلموا ما أراد من دعوتهم، من ترك كل ما يعبده هؤلاء وآباؤهم من قبل، إلى عبادة الله وحده، وما ذاك إلّا أنهم علموا معنى كلمة التوحيد

وما يراد منها.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]. فبيّن الله تعالى أن الذي يعبد هؤلاء المشركون من دونه سبحانه ـ من الأصنام والأوثان ـ هو الباطل الذي يضمحل ويفنى، وأن عبادته ﷻ وحده هي الحق؛ لأن كل من دونه متذلل منقاد(١).

وقد تقدم معنى التوحيد في الشرع، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلّا الله.

وسيتم الكلام في هذا الفصل عن معنى «لا إله إلّا الله» عند المالكية، وقبل عرض أقوالهم أذكر معنى الألوهية في اللغة.

قال في ترتيب القاموس: فالألوهية لفظ منسوب إلى الإله، والإله كفعال بمعنى مألوه، وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متّخذه، فالإله ـ على هذا ـ هو المعبود(٢).

وهذا التفسير للإله بأنه المعبود هو الحق الذي جاء به الكتاب والسنة.

قال تعالى ـ حاكيا قول كفار قريش ـ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وهو الذي سار عليه بعض أئمة المالكية؛ يتضح ذلك من خلال عرض أقوالهم في بيان معنى «لا إله إلّا الله».

فقد جاء عن الإمام مالك أنه فسر الإله بالمعبود، فعند قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾:

[١] قال المخزومي: سمعت مالكاً يقول: «لا يرى شيئا إلّا عبده».

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٠/ ٢٢٣).

(٢) ترتيب القاموس المحيط (١/ ١٧٣). ط. دار الفكر، الطبعة الثالثة.

فهذا من مالك رحمه الله تفسير للإله بأنه المعبود[١].

يبين ذلك تفسير عكرمة للآية، حيث قال:

«أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه ويستحسنه، فإذا استحسن شيئاً وهويه اتخذه إلهاً»[٢].

وقال محمّد الأمين: «إيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية: أن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقا لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح»[٣].

فسمى الإله بالمعبود، وذكر أن هذا هو قول العلماء في تفسير الآية.

[٢] وأما أبو محمّد بن عبد البصري[٤] فقد بين أن الخلق يقرّون بربوبية الخالق، وإنما جحدوا معرفة توحيد العبادة، فقال: «الخلق يقرون بربوبيته، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به، على ألسنة السفراء...»[٥].

---

(١) القبس لابن العربي (٣/ ١٠٨١).

(٢) (١٠) تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٦-١٦٧). وقد قال ابن جرير في (١١/ ٢٦٢): أفرأيت ـ يا محمّد ـ من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق.

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٣٠).

(٤) هو القاسم بن عبد البصري، كان من العلماء الأجلاء على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس، انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في وقته علمًا وعملًا. قال المناوي: كان جوادًا سخيًا صوفيًا وفيًا. وكان يحظى بتقدير واحترام العلماء والمشايخ. مات سنة ٥٨٠هـ. انظر: طبقات المناوي الكبرى (١/ ٦٩٢)، والسهروردي حياته وتصوفه د. عائشة المناعي (٣٩).

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٥٠٩).

فقوله: «التوحيد الذي تعبدهم به» أي: أن يفردوه تعالى بالعبادة، وهو معنى «لا إله إلّا الله» في مثل قوله عن نوح وهود وصالح وشعيب: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

وهذا معنى «لا إله إلّا الله»، والذي ذكر الله عن سائر رسله في قوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

[٣] أما الباقلاني فقد سبق[١] ذكر تعريفه للتوحيد، وفيه: «... وإله واحد فرد معبود، على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾»[٢].

[٤] وقال ـ مبينا معنى التوحيد: «فليس معه إله سواه، ولا يستحق العبادة إلّا إياه، فلا شبيه له، ولا نظير. ونريد بذلك أن ليس معه من يستحق الإلهية سواه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ومعناه: لا إله إلّا الله»[٣].

فنص على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده، واستدل بهذه الآية التي يخبر الله تعالى فيها عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له، مما يظهر معنى «لا إله إلّا الله».

[٥] وأما ابن بطال فبين معنى «لا إله إلّا الله»، حيث قال: «فدعاهم الرسول إلى الإقرار بالوحدانية، وخلع ما دونه من الأوثان، فمن أقر منهم بذلك كان في الظاهر داخلًا في صبغة الإسلام...»[٤].

فقوله: «خلع ما دونه من الأوثان» تفسير للقسم الأول من كلمة التوحيد «لا

---

(١) انظر ص ٤٣.

(٢) الإنصاف للباقلاني (٢٣).

(٣) الإنصاف (٣٣-٣٤).

(٤) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٢١).

إله»، وقوله: «إلى الإقرار بالوحدانية» تفسير للقسم الثاني «إلّا الله».

[٦] أما ابن عبد البر فقد ذكر أن المعنى الصحيح المجتمع عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ . . .﴾: أنه المعبود من أهل السماء وأهل الأرض.

قال في رده على الجهمية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ . . .﴾ [الزخرف: ٨٤]: «فوجب حمل الآيات على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله: معبود من أهل الأرض».

قال: «وكذلك قال أهل العلم بالتفسير»(١).

[٧] وبعد أن ذكر أبو الوليد الباجي تعدُّد المعبودات بيّن أنّ محمدًا ﷺ فيما جاء به دعا إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه، فقال: «وعبدت المجوس نيرانها، والثنوية نورها وظلامها، والعرب أصنامها وأوثانها، وادعوا لله الصاحبة والأولاد، وجعلوا له الإشراك والأنداد، فابتعثه الله من خير الأمم، وهم بنو إسماعيل، وهم قريش . . . فقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان»(٢).

ثم ذكر أن جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد، إذ هو المعبود بحق.

يتضح ذلك من قوله: «ودعوهم إلى عبادة الرحمن»، وهو معنى «إلّا الله»، وما ذكره من تعدد المعبودات الباطلة تفسير «لا إله»، فالرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد.

---

(١) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (٢/ ١١).

(٢) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٨٠-٨١). ط. البحوث العلمية - الثانية ١٤٠٧هـ.

فظهر بذلك معنى كلمة التوحيد: لا إله إلّا الله.

[٨] وقال الطرطوشي: «فإذا قلت: لا إله إلّا الله، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته، مع الإقرار بأنه الإله وحده»[١].

فبين تحريم الشرك في عبادة الله، والإقرار بالله وحده، الذي يستحق العبادة وحده.

وهذا نص في أن معنى «لا إله إلّا الله» نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، يبيّن ذلك قوله:

[٩] «واعلم أنه إنما شرف لفظ التهليل على سائر الأذكار، لأنها كلمة كاملة كنهها نفي وإثبات، تتضمن نفي كل ما سوى الله إلهاً، وإثباته سبحانه إلهاً»[٢].

[١٠] وبين أيضاً أن الله ﷻ دعا لتوحيده وعبادته، فبعد إيراده قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، قال: «أي: أفردوه بالتوحيد».

[١١] ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] فقال: «ما يصنع بكم، وأي مقدار لكم لولا توحيدكم وعبادتكم لله تعالى»[٣].

فبين أهمية اقتران العبادة بالتوحيد، وهو معنى «لا إله إلّا الله»، أي: إفراد الله تعالى بالعبادة.

[١٢] وذكر قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١]، ثم قال: «أي: لا ندعو من دون الله تعالى ربًا ولا نعبده»[٤].

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٧٨).

(٢) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٩٦).

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (٣٦).

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٣٣).

ففي قوله ذلك توحيد الله تعالى، وإفراده سبحانه بالعبادة وحده، وهذا يبن عنايته واهتمامه رحمه الله ببيان هذا النوع من التوحيد، وإظهار معناه، إذ في قوله: «لا ندعو من دون الله ربًا» أي: لا نتخذ ربًا سوى الله نعبده، وإنما ندعو الله تعالى ونعبده وحده، وهذا معنى «لا إله إلّا الله».

[١٣] وأما ابن رشد، فقال رحمه الله: «وأنه أوجب على عباده أن يؤمنوا به وحده، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، لأنه قال في كتابه الذي أنزل على رسوله: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]»(١).

وما ذكره ظاهر في بيان أن معنى «لا إله إلّا الله»: الدعوة إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وهو ما أراده بقوله: «أن يؤمنوا به وحده».

[١٤] وقال ابن عطية - عند قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]: «أي المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق... وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منـزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله...»(٢).

[١٥] وعند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] قال: «هذا تعديد نعمة الله تعالى، الدالة على وحدانيته، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه من الأنداد»(٣).

[١٦] وعند قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾، قال: «في الآية نهي

---

(١) البيان والتحصيل (١/ ٢٥).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١١٨).

(٣) المحرر الوجيز (١٣/ ١٧١).

عن عبادة الأصنام والشياطين، وكل مدعو من دون الله تعالى»[١].

وهذا يبين أن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد وحده، وهو معنى التوحيد.

[١٧] وعند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ..﴾ [غافر: ١٢] بين أنه في حال توحيد الله تعالى ودعائه دون من سواه ـ من الآلهة والأنداد ـ تكفرون بذلك، أي: إذا أفرد الله تعالى بالدعاء والعبادة، وهذا يجلي معنى «لا إله إلّا الله».

قال: «معناه: بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد»[٢].

[١٨] وفسر العبادة بالتوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، قال: «معناه: وحدوه وخصوه بالعبادة»[٣].

[١٩] أما ابن العربي فقد فسر الإله أنه المعبود، وأن العبادة هي الحكمة التي خلق لأجلها الجن والإنس، فعند قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] قال: «هذه الآية هي أصل في التوحيد، ويتعلق بها مسائل، ومنها: بيان معنى الإله».

[٢٠] قال: «الإله: هو المعبود، وهي الفائدة التي خلق لأجلها الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»[٤].

[٢١] ثم بين استحقاق الله للعبودية، والتحذير من الشرك في عبادته، لانفراده

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٨٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥٥٠).

(٣) الحرر الوجيز (١/ ١٠٥).

(٤) قانون التأويل للقاضي ابن العربي (٣٠٠). ط. دار الغرب.

بالإلهية والربوبية والملك، فقال: «وفي قوله: ﴿إله واحد﴾، فوصف نفسه بالإلهية ما يقتضي استحقاق العبودية، فدل على أن صلاح التوحيد مرتبط بصلاح العبودية، وأن فسادها مرتبط بفسادها، والمعنى: أن العبادة مرتبطة بالتوحيد، فإن صلح قبلت العبادة، وإلا فلا».

وعند الآية نفسها قال: «وفيها: التحذير من الرياء في عبادته، والشرك به، لانفراده بالألوهية والربوبية والملك. . .»(١).

فبين رحمه الله انفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه المستحق لها، وحذر من الشرك في عبادته تعالى؛ لأن الله تعالى منفرد بها، وهو معنى «لا إله إلّا الله».

ولا يزال حديثه عن المسائل في هذه الآية، فقد ذكر أن المعبود هو الله وحده لا شريك له، الرحمن الرحيم.

[٢٢] وبين معنى النفي والإثبات في قول «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له»، فقال: «لا إله إلّا الله: نفي لكل إله سواه بجميع المعاني، وقوله: «وحده» تأكيد للنفي من كل وجه. «لا شريك له» إشارة إلى نفي أن يكون هو جعله معيناً أو ظهيراً»(٢).

ففي قوله: «نفي لكل إله سواه» يبينه تفسيره للإله بالمعبود فيما تقدم، فمعنى نفي الإله عنده: نفي المعبود سوى الله تعالى.

[٢٣] وأما القاضي عياض فعند شرحه لكلمة التوحيد التي تضمنها الأذان قال: «وصرح بإثبات الوحدانية والإلهية، ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه،

---

(١) ذكره المحقق عن ابن العربي في معرفة قانون التأويل (٥٠/ ب) - نسخة الإسكوريال (٢٩٧).
(٢) القبس (٢/ ٤٠٧).

وهذه عمدة الإيمان والتوحيد»[١].

فمراده بالإثبات: إثبات الوحدانية في قوله «إلّا الله»، ومراده بالنفي: نفي الإلهية عما سوى الله.

[٢٤] وأما القرافي فقد بين أنّ معنى النفي تقدير صفة مضمرة، فقال: «وليس المراد من النفي نفي المعبود كيف كان، لوجود المعبودين في الوجود، كالكواكب والأصنام، بل ثم صفة مضمرة؛ تقديره: لا معبود مستحق للعبادة إلّا الله، ومن لم يضمر هذه الصفة لزمه أن يكون تشهده كذباً»[٢].

فهذا التقدير الذي ذكره يبين عنايته واهتمامه ببيان معنى: لا إله إلّا الله[٣].

[٢٥] وذكر أيضا أن الله تعالى واحد في ذاته لا نظير له، ولا شريك، وأن العبادة حق الله تعالى، ولا يستحقها غيره سبحانه، فقال: «في ذكر مسائل في العقيدة بالله ﷻ: . . . وأنه واحد في ذاته لا نظير له، ولا شريك، ولا يستحق العبادة غيره سبحانه»[٤].

وما أجمله هنا في شأن العبادة، فصّله في موضع آخر، فقال: «الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالإجماع، فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها، والصوم على اختلاف رتبه في الفرض والنفل والنذر، فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى، وكذلك الحج ونحو ذلك، وكذلك الخلق والرزق والإماتة

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) نقله في مواهب الجليل (١/ ٤٣٩).

(٣) وتقدير الصفة المضمرة التي ذكرها هو الصواب، قال البقاعي: لا إله إلّا الله، أي: انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبودٌ بحق غير الملك الأعظم. فتح المجيد (٦٨).

(٤) الذخيرة للقرافي (١٣/ ٢٣٢).

والإحياء. . . فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى، وتوحده بهذه الأمور. . وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والألوهية. . »[(١)].

فما أجمل هذا البيان وأبدعه وأتمه لمعنى «لا إله إلّا الله»، أي: لا معبود بحق إلّا الله.

[٢٦] وذكر مثل هذا المعنى الصفتي[(٢)] في تفسير «لا إله إلّا الله» بقوله: «جملة (لا إله إلّا الله) خبر، ومعناه الحقيقي: لا معبود بحق إلّا الله، ويلزم من ذلك كونه مستغنياً عما عداه، ومفتقراً إليه كل ما سواه»[(٣)].

[٢٧] وبين أبو عبد الله القرطبي رحمه الله معنى «لا إله إلّا الله»: لا معبود إلّا الله، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، قال - عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] -: «قوله: لا إله إلّا هو: نفي وإثبات، أولها كفر، وآخرها إيمان، ومعناه: لا معبود إلّا الله»[(٤)].

[٢٨] وقال - عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] -: «﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: إلهكم وحدي. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: أفردوني بالعبادة»[(٥)].

[٢٩] وذكر أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له، فلا يعبد معه غيره، قال

(١) الفروق للقرافي (٣/ ٤٨). ط. دار الكتب العلمية.

(٢) هو يوسف بن إسماعيل الصفتي المصري المالكي، فقيه نحوي واعظ، تصانيفه: حاشية على الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية لابن تركي في الفقه، ونزهة الأرواح في بعض أوصاف الجنة دار الأفراح. مات سنة ١١٩٣هـ. انظر معجم المؤلفين (١٣/ ٢٧٤).

(٣) حاشية سنية وتحقيقات بهية (٦). ط. الحلبي ١٣٦٧هـ.

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ١٩١).

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ٣٣٨).

- عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] -: «﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: الذي لا شريك له»(١).

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] قال: «أي: لا تعبد معه غيره، فإنه لا إله إلّا هو، نفي لكل معبود، وإثبات لعبادته»(٢).

فما ذكره رحمه الله غاية في بيان معنى «لا إله إلّا الله»، حيث بين معنى النفي والإثبات، وأنه لا معبود إلّا الله وحده، الذي يجب أن يفرد بالعبادة.

[٣٠] وأما أبو العباس القرطبي رحمه الله، فقد بين معنى «لا إله إلّا الله»، وأنها تعني عبادة الله وحده دون ما سواه، قال - عند شرحه حديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله...**» -: «**قد روي من طرق، ففي بعضها**: «**شهادة أن لا إله إلّا الله**»، وفي بعضها: «**على أن تعبد الله وتكفر بما دونه**»(٣)، فالأولى نقل للفظ، والأخرى نقل بالمعنى، والأصل نقل اللفظ، وهو المتفق عليه»(٤).

فالرواية الثانية كالمفسرة للأولى، ومعناها ظاهر في بيان كلمة التوحيد.

[٣١] وقال في تعريفه للوتر: «إن الوتر يراد به التوحيد، فيكون المعنى: أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحد، ويجب التوحيد، أي: أن يوحد، ويعتقد انفراده

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٤).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، الفتح (١/ ٤٩) برقم (٨)، ومسلم في كتاب الإيمان بهذه الرواية أيضًا، وهي قوله ﷺ: «**على أن يعبد الله ويكفر بما دونه**» (١/ ٤٥) برقم (١٦) تحت باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام.

(٤) المفهم (١/ ١٦٩).

بالألوهية دون خلقه»[١].

[٣٢] وعند شرحه حديث: «**أنت إلهي، لا إله إلّا أنت**» قال: «أي: لا معبود غيرك، ولا معروف بهذه المعرفة سواك»[٢].

[٣٣] وقال في موضع آخر: «من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة؛ دخل الجنة»[٣].

[٣٤] وعند شرحه لحديث: «وجهت وجهي...»: «(حنيفا) أي: مائلاً عن جميع المعبودات سوى الله تعالى. (نسكي) أي: ما أتنسك به من القرب والعبادات»[٤].

[٣٥] وأما الشاطبي رحمه الله فقد ذكر أن الله ﷻ هو المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له في ذلك، قال - بعد إيراده قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ـ٣] -: «وما أشبه

---

(١) المفهم (٧/ ١٨).

(٢) المفهم (٢/ ٣٩٩).

(٣) المفهم (١/ ٢٩٠). والحديث خرجه مسلم عن ابن عباس فيما يقوله ﷺ في قيام الليل، ونصه: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلّا أنت**». **في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١/ ٥٣٢) رقم (٧٦٩)**. وخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق(، الفتح (١٣/ ٣٧١) برقم (٧٣٨٥).

(٤) المفهم (٢/ ٤٠٠).

ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى كلها دالة على أن المقصود التعبد لله، وإنما أوتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر: ٦٥]. ومثله سائر المواضع التي نص فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده...»[١].

والآية التي أورد نص في التوحيد، وقد فسّرها الشاطبي بما يدل على أن معنى «لا إله إلّا الله»: لا معبود بحق إلّا الله.

[٣٦] وأما ابن أبي جمرة الأندلسي فقد ذكر عند شرحه حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله...» أنه يفيد الإقرار بالوحدانية، ونفي الشريك.. قال: «يعني: على مقتضى ما جئت به، وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الخلال والكمال، ونفي الشريك والضدّ والصاحبة...»[٢].

[٣٧] وذكر أن حقيقة التوحيد هي عبادة الله تعالى وحده، وألا يشرك به شيئاً، فعند شرحه حديث معاذ ﷺ: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: **«يا معاذ!»**. قلت: لبيك وسعديك. ثم قال مثله ثلاثاً: **«هل تدري ما حق الله على عباده؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»**. ثم سار ساعةً فقال: **«يا معاذ!»**. قلت: لبيك وسعديك. قال: **«وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«حق العباد على الله أن لا**

---

(١) الموافقات (١/ ٥٥ ـ ٥٦). ط. دار المعرفة ـ بيروت، لبنان ١٤١٥هـ. ط. الأولى.

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٣٢). ط. دار الجيل ـ بيروت، لبنان. الطبعة الثالثة.

يعذّبهم»[١]. قال: «وأشار بقوله ﷺ: (أن يعبدوه) إلى امتثال الحكمة في الأمر بالنهي. . . وأشار بقوله: (ولا يشركوا به شيئاً) إلى حقيقة التوحيد»[٢].

وذكر أن كل ما يعبد من دون الله من جملة الطواغيت.

[٣٨] فعند حديث أبي هريرة ﷺ، ومنه: «**من كان يعبد شيئاً فليتبعه**»، قال: «ثم ذكر الشمس والقمر، ثم عمم بذكر الطواغيت دليل على أن كل ما يعبد من دون الله كائناً ما كان من جملة الطواغيت. . .»[٣].

فحقيقة التوحيد: هي عدم الشرك، وبطلان عبادة ما سوى الله، وهذا يدل على أن معنى «لا إله إلّا الله»: لا معبود بحق إلّا الله.

وذكر التتائي[٤] أن الله (هو المعبود المستحق للعبادة وحده.

[٣٩] قال ـ عند شرحه قول ابن أبي زيد في مقدمة رسالته في باب الوحدانية، وقوله: «وأن الله واحد» ـ: «إذ معناه: لا معبود يستحق العبادة غيره، ولا إله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل. (١٠/ ٤١٢ رقم ٥٩٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٣٤٣ رقم ٣٠).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٢١).

(٣) بهجة النفوس (٢/ ٢٣).

(٤) هو محمّد بن إبراهيم بن خليل التتائي الفقيه الفرضي، كان موصوفًا بدين وعفة وصيانة وفضل وتواضع، وهو من كبار القضاة في الديار المصرية، من كتبه: فتح الجليل - شرح به مختصر خليل في الفقه -، وتنوير المقالة في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وخطط السداد والرشد نظم مقدمة ابن رشد. مات سنة ٩٤٢هـ. انظر: نيل الابتهاج (٥٨٨)، وشجرة النور (٢٧٢)، والأعلام (٥/ ٣٠٢).

إلّا هو»(١).

وهذا نص في أن معنى «لا إله إلّا الله»: نفي شريك معبود معه ﷻ، ومن هنا قال ـ في شرحه للرسالة عند قوله: «لا إله غيره» ـ: «توكيد ومبالغة في ثبوت الوحدانية ونفي إله آخر، إذ صيغة الإثبات والنفي أبلغ في نفي الكمية المتصلة والمنفصلة»(٢).

[٤٠] وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] بقوله: «ودعاهم ﷺ إلى توحيد الله، وترك ما عبدوه من دونه، كالمسيح، والأحبار والرهبان»(٣).

فبين أن التوحيد هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهو معنى التوحيد.

[٤١] وعند قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] قال: «وهذا برهان على وحدانية الله تعالى، والضمير في قوله: ﴿فِيهِمَآ﴾ للسموات والأرض، و﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صفة للآلهة، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير.

فاقتضى الكلام أمرين:

أحدهما: نفي كثرة الآلهة، ووجوب أن يكون الإله واحداً.

الثاني: أن يكون ذلك الواحد هو الله دون غيره، ودل على ذلك قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾»(٤).

---

(١) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/ ١٥٣). تحقيق وتعليق وتخريج د. محمّد عايش عبدالعال، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.

(٢) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/ ١٥٤).

(٣) التسهيل (١/ ١٩٥).

(٤) ابن جزيّ ومنهجه في التفسير (١/ ٥٢١). ط. دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ. دمشق.

[٤٢] وأما الحطاب[١] فقد فسر الإله بالمعبود، قال: «والإله: المعبود»[٢].

ثم نقل قول القرافي السابق ذكره مقرًا له، المتضمن بيان النفي، وأنه ليس نفياً للمعبود كيف كان لوجود المعبودين، كالكواكب... بل ثم صفة مضمرة تقديرها: لا معبود مستحق للعبادة إلّا الله[٣].

وأورد أيضاً قول القرطبي أبي العباس المشتمل بيان مسائل العقيدة في الأذان، قال: «لأنه بدأ بالأكبرية، وهي وجود الله تعالى ووجوبه وكماله، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشريك»[٤].

وبذلك يتضح معنى التوحيد، إذ فسر الإله بالمعبود بحق، وأقرّ ما تضمنته الشهادة من التوحيد لله تعالى، ونفي الشريك، فظهر مراده من أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده، وبطلان عبادة ما سواه.

[٤٣] وسئل زروق[٥] عن معنى «لا إله إلّا الله»، فقال: «الإله أطلقته العرب

(١) هو محمّد بن محمّد بن عبدالرحمن الرعيني المغربي، أبو عبدالله، المعروف بالحطاب، كان متقنًا محصلًا نقادًا، عارفًا بالتفسير ووجوهه، فرضيًا. من كتبه: هداية السالك المحتاج ـ في مناسك الحج ـ، ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ست مجلدات في فقه المالكية، وشرح نظم نظائر رسالة القيرواني لابن غازي، وغيرها. مات سنة ٩٥٤هـ. انظر: نيل الابتهاج (٥٩٢)، والأعلام (٧/ ٥٨).

(٢) مواهب الجليل للمغربي (١/ ٤٣٩). ط. دار الفكر - الثانية، بيروت ١٣٩٨هـ.

(٣) انظر ص ٥٦ .

(٤) المفهم للقرطبي (٢/ ١٤)، ومواهب الجليل (١/ ٤٩٣).

(٥) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمّد بن عيسى الرفسي الفاسي، زروق، فقيه محدث، أخذ عن أئمة المشرق والمغرب، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، منها: شرح مختصر خليل، والنصيحة الكافية لمن خصة الله بالعافية، والقواعد في التصوف، =

على كل معبود بحق أو باطل، فجاء الشرع فنفى ما سواه، وهو: لا إله إلّا الله، أي: لا معبود بحق إلّا الله، لأنه لا مستحق للاتصاف بالكمالات سواه»[١].

وفي هذا القول نص صريح في أن معنى كلمة التوحيد: نفي المعبودات سوى الله تعالى، وإثبات العبادة له وحده دون شريك.

[٤٤] وبيّن التلمساني الفاسي[٢] معنى «لا إله إلّا الله»، فقال: «إنما يسلط النفي في كلمة الشهادة على كل ما يفرضه العقل من عدد كل إله معبود بالحق خاصة، لا على الآلهة المعبودة بباطل، إذ النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان. والمعبود بباطل لا عبرة بألوهيته، لأنه لا يستحق عبادة»[٣].

[٤٥] وفسر ابن عرضون[٤] قول التلمساني، فقال: «جواب المفتي صريح في أن النفي لا يتسلط على المعبود بباطل، فلا معنى للتردد في ذلك، وقد قال: لأن النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان، والذي لم يكن هو المعبود بحق غير مولانا جل وعز، فهذا هو المنفي الذي يتسلط النفي عليه.

= والجنة للمعتصم من البدع بالسنة، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وغيرها. مات سنة ٨٩٩هـ. انظر: شجرة النور (٢٦٧)، والأعلام (١/ ٩١).

(١) النوازل لأبي الحسن العلمي (٣/ ٢٩٧). ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٩هـ.

(٢) أبو عبدالله محمّد بن عبدالرحمن بن جلال التلمساني، مفتي فاس وشيخ الجماعة بها، فقيه عالم قدوة مفضال، مات سنة ٩٨١هـ. انظر شجرة النور (٢٨٥).

(٣) النوازل (٣/ ٢٩٥).

(٤) هو أحمد بن الحسن بن عرضون، أبو العباس، قاض من فقهاء المالكية، مغربي من أهل شفشاون، له كتب، منها: اللائق لعلم الوثائق ـ فقه ـ، وآداب الزواج وتربية الولدان. مات سنة ٩٩٢هـ. انظر الأعلام (١/ ١١٠).

وأما المعبود بباطل فها هو موجود، ولكن لا عبرة بألوهيته وبتسميته إلهاً، فإذا قلت: لا رجل في الدار إلّا زيد، فقد خبرت بنفي حقيقة الرجل من الدار غير زيد، ولو سمي القلم أو المعراض بالرجل، فلا ينتفي من الدار وجود القلم وإن سمي بالرجل»(١).

وكلام التلمساني وابن عرضون نحو من كلام زروق الذي مضى.

[٤٦] وقد أقر هذه الأقوال صاحب كتاب النوازل بإيراده هذه النقول عند بيانه معنى «لا إله إلّا الله».

[٤٧] وبنفس المعنى نقل ميارة قول ابن عاشر مقرًا له، فقال: «لا شك أنها مشتملة على نفي وإثبات، فالنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جل وعز، والمثبت من تلك الحقيقة فرد واحد، وهو مولانا جلّ وعزّ. وأتى بإلّا لقصد حقيقة الإله عليه ﷻ، بمعنى: أنه لا يحكم أن توجد تلك الحقيقة لغيره تعالى عقلًا ولا شرعاً...».

ثم ذكر أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة، فقال: «لا مستحق للعبودية له موجود أو في الوجود إلّا الفرد الذي هو خالق العالم جلّ وعزّ... وهو صريح في أن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدُّد المعبود بحق»(٢).

[٤٨] وقال أبو القاسم الفجيجي(٣):

---

(١) النوازل (٣/ ٢٩٥).

(٢) الدر الثمين والمورد المعين (١/ ٥٣). ط. الحلبي ـ مصر، ط. الأخيرة ١٣٧٣هـ.

(٣) هو أبو القاسم بن محمّد بن عبدالجبار الفجيجي، فقيه مغربي محدّث، تولى الإفتاء والقضاء، واشتغل بالتدريس، وامتاز بالشجاعة والفروسية واستعمال آلات الحرب ومباشرتها بنفسه، شارك في معركة وادي المخازن التي سحق فيها الجيش المغربي الجيش =

«ومـعـنـى لا إلـه إلّا الله جـل الـربّ نـعـم الـمـولـى
مـا فـي الـوجـود مـن إلـه يـعـبـد بـالـحـق إلّا الله فـرد صـمـد
وهـي رد خـطـأ الـمـعـتـقـد أن إلـه الـحـق ذو تـعـدد

فصرح أيضا بأن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدد المعبود بحق، وأما المعبود بباطل فلم يتعرض له، إذ هو موجود فلا يصح نفيه»(١).

[٤٩] وقد نظم هذا المعنى الأجهوري(٢)، فقال:

وكـلـمـة الـتـوحـيـد مـفـهـوماً تـفـيـد نـفـي الإلـه عـن سوى الله الـمـجـيـد
كـذاك لـلـسـبـكـي والـقـرافـي تـفـيـد بـالـمـنـطـوق ذا يـا وافـي
مـبـنـاه الاسـتـثـنـاء مـن الـنـفـي يـفـيـد ضـده لا الـسـكـوت عـنـه يـا رشـيـد
أي أن مـا اسـتـثـنـى فـيـه مـا حـصـل ضـد الـذي مـنـه الـثـنـي بـلا زلـل(٣)

[٥٠] وقال الهبطي(٤) في جواب له عن معنى «لا إله إلّا الله»: «اعلم ـ هداك الله

= البرتغالي، مات سنة ١٠١١هـ. انظر: أعلام المغرب العربي (٢/ ١٤٣)، وموسوعة أعلام المغرب (٣/ ١١٦٢).

(١) الدر الثمين (٥٤).

(٢) هو علي بن محمّد بن عبدالرحمن بن علي، أبو الإرشاد، نور الدين الأجهوري المصري المالكي، عالم أديب مشارك في الفقه والكلام والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والمنطق وغيرها، من كتبه: مواهب الجليل في تحرير ما حواه مختصر خليل، وشرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية، والنور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج، وشرح رسالة ابن أبي زيد، وغيرها. مات سنة ١٠٦٦هـ. انظر: معجم المؤلفين (٧/ ٢٠٧)، والأعلام (٥/ ١٣).

(٣) فضائل شهر رمضان للأجهوري (٢٤٦-٢٤٧). ط. دار القاضي عياض - القاهرة.

(٤) هو عبدالله بن محمّد الهبطي، أبو محمّد، من كبار الزهاد في المغرب، أصله من صنهاجة طنجة، ولما استولى السلطان محمّد الشيخ على ملك المغرب بفاس دعاه إليه ففاوضه في أمر =

للتحقيق، وسلك بك سواء الطريق ـ أنها على الجملة دون التفصيل، خبر عن نفي الألوهية عن غير الله، أي: عدمها في حق غيره عدم استحالة، بحيث لا تقبل الوجود بوجه ولا بحال[(١)]، والمقصود بإثباتها لله وجودها له...»[(٢)].

[٥١] وذكر النفراوي[(٣)] عند شرحه لجمل الأذان، وعند قوله: «أشهد أن لا إله إلّا الله...»: «قوله: أي أتحقق وأذعن أن لا معبود بحق سواه».

فبين أن معنى كلمة التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن هنا فسر الإخلاص الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] بقوله: «الإخلاص: إفراد المعبود بالعبادة»[(٤)].

[٥٢] وأما محمّد بن يحيى المختار، فقال - عند شرحه حديث ابن عمر: «بني

= الدين والأمة، وكان السلطان يطيعه ويجله، صنف كتبًا أكبرها: الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة، وله منظومة في فقه مالك، وأجوبة في مسائل من التوحيد. مات سنة ٩٦٣هـ. انظر الأعلام (٤/ ١٢٨).

(١) الصواب ما ذكره الله ﷻ من تسمية ما عُبد من دونه آلهة، قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾، والعرب أطلقوا الإله على كل معبود، فجاء الشرع بالكلمة العاصمة بنفي ما سوى الله إلهًا بحق، أي: لا معبود حق إلّا الله تعالى.

(٢) النوازل (٣/ ٢٩٨).

(٣) هو أحمد بن غنيم أو غانم بن سالم بن مهنا، شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي، فقيه من بلدة نفرى بمصر، وكان ذا علم وفضل وذكاء، له كتب، منها: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ورسالة في التعليق على البسملة. مات سنة ١١٢٦هـ، وقيل: ١١٢٠هـ. انظر: سلك الدرر (١/ ١٤٨)، والأعلام (١/ ١٩٢).

(٤) الفواكه الدواني (١/ ١٤٤).

الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله . . .»[١]ـ: «أي: لا إله معبود على الحق إلّا الله ﷻ»[٢].

وعند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] قال: «أي منقادون إلى العمل بمقتضى الشهادة، وهو اختصاص الله تعالى بالوحدانية والعبادة، وعدم إشراك شيء به . . .»[٣].

فما ذكره رحمه الله يجلي معنى التوحيد، وأن معناه عنده: لا معبود بحق إلّا الله.

[٥٣] وأما الميلي فقد فسّر الإله بالمعبود، قال: «فإذا كانت العبادة هي الانقياد والخضوع على وجه التقرّب، فإن الإله هو المعبود تلك العبادة، فمن قصرها على الله فقد وحّده، وعبد عبادة شرعية، ومن وجد هذا المعنى في نفسه لغير الله فقد اتخذ ذلك الغير إلهاً، وكانت عبادته شركية، سواء سماه إلهاً أم لم يسمّه إلهاً، وسواء عبّر عن المعنى الذي في نفسه بالعبادة أم عبر عنه بعبارة أخرى، فإن تسمية الشيء بغير اسمه لا يبطل حقيقته، ولا يغيّر حكمه»[٤].

[٥٤] وقال أيضاً: «يدخل المرء في الإسلام بقوله: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، ومعنى الجملة الأولى: أنه لا يعترف لغير الله بقوة غيبية تخضع لها روحه، فلا يخضع لسواه ولا يعبد إلّا إياه. ومعنى الجملة الثانية: أن لا يعبد بهواه، ولا بهوى

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٢.

(٢) نور الحق الصبيح (١/ ٤١). ط. دار عالم الكتب – الرياض.

(٣) نور الحق الصبيح (١/ ٣٥).

(٤) رسالة الشرك ومظاهره (٩٠) للميلي.

أحد من أهل المنزلة والجاه، وإنما يعبد بما جاء به الرسول.

فمحصل الجملتين: أن لا يعبد إلّا الله وأن لا يعبده إلّا بما شرعه على لسان رسوله. وعلى هذين الأصلين انبنى الإسلام»[١].

فبين أن العبادة حق الله تعالى وحده، وصرفها لغيره شركٌ، وهو معنى «لا إله إلّا الله».

[٥٥] وأكّد هذا المعنى بقوله: «وهذه أركان الإسلام الخمسة إنما شرعت ـ كسائر العبادات ـ للاحتفاظ بالتوحيد، والابتعاد عن الوثنية، فلم يكتف بالشهادتين بالتوحيد المجرد، حتى صرح بنفي التعدد، وحصر التشريع في شخص المرسل بالتبليغ.

ولم يقتصر في الصلاة على افتتاحها بالتكبير الذي فيه تعريض باطّراح الأوثان، حتى خللت به وكرّر فيها مخاطبة ربّ العالمين بإياك نعبد وإياك نستعين، وزكاة المرء شعار غناه، ودليل اعترافه للربّ بجليل نعماه، وأنه لا دخل فيها للأصنام وكل ما سواه.

والصوم يذر فيه الصائم شهوته وطعامه وشرابه من أجل مولاه، ويراقبه وهو صائم، ولو انفرد بمحل سكناه.

والحج فاتحة الإحرام المصحوب بالتلبية المتكررة في كل حال، وهي صريحة في حياطة التوحيد بنكران الشريك».

ثم نقل قول أبي إسحاق الشاطبي في الموافقات: «نحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة وغيرها من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله، والرجوع

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره (٣٢) للميلي.

إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح في الطاعة والانقياد»[(١)].

[٥٦] وأما ابن عاشور[(٢)] فقد بيّن معنى «لا إله إلّا الله» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ [البقرة: ١٦٣]، فقال: «والإله في كلام العرب هو المعبود، ولذلك تعددت الآلهة عندهم، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبدوه، وهو إطلاق ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله؛ لأن عبادة من لا يغني عن نفسه ولا عن عابده شيئاً عبث وغلط، فوصف الإله هنا بالواحد؛ لأنه في نفس الأمر هو المعبود بحق، فليس إطلاق الإله على المعبود بحق نقلًا في لغة الإسلام، ولكنه تحقيق للحقّ»[(٣)].

فبين بهذا الكلام المستقيم أن العبادة وإن صرفت لغير الله ظلماً وجهلًا، فإنها لا اعتداد بها، وإنما العبرة بعبادة المستحق، بأن يعبد وحده، وهذه هي حقيقة كلمة التوحيد.

[٥٧] وذكر أيضا أن ما ورد في القرآن من إطلاق لفظ (الآلهة) على أصنامهم فهو في مقام التغليظ لزعمهم، نحو: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]، قال: «والقرينة هو الجمع، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله

---

(١) رسالة الشرك (٢٠).

(٢) هو محمّد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: التحرير والتنوير ـ في تفسير القرآن ـ، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والوقف وآثاره في الإسلام، وموجز البلاغة. مات سنة ١٣٩٣هـ. انظر الأعلام (٦/ ١٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٧٤). ومراده: أن الشرع لم ينقل كلمة المعبود من حقيقتها اللغوية إلى حقيقة شرعية جديدة، كما هو الحال في (الوضوء)، (الصلاة)...، وإنما هي إحقاق للحق في هذه الكلمة (الإله)، وإطلاقها على المستحق لها وحده.

بالإفراد على المعبود بغير حق»[١].

[٥٨] وعند قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾ قال: «وفرع فيما أوحى إليهم أمره إياهم بعبادته على الإعلان بأن لا إله غيره، فكان استحقاق العبادة خاصًا به تعالى»[٢].

وعند قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال: «أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده»[٣].

وبهذا يتبيّن أن العبادة حق الله وحده، وهو معنى التوحيد.

[٥٩] وبيّن الشيخ محمّد بن الأمين رحمه الله معنى «لا إله إلّا الله»، فقال: «معناها: لا معبود بحقّ إلّا الله»[٤].

[٦٠] وقال في كلام كالشرح لهذا المعنى الموجز: «إن توحيد الألوهية هو معنى كلمة (لا إله إلّا الله)، وهي بلا شكّ متضمنة لجميع الشرائع»[٥].

[٦١] وقال: «إن الركن الأكبر ـ الذي هو توحيد الله بأنواعه، المستلزم إفراده بالعبادة وحده ـ هو منتهى التحرر من الرقّ والعبودية للمخلوقين، ومن جملتهم النفس والهوى والشيطان...»[٦].

[٦٢] وذكر أن التوحيد مبني على أصلين، هما: النفي والإثبات في «لا إله إلّا

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٠٨، ٦/ ٢٧٣)، ومعارج الصعود (١٤٣).

(٥) معارج الصعود (٤٠) للشيخ محمّد الأمين. ط. دار المجتمع، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

(٦) نهج التشريع الإسلامي للشنقيطي (١١). ط. الجامعة الإسلامية - ط. الأولى.

الله»، قال: «فهو مبني على أصلين، هما: النفي والإثبات في «لا إله إلّا الله»، فمعنى النفي منها: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها: هو إفراده جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرع أن يعبد به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]»(١).

وزاد المعنى السابق توضيحاً، حيث بيّن أن الدين الإسلامي قائم على هذه الكلمة، فقال ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]ـ: «إن حصر الوحي في آية الأنبياء هذه في توحيد العبادة حصر له في أصله الأعظم، الذي يرجع إليه جميع الفروع، لأن شرائع الأنبياء كلهم داخلة في ضمن معنى «لا إله إلّا الله»؛ لأن معناها: خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية»(٢).

فتفسير الشيخ رحمه الله لمعنى «لا إله إلّا الله» هو الصواب الذي سار عليه بعض علماء المالكية، كما ذكرت في هذا المبحث.

وفيه تبين مدى عناية أئمة المالكية وعلمائهم رحمهم الله تعالى بكلمة التوحيد، وبيان معناها عندهم، فـ «لا إله إلّا الله» معناها عندهم: لا معبود بحق إلّا الله تعالى، أو إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو الحق الذي تدل عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وسار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وسطّره أئمة المالكية، وذلك من خلال النصوص التي تم نقلها عنهم رحمهم الله تعالى في هذا المبحث.

---

(١) المعين والزاد ـ جمع سيد الأمين بن المامي الجكني (٦٥). ط. الأولى ١٣٩٦هـ.
(٢) أضواء البيان (٣/ ٨).

المبحث الثالث

شروط «لا إله إلا الله»

تحدث علماء المالكية عن شروط للشهادة، وأفردوها بالذكر مقترنة بأدلتها الكاشفة عنها، أذكرها فيما يلي بنصوص مختلفة لعلمائهم تكشف عن اهتمامهم بها. من ذلك أنهم تكلموا عن مسألة مهمة في هذا الباب:

وهي: ما إذا نطق غير المسلم بكلمة التوحيد، فينظر إن كان من أهل الأوثان والمشركين ومن لا يوحد، فإنه يقبل منه ذلك الإقرار بالتوحيد؛ لأنه لم يكن يقر به.

وإن كان من أهل الكتاب ممن يقرّ بالتوحيد، فلا يكتفى بعصمته بقوله: لا إله إلّا الله.

وقد بيّن الإمام مالك رحمه الله ذلك في كلامه على ثبوت حدّ الردّة، فلم يكتف رحمه الله بمجرد التشهد والإقرار بالنبي ﷺ، ومعرفة الفرائض، بل لا بد من ثبوت الإسلام عنده، وتطبيقه لشرائعه وأحكامه.

[١] قال ابن القاسم: «سمعت مالكاً يقول: لا يقتل على الارتداد إلّا من ثبت عليه أنه كان على الإسلام، يعرف ذلك منه طائعاً يصلّي، مقرًا بالإسلام»[١].

[٢] وذكر أصبغ أن ابن وهب قال بمثل ما قال مالك[٢].

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٣).

(٢) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٣).

[٣] وبين هذا المعنى ابن رشد بقوله: «وجه ما ذهب إليه ابن وهب ومالك فيما حكى ابن القاسم، من أنه لا يستتاب ولا يقتل حتى يصلي: اتباع ظاهر قول النبي ﷺ: «من بدّل دينه فاضربوا عنقه»؛ لأنه لا يستحق أحد التسمية بأنه على دين الإسلام إلّا بالتمادي على فعل شرائعه، من الصلاة والزكاة والصيام والحج، لقول النبي ﷺ: **«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا»**[١].

ومعنى قولهم: إن المحكوم له بالإسلام لا يكتفى في حقه بالتشهد للحكم بإسلامه حتى يحقق الناطق لها ما يترتب عليها من شرائع الإسلام الظاهرة، كالصلاة والزكاة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

[٤] ونقل ابن بطال عن المهلب[٢] قولًا على سبيل الإقرار أنه لا يعصم الدم والمال إلّا هذه الدعائم الخمس وإدامتها، فعند شرح حديث: **«بني الإسلام على خمس...»** قال ابن بطال: «قال المهلب: فهذه الخمس هي دعائم الإسلام، التي بها ثباته، وعليها اعتماده، وبإدامتها يعصم الدم والمال، ألا ترى قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم**

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) هو المهلب بن أحمد بن أبي صفرة أسيد بن عبدالله، الأسدي الأندلسي، مصنف شرح صحيح البخاري، كان أحد الأئمة الفصحاء الموصوفين بالذكاء، وله كلام في شرح الموطأ. مات بالأندلس عام ٤٣٥هـ. انظر: السير (١٧/ ٥٧٩)، وبغية الملتمس (٤٧١).

على الله»؟»(١).

[٥] وذكر ابن رشد أنه لا بد مع الإقرار بالتزام سائر قواعد الإسلام، قال - في معنى قوله: «حتى يقولوا: لا إله إلّا الله» -: «أي: حتى يسلموا، فيقولوا: لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ويلتزموا سائر قواعد الإسلام»(٢).

[٦] ولحظ هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله، فقال: «اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلّا الله، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحّد، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله: لا إله إلّا الله، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، ولذلك جاء في الحديث الآخر: **«وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»**(٣)»(٤).

[٧] وذكر ابن عبد البر أن الكافر إذا قال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، غير جادٍّ، فإن ذلك لا يدخله في الإسلام، قال: «وكل كافر قال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، لاعباً غير راغب في الإسلام، فإن ذلك لا يوجب عليه الدخول في الإسلام إذا أباه، وإنما يدخل في الإسلام الراغب الطائع غير المكره»(٥).

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٥٩).

(٢) البيان والتحصيل (١٧/ ٢٣٠).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله (١/ ٥١) برقم (٢١)، والبخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾. الفتح (١/ ٧٥) برقم (٢٥).

(٤) إكمال المعلم (١/ ٢٤٦).

(٥) الكافي لابن عبد البر (٢/ ١٠٩٣). مكتبة الرياض الحديثة، ط. الأولى ١٣٩٨هـ.

[٨] وبمثل ذلك ما نقله المواق[(١)] من: «أنّ نطق الكافر بالشهادتين، ووقف على شرائع الإسلام وحدوده، ثم التزمها إسلامه[(٢)]، وإن أبى من التزامها لم يقبل منه إسلامه، ولم يكره على التزامها، وترك على دينه، ولم يعدّ مرتدًّا»[(٣)].

[٩] وقال الصاوي[(٤)]: «ولا بد في تقرير الإسلام من الوقوف على الدعائم والتزامه الأحكام بعد نطقه بالشهادتين، فمن نطق بهما ثم رجع قبل أن يقف على الدعائم فلا يكون مرتدًّا»[(٥)].

[١٠] وقال الخرشي[(٦)]: «ولا يتقرر الإسلام إلّا بالنطق بالشهادتين مع التزام

(١) هو محمّد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدوي الغرناطي، أبو عبدالله المواق، فقيه كان عالم غرناطة وفقيهها وإمامها وصالحها، المتحلي بالوقار، وخاتمة علماء الأندلس الكبار، له: التاج والإكليل في شرح مختصر خليل، وسنن المهتدين في مقامات الدين. مات سنة ٨٩٧هـ. انظر: شجرة النور (٢٦٢)، ونيل الابتهاج (٢/ ٥٦١).

(٢) كذا في النص، والمعنى: حكم بإسلامه.

(٣) مواهب الجليل (٨/ ٣٧٠). دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٦هـ.

(٤) هو أحمد بن محمّد الخلوتي، الشهير بالصاوي، فقيه مالكي، نسبته إلى «حباء الحجر» في إقليم الغربية بمصر. من كتبه: حاشية تفسير الجلالين، وبلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير للشيخ أحمد الدردير، والفرائد السنية شرح همزية البوصيري. مات سنة ١٢٤١هـ. انظر الأعلام (١/ ٢٤٦).

(٥) بلغة السالك (٤/ ٢٢٤).

(٦) هو محمّد بن عبدالله الخرشي المالكي، أبو عبدالله، أول من تولى مشيخة الأزهر، كان فقيهًا فاضلًا ورعًا، متفق على فضله وحسن سيرته، من كتبه: الشرح الكبير على متن خليل - في فقه المالكية - ومنتهى الرغبة في حل ألفاظ النخبة لابن حجر في مصطلح الحديث، والفرائد السنية شرح المقدمة السنوسية في التوحيد. مات سنة ١١٠١هـ. انظر: سلك الدرر (٢/ ٦٢)، والأعلام (٦/ ٢٤٠).

أحكامهما»[١].

[١١ ـ ١٢] ونظيره ما ذكره الأزهري[٢] والدسوقي[٣].

وخلاصة القول: أن عصمة الدم والمال لا تتحقق إلّا بالتزام شرائع الإسلام وأحكامه من الكافر الكتابي، ولا يكتفى بالإقرار فقط، بل لا بد من أن يتبع ذلك العمل بشرائع الإسلام وأحكامه، فذكرهم تلك التفصيلات بما يدل على اهتمام هؤلاء الأئمة رحمهم الله بهذه الكلمة العظيمة، وما يلزم لها.

فإذا كان غير المسلم مطالباً بالعمل بمقتضى «لا إله إلّا الله» إذا أسلم ليقبل إسلامه، فلا شكّ ولا ريب أن المسلم الأصلي من باب أولى.

ومن هنا جاء الردّ من علماء المالكية رحمهم الله تعالى على من تمسّك بالأحاديث المطلقة في فضل «لا إله إلّا الله»، وبينوا أن «لا إله إلّا الله» لها مستلزمات وشروطًا، ولا بد من العمل بمقتضاها.

[١٣] وفي هذا يقول ابن القاسم: «قلنا لمالك: الإيمان قول وعمل، أو قول بلا عمل؟ قال مالك: بل قول وعمل»[٤].

---

(١) الخرشي على مختصر خليل (٨/ ٦٢).

(٢) انظر جواهر الإكليل (٢/ ٢٧٧).

(٣) انظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤/ ٣٠١).

(٤) البيان والتحصيل (١٨/ ٥٨٥).

الإيمان قول وعمل واعتقاد، وقد ورد هذا القول عن ابن مسعود، وحذيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وهو قول الثوري، والأوزاعي، والحسن، ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان بن عيينة، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وابن المبارك، والفضيل بن عياض، وابن أبي شيبة، وغيرهم من السلف. بل ذكر الحافظ أن اللالكائي روى في كتاب =

[١٤] وقال أشهب بن عبد العزيز ـ مبيّنًا قول مالك في كون العمل من الإيمان واستدلاله بما ورد في القرآن الكريم ـ: «قال مالك: أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أمروا بالبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس».

[١٥] قال مالك: «وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان»(١).

وقال أبو سلمة الخزاعي(٢): «قال مالك: الإيمان المعرفة والإقرار والعمل»(٣).

ففي كلام مالك في هذه النصوص بيان ثلاثة شروط:

أولها: علم الناطق بلا إله إلّا الله، ومعناها وهو ما أراد بالمعرفة.

والثاني: نطق لسانه بكلمة التوحيد، وهو مراده بالإقرار.

= السنة بسند صحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. [الشريعة للآجري (١١٨)، السنة للالكائي (٤/ ٨٤٨-٨٤٩)، التمهيد لابن عبدالبر (٩/ ٢٥٣)، حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١١٥)، مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٣٨٥)، فتح الباري (١/ ٤٧)]. وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٣-١٧٤).

وحكى الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء، كالشافعي، والبغوي، وابن عبدالبر. [شرح السنة للبغوي (١/ ٣٨-٣٩)، التمهيد (٩/ ٢٣٨)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٦٢)].

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٣).

(٢) منصور بن سلمة بن عبد العزيز، أبو سلمة الخزاعي، البغدادي، ثقة ثبت حافظ، ت ٢١٠هـ. التقريب (٥٤٧).

(٣) رواه الخلال في السنة (رقم ١٠٠٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٠٦ رقم ١٠٩٦)، واللالكائي في شرح السنة (٤/ ٨٤٨ رقم ١٥٨٧).

والثالث: العمل بمقتضى هذه الشهادة، وذلك بالائتمار بما أمر الله به فعلًا، وترك ما نهى عنه.

وأشار ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري إلى أن لا إله إلّا الله لا بد لها من حق وفرض، وذلك فيما نقله عن السلف، قال:

[١٦] «سأل هشام بن عبدالملك[١] الزهري[٢] فقال: حدثنا بحديث النبي ﷺ: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق**»[٣].

فقال الزهري: «أين يذهب بك يا أمير المؤمنين؟! إن كان هذا قبل الأمر والنهي»[٤].

وأورد أثر الحسن[٥]، قال: ذكر الطبري[٦] بسنده قال: قيل للحسن: من قال:

---

(١) هو هشام بن عبدالملك بن مروان، من ملوك الدولة الأموية في الشام، كان حسن السياسة، يقظًا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. مات سنة ١٢٥هـ. انظر: الأعلام (٨/ ٨٦)، والسير (٥/ ٣٥١).

(٢) هو أبو بكر محمّد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب الزهري، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة ﷺ، وروى عن جماعة من الأئمة. مات سنة ١٢٤هـ, وقيل: ١٢٣هـ. والله أعلم. انظر: السير (٥/ ٣٢٦)، ووفيات الأعيان (٤/ ١٧٧).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلّا الله. الفتح (٣/ ١٠٩) برقم (١٢٣٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار (١/ ٩٤) برقم (٩٤).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٢٠٨).

(٥) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، من سادات التابعين وكبرائهم، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. قال الذهبي: كان سيد أهل زمانه علمًا وعملًا. مات سنة ١١٠هـ. انظر: السير (٤/ ٥٦٣)، ووفيات الأعيان (٢/ ٦٩).

(٦) هو محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، أحمد أئمة العلماء ويرجع =

لا إله إلّا الله، دخل الجنة؟ فقال: «من قال: لا إله إلّا الله، فأدّى حقّها وفرضيتها؛ دخل الجنة»[١].

[١٧] وكذا أورد قول وهب بن منبه[٢]: «إن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك»[٣]، ثم قال: «فإنما أراد بالأسنان القواعد التي بني الإسلام عليها، التي هي كمال الإيمان ودعائمه»[٤].

[١٨] وعقّب ابن العربي على قول وهب بن منبه: «لا إله إلّا الله مفتاح له أسنان، إن جئت بالمفتاح بأسنانه فتح لك، وإلا لم يفتح» بقوله: «وقول وهب بن منبه صحيح، فإن الأسنان إذا كملت في المفتاح فتح من غير ريب، وإن زالت الأسنان أو بعضها كان الشك في حال الفتح والفاتح والمفتوح»[٥].

= إلى رأيه لمعرفته وفضله، وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عالمًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم. له تاريخ الأمم والملوك، وكتاب التفسير، وكتاب تهذيب الآثار، وغيرها. مات سنة ٣١٠هـ. انظر: تاريخ بغداد (٢/ ١٥٩)، وطبقات المفسرين (٢/ ١٠٦).

(١) أورده ابن سعد في الطبقات (٧/ ١٤٠)، والذهبي في السير (٤/ ٥٨٤).

(٢) هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار، أبو عبدالله الأنباري اليماني، تابعي ثقة، وكان على قضاء صنعاء. قيل: مكث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا. مات سنة ١١٤هـ، وقيل: ١١٣هـ. انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤٣)، والسير (٤/ ٥٤٤).

(٣) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلّا الله (٣/ ١٠٩) برقم (١٢٣٦)، ووصله في التاريخ، وأبو نعيم في الحلية.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ٢٣٧).

(٥) عارضة الأحوذي (١٠/ ١٠٥).

وذكر الشنقيطي[(١)] عند حديث عتبان[(٢)]: أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ أنكر على محمود بن الربيع ﷺ تحديثه بحديث عتبان لما يقتضيه ظاهره من أن النار محرمة على جميع الموحدين، وأحاديث الشفاعة دالة على أن بعضهم يعذب، قال: «ولكن للعلماء أجوبة عن ذلك؛ منها: أن ذلك فيمن قال الكلمة، وأدى حقها وفرضيتها، فيكون الامتثال والانتهاء مدرجين تحت الشهادتين»[(٣)].

وبعد هذا البيان االشافي من أئمة المالكية، نذكر أقوالهم في الشروط التي لا بد لقائل «لا إله إلّا الله» من تحقيقها، ومنها:

الشرط الأول: وجوب نطق اللسان مقروناً بتصديق القلب

[١٩] قال ابن العربي: «قال مالك ـ في الكافر يوجد عند الدرب فيقول جئتُ مستأمنًا أطلب الأمان ـ: هذه أمور مشكلة، وأرى أن يردّ إلى مأمنه ولا يُحكم له بحكم الإسلام؛ لأن الكفر قد ثبت له، فلا بد أن يظهر منه ما يدلّ على أن الاعتقاد

---

(١) هو محمّد الخضر بن عبدالله بن أحمد ابن مايابي الجكني الشنقيطي، مفتي المالكية بالمدينة المنورة، ولد وتفقه بشنقيط، وهاجر إلى المدينة فتولى الإفتاء بها، كان حافظًا لأغلب الكتب الستة، ومختصر خليل وشروحه وحواشيه، وموطأ مالك. من كتبه: كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا البخاري، وغيره. مات سنة ١٣٥٤هـ. انظر ترجمته في كوثر المعاني لابن أحمد الأمين (١/ ٧)، والأعلام (٦/ ١١٣).

(٢) الحديث عن عتبان: أن النبي ﷺ قال: **«إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلّا الله، يبتغي بذلك وجه الله ﷻ»**: أخرجه البخاري (١/ ٥١٨) برقم (٤٢٤) كتاب الصلاة، باب إذا دخل بيتا يصلي حيث يشاء، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (١/ ٤٥٥) برقم (٣٣).

(٣) كوثر المعاني الدراري للشنقيطي (٧/ ١١٢).

الفاسد قد تبدل باعتقاد صحيح، يدل عليه قوله، ولا يكفي فيه أن يقول: أنا مسلم، ولا أنا مؤمن، ولا أنا أصلي، حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقها، وحسابهم على الله**»(١).

فصرّح رحمه الله بشرط الإقرار.

[٢٠] قال ابن القاسم: «سمعت مالكاً يقول ـ في النصراني يصحب القوم، فيصلّي بهم أياماً، ثم يتبين لهم أمره ـ: إنهم يعيدون كل صلاتهم في الوقت وفي غيره.

قيل لمالك: أفيقتل بما أظهر من الإسلام عليه، ومن إخفاء الكفر؟ قال: لا أرى ذلك عليه»(٢).

وقد تقدّم قول مالك في النصراني يتشهد(٣)، ولا يكون التشهد إلّا بالنطق بكلمة التوحيد، وهنا لم يعتد مالك رحمه الله بإظهار الإسلام من هذا النصراني؛ لأنه لم يكن مقروناً بتصديق القلب، فأمرهم بإعادة الصلاة، فجمع بين النطق وتصديق القلب.

[٢١] ورأي سحنون في ذلك كمالك في إعادة الصلاة، إلّا أنه فرق من حيث القتل بين من يفعله خائفاً يداري عن نفسه وماله فلا سبيل عليه، أو يفعله وهو آمن(٤).

[٢٢] قال مالك في الرجل يقول: كفر بالله أو أشرك بالله ثم يحنث: «إنه ليس

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤٨٢). ط. دار المعرفة - بيروت، لبنان.

(٢) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) انظر قول مالك ص ٣٩ .

(٤) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٢٦-٤٢٧).

عليه كفارة، وليس بكافر ولا مشرك حتى يكون قلبه مضمرًا على الشرك والكفر، ويستغفر الله ولا يعد إلى شيء من ذلك، وبئس ما صنع!»[(١)].

فعلق الحكم بحصول الشرك والكفر على ما انعقد عليه القلب، وعليه فلا يحكم بالإسلام إلّا بالنطق المنعقد عليه القلب.

[٢٣] قال ابن أبي زيد القيرواني[(٢)] في خطبة رسالته: «باب ما تنطق به الألسنة، وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات ومن ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان: أن الله واحد لا إله غيره، ولا شبيه، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له...»[(٣)].

فقرن بين النطق باللسان والإيمان بالقلب لحصول الإسلام المعتدّ به.

[٢٤] وأما الباقلاني، فقد ذكر أن القلب هو محل التصديق، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، وجميعها متلازمة. قال:

«واعلم أن محل التصديق القلب، وهو أن يصدق القلب بأن الله واحد، وأن

---

(١) الموطأ (٢/ ٣٨٠).

(٢) هو الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمّد عبدالله بن أبي زيد القيرواني، المالكي، ويقال له: مالك الصغير، وكان أحد من برز في العلم والعمل، حاز رئاسة الدين والدنيا، ورُحل إليه من الأقطار، ونجُب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب، وملأ البلاد من تواليفه. من كتبه: النوادر والزيادات، واختصر المدونة، وكتاب الرسالة، وكتاب الثقة بالله والتوكل عليه، وكتاب إعجاز القرآن، وكتاب العتبية على الأبواب، ورسالة في التوحيد، وغيرها. مات سنة ٣٨٦هـ. انظر: السير (١٧/ ١٠)، وشجرة النور (١/ ٩٦).

(٣) رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٧). ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ط. الثالثة ١٤١٥هـ.

الرسول حق، وأن جميع ما جاء به الرسول حق، وما يوجد من اللسان ـ وهو الإقرار ـ، وما يوجد من الجوارح ـ وهو العمل ـ، فإنما ذلك عبارة عما في القلب ودليل عليه»[(١)].

[٢٥] وقال: «ونطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر»[(٢)].

[٢٦] وبين أن الإقرار بدون تصديق القلب لا ينفع في الآخرة، قال: «فلو أقرّ بلسانه، وعمل بأركانه، ولم يصدق بقلبه؛ نفعه ذلك في أحكام الدنيا، ولم ينفعه في الآخرة، وقد بين ذلك ﷺ حيث قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الإيمان في قلبه**»[(٣)(٤)].

وبيّن بطلان قول الكرامية[(٥)] والمرجئة[(٦)] في قولهم: إن الإيمان إقرار باللسان،

---

(١) الإنصاف للباقلاني (٥٥).

(٢) الإنصاف للباقلاني (٥٥-٥٦).

(٣) خرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٢١) برقم (١٩٧٧٦)، وأبو داود في كتاب الأدب، باب الغيبة برقم (٤٨٨٠)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٤١٨) برقم (٢١١٦٤). قال الأرناؤوط: إسناده حسن. المسند (٤/ ٤٢١).

(٤) الإنصاف (٥٥-٥٦).

(٥) هم أتباع محمّد بن كرام السجستاني المبتدع، اشتهر عنهم القول بأن الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب، فمن نطق بلسانه ولم يعترف بقلبه فهو مؤمن! وزعموا أنّ المنافقين كانوا مؤمنين بالحقيقة! ويرى بعض مصنفي كتب المقالات إدراجهم ضمن فرق المرجئة. انظر: عقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/ ٢٧٥)، ومنهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل (٤٤١).

(٦) المرجئة هم من يقول بالإرجاء، أي بمعنى التأخير، ومن ذلك قولهم عن الإيمان: إنه تصديق القلب! وبذلك لم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان، وكذا قولهم: إنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان! وهذا النوع من الإرجاء هو الذي بدّعه السلف. انظر: منهج الشهرستاني (٤٨١)، عقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/ ٢٧١)، وكتاب =

وإن كان مجرّداً!

[٢٧] فعند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] قال: «هذه الآية حجة على الكرامية ـ ومن وافقهم من المرجئة ـ في قولهم: إن الإيمان إقرار اللسان دون عقد القلب، وقد ردّ الله قولهم في موضع آخر من كتابه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولم يقل: كتب في ألسنتهم»[١].

[٢٨] ونقل ابن بطال قول شيخه المهلب: «الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان، الذي لا ينفع عند الله غيره، ألا ترى قول الله للأعراب الذين قالوا: آمنا بألسنتهم دون تصديق قلوبهم: ﴿قل لم تؤمنوا﴾، فنفى عنهم الإيمان لما عري من عقد القلب بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾»[٢].

فبين أن عقد القلب المصدق لإقرار اللسان هو المتعين، ولا ينفع عند الله غيره.

[٢٩] وعند شرحه حديث أنس ﷺ قال ﷺ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وفي قلبه وزن بُرّة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وفي قلبه وزن ذرّة من خير**»[٣] قال ابن بطال: «الأمة مجمعة على أن قول: لا إله إلّا الله، هو صريح الإيمان، والتصديق الذي شبه بالذرة عمل القلب أيضاً».

= القدرية والمرجئة نشأتها وأصولها وموقف السلف منها د. ناصر العقل (٧٨).

(١) الإنصاف: ٥٦.

(٢) شرح صحيح البخاري (١/ ٨٠).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/ ١٠٣) برقم (٤٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/ ١٨٢) برقم (١٩٣).

وأكّد هذا المعنى بما نقله عن بعض العلماء :

«يحتمل أن تكون الذرة والشعيرة والبرة التي في القلب كلها من التصديق، لأن قول : «لا إله إلّا الله» باللسان لا يتم إلّا بتصديق القلب»(١) .

وهذا يجلي شرط الإقرار بلا إله إلّا الله، وهو تصديق القلب.

[٣٠] وفي باب : ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، علق على هذا الباب قائلًا : «غرضه في هذا الباب الرد على من زعم من المرجئة أن الإيمان قول باللسان دون عقد القلب، ألا ترى أنه ﷺ لم يقتصر على قوله : **«الأعمال بالنيات»** حتى أكد ذلك ببيان آخر، فقال : **«من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . . .»** الحديث(٢) .

[٣١] وقال مبطلًا قول المرجئة في الإيمان : إنه الإقرار باللسان دون عقد القلب : «من أقوى ما يرد به عليهم : إجماع الأمة على إكفار المنافقين، وإن كانوا قد أظهروا الشهادتين. قال تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة : ٨٤]»(٣) .

فما ذكره رحمه الله يبين ما يلزم من قال : لا إله إلّا الله، من عقد القلب عليها، وأنه الذي ينفع عند الله ﷻ.

[٣٢] وذكر ابن عبد البر أن النية لا تكفي للدخول في الإسلام، بل لا بد أن تقترن بكلمة التوحيد.

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١٢٠).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٨٠-٨١).

فبعد إيراده قول ابن القاسم إجازته للكافر أن يغتسل قبل إظهار الشهادة بلسانه إذا اعتقد الإسلام بقلبه، قال: «وهو قول ضعيف في النظر، مخالف للأثر، وذلك أن أحداً لا يكون بالنية مسلماً دون القول، حتى يلفظ شهادة الإيمان وكلمة الإسلام، ويكون قلبه مصدقا للسانه في ذلك، فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد شهادة الحق، فكذلك لا يكون متطهّراً ولا مصلياً حتى ينطق بالشهادة، وإنما تعتقده الأفئدة من الإسلام والإيمان ما تنطق به الألسنة، والإيمان عندنا الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، وإنما بعث رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى أن يقولوا: لا إله إلّا الله، وقال ﷺ: **«من قال: لا إله إلّا الله، صادقاً من قلبه دخل الجنة»**[1]، وقال للسوداء: **«أتشهدين أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله؟»**. والآثار بهذا المعنى كثيرة جدًا، وهذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان: أنه قول باللسان، وتصديق بالقلب، ويزكو بالعمل. قال الله ﷻ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»[2].

[٣٣] وذكر ابن رشد أن مجرد قول القائل: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له» باللسان دون اعتقاد في القلب لا يحقق الإيمان، قال: «فمن قال بلسانه: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، ولم يعتقد تصديق ذلك بقلبه، فليس بمؤمن»[3].

[٣٤] وردّ المازري احتجاج غلاة المرجئة بحديث ابن الدخشم، ومنه قول

---

(١) نص الحديث المخرج في الصحيحين عن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلّا حرّمه الله على النار»**. البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١/ ٢٢٦) برقم (١٢٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٦١) برقم (٣٢).

(٢) الكافي (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٣) البيان والتحصيل (١٨/ ٥٨٦).

النبي ﷺ: «**أليس يشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله؟**». فقالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه! فقال ﷺ: «**لا يشهد أحد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله فيدخل النار**»[١].

وقالوا: إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب، فقال رحمه الله: «معناه: أنه لم يصح عن النبي ﷺ ما حكوا عنه، من أن ذلك ليس في قلبه، والحجة في قول النبي ﷺ، وهو لم يقل ذلك ولم يشهد به عليه»[٢].

[٣٥] وقال أيضا: «وقد قيد في حديث آخر بقوله: «غير شاكّ فيهما»[٣]، وهذا أيضاً يؤكد ما قلناه»[٤].

فرده رحمه الله على المرجئة في ذلك يبين اهتمامه الشديد في بيان ما يلزم قائل لا إله إلّا الله، من التصديق القلبي، وأنها لا تنفع بدونه.

[٣٦] وقال ـ عند شرحه حديث: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله...»[٥] ـ: «وفسّر مجرّد الإيمان الذي هو التصديق، والذي محله القلب، وفسّر الإسلام الذي هو العمل الظاهر من شهادة اللسان، وأعمال البدن، والذي بمجموعهما يتم الإيمان والإسلام، إذ إقرار القلب وتصديقه دون نطق اللسان

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٦١) برقم (٣٣).

(٢) المعلم بفوائد مسلم (١/ ١٩٦). ط. دار الغرب الإسلامي - ط. الثانية ١٩٩٢م.

(٣) هذه الرواية من حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم في كتاب الإيمان (١/ ٥٥-٥٧) برقم (٢٧).

(٤) المعلم بفوائد مسلم (١/ ١٩٤).

(٥) خرجه الشيخان. وهو عند مسلم بهذا اللفظ في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦) برقم (٨). وخرجه البخاري بلفظ آخر في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ١١٤) برقم (٤٩).

لا ينجي من النار، ولا يستحقّ صاحبه اسم الإيمان في الشرع، وإذ[١] نطق اللسان دون إقرار القلب وتصديقه لا يغني شيئاً، ولا يسمّى صاحبه مؤمناً، وهو االنفاق والزندقة، وإنما يستحقّ هذا الاسم من جمعهما»[٢].

[٣٧] وعقّب على قول المازري في استدلاله برواية ابن الدخشم في الردّ على غلاة المرجئة القائلين: إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب! بقوله: «وقد ورد في الحديث من رواية البخاري: «ألا تراه قال: لا إله إلّا الله، يبتغي بها وجه الله؟»[٣]. فهذه الزيادة تخرس غلاة المرجئة»[٤].

[٣٨] وأما أبو عبدالله القرطبي فقد ذكر أن من أقرّ بلسانه وكفر بقلبه فهو منافق، فقال عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]: «هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر، أي: أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب»[٥].

والمعنى: أنه لا بدّ مع الإقرار باللسان من تصديق القلب، وإلا فلا إيمان.

وذكر القرطبي أبو العباس أن التلفظ بالشهادتين دون استيقان القلب لا ينفع في الإيمان، وأبطل قول غلاة المرجئة في ذلك.

---

(١) كذا في النص، ولعل الواو زائدة كي يستقيم المعنى.

(٢) إكمال المعلم (١/ ٢٠٣).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المساجد في البيوت (١/ ٥١٩) برقم (٤٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (١/ ٤٥٥-٤٥٦) عن عتبان بن مالك (برقم (٣٣).

(٤) إكمال المعلم (١/ ٢٦٧).

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٤).

[٣٩] ففي تلخيص مسلم عند باب: لا يكفي مجرّد التلفّظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب، قال: «هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين: إن التلفّظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان! وأحاديث هذا الباب تدلّ على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهذا باطل قطعاً»(١).

[٤٠] وفي كلامه عن أول الواجبات قال: «**هو التلفّظ بكلمتي الشهادة مصدّقاً بها**».

[٤١] وقال: «وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان»(٢).

فقيّد التلفّظ بكلمتي الشهادة بالتصديق القلبي، وهو غاية في الوضوح في اشتراط التصديق القلبي لمن قال: لا إله إلّا الله.

[٤٢] وعند شرحه حديث معاذ: «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلّا حرّمه الله على النار**»(٣)، قال: «وقد زاد البخاري قيد: «صدقاً من قلبه»، وهي زيادة حسنة تنصّ على صحة ما تضمّنته الترجمة المتقدّمة... وعلى فساد مذهب المرجئة»(٤).

[٤٣] وقال ابن أبي جمرة - عند حديث أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد**

---

(١) المفهم (١/ ٢٠٤).

(٢) المفهم (١/ ١٨٢).

(٣) سبق تخريجه ص ٧٥.

(٤) المفهم (١/ ٢٠٨).

الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من قلبه ـ أو نفسه ـ»[١]: «فيه دليل على أن من اعتقد الإيمان دون النطق به لا يسعد به، ولن تناله هذه الشفاعة الخاصة؛ لأنه ﷺ شرط في ذلك التلفّظ، والشرط إذا عدم عدم المشروط»[٢].

[٤٤] وأما التتائي فقال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، في باب تعريف الإيمان: الإيمان بالقلب والنطق باللسان: «واعتبر النطق باللسان لأنه إما شرط في الإيمان أو شطر منه...»[٣].

ثم نقل قول الجمهور: لو آمن بقلبه ولم ينطق بلسانه فكافر.

ونقل قول القاضي عياض المتقدّم في اشتراط النطق والاعتقاد لتحقق الإيمان[٤]. مما يظهر اشتراطه لقائل: لا إله إلّا الله، من اليقين القلبي، فإذا كان النطق شرطاً في الإيمان، فينتفي المشروط بعدم الشرط، ولو كان شطرًا له فواضح.

[٤٥] ونقل الونشريسي عن جمهور الأئمة والعلماء كفر من اعتقد الإسلام بقلبه ولم ينطق بلسانه، فقال: «جمهور الأئمة والعلماء من المسلمين قد قالوا: إن الإنسان إذا اعتقد الإسلام بقلبه، ولم يظهره بنطق لسانه بالشهادتين، فإنه لا يخلصه

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الحرص على الحديث (١/ ١٩٣) برقم (٩٩).

(٢) بهجة النفوس (١/ ١٣٧).

(٣) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/ ١٤٩). وشطر الشيء: نصفه، أو جزؤه. قيل في المثل: احلب حلبًا لك شطره. وجمعه أشطر. ويقال: شاطرتُ فلانًا مالي: إذا ناصفته. انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٦٩٧).
والصواب أنّ النطق شرط، كما ذكره القاضي عياض. انظر ص٩٥ .

(٤) تنوير المقالة في حلّ ألفاظ الرسالة (١/ ١٥٠).

عند الله، ولا يحكم له بحكم الإسلام»(١).

[٤٦] وأما ميارة فقد بيّن أن النطق بكلمة التوحيد تظهر ما في القلب من الإيمان، قال: «جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام. . . إلى أن قال: فاختار لأمته عليه الصلاة والسلام في ترجمة الإيمان هذه الكلمة المشرّفة السهلة نطقاً وذكراً، الكثيرة الفوائد علماً وحسًّا، فما تعبوا فيه من تعلم عقائد الإيمان الكثيرة والمفصلة جمع لهم ذلك كله في حرز هذه الكلمة المنيع، وتمكنوا من ذكر عقائد الإيمان كلها بذكر واحد خفيف على اللسان، ثقيل في الميزان»(٢).

فجعل رحمه الله النطق بكلمة التوحيد ترجماناً لما في القلب من الإيمان، وهذا ظاهر في اشتراط الإيمان في القلب لمن نطق بالتوحيد.

[٤٧] وبيّن النفراوي أهمية اقتران النطق بالتصديق القلبي، قال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: «فمن أقرّ بلسانه ولم يصدّق بقلبه يقال له: منافق وزنديق»(٣).

والمعنى أن إقرار اللسان ينبني على التصديق الحاصل في القلب، وإلا فلا ينفعه عند الله.

[٤٨] وقال الغلاوي(٤) وهو يتكلم عن التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين: «ولا

---

(١) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي (٢/ ١٩٠). إشراف د. محمّد حجي. ط. دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤٠١هـ.

(٢) الدر الثمين والمورد المعين (١/ ٥٠).

(٣) الفواكه الدواني (١/ ٤٥).

(٤) هو محمّد عبدالله بن البشير الغلاوي، قال نجل حفيده محمّد الأمين السالك: كان من الزهاد، من كتبه: فرض العين، وميراث فرض العين، وله نظم يسمى تقديس القدوس عدد =

تكفي النية بهما في دخول الإسلام، بل يشترط النطق فيه بشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله»[١].

[٤٩] وذكر محمّد المختار أن التصديق يكون بالقلب واللسان معاً، قال في شرحه للبخاري - عند قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ -: «أي: لا دين مرضيّ عند الله إلّا الإسلام، وهو التصديق بوحدانية الله تعالى، ورسالة نبيّه (بالقلب واللسان معاً)».

ونقل قول القسطلاني[٢] مقرًا له عند شرحه حديث سعد بن أبي وقّاص ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس...[٣].

= أبياته ١٠٢ صدّره بقوله: صلى الإله على المختار سيدنا هو الشفيع غدًا في سائر الأمم مات سنة ١٢٩٣هـ. انظر ترجمته في مقدمة فرض العين لنجل حفيده محمّد الأمين السالك (٨).

(١) فرض العين (٢٧). ط. الأولى - دبي ١٤١٩هـ. دار القلم للنشر والتوزيع.

(٢) هو أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني العتيبي المصري، أبو العباس شهاب الدين، من علماء الحديث، له: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، والمواهب اللدنية في المنح المحمدية - في السيرة النبوية -، ولطائف الإشارات في علم القراءات، وغيرها. مات سنة ٩٢٣هـ. انظر: البدر الطالع (١/ ١٠٢)، والضوء اللامع (٢/ ١٠٣).

(٣) والحديث خرجه البخاري: عن سعد بن أبي وقاص؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلًا هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله! ما لك عن فلان؟ فوالله إنّي لأراه مؤمناً. فقال: أو مسلماً. فسكتُّ قليلًا ثم غلبني ما أعلم عنه فعدت لمقالتي، فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إنّي لأراه مؤمناً. فقال: أو مسلماً. ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ. ثم قال: «يا سعد! إنّي لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه، خشية أن يكبّه الله في النار». كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة كان على الاستسلام أو الخوف من القتل (١/ ٧٩) برقم (٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١/ ١٣٢) برقم (١٥٠).

[٥٠] «وفيه دليل على أن الإقرار باللسان لا ينفع إلّا إذا اقترن به الاعتقاد بالقلب، وعليه الإجماع»[(١)].

فبيّن أنه لا بد من الإقرار المقترن بالاعتقاد في القلب، وإلا لم ينفع صاحبه.

[٥١] وذكر ابن العربي أن الإيمان لا يصح إلّا بقول: لا إله إلّا الله، قال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]ـ: «وفرعون لم يقبل منه ما قال؛ لأنه عدل عن لفظ: لا إله إلّا الله[(٢)]، وهو لفظ مخصوص بالإيمان، لا يجوز غيره»[(٣)].

[٥٢] قال الشيخ عثمان بن فودي[(٤)]: «وقد انعقد الإجماع على أن من أقرّ بالشهادتين جرت عليه الأحكام الإسلامية، فيناكح، ويؤمّ، وتؤكل ذبيحته، ويرثه المسلمون ويرثهم، ويدفن في مقابرهم»[(٥)].

فبيّن أهمية الإقرار بالشهادتين، وبه يحكم بالإسلام.

---

(١) نور الحقّ الصبيح (١/ ٨١).

(٢) ما ذكره ابن العربي يبيّن أن الحكم بالإسلام متوقّف على النطق بالشهادة، وإلا ففرعون قال ما قال وقت الغرغرة، والذي لا تقبل منه التوبة كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار...﴾، فلو نطق بالشهادة لم تقبل منه في هذا الوقت.

(٣) عارضة الأحوذي (١١/ ٢٧١).

(٤) هو عثمان بن فودي النيجيري، عالم فاضل، مالكي المذهب، صاحب دعوة، قال البهي: هو مؤسس النهضة الحالية في إفريقيا الغربية. مات سنة ١٢٣٢هـ. انظر مقدمة كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة.

(٥) إحياء السنة وإخماد البدعة (٧٤). ط. المؤتمر العالمي الرابع للسيرة النبوية بالأزهر ١٤٠٦هـ. ط. الثانية.

[٥٣] وذكر محمّد حبيب الله الجكني[(١)] «تصريح الفقهاء بأن الكافر الأصلي إن أبى أن يصرح بالشهادتين لا يزال كافراً حتى ينطق بالشهادتين، قال في المراصد:

فإن يكن والنطق منه ما اتفق ... فإن يكن عجزاً يكن كمن نطق
وإن يكن ذلك عن إباء ... فحكمه الكفر بلا امتراء

فالتصميم القلبي دون نطق بالشهادتين لا يكفي الإسلام، إذ النطق شرط فيه، فلا تجري عليه أحكامه الظاهرة، وكذا لا ينفعه في الباطن إن أظهر خلافه، كأبي طالب، إلّا إذا كان عاجزاً عن النطق مع قيام القرائن على أنه أذعن بقلبه، قد أشار خليل في مختصره لذلك بقوله: لا الإسلام إلّا لعجز»[(٢)].

[٥٤] وبيّن الشيخ محمّد الأمين الشنقيطي رحمه الله أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد، فقال: «إن الحق الذي لا شكّ فيه، الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد، وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها حديث وفد عبدالقيس المشهور، ومنها حديث: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً**...» الحديث[(٣)]، فسمّى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة - وفي بعض رواياته: بضع وستّون شعبة - أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن**

(١) هو محمّد حبيب الله بن عبدالله بن أحمد مايابي الجكني الشيقيطي، عالم بالحديث، ولد وتعلم بشنقيط، واستقرّ بالقاهرة معلّمًا في الأزهر، من كتبه: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، ودليل السالك إلى موطأ مالك، وغيرهما. مات سنة ١٣٦٣هـ. انظر الأعلام (٦/ ٧٩).

(٢) فتح المنعم (٢/ ٨-٩).

(٣) خرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤).

الطريق»[١]»[٢].

[٥٥] وقال أيضاً في موضع آخر: «إن مسمّى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي الصحيح: هو استسلام القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل»[٣].

فكلام الشيخ يؤكد ما كان عليه السلف رحمهم الله في بيان الإيمان الشرعي، وأنه القول والاعتقاد والعمل، ولا يكفي الإتيان بواحد دون الآخر، بل لا بد منها جميعاً.

وعليه فلا بد لمن قال: لا إله إلّا الله، من الاعتقاد الجازم بها.

وبذلك يظهر مدى اهتمام الأئمة من المالكية بهذا الشرط، حيث بيّنوا أن النطق باللسان لا بدّ أن يقترن به الاعتقاد القلبي، وذلك يتضح من خلال النصوص المنقولة عنهم في هذا المبحث.

الشرط الثاني: العلم بمعنى كلمة التوحيد

وقد اعتنى مالك بهذا الشرط، وبيّن أنه لا بدّ في عتق الكفارات والظهار ـ بعد اشتراط الإيمان ـ من عقل الإسلام.

فبعد اشتراط مالك الإيمان في كفارات العتق والظهار سئل عن الصبي والجارية الصغيرة، فقال:

---

(١) خرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٣)، إلّا أن فيه: «أفضلها» بدل «أعلاها».

(٢) أضواء البيان (٧/ ٢٠١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٣٦ و ٦/ ٤٤٠ و ٧/ ٢٧٩).

[٥٦] «وأحبّ إليّ أن يعتق من صلّى وصام»[١].

[٥٧] وبيّن ابن القاسم معنى قول مالك: «صلى وصام»، فقال: «فمعنى قوله: من صلى وصام، أي: من قد عقل الإسلام؛ الصلاة والصيام»[٢].

وفي رواية أخرى: «إن كان كبيراً يعقل الإسلام، ويعرف ما أجاب إليه»[٣].

ومما يبيّن هذا المعنى عند مالك ويوضحه: تفضيله في العتق من صلى وصام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام، ومعنى ذلك: أن مالكاً رحمه الله قدّم من صلى وصام وعقل الإسلام، وعرف معناه على الأعجمي الذي لا يعرف معنى ما أجاب إليه.

[٥٨] قال ابن القاسم: «وسألت مالكاً عن الأعجمي يشتريه فيعتقه عن ظهاره، قال: نعم؛ إن كان من ضيق النفقة فأرجو أن يجزئ عنه. وقال أيضاً: ومن صلّى وصام أحبّ إليّ من أعجمي قد أجاب إلى الإسلام»[٤].

ومعلوم أن من أعظم ما يجب معرفة معناه: الشهادتين، إذ بهما يدخل في التوحيد، ويقرّ بالرسالة، ويعلم ما يلزم من ذلك، وهذا ظاهر من تقديم مالك رحمه الله في الكفارات من عقل الإسلام، وتفضيل من صلى وصام وعقل الإسلام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام.

[٥٩] ومن ذلك أيضاً في اشتراطه عقل الدين والعلم به ما ذكره ابن القاسم

---

(١) المدونة (٣/ ٧٥). ط. دار صادر.

(٢) المدونة (٣/ ١٧٥).

(٣) المدونة (١/ ١٧٨).

(٤) المدونة (٣/ ٧٥).

بقوله: «لا يجبر الصبيّ المسبي على الإسلام إذا كان قد عقل دينه»[١].

قال محمّد بن خالد[٢]: وأراه قد ذكره عن مالك.

فما نقله ابن القاسم عن مالك هنا يبين اهتمام مالك رحمه الله بمعرفة وعقل الدين، إذ أنه لم يجبر هذا السبي على الإسلام إن كان يعرف دينه ويعقله.

وأما إذا لم يعقل دينه فيجبر على الدخول في الإسلام.

وهذا ظاهر في اشتراط العلم بما يدين به الإنسان، وما يلزم من ذلك، فالمسلم لا بد من معرفته بأصل الإسلام (كلمة التوحيد)، والعلم بمعناها.

[٦٠] كما يبيّن ذلك أن مالكاً سئل: عن رجل نادى رجلًا باسمه، فقال: لبيك اللهم لبيك، أعليه شيء؟ قال مالك: «إن كان جاهلًا أو على وجه السفه[٣] فلا شيء عليه»[٤].

[٦١] وبيّن ابن رشد معنى ذلك، فقال: «أما الجاهل فبيّن أنه لا شيء عليه، لأنه لا يدري ما معنى الكلام»[٥].

فهذا يبين أن الإمام مالكاً رحمه الله اعتبر ضرورة تحقيق العلم بمعنى ما يقول

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٧).

(٢) هو محمّد بن خالد بن مرتنيل مولى عبدالرحمن بن معاوية، يعرف بالأشج، قرطبي نبيه، رحل فسمع من ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وابن نافع، ونظرائهم من المدنيين والمصريين، وكان الغالب عليه الفقه ولم يكن له علم بالحديث. مات سنة ٢٢٠هـ، وقيل: ٢٢٤هـ. انظر: الديباج (٣٣٠)، وجذوة المقتبس (٥٣).

(٣) ويقصد بذلك السفه الذي بمعنى الجنون، والله أعلم.

(٤) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٧٠).

(٥) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٧١).

حتى يعد مسلمًا، ولذا لم ير على من تلفّظ بهذا الكلام الخطير شيئاً إذا كان جاهلًا لا يعرف معنى ما يقول، وهكذا من ينطق بكلمة التوحيد لزمه معرفة معنى ما نطق به، فكما أن من تلفظ بالشرك وهو جاهل لا يعرف معنى ما تلفظ به لم يعدّوه مشركاً، فكذلك من نطق بكلمة التوحيد وهو جاهل بمعناها لا يعتدّ بإسلامه.

[٦٢] وفي رواية يحيى عن مالك «فيمن ارتدّ بعد أن شهد وأقرّ بالنبي ﷺ وعرف الفرائض... وتشهّد به بعد العلم به، وهو ممن لا يعذر بالجهالة؟ فلم يجب بشيء»(١).

فهنا ذكر أنه تشهّد وأقرّ عن علم، وهو ممن لا يعذر بالجهالة، فهذا يبيّن اشتراط العلم بمعنى الشهادة والإقرار بالرسالة عند مالك رحمه الله.

وأما كونه لم يجب بشيء فكما ذكر ابن رشد «أنه لا يقتل عند مالك على الكفر من أنكر الإسلام من أهل الذمة إلّا من رؤي يصلّي»(٢).

فاشترط أيضاً العمل بشرائع الإسلام في حال إسلامه لثبوت الردّة، فذكرهم للعلم هنا لمن أقرّ بالشهادتين وعرف الفرائض يدلّ على اهتمامهم الكبير بهذا الشرط من شروط كلمة التوحيد، فصرّحوا هنا بالعلم بما تشهّد وأقرّ به، وهو نصّ في اشتراط العلم بمعنى كلمة التوحيد.

وبمجموع ما تقدّم يتبيّن أن مالكاً رحمه الله اعتنى بشروط كلمة التوحيد، ومن ذلك العلم بمعنى هذه الكلمة.

[٦٣] وذكر ابن بطال قول مالك: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٣).

(٢) انظر البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٤).

يضعه الله في القلوب»[١]، ثم قال: «يعني بذلك فهم معانيه واستنباطه».

فمن نطق بكلمة التوحيد فلا بدّ أن يعرف معنى هذه الكلمة وما يلزم لها.

[٦٤] وقد ذكر القاضي عياض كلاماً نفيساً بيّن فيه أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين، لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى، فقال ـ عند حديث عثمان ﷺ المرفوع: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلّا الله؛ دخل الجنة**»[٢] ـ: «وقد يحتجّ به أيضاً من يرى أنّ معرفة القلب مجرّدة نافعة دون النطق بالشهادتين، لاقتصاره على العلم، ومذهب أهل السنة أنّ المعرفة مرتبطة بالشهادتين، لا تنفع إحداها ولا تنجي من النار دون الأخرى، إلّا لمن لم يقدر عليها من آفة بلسانه...»[٣].

فكلامه رحمه الله غاية في الحسن، حيث يكشف عن مذهب أهل السنة الذي يوجب ضرورة النطق بالشهادتين حالة كونهما مرتبطتين بالعلم بدلالتهما ليعدّ إسلام هذا معتبرًا، ليخرج من نطق بهما جاهلًا معناهما فلا يعتدّ بإسلامه، وتظهر قيمة هذا الشرط فيمن نطق بهما جاهلًا معناهما ثم ظهر منه ما يفيد ارتداده عن الإسلام، فمثل هذا لا يعدّ مرتدًا؛ لأنه لم يحكم بإسلامه حتى يعدّ راجعًا عنه، بل هو ما زال مقيمًا على كفره.

[٦٥] ونقل القرطبي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] قول ابن عباس وسعيد بن جبير في (شهادة الحق) أنها لا إله

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١٥٧).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٥٥) برقم (٢٦).

(٣) إكمال المعلم (١/ ٢٥٣).

إلّا الله، وبيّن أن الشهادة بالحق لا تنفع إلّا مع العلم كما ينطق بذلك ظاهر الآية. ثم قال: «وشرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها»[١].

فإذا كان العلم بالشهادة شرطاً في الحقوق الدنيوية، فكيف بأعظم شهادة على أجلّ مشهود: التوحيد. كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالعلم بها من باب أولى.

[٦٦] وذكر الونشريسي[٢] فتوى أحمد بن عيسى[٣] فقيه بجانة[٤] عمّن نطق بكلمة التوحيد مع جهل معناها، قال: «من نشأ بين أظهر المسلمين، وهو ينطق بكلمة التوحيد، مع شهادة الرسول ﷺ، ويصوم ويصلّي، إلّا أنه لا يعرف المعنى الذي انطوت عليه الكلمة الكريمة... لا يضرب له في التوحيد بسهم، ولا يفوز منه بنصيب، ولا ينسب إلى إيمان ولا إسلام، بل هو من جملة الهالكين، وزمرة الكافرين، وحكمه حكم المجوس في جميع أحكامه، إلّا في القتل؛ فإنه لا يقتل إلّا

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٢٣).

(٢) هو أحمد بن يحيى بن محمّد الونشريسي، نزيل مدينة فاس وفقيهها، فقيه مالكي أخذ عن علماء تلمسان، من كتبه: إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، والمعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس وبلاد المغرب، والقواعد في فقه المالكية، وغيرها. مات سنة ٩١٤هـ. انظر: جذوة الاقتباس (١/ ١٥٦)، والأعلام (١/ ٢٦٩).

(٣) هو أحمد بن عيسى بن أبي هلال الأشجعي، فقيه أندلسي من أهل بجانة، رحل إلى المشرق، كان فقيهًا صالحًا، مات سنة ٤٠٠هـ. انظر: أعلام المغرب العربي (٢/ ٣٥٠).

(٤) بجانة: مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة، خربت وانتقل أهلها إلى المرية، وبينها وبين غرناطة مائة ميل. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٣٩). ط. دار صادر.

إذا كان امتنع عن التعليم[(١)]»[(٢)].

فما نقله الونشريسي نصّ في أن العلم بمعنى كلمة التوحيد شرط من شروط لا إله إلّا الله.

[٦٧] ونقل نفس المعنى ميارة[(٣)].

[٦٨] وقال محمّد بن يحيى المختار ـ عند شرح حديث: «.. وأعلمكم بالله أنا..»، وتفسير البخاري للمعرفة بأنها فعل القلب ـ: «(فعل القلب) أي: اعتقاده أنّ الله واحد لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء من عنده بالحق مبشّراً ونذيراً، وأما مجرّد التلفّظ بالشهادتين من غير اعتقاد لما تضمنتا فليس بمعرفة، بل هو نفاق»[(٤)].

[٦٩] وعند قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] قال: «فدلت الآية الكريمة على أنّ المعرفة بالله تعالى التي يثاب عليها إنما هي معرفة القلب، أي: اعتقاد وحدانيته وصدق رسوله ﷺ بالقلب، وأما التلفّظ بما يدل على ذلك من غير اعتقاد لمضمونه فلا يثاب عليه؛ لأنه ليس بمعرفة الله ﷻ، بل هو عين النفاق الذي هو أسوأ الكفر، أعاذنا الله منه»[(٥)].

---

(١) وهذه وإن كانت شرطاً، إلّا أنها تحمل على من لا يعرف معناها حتى في التطبيق، أما من صلّى وصام وقام بالأركان، إلّا أنه يجهل المعنى فلا يحكم بكفره، وأرى أن لا تؤخذ الفتوى المتقدمة على عمومها، إذ لو أخذناها على عمومها دون تخصيص لها لأخرجنا الجمّ الغفير من عامّة المسلمين من الإسلام، والله أعلم.

(٢) المعيار المعرب (٢/ ٣٨٣).

(٣) انظر الدرّ الثمين والمورد المعين (١/ ٥٤ـ٥٥).

(٤) نور الحق الصبيح (١/ ٦٠).

(٥) نور الحق الصبيح (١/ ٦١).

وهذا يبيّن أنّ المعرفة من شروط «لا إله إلّا الله»[١].

[٧٠] وقال الميلي[٢]: «مجرّد النطق بالشهادتين لا يطرد عن ساحة القلب شبح الشرك، ولا سيما نطق من لُقّنهما تقليداً عاديًا خالياً من فهم معناهما، وإنما اعترف بهما بحكم الوسط، لا باضطرار العلم، ولم ينطق المشركون بالشهادتين لما دعاهم رسول الله ﷺ لأنهم عالمون بمعناها، ويرون النطق بهما التزاماً لما يدعو إليه الرسول، ونبذاً لما يخالف دعوته، وقد أصابوا في هذا الرأي، ثم اختاروا بعد ذلك الرأي الناشئ عن العلم باللّغة ومعاني الكلام: التمسّك بما وجدوا عليه آباءهم! وقد أخطأوا في هذا الاختيار، ولو رأوا مجرّد التشهّد كافياً في رفع وصف الشرك عنهم ـ مع بقائهم على عقائدهم الباطلة، وعوائدهم القبيحة ـ لأقرّوا واستراحوا»[٣].

ثم ذكر أن التلفّظ بالشهادتين لا ينفع ما لم يعلم معناها، ويعلم بمقتضاها من إفراد الله تعالى بالعبادة دون ما سواه، فقال:

[٧١] «فوصف الشرك يلحق من أخذ بحظ من عقائد وعوائد سمى الإسلام أهلها ـ من أجلها ـ: مشركين، ولا يغني مع ذلك تلفّظه بالشهادتين».

ومراده أنهم لعدم معرفتهم معنى الشهادتين المقتضي إفراد الله بالعبادة وقعوا

---

(١) وبمثل ذلك قال الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري: انظر كوثر المعاني الدراري (٢/ ١٣)، عند حديث: «أنا أعلمكم بالله».

(٢) هو الشيخ مبارك الميلي، أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، كان له دعوة إصلاحية في جنوب الجزائر، له: رسالة الشرك ومظاهره. انظر كتاب الإسلام الجزائري (١٨٨).

(٣) رسالة الشرك ومظاهره (٢٨ـ٢٩). ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية. ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

فيما يخالفها من الشرك .

الشرط الثالث: الإخلاص لمن قال: «لا إله إلا الله»

[٧٢] قال أشهب : سألنا مالكاً عن قوله : ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعرا: ٨٤]، قال: «لا بأس أن يحب الرجل الثناء الحسن إذا خلصت فيه النية».

[٧٣] قال ابن العربي : «صدق مالك ؛ مدار كل نية وعمل على الإخلاص»[(١)] .

فنبّه ابن العربي على أن الإخلاص مطلوب في كل شيء ، وأعظم ما يطلب فيه الإخلاص : كلمة التوحيد ، فلا بدّ لقائلها من الصدق والإخلاص .

[٧٤] وقال ابن أبي زيد في متن الرسالة : «وفرض على كل مؤمن أن يريد بكل قول وعمل من البر وجه الله الكريم ، ومن أراد بذلك غير الله لم يقبل عمله»[(٢)] .

فقوله : «أن يريد بكل قول . . .» يدخل فيه كلمة التوحيد التي لا بد من الصدق والإخلاص في النطق بها ، وإلا لم تقبل .

[٧٥] وذكر في تعريف الإيمان أنه «قول باللسان ، وإخلاص بالقلب ، وعمل بالجوارح . . .»إلى قوله : «ولا قول إلّا بعمل ، ولا قول وعمل إلّا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلّا بموافقة السنة»[(٣)] .

وذكر أن هذا من قول مالك ، قال : «وكله قول مالك ، فمنه ما هو منصوص من قوله ، ومنه ما هو معلوم من مذهبه»[(٤)] .

---

(١) القبس (٣/ ١٠٧٨) .

(٢) متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٩٤) .

(٣) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٢) .

(٤) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٩) .

وأورد ابن بطال أثراً عن عبدالله بن عمرو بن العاص يذكر فيه فضل لا إله إلّا الله، وأنها كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملًا حتى يقولها، قال: «وذكر الطبري بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: «إن الرجل إذا قال: لا إله إلّا الله، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملًا حتى يقولها. . .»[١].

[٧٦] وفي شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ[٢] قال: «وفيه: أن الشفاعة إنما تكون في أهل الإخلاص خاصة، وهم أهل التصديق بوحدانية الله ورسله، لقوله ﷺ: «**خالصاً من قلبه ــ أو: نفسه ــ**»[٣].

[٧٧] وأورد الطرطوشي حديث معاذ بن جبل: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلّا حرمه الله على النار»[٤]، وحديث أبي هريرة: «من أحق الناس بشفاعتك. . .»، وحديث عتبان: «لن يوافي عبد يوم القيامة بقول: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، يبتغي بها وجه الله ؛ إلّا حرّمه الله على النار»[٥].

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٣٢).

(٢) الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من قلبه ــ أو: نفسه ــ**». خرجه البخاري في العلم: باب الحرص على الحديث. الفتح (١/ ١٩٣)، وفي الرقاق: باب صفة الجنة والنار (١١/ ٤١٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ١٧٦).

(٤) تقدم تخريجه ص ٧٥ .

(٥) تقدم تخريجه ص ٧٥ .

فإيراده[١] لهذه الأحاديث يظهر اهتمامه بهذا الشرط من شروط لا إله إلّا الله .

[٧٨] وقال عبدالحقّ الإشبيلي[٢] : «والمقصود أن يموت الرجل ولا يكون في قلبه إلّا الله وحده ؛ لأن المدار على القلب الذي ينظر فيه ، وتكون النجاة بسببه ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ، ولا خير عندها»[٣] .

وكلامه نصّ في أهمية الإخلاص لمن نطق بالتوحيد .

[٧٩] وقال الغلاوي ـ وهو يتحدّث عن الشهادتين ـ : «ويقولها مخلصاً بها ، ليسلم من النفاق»[٤] .

[٨٠] وذكر القاضي عياض رحمه الله الأحاديث التي جاءت مطلقة في فضل لا إله إلّا الله ، كما أوردها مسلم في صحيحه ، ثم قال ـ مقرّراً مذهب أهل السنة والجماعة بأجمعهم ، من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء ـ : «من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل الجنة»[٥] .

[٨١] وعند حديث : «إنما الأعمال بالنيات»[٦] قال : «إن الحديث مفسّر لقوله

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٦ـ١٨٧) .

(٢) هو أبو محمّد عبدالحق بن عبدالرحمن بن عبدالله الأزدي الأندلسي الإشبيلي ، المعروف ابن الخرّاط ، عالم بالحديث وعلله ، عارف بالرجال ، موصوف بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، من كتبه : مصنف كبير جمع فيه بين الكتب الستة ، وله كتاب الرقاق ، وكتاب العاقبة في الوعظ . مات سنة ٥٨١هـ . انظر : السير (٢١/ ١٩٨) .

(٣) العاقبة في ذكر الموت والآخرة (ص١٤٥) . ط . مكتبة دار الأقصى ـ الكويت ، ط . الأولى ١٤٠٦هـ .

(٤) فرض العين (٢٧) .

(٥) إكمال المعلم (١/ ٢٥٥) .

(٦) خرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ٩) =

تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]».

ونقل عن بعض شيوخه قولهم: «(إنما الأعمال بالنيات) يرجع إلى معنيين:

أحدهما: تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد.

والآخر: تجريده بخالص السنّة»[١]. بمعنى أن يطابق العمل ما جاءت به السنة من غير مضادة أو معاندة.

[٨٢] وذكر ابن أبي جمرة أنّ «لا إله إلّا الله» لا تنفع قائلها إلّا مع الإخلاص فيها، فقال - في شرحه لحديث: «أمرت أن أقاتل الناس...» -: «وفيه دليل على أنّ هذا الذكر الخاص - وهو قول: لا إله إلّا الله - إذا كانت خالصة أمان لصاحبها في الظاهر والباطن، فالأمان الذي هو في الظاهر هو ما تضمنه قوله ﷺ: «فقد عصموا منّي»، والأمان الذي هو في الباطن هو تضمّنه قوله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]»[٢].

[٨٣] وقال - عند حديث أبي هريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك...» -: «ظاهر الحديث يدلّ على أنه لا يسعد بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة إلّا من قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من قلبه أو نفسه»[٣].

[٨٤] وبيّن ابن جزي معنى الإخلاص المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فقال: «الإخلاص يراد به التوحيد وترك الشرك، أو ترك

= برقم (١). ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية». (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧).

(١) إكمال المعلم (٦/ ٣٣٢).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٣٣).

(٣) بهجة النفوس (١/ ١٣٠).

الرياء. وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وعدم الإخلاص في التوحيد هو الشرك الجلي، وعدم الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي، وهو الرياء»(١).

[٨٥] وقال محمّد بن يحيى المختار عند حديث أبي هريرة: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من قلبه...**»(٢) الحديث: «يعني أن أسعد الناس بشفاعته ﷺ في القيامة من قال: لا إله معبود على الحقّ إلّا الله، قولاً خالصاً لا شائبة معه»(٣).

[٨٦] وعرّف محمّد الأمين الإخلاص بأنه «إفراد المعبود بالقصد في كلّ ما أمر بالتقرّب به إليه»(٤).

[٨٧] وعند قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] قال: «أمر الله نبيّه أن يعبده في حال كونه مخلصاً له الدين، أي: مخلصاً في عبادته من جميع أنواع الشرك، صغيرها وكبيرها».

[٨٨] وقال أيضاً عند الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]: «أي: التوحيد الصافي من شوائب الشرك، أي: هو المستحقّ لذلك وحده، وهو الذي أمر به، وقول من قال من العلماء: إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلّا الله، موافق لما ذكرناه»(٥).

---

(١) التسهيل (٤/ ٤١٥). ط. دار الكتب الحديثة ـ مصر. تحقيق محمّد عبدالمنعم وإبراهيم عطوه.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٧.

(٣) نور الحقّ الصبيح (١/ ٢٣٥).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٤٢).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٤٢ـ٤٣).

[٨٩] وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] فقال: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلّا الله...»(١).

فذكر أن المراد بالآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ التوحيد؛ كلمة «لا إله إلّا الله»، وأن تكون خالصة من شوائب الشرك، فتعريفه للإخلاص بأنه إفراد المعبود بالقصد في كل ما أمر بالتقرّب به إليه يدخل فيه كلمة التوحيد دخولًا أوّليًا لابتناء كل الأمور عليها، مما يدلّ على عنايته بهذا الشرط من شروط «لا إله إلّا الله».

الشرط الرابع: الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ مع الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ

جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم؛ أنّ النبي ﷺ قال: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، ويؤمنوا بما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم على الله**»(٢).

فقوله: «ويؤمنوا بما جئت به» نص في شرط الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ.

[٩٠] وفي هذا قال معن(٣): «وكتب إلى مالك من المغرب يسأل عن قوم

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٤).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله (١/ ٢٥) برقم (٢١).

(٣) هو معن بن عيسى بن يحيى القزاز، فقيه ثقة ثبت، كان من كبار أصحاب مالك، وخرج له البخاري ومسلم. وقرأ الموطأ على مالك لهارون الرشيد وابنيه، وكان يتوسد عتبة باب =

يصلون ركعتين، ويجحدون السنة، ويقولون: ما نجد إلّا ركعتين!

قال مالك: أرى أن يُستتابوا، فإن تابوا وإلا قُتلوا»[١].

[٩١] وبيّن ابن رشد معنى ذلك بقوله: «لأن صلاة الظهر والعصر والعشاء الأخيرة أربع ركعات لا يقال فيها: إنها سنة! بل هي فريضة أحكمتها السنة، وانعقد عليها الإجماع، فمن جحد ذلك كان كافراً»[٢].

فحكم عليهم مالك بالقتل ؛ لأنهم لم ينقادوا لأمر رسول الله ﷺ، الذي بيّن مقدار الصلوات بقوله وفعله.

[٩٢] قال ابن بطال ـ عند حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس...**» ـ: «**وقاتل آخرين من أهل الكفر كانوا يوحّدون الله، غير أنهم كانوا ينكرون نبوّة محمّد ﷺ، فقال: «أمرت أن أقاتل الناس...»، وذلك أن كفرهم كان جحداً بالنبوة، فمن أقرّ بما عليه قوتل**[٣] فقد حرم دمه وماله، إلّا بظهور نقض شرائط ما أقرّ به بعد الإقرار بجملته، وذلك هو الحق الذي كشف عنه قوله ﷺ: «**إلّا بحقّها**»، ولو أن أهل الأوثان وحد بعضهم وشهد أن لا إله إلّا الله، وحكم له بحكم الإسلام في منع نفسه وماله، ثم عرضت عليه شرائع الإسلام بعد ذلك فامتنع من الإقرار برسول الله ؛ كان لا شكّ بالله كافراً، وعاد حربيًا، وكذلك الذي أقرّ بنبوة محمّد لو أنكر شيئاً من

= مالك، وهو ممن خلف مالكًا في الفقه في المدينة. مات سنة ١٩٨هـ. انظر: ترتيب المدارك (٣/ ١٤٨)، وشجرة النور (٥٦).

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٧).

(٢) البيان والتحصيل (١٦/ ٤٣٧).

(٣) أي: الإقرار بالشهادتين، ومراده أن من أقرّ بالذي يكون عليه قتال الناس: يحرم دمه وماله.

الفرائض لعاد حربيًا[١] كافراً»[٢].

فبيّن أن الإقرار بلا إله إلّا الله له شروط، فمن نقضها فليس بحرام الدم والمال، ومن ذلك الإقرار بالرسالة، فمن لم يؤمن بما جاء به النبي ﷺ، فلا ينفعه الإقرار بكلمة التوحيد، إذ لم يأت بشروطها.

[٩٣] وقال الباجي رحمه الله: «وأمرنا ﷺ بأن نؤمن بالله وحده لا شريك له ولا ظهير، ولا ند ولا صاحبة ولا ولد، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله، وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله، ونؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب والثواب والعقاب، وأن من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به فلا بد له من الجنة، و أن من كفر به ـ أو بشيء مما جاء به ـ فإنه مخلّد في النار...»[٣].

[٩٤] وقال ابن العربي: «ولا ينفع الإيمان بالله مالم يقترن به تصديق رسول الله»[٤].

[٩٥] وأكّد هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله بقوله: «فالإيمان بالنبي ﷺ واجب متعيّن، لا يتم إيمان إلّا به، ولا يصحّ إسلام إلّا معه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]»[٥].

ولا ريب أنّ الإيمان بالنبي ﷺ يلزم منه الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام.

[٩٦] كما نبه على ذلك القاضي عياض، فقال: «والإيمان به ﷺ هو تصديق

---

(١) وهاتان الصورتان تفيدان جهل كلٍّ بما نطق به، وذلك لأن المرتدّ على حسب قول مالك، وقد سبق من أقر بالشهادتين وعمل بما لزمتاه به من تشريعات، ثم طرأ عليه بعد ذلك الارتداد.

(٢) شرح صحيح البخاري (٢/ ٥٣).

(٣) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي عليها (٨٣).

(٤) عارضة الأحوذي (١١/ ٢٧١).

(٥) الشفا (٢/ ٥٣٨).

نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان، ثم الإيمان به والتصديق له، كما ورد في الحديث نفسه من رواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله»، وزاده وضوحاً في حديث جبريل، إذ قال: أخبرني عن الإسلام. قال النبيّ ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله. .** »وذكر أركان الإسلام»[١].

وبيّن أبو العباس القرطبي رحمه الله أنّ النطق بكلمة التوحيد والرسالة متلازمتان.

[٩٧] قال ـ عند رواية: «أمرت أن أقاتل الناس. . .»ـ: «ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط حكم له بحكم الإسلام، وهذا الظاهر متروك قطعاً؛ إذ لا بدّ مع ذلك النطق بالشهادة بالرسالة»[٢].

[٩٨] وقال أيضاً: «فمن وحّد الله تعالى ولم يؤمن بالنبي ﷺ لم ينفعه إيمانه بالله تعالى، ولا توحيده، وكان من الكافرين بالإجماع القطعي»[٣].

[٩٩] وذكر محمّد بن يحيى المختار عند حديث وفد عبد القيس ـ وفيه: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله**»[٤] ـ قوله: «فالإيمان بالله وحده اعتقاد هاتين الشهادتين جزماً والنطق بهما داخلًا في الإيمان بالله وحده؛ لأنّ من لم يصدق بها كان مكذّباً لله

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٣٩).

(٢) المفهم (١/ ١٨٧ـ١٨٨).

(٣) المفهم (١/ ٢٩١).

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ١٢٩) برقم (٥٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (وشرائع الدين (١/ ٤٧) برقم (١٧).

تعالى، لأن الله تعالى شهد له بالرسالة»[١].

وبعد ذكر هذه الشروط بيّن أئمة المالكية أنه لا بدّ لقائل لا إله إلّا الله من الموت عليها أيضاً ليتحقق له دخول الجنة.

[١٠٠] فنقل ابن بطال قول شيخه المهلّب مقرًا له في شرحه: باب من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله: «لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال: لا إله إلّا الله، ومات عليها لا بدّ له من الجنة، ولكن بعد الفصل بين العباد وردّ المظالم إلى أهلها ـ وذكر حديث معاذ: أن النبي ﷺ حين أرسله إلى اليمن أوصاه أن ييسّر ولا يعسّر، ويبشّر ولا ينفّر، وقال: (إنه سيقدم عليك قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له)[٢]»[٣].

---

(١) نور الحق الصبيح (١/ ١٥١). وذكر مثل هذا المعنى الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري: كوثر المعاني الدراري (١/ ٤٠٩)، وزاد: «وهذا فيه من غاية تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما يدهش العقول؛ حيث إن الله تعالى جعل الإيمان به عليه الصلاة والسلام إيماناً به تعالى وحده».

(٢) حديث بعث معاذ ﷺ إلى اليمن مخرج في الصحيحين: البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (٣/ ٢٦١) برقم (١٣٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ٥٠) برقم (١٩).

وأما هذه الرواية فليست في الصحيحين، فقد خرجها الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٤٢) (٢٢١٠٢)، والبزار (٧/ ١٠٤) برقم (٢٦٦٠)، والطبراني في الدعاء (٣/ ١٤٨٨) برقم (٨٤٧٩). وكلهم من طريق شهر بن حوشب وهو ضعيف، ولم يدرك معاذًا، وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل بلده ضعيفة، وهذا منها، فهو بهذه الرواية ضعيف. وقد صح عن معاذ معناه بغير هذا السياق: أن النبي ﷺ قال: «ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب مؤمن إلّا غفر الله لها». والأحاديث في الصحيحين تؤيد هذا المعنى، وقد مرت في هذا البحث. مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٢٩) (٢١٩٩٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (٣/ ٢٣٦).

[١٠١] وقال الطرطوشي: «وحسبك شرفاً وجلالة لهذه الكلمة ما روى أبو داود: أنّ النبي ﷺ قال: **«لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله»**، فمفتاح الدخول في الإسلام: لا إله إلّا الله، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى: لا إله إلّا الله»(١).

وأورد حديث ابن عمر ﷺ: أنّ عمر بن الخطاب رأى طلحة ثقيلًا فقال له: مالك؟ قال: كلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقولها أحد عند موته إلّا أشرق لها لونُه، ونُفّس كربه، ورأى ما يسرُّه». فقلت: ما منعني أن أسأله عنها إلّا القدرة عليها. قال عمر بن الخطاب: أنا أعلمها. قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمةً أفضل من كلمة أراد عليها عمّه: لا إله إلّا الله؟ فقال طلحة: هي هي(٢)، وحديث معاذ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلّا الله؛ دخل الجنّة»(٣).

[١٠٢] وقال القاضي عياض: «وأنّ كلّ من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنّة»(٤).

فنصّ على أنّه لا بدّ من الموت على الإيمان والإخلاص.

*****

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧).

(٢) خرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٦١)، وأبو يعلى (٢/ ٢٢) (٦٥٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٩). وإسناده صحيح كما ذكر الأرنؤوط في حاشية المسند.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٧ .

(٤) إكمال المعلم (١/ ٢٥٥).

المبحث الرابع

التوحيد أوّل دعوة الرسل

أثار المتكلمون مسألة أوّل واجب على المكلف، وسلكوا في إثبات معرفة الله[1] شططاً، بعد اتفاق معظمهم على أنّ الأمر بعبادته سبحانه ليس أول واجب، وحكي عن الأشعري[2] القول بأن أوّل واجب على المكلف المعرفة، ومعناها عندهم: معرفة وجود الله وتفرّده بخلق العالم[3].

وقال الباقلاني[4]: «أول ما فرض الله ﷻ على جميع العباد: النظر في آياته . . . والثاني من فرائض الله ﷻعلى جميع العباد: الإيمان به والإقرار بكتبه ورسله . . .»[5].

---

(١) قول أهل السنة والجماعة: إن معرفة الخالق والإقرار بربوبيته أمر فطري، فطر الله عليه خلقه، فإذا كانت المعرفة مركوزة في الفطر، فكيف يكون أول واجب على المكلّف؟

(٢) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وكنيته أبو الحسن، وينسب إليه مذهب الأشاعرة. قال الذهبي: ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحّر في العلم، وله أشياء حسنة، وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم، له من التصانيف: الفصول في الرد على الملحدين، وكتاب الموجز، وكتاب خلق الأعمال، وكتاب الصفات، وكتاب اللمع في الرد على أهل البدع، وغيرها. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، السير (١٥/ ٨٥).

(٣) انظر شرح جوهرة التوحيد (٣٧).

(٤) سبقت ترجمته ص ٤٣ .

(٥) الإنصاف (٢٢).

وقال الجويني[(١)]: «أول ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سنّ البلوغ أو الحلم شرعاً: القصد إلى النظر الصحيح...»[(٢)].

وقالت طائفة من المتكلمين[(٣)]: أوّل واجب الشكّ.

وبعضهم حدّد مطالب يتوصّل بها إلى إثبات وجود الله تعالى، ولا يعرفها إلّا الراسخون في العلم، وبها النجاة.

قال شارح الجوهرة: «وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلّا الراسخون في العلم». ثم قال: «وقال السنوسي[(٤)]: وبها ينجو المكلف من أبواب جهنّم السبعة»[(٥)].

فانظر كيف جعل السنوسي عاقبة ترك هذه المطالب على المكلّف، سواء كان من العوام أو من العلماء الراسخين في العلم، وانظر اعتراف الباجوري بأنه لا يعلمها

(١) هو محمّد بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمّد بن حيويه الجويني، الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين، كان قليل الرواية للحديث معرضًا عنه مع كثرة قراءته، كما قال عن نفسه: «قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم». وله من الكتب: البرهان ـ في أصول الفقه ـ، وتلخيص التقريب، والإرشاد، وغيرها. مات سنة ٤٧٨هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٦٧)، السير (١٨/ ٤٦٨).

(٢) الإرشاد للجويني (٢٥). تحقيق أسعد تميم ـ بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.

(٣) وهو قول أبي هاشم الجبائي المعتزلي، وقد أخذ به الغزالي، ونسبه ابن حزم إلى الأشعرية. انظر الجبائيات (٣٣٣)، الفصل (٤/ ٧٤) ط. المحققة، منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة (٣/ ٩٣٥).

(٤) هو أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن عمر التلمساني الحسني، متكلم أشعري، وله مشاركة في الحديث. من كتبه: أم البراهين. مات سنة ٨٩٥هـ.

(٥) شرح جوهرة التوحيد (٤٢).

إلّا الراسخون في العلم! فيكونون على هذا هم الناجين فقط دون من سواهم! ويكون العوام ـ وهم أكثر المسلمين ـ ليسوا بناجين من النار، بل حتى العلماء الذين ليسوا براسخين في العلم! وفي هذا تحجير لواسع، وتضييق لرحمة الله، وابتداع لقول لم يسبقوا إليه(١).

وذكر الباجي عن شيخه القاضي أبي جعفر السمناني(٢) أنه كان يقول: «القول بأن النظر أوّل الواجبات مسألة من مسائل الاعتزال، بقيت في المذهب(٣) عند من التزمها»(٤).

وهذه لفتة مهمة لبيان المشرب الذي استقى منه هؤلاء مذهبهم.

والذي عليه سلف الأمة: أنّ أوّل واجب على المكلف الشهادتان: شهادة أن لا إله إلّا الله، وشهادة أنّ محمداً رسول الله، وإفراد الله بالعبودية، وهو ما دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

فجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الخالق (١/ ٣١٦) لعبداللطيف محمّد نور.

(٢) هو أبو جعفر محمّد بن أحمد بن محمّد بن محمود القاضي السمناني، فقيه متكلم أشعري، وهو من أصحاب أبي بكر الباقلاني الملازمين له. مات سنة ٤٤٤هـ. انظر: الأنساب للسمعاني (٧/ ١٤٩)، والسير (١٧/ ٦٥١).

(٣) يريد مذهب الأشاعرة.

(٤) نقله عنه ابن رشد في البيان والتحصيل (١/ ٥٨ـ٥٩). قال ابن حجر: «وقد وافق أبو جعفر السمناني ـ وهو من رؤوس الأشاعرة ـ على هذا، وقال: إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة». انظر الفتح (١٣/ ٣٤٩).

٣٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن السنة حديث معاذ المشهور، لما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله».

ويلاحظ التصريح بلفظ أول في الحديث: **«فليكن أوّل ما تدعوهم إليه»**، فهو نص في الموضوع.

وكذلك إجماع أئمة الدين وعلماء المسلمين أن كل كافر يدعى إلى الشهادتين، بذلك يصير مسلماً.

قال ابن المنذر: «أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ كل ما جاء به محمّد حقّ، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدًا، ويجب عليه ما يجب على المرتدّ»(١).

وبعد؛ فإن أئمة المالكية تكلموا عن أوّل واجب على المكلف، وهو الشهادتان، وردّوا على المخالف في ذلك.

[١] قال ابن العربي: «قال مالك ـ في الكافر يوجد عند الدرب، فيقول: جئت مستأمناً أطلب الأمان ـ: هذه أمور مشكلة، وأرى أن يرد إلى مأمنه، ولا يحكم له بحكم الإسلام؛ لأن الكفر قد ثبت له، فلا بدّ أن يظهر منه ما يدلّ على أنّ الاعتقاد الفاسد الذي كان يدل عليه قوله الفاسد قد تبدّل باعتقاد صحيح يدل عليه قوله، ولا

---

(١) الإجماع (١٥٤). دار طيبة. وأورد القرطبي هذا الإجماع عن ابن المنذر كما سيأتي.

يكفي فيه أن يقول: أنا مسلم، ولا: أنا مؤمن، ولا: أنا أصلي، حتى يتكلّم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم على الله»(١).

فمالك رحمه الله لم يحكم للكافر بالإسلام حتى يبدل اعتقاده الفاسد باعتقاد صحيح، يدل عليه قوله: ولم يكتف بأن يقول: أنا مسلم، أو: مؤمن، ولا: أنا أصلي، حتى ينطق بكلمة التوحيد العاصمة: لا إله إلّا الله.

فتعليقه الحكم بإسلامه على قولها مما يدلّ على أنها أوّل واجب.

[٢] وذكر محمّد بن رشد ـ وقد تقدّم ـ أنّ مذهب القاسم وروايته هذه عن مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام، ولا يحكم له بحكمه، حتى يجيب إليه(٢).

[٣] وبيّن معنى الإجابة في رواية سحنون عن ابن القاسم عن مالك. قال في المدونة: «قلت: كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية(٣) حلّ وطؤها والصلاة عليها؟ قال: قال مالك: إذا شهدت أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، أو صلّت فقد أجابت»(٤).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤٨٢). ط. دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

(٢) البيان والتحصيل (٢/ ٢١٣ـ٢١٤).

(٣) وكلامه هنا عن الجارية المشركة، لقوله تعالى: ﴿لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ﴾، بخلاف الكتابية.

(٤) المدونة (١/ ١٧٩).

فحكم بالإسلام لمن أجاب، ومعنى الإجابة: شهادة أن لا إله إلّا الله، مما يدلّ على أنها أوّل واجب عنده، وكذلك عند تلميذه ابن القاسم.

[٤] فقد سئل عن امرأة نصرانية، قال لها ختنها: أسلمي يا فلانة، حتى نغسّلك ونصلّي عليك. فقالت: نعم. وأمرت بغسل ثيابها، وقالت: كيف أقول؟ قال: قلت لها: قولي: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته. فقالت كل هذا، ثم ماتت، فدفنت في قبور النصارى؟

فقال ابن القاسم: «اذهب فانبشها، ثم اغسلوها وصلّوا عليها، إلّا أن تكون قد تغيّرت»(١).

فحكم ابن القاسم بإسلامها بمجرّد نطقها بالشهادتين، مما يدلّ على أنّ ابن القاسم رحمه الله يرى أنها أوّل واجب.

[٥] وصرّح ابن رشد أنه مذهب سحنون(٢).

[٦] وذكر القاضي ابن نصر معنى يتبيّن منه أنّ أول واجب هو قول: لا إله إلّا الله، قال: «ومن مات من السبي قبل التلفّظ بالشهادتين فلا يُغسل، ولا يصلى عليه؛ لأنه مات على أصل الكفر، لأنه لم يثبت له الإسلام، لا من جهة الاعتقاد ولا الحكم؛ لأنه لم يكن سوى سبيه، والسبي لا يزول عنه حكم الكفر، وإن قالها ابتداءً غسّل وكفّن وصلّي عليه، وكذلك إن قالها عن تلقين إذا كان طوعاً من غير إكراه؛ لأن الظاهر إجابته إلى الإسلام، وتديّنه به»(٣).

---

(١) البيان والتحصيل (٢/ ٢٥٦).

(٢) البيان والتحصيل (٢/ ٢١٣).

(٣) المعونة على مذهب عالم المدينة (١/ ٢٠١).

فلو كان ثمة واجب قبل التلفّظ بالشهادتين لما علّق الحكم بإسلامه عليهما، مما يظهر أنّ الشهادتين أوّل واجب عنده رحمه الله.

[٧] وأكّد هذا المعنى ابن بطال رحمه الله، فعند حديث: «أمرت أن أقاتل الناس...» قال: «... وحديث هذا الباب إنما قاله ﷺ في حال قتاله لأهل الأوثان، الذين كانوا لا يقرّون بتوحيد الله، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلّا الله، يستكبرون، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية، وخلع ما دونه من الأوثان، فمن أقرّ بذلك منهم كان في الظاهر داخلًا في صبغة الإسلام»(١).

فتبيّن من قوله: «فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية...» أنّ أوّل واجب هو الدعوة إلى التوحيد، إذ به يكون المقرّ به داخلًا في صبغة الإسلام.

[٨] وقال ـ عند شرح حديث وفد عبد قيس، مبيّناً أهمية الصلاة ـ: «قرن الله تعالى التقى ونفي الإشراك به تعالى بإقامة الصلاة، فهي أعظم دعائم الإسلام بعد التوحيد»(٢).

فنص على أنّ التوحيد هو أعظم الدعائم، مما يبيّن أنه أول واجب.

[٩] وذكر ابن عبدالبرّ أنّ تحقق الإسلام لا يكون إلّا بالشهادة مما يظهر أنها أول الواجبات، قال: «فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد بشهادة الحقّ، فكذلك لا يكون متطهّراً ولا مصلّياً حتى ينطق بالشهادة»(٣).

[١٠] وقد تكلم الباجي في مسألة أول الواجبات كلاماً نفيساً، صدّره بنقله عن

---

(١) شرح صحيح البخاري (٢/ ٥٣).
(٢) شرح صحيح البخاري (٢/ ١٥٢).
(٣) الكافي في فقه أهل المدينة (١/ ١٥٣).

شيخه أبي جعفر السمناني بأنّ «النظر أول الواجبات: مسألة من مسائل الاعتزال بقيت في المذهب...»، ثم قال: «فمن جعله أوّل الواجبات أوجبه بالعقل، إذ لا يصح أن يعلم أحد أنّ الله أوجب عليه النظر وهو لا يعلم الله إلّا بعد النظر... ومن أصول أهل السنة أنّ العقل لا حظر فيه ولا إباحة...».

واستدلّ الباجي رحمه الله على من قال: إن النظر والاستدلال أول الواجبات، بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّدين: مؤمنين. قال: «فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صحّ أن يسمى مؤمناً إلّا من عنده علم بالنظر والاستدلال، وأيضاً لو كان الإيمان لا يصح إلّا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحلّ لكم قتلنا؛ لأنّ من دينكم أنّ الإيمان لا يصحّ إلّا بعد النظر والاستدلال، فأخّرونا حتى ننظر ونستدلّ!

وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم، وأن لا يقاتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا!!».

قال: «ولا خلاف في بطلان هذا»[١].

[١١] وذكر الطرطوشي ما يدلّ على أنّ «لا إله إلّا الله» هي أوّل واجب، وآخر واجب. فقال ـ عند حديث: «لقّنوا موتاكم: لا إله إلّا الله» ـ: «فمفتاح الدخول في الإسلام: لا إله إلّا الله، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله: لا إله إلّا الله»[٢].

[١٢] وأكّد هذا المعنى بقوله: «اعلموا ـ أرشدكم الله تعالى ـ أنّ لا إله إلّا الله هي العروة الوثقى، ومركب النجاة، وسفينة نوح؛ من عدل عنها هلك، ومن ركبها خلص ونجا، وهي قطب الإسلام، وقاعدة الأديان، وما خلق الجنّ والإنس إلّا

---

(١) البيان والتحصيل (١/ ٥٨ـ٥٩).

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧).

ليعبدوه بها»[١].

فنص على أن لا إله إلّا الله قاعدة الأديان، وقاعدة الشيء أساسه وأوّله الذي ينبني عليه غيره، مما يبيّن أنها أول واجب.

[١٣] وبين هذا المعنى الزرقاني، فقال: «لا إله إلّا الله: هي الكلمة العليا، والقطب الذي تدور عليه رحى الإسلام، والقاعدة التي بني عليها أركانه، والشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان»[٢].

[١٤] وبمثل ذلك المعنى قال ابن جزي ـ عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ـ: «المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله، وترك ما عبد من دونه، لقوله في آخرها: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا: لا إله إلّا الله، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام، الذي قاعدته التوحيد»[٣].

فنص على أنّ قاعدة دين الإسلام التوحيد، مما يبين أنه أول واجب.

[١٥] وذكر هذا المعنى الهبطي فقال: «الحمد لله الذي جعل التوحيد أول قواعد الإسلام، وعبر عن ذلك بأن لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ﷺ، لجميع الأنام...».

ونظمه بقوله:

توحيده أوّل فرض يا فتى ... فانهض إلى تحصيله إلى متى

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥).

(٢) شرح الزرقاني (٢/ ٢٩).

(٣) التسهيل (١/ ٧٠).

كيف يصح يا بنيّ في الوجود عبادة من جاهل بالمعبود[١]

[١٦] وبمثل قولهم ذكر ابن عاشر في نظمه ـ تحت عنوان: كتاب أمّ القواعد، وما انطوت عليه من القواعد ـ أنّ جميع القواعد مندرجة في كلمة التوحيد، فقال:

«قواعد الإسلام خمس واجبات وهي الشهادتان فرض الباقيات»[٢]

فنصّ على أنّ الشهادتين هي أمّ القواعد، وغيرها ينبنى عليها.

[١٧] وقال ابن العربي ـ عند حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، ويؤمنوا بالذي جئت به...**»[٣] ـ: «فالواجب هو الإيمان، وكل ما قال الرسول على الجملة منه أصول وفروع، وأوائل وأواخر، فأصوله وأوائله ما بني الإسلام عليه، على ما في حديث ابن عمر: «**بني الإسلام على خمس...**»، وإن كانت كلها دعائم فإن عمدتها الشهادة، بها يحكم للمرء بالإيمان، وبها نتخذ أصلًا ينبى عليه غيره، وإن توقف عنها مع القدرة عليها كان كافراً»[٤].

فنصّ على أنّ الواجب هو الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ، وأنّ منه أوائل وأصول، وهي ما بني عليه الإسلام، ودعائم لا تقوم إلّا على الشهادة، إذ هي الأصل الأصيل الذي يحكم بإسلام من نطق بها.

[١٨] وذكر أيضاً: «أنّ الكافر لو صلى أو فعل فعلًا من خصائص الإسلام، فإنه لا يكون مسلماً بذلك، إما أنه يقال له: ما وراء هذه الصلاة؟ فإن قال: صلاة مسلم. قيل له: قل: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فإن قالها تبيّن صدقه، وإن أبى علمنا أنّ

---

(١) النوازل (٣/ ٢٩٦ـ٢٩٩).

(٢) الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين لابن عاشر (٢١). ط. دار الفكر.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٤.

(٤) عارضة الأحوذي (١٠/ ٧٩).

ذلك تلاعب»[١].

[١٩] وقال أيضاً ـ في الذي قال: سلام عليكم ـ: «يكلف الكلمة؛ فإن قالها تحقق رشاده، وإن أبى تبيّن عناده وقتل»[٢].

فلم يحكم بالإسلام لمن أتى فعلًا من خصائص الإسلام حتى يقول: لا إله إلّا الله.

وكذا من ألقى السلام؛ يكلّف الكلمة، وبها يتحقق إسلامه، مما يبيّن أنها أوّل الواجبات عنده رحمه الله.

وأما القرطبي؛ فقد ذكر عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ . . .﴾ [الأعراف: ١٨٥] الخلاف في أوّل الواجبات: هل هو النظر والاستدلال، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة[٣]؟ ثم بعد ذلك أورد مقالة الباجي السالفة[٤] في ردّه على المتكلمين، ثم قال:

[٢٠] «هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم على الله**»، وترجم ابن المنذر[٥] في كتاب الإشراف: (ذكر صفة كمال الإيمان): أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ كل ما جاء به

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٤٨٢).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٤٨٢).

(٣) لعلّ مراده هنا بالمعرفة التي يقصدها المتكلّمون.

(٤) انظر ص ١٣٥.

(٥) أوردت مقالة ابن المنذر في أول الفصل، وهي هنا من نقل القرطبي لها.

محمّد حقّ، وأبرأ من كلّ دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدًا، يجب عليه ما يجب على المرتدّ.

وقال أبو حفص الزنجاني: وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمّد السمناني يقول: أوّل الواجبات الإيمان بالله ورسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى، فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله.

قال: وهذا أقرب إلى الصواب، وأرفق بالخلق؛ لأنّ أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال. فلو قلنا: إنّ أول الواجبات المعرفة بالله؛ لأدّى إلى تكفير الجمّ الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنة إلّا آحاد الناس، وذلك بعيد؛ لأنّ الرسول ﷺ قطع بأنّ أكثر أهل الجنة أمته، وأنّ أمم الأنبياء كلّهم صفّ واحد(١)، وأمته ثمانون صفًا، وهذا بيّن لا إشكال فيه، والحمد لله»(٢).

[٢١] ثم بعد ذلك ذكر ما ذهب إليه بعض المتكلّمين إلى أنّ من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها؛ لم يصحّ إيمانه وهو كافر، فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه! وقد أورد على بعضهم هذا، فقال: لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار!

---

(١) وهذا وهم، والصواب: مائة وعشرون صفًا كما جاء في حديث ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومئة صف، منهم ثمانون من هذه الأمة». وقال عفان مرةً: «أنتم منهم ثمانون صفًا». خرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٧) (٢٢٩٤٠)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٠ـ٤٧١)، والترمذي (٢٥٤٦)، وقال: هذا حديث حسن. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا ابن حبان (٧٤٥٩) وإسناده صحيح.

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٢).

[٢٢] قال القرطبي: «وهذا القول لا يصدر إلّا من جاهل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؛ لأنه ضيّق رحمة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلّمين، واقتحموا في تكفير عامّة المسلمين، أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول ـ وانتهره أصحاب النبيّ ﷺ ـ: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً. فقال النبي ﷺ: «**لقد حجّرت واسعاً**»(١). خرجه البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة. أترى هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان؟ وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء، وكم من مثله محكوم بالإيمان، بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين.

وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك، ألا تراه قال للسوداء: «أين الله؟»، قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢)؟

ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة. والله أعلم»(٣).

ولقد أطال القرطبي الكلام حول هذه المسألة، وبيّن أقوال أئمة السلف في ذلك، وردّ على المخالفين من المتكلمين، وبيّن فساد ما ذهبوا إليه، وخطورة ما يترتب عليه.

[٢٣] فقال ـ عند حديث بعث معاذ إلى اليمن: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله...»(٤)، وعن استدلالهم ببعض ما جاء في رواياته: «فإذا عرفوا الله

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) برقم (٦٠١٠).

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦.

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٢ـ٣٣٣).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد: باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣/ ٣٥٩ ح٧٣٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان: باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع =

فأخبرهم» على أنّ أول واجب المعرفة ـ قال القرطبي: «فإذا عرفوا الله فأخبرهم ؛ أي: إن أطاعوا بالنطق بذلك، أي: بكلمتي التوحيد، كما قال في الرواية الأخرى: «**فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم**..»، فسمى الطواعية بذلك والنطق به: معرفة ؛ لأنه لا يكون غالباً إلّا عن المعرفة، وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذا هو الدعوة، على ما يأتي في الجهاد.

وعلى هذا فلا يكون في حديث معاذ حجة لمن تمسّك به من المتكلمين على أنّ أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان، بل هو حجة لمن يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدّقاً بها...».

ثم بيّن اختلاف المتكلمين، فقال: «وقد اختلف المتكلمون في أول الواجبات على أقوال كثيرة ؛ منها ما يشنع ذكره، ومنها ما ظهر ضعفه.

والذي عليه أئمة الفتوى وبهم يقتدى ـ كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة السلف ـ: أنّ أول الواجبات على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي، الذي لا ريب معه بالله تعالى ورسله وكتبه، وما جاءت به الرسل، على ما تقرر في حديث جبريل، كيفما حصل ذلك الإيمان، وبأي طريقة إليه توصل، وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان، وسبب ظاهر تترتب عليه أحكام الإسلام»[1].

= الإسلام (١/ ٣١٠ح١٩).

قال أبو العباس: «المراد بالعبادة هنا هو النطق بشهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله، كما جاء في الرواية الأخرى مفسّرًا: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله». المفهم (١/ ١٨١).

(١) المفهم (١/ ١٨٢).

[٢٤] وفي موضع آخر قال ـ عند ذكره أركان الإيمان ـ: «مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف: أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً جزماً لا ريب فيه، ولا تردد ولا توقف؛ كان مؤمناً حقيقة، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة، أو عن اعتقادات جازمة. على هذا انقرضت الأعصار الكريمة، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة، حتى حدثت مذاهب المعتزلة والمبتدعة، فقالوا: إنه لا يصح الإيمان الشرعي إلّا بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية، وحصول العلم بنتائجها ومطالبها، ومن لم يحصل إيمانه كذلك فليس بمؤمن، ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك! وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا؛ كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي المعالي في أول قوليه، والأول هو الصحيح، إذ المطلوب من المكلفين ما يقال عليه: إيمان، كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ١٣]، والإيمان هو التصديق لغة وشرعاً[١]، فمن صدّق بذلك كله ولم يجوز نقيض شيء من ذلك فقد عمل بمقتضى ما أمره الله به، على نحو ما أمره الله تعالى، ومن كان كذلك فقد تقصى عن عهدة الخطاب، إذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب، ولأن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده حكموا بصحة إيمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه، ولم يفرّقوا بين من آمن عن برهان أو عن غيره، ولأنهم لم يأمروا أجلاف العرب بترديد النظر، ولا سألوهم عن أدلة تصديقهم، ولا أرجؤوا إيمانهم حتى ينظروا، وتحاشوا عن إطلاق الكفر على أحد منهم، بل سموهم المؤمنين، والمسلمين، وأجروا عليهم أحكام الإيمان، ولأن البراهين التي حررها المتكلمون ورتبها الجدليون إنما أحدثها المتأخّرون، ولم يخض في شيء من

---

(١) الصواب أنّ الإيمان في اللغة التصديق والإقرار، وأما في الشرع فهو قول واعتقاد وعمل.

تلك الأساليب السلف الماضون، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفاً، ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان، وهم من هم فهماً عن الله، وأخذاً عن رسول الله ﷺ، وتبليغاً لشريعته، وبياناً لسنته وطريقته»(١).

[٢٥] وفي سياق كلام له حول ذم الكلام بيّن فساد طريقتهم، وخطورة مسلكهم، فقال: «ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلّا مسألتان هما من مبادئه؛ لكان حقيقاً بالذمّ، وجديراً بالترك:

إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشكّ في الله تعالى.

والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه وهو كافر.

فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأنّ من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا، فقال: لا يُشنّع عليّ بكثرة أهل النار! وكما قال: ثم إنّ من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا على من قال بهما بطرق النظر والاستدلال، بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأ فاحش، فالكلّ يخطّئون الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شكّ في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالى واجب، وأنّ معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعاً، أو مختل العقل وضعاً، إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار إليه في

---

(١) المفهم (١/ ١٤٥ـ١٤٦).

الشرعيات، ولا العقليات»[(١)].

[٢٦] وأما ابن أبي جمرة؛ فقال ـ عند شرحه حديث وفد عبد قيس: «شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله»[(٢)] ـ: «فيه دليل على أنّ أول الواجبات الإيمان قبل النظر والاستدلال»[(٣)].

[٢٧] ونقل محمّد المختار قول ابن أبي جمرة السالف على سبيل الإقرار[(٤)].

[٢٨] وقال الميلي ـ في بيان أول واجب تحت عنوان: أوّل ما يدعو إليه المرسلون ـ: «إنّ القرآن العظيم يقصّ علينا في جلاء ووضوح أنّ أوّل ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ هو توحيد الله، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره، وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيّين ﷺ، فعنيت بالدعوة إلى التوحيد والتحرز من الشرك، والتحذير منه، وما ذلك إلّا لشدة الحاجة إلى معرفته، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة في الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين»[(٥)].

[٢٩] وبعد أن ذكر الغلاوي في نظمه في باب العقائد:

أول ما يجب إثبات الوجود ... لله قل دليله الخلق الموجود

قال: «أول ما يجب بعد التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين»[(٦)].

---

(١) المفهم (٦/ ٦٩٣).

(٢) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٣) بهجة النفوس (١/ ٩٨).

(٤) انظر نور الحق الصبيح (١/ ١٥١).

(٥) رسالة الشرك ومظاهره (١٨).

(٦) فرض العين (٢٧). ط. دار القلم للنشر والتوزيع، ط. الأولى ١٤١٩هـ ـ دبي.

فذكر أنّ أول ما يجب التصديق بالقلب، ولم يذكر نظراً أو استدلالًا.

[٣٠] ونقل محمّد المكي الناصري قول ابن كثير[١] مقرًا له في بيان التوحيد الذي جاءت به الرسل: «والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]»[٢].

وختاماً يتبين أنّ قول أكثر علماء المالكية في مسألة أول واجب على المكلف هو ما دلت عليه النصوص الشرعية كما سلف بيانه، وأنّ من خالف في ذلك فقد خالف جمهور المسلمين، وقد نص القرطبي[٣] رحمه الله على خطأ المتكلمين في مسألة أول واجب على المكلف، وذكر أنّ القول بأن أول واجب على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي: هو قول أئمة الفتوى مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة السلف. وأن مما يلزم به هؤلاء المتكلمون في قولهم بالنظر أو الشك تكفير عامة المسلمين، من لدن صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم، وردّ عليهم بأن قائل ذلك كافر شرعاً أو مختل العقل وضعاً، وعندما أورد عليهم ذلك

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصروي، عماد الدين، أبو الفداء، حافظ ومؤرّخ وفقيه، أمعن النظر في العلل والرجال، له تصانيف مفيدة، منها: التفسير المشهور قد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وكتاب البداية والنهاية، وكتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء. مات سنة ٧٧٤هـ. انظر: الدرر الكامنة (١/ ٣٩٩)، والبدر الطالع (١/ ١٥٣).

(٢) التيسير (٥/ ٤٢٢).

(٣) انظر ص ١٤٦ .

قالوا: إن العامة لا يطالبون بالنظر![1]

ومعلوم أنه يلزم من هذا القول بأن أول الواجبات توحيد الله تعالى، إذ إن الرسل اكتفوا فيمن دعوهم بالإيمان، حتى وإن لم يسبق ذلك نظر.

وهذا بحد ذاته يكفي لردّ مقالة المتكلمين القائلين بوجوب النظر، وبهذا يظهر مدى اهتمام أئمة المالكية ببيان أول ما دعت إليه الرسل، من توحيد الله ﷻ، وهو ما دعت إليه النصوص من الكتاب والسنة، ولله الحمد والمنّة.

*****

(١) ومن ألزم العامة بالنظر بأنه أول ما يجب عليهم فقد كفّرهم، وإن لم يقل به.

الفصل الثاني

توحيد المعرفة

وفيه مبحثان :

* **المبحث الأول** : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

* **المبحث الثاني** : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

تمهيد

لما كانت معرفة الله ﷻ من الأمور التي فطر عليها الخلائق فإن غالبهم استجاب لنداء الفطرة هذا، وأقرّوا بمعرفة الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

بل حتى إبليس أقرّ به، كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].

وفرعون قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وذكر الله ﷻ كذبه في قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، أي: أنه على يقين بوجود الله ﷻ وإن جحد ذلك ظاهراً.

وفيما يلي أعرض أقوال المالكية في هذا المبحث من جهتين:

١ ـ إقرار الكفار بتوحيد المعرفة.

٢ ـ الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة.

*****

المبحث الأول

إقرار الكفار بتوحيد المعرفة

فطر الله تعالى عباده على الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

كما أوضح هذا الأمر النبي ﷺ، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ أنّ النبيّ ﷺ قال: «**كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء**[(١)]**؟**». ثم يقول أبو هريرة: فطرة الله التي فطر الناس عليها[(٢)].

وذكر ابن عبدالبر أن القول بأنّ الفطرة هي الإسلام هو قول سلف الأمة أجمع؛ قال: «... وقال آخرون: الفطرة هاهنا الإسلام، قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، قد أجمعوا في قوله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ على أن قالوا: فطرة الله: دين الله الإسلام[(٣)]. واحتجّوا بقول أبي هريرة

---

(١) قال ابن حجر: تنتج: قال أهل اللغة: نُتِجت الناقة على صيغة ما لم يسمّ فاعله. بهيمةً جمعاء: أي لم يذهب من بدنها شيء، سميت بذلك لاجتماع أعضائها. الجدعاء: هي المقطوعة الأذن. انظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٥).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/ ٢٤٥) برقم (١٣٨٥)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧) برقم (٢٦٥٨).

(٣) قال مجاهد: ﴿فطرة الله﴾ أي: الإسلام. وقال البخاري: باب لا تبديل لخلق الله، أي: =

في هذا الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾»[(١)].

وفي حديث عياض بن حمار ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربّه تعالى أنه قال: «**خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً . . .**»الحديث[(٢)].

وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية، وأنّ الشياطين اجتالتهم[(٣)] بعد ذلك.

[١] وقد بيّن أئمة المالكية أنّ الفطرة هي دين الإسلام، فلما ذكر مالك حديث أولاد المشركين واحتجاج القدرية به على أنّ الكفر والمعاصي ليستا بقدر الله، بل مما فعله الناس، لأن كل مولود يولد على الفطرة، وكفره بعد ذلك من الناس، قال مالك: «احتجّوا عليهم بآخره، وهو قوله: (الله أعلم بما كانوا عاملين)[(٤)]»[(٥)].

= لدين الله، والفطرة: الإسلام. انظر تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣)، وصحيح البخاري مع الفتح (٨/ ٣٧٢).

(١) التمهيد (١٨/ ٧٢). ط. المملكة المغربية ١٤٠٧هـ.

(٢) خرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥).
وخرج أبو داود بسنده عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً قيل له: إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا الحديث. قال مالك: «احتجّ عليهم بآخره»: قالوا: أرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». سنن أبي داود (برقم ٤٧١٥ ص٦٦٦، ط. دار السلام): باب ذراري المشركين.

(٣) قال القاضي عياض: «اجتالتهم» أي: استخفّوهم فذهبوا بهم وجالوا معهم وساقوهم إلى ما أرادوه بهم. انظر إكمال المعلم (٨/ ٣٩٥).

(٤) خرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/ ٢٤٥) برقم (١٣٨٣)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٩) برقم (٢٦٥٩).

(٥) فبيّن مالك أن لا حجة فيه للقدرية، فإنهم لا يقولون: إن نفس الأبوين خلقا تهوّده وتنصره، =

فردُ مالك على القدرية بآخر الحديث يبين أنّ الفطرة عنده هي الإسلام، لأن القدرية قالوا: إنّ كل مولود يولد على الفطرة سليماً، وأما كفره فقد حصل من الناس، فبين أنّ آخر الحديث يبين أنّ كل شيء بقدر الله ﷻ، فإذا كان قد ولد على الفطرة التي هي الإسلام، فكذا تغيره ـ أي كفره ـ بعد ذلك بقدر الله، وإن كان ثمة أسباباً لهذا التغيّر من الأبوين وغيرهما.

فهو مع رده على القدرية، إلّا أنه جعل مقابل الكفر الذي طرأ الإسلام الذي هو الأصل، وهو الفطرة[(١)].

[٢] وأيضاً ترجم في موطّئه: «باب ما جاء في السنة في الفطرة»[(٢)] لحديث أبي هريرة ﷺ قال: **«خمس من الفطرة: تقليم الأظفار، وقصّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاختتان»**.

= بل هو تهوّد وتنصّر باختياره، لكنهما كانا سبباً في ذلك بالتعليم والتلقين، فإذا أضيف إليهما بهذا الاعتبار، فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى، فالله وإن خلقه على الفطرة سليماً، فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك».

(١) ومما يقوي معنى الفطرة عند مالك، وأنها الإسلام ما ذكره ابن حجر نقلًا عن شمس الدين ابن القيم في بيان سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث: أنّ القدرية كانوا يحتجّون على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك؛ لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلّا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية؛ لأن قوله: «فأبواه يهوّدانه...» الخ: محمول على أنّ ذلك يقع بتقدير الله تعالى، ومن ثم احتجّ عليهم مالك بقوله في آخر الحديث: «الله أعلم بما كانوا عاملين». فتح الباري (٣/ ٢٥٠) ط. السلفية، وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ٥٣٠).

(٢) الموطأ (٢/ ٧٠٢).

قال أبو الوليد الباجي ـ مبيّناً مراد الإمام مالك في هذا ـ: «قوله: خمس من الفطرة: يريد والله أعلم من سنة الدين الذي يوصف بأنه الفطرة، قال الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

يريد والله أعلم: الدين الذي ولدوا عليه، وخلقوا عليه، ومنه ما روي عن النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه**»[١].

[٣] وعند شرحه لحديث: «كل مولود يولد على الفطرة...» قال: «ومعنى الحديث في الشرع: الحالة التي خلقوا عليها من الإيمان والمعرفة به والإقرار بالربوبية. فأبواه هما اللذان يصرفانه عن الفطرة، وما خلق عليه من الإيمان إلى دين اليهودية أو النصرانية»[٢].

[٤] وقال الباقلاني: «يجب أن يعلم أنّ العالم محدث، وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه تغيّره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدَثاً، وقد بيّن نبيّنا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمّن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله! أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: «**نعم؛ كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق السماوات والأرض**»[٣]، فأثبت أنّ كل موجود سواه محدث مخلوق، وكذلك الخليل عليه السلام إنما استدلّ على حدوث الموجودات بتغيّرها[٤] وانتقالها من حالة إلى

---

(١) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢٣٢).

(٢) المنتقى (٢/ ٣٣).

(٣) خرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء (١٣/ ٤٠٣) برقم (٧٤١٨).

(٤) الذي جاء عن السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فلما أفلت..﴾ ـ كما ذكر الطبري ـ: «أفل: معناه غاب وذهب». تفسير الطبري (٥/ ٢٤٦). ومراده هنا بالتغير الاستدلال على نفي =

حالة ؛ لأنه لما رأى الكوكب ﴿قال هذا ربّي . . .﴾ الخ الآيات .

فعلم أنّ هذه لما تغيّرت وانتقلت من حال إلى حال دلّت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة ، وأنّ لها خالقاً ، فقال عند ذلك : ﴿وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض . . .﴾»[1] .

[٥] ونقل ابن عبدالبر عن سحنون في مسألة الطفل يحكم بكفره بأبويه ، فإذا لم يكن بين أبوين كافرين فهو مسلم ، ووجه ذلك أنّ الله تعالى قد أخذ عليهم العهد بقوله : ﴿ألست بربّكم قالوا بلى﴾[2] .

فمراد سحنون ظاهر في أنه يحكم بالميثاق الذي أخذه الله على العباد ، وأقرّوا به قبل خروجهم إلى الدنيا ، فحكم بإسلام الطفل ، مما يبيّن أنّ الإسلام هو الذي فطر عليه جميع الخلائق .

[٦] وقال ابن عبدالبر : «من أحسن ما روي في تأويل قوله ﷻ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ . . .﴾ الآيــة : حديث ابن مسعود ﷺ عن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قول الله ﷻ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . .﴾ قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمنى ، فأخرج منها ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر ، فقال : ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك قوله : أصحاب اليمين والشمال .

ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ألست بربكم؟ قالوا : بلى ؛ فأعطاه طائفة طائعين ،

= الصفات الفعلية لله تعالى كما هو مذهب الأشاعرة ، فليتنبه!

(١) الإنصاف (٣٠) .

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٤٩) .

وطائفة كارهين على وجه التقية. فقال هو والملائكة: شهدنا ؛ أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل. قالوا: فليس أحد من ولد آدم إلّا وهو يعرف الله أنه ربّه، وذلك قوله ﷻ: ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ [آل عمران: ؟؟]، وذلك قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] يعني: يوم أخذ الميثاق»[١].

[٧] وذكر السهيلي[٢] عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾ قوله: «وذلك أنّ العهد الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها من توحيد الله، فكل مولود يولد على تلك الفطرة، وعلى ذلك الميثاق، فلولا أنّ أبويه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه حتى يسودّ قلبه بالشرك لما حال عن العهد»[٣].

فنصّ على أنّ الفطرة التي يفطر الخلق عليها هي التوحيد.

[٨] وقال القاضي عياض ـ عند شرحه حديث: **«كل مولود يولد على الفطرة...»**ـ: **«أي تولد متممة الخلق، سالمة من النقص والتغيير، ولم يلحقها جدع، وهو قطع الأذن وغير ذلك، إلّا بعد ولادتها... والفطرة: هي ما فطر عليه العبد في أصل خلقته وابتدائها، قبل معرفته بشيء من قبل بني آدم، من التهيّؤ لقبول**

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر (١٨/ ٨٥ـ٨٦).

(٢) هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ بن حسين بن سعدون السهيلي، أبو القاسم وأبو زيد، صاحب كتاب الروض الأنف، في شرح سيرة سيدنا رسول الله (، أجاد فيه وأفاد، وذكر أنه استخرجه من مائة وعشرين. وله كتاب الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، وله كتاب الفرائض، وكان عالمًا بلسان العرب، يتوقّد ذكاءً. مات سنة ٥٨١هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٤٨)، والديباج (٢٤٦).

(٣) الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٢٧٥). مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٠هـ.

الهداية، والسلامة من ضدّ ذلك[١]، حتى يدخل عليه من أبويه وقريبه ومربّيه وقرينه ما يغيّره عن ذلك. . .»[٢].

[٩] ورجّح أبو العباس القرطبي ما نقل عن السلف في تفسير الآية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]: أنها الإسلام.

وردّ الأقوال الأخرى لمخالفتها للأدلة، فقال ـ عند شرحه لحديث: «**ما من مولود إلّا يولد على الفطرة**. . .» ـ: «اختلف الناس في الفطرة المذكورة في هذا الحديث وفي الآية:

فقيل: هي سابقة السعادة والشقاوة. وهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وأما في الحديث فلا؛ لأنه أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير.

وقيل: هي ما أخذ عليهم من الميثاق[٣] وهم في أصلاب آبائهم. وهذا إنما يليق بالرواية التي جاء فيها: «كل مولود يولد على الفطرة»، ويبعد في رواية من رواه: «على هذه الملّة»، وهي إشارة إلى ملة الإسلام.

وقال بظاهر هذه الآية طائفة من المتأولين، وهذا القول أحسن ما قيل في ذلك إن شاء الله تعالى؛ لصحة هذه الرواية، ولأنها مبينة لرواية من قال: على الفطرة.

ومعنى الحديث: أنّ الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهّلة لقبول الحق، كما

---

(١) تفسير الفطرة بالتهيؤ والسلامة لا يناقض قولنا: إنّ المراد بالفطرة الإسلام، فقد ذكر القرطبي في القول الذي يليه معنى ذلك؛ فتأمّله.

(٢) إكمال المعلم (٨/ ١٥٠).

(٣) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق، وقد جاء ذلك صريحاً في الصحيح: جبل[١] الله الخلق على معرفته، فاجتالتهم الشياطين[٢]، وقد تقدّم هذا المعنى، وقد دلّ على صحة هذا المعنى بقية الخبر، حيث قال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟**»يعني: أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليمًا من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلقة لبقي كاملًا بريئًا من العيوب، لكن يتصرّف فيه، فتجذع أذنه، ويوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفات والنقائص، فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان؛ وهو تشبيه واقع ووجهه واضح»[٣].

فما ذكره رحمه الله هو القول الصواب في معنى الفطرة المنقول عن السلف، وما ذكره في قوله: إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهّلة لقبول الحق، وقوله ـ في تعريف الفطرة ـ: «أي جبلة الله التي جبلهم عليها؛ من التهيؤ لمعرفته والإقرار به»فليس مخالفًا للقول الصحيح[٤].

ويوضح ذلك ما ذكره ابن حجر فيما نقله عن الطيبي أن المراد بالفطرة: تمكن الناس من الهدى من أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها لاستمرّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية، كالتقليد.

---

(١) قال ابن فارس: «الجبلة: الخليقة». معجم مقاييس اللغة (١/ ٥٠٢).

(٢) يريد حديث عياض بن حمار ﷺ: «خلقتُ عبادي حنفاء كلهم». وقد مضى. وهو هنا يرويه بالمعنى.

(٣) المفهم (٦/ ٦٧٥).

(٤) مسائل العقيدة في كتابي المعلم والمفهم ـ رسالة دكتوراه ـ: عبدالله بن محمد الرميان (١/ ١٦٠).

ثم قال الحافظ : وإلى هذا مال القرطبي في المفهم .

فقول القرطبي موافق للمشهور عن السلف ؛ لأن السلف الذين فسروا الفطرة بالإسلام لم يقصدوا أن المولود يولد عالمًا بأحكام الدين ، وإنما قصدوا أن الفطرة تستلزم معرفة الله وتوحيده من غير سبب خارجي(١) .

وذكر ابن حجر نقلًا بعد قول القرطبي السابق عن شمس الدين ـ ابن القيم ـ ما يوضّح هذا المعنى ، فقال : ليس المراد بقوله : «يولد على الفطرة»أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ؛ لأن الله يقول : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾ ، ولكن المراد : أن الفطرة مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته . . . كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلّي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره(٢) .

[١٠] وقال ابن رشد : «وقد نبّه الله تبارك وتعالى عباده المكلفين على الاستدلال بمخلوقاته على ما هو عليه من صفات ذاته وأفعاله في غير ما آية من كتابه . قال تعالى : ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض . . ﴾ [الأنعام]» . وأورد قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم قال :

«فاستدلّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما عاين من حركة الكواكب والشمس والقمر على أنها محدثة ؛ لأن الحركة والسكون من علامات المحدثات(٣) ، ثم علم

---

(١) دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمي ص(٢٢) . دار الكتب العلمية-بيروت ، ط . الأولى ١٤٠٥هـ .

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٩٣) .

(٣) وقد تقدم الكلام في معنى الأفول عن السلف ، وما ذكره ابن رشد هنا يتوافق مع كلام الباقلاني السابق . انظر ص ١٥٨ والتعليق عليه .

أنّ كل محدَث فلا بدّ له من محدِث، وهو الله ربّ العالمين»[١].

وحكم لأولاد المشركين بالإسلام؛ لأنهم ولدوا على الفطرة، قال: «والذي يشهد له قول النبي ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه. . .» أن يحكم للصغير من أولاد المشركين كيف ما كان ـ ما لم تكن له ذمّة، ولم يكن معه أبواه ـ بحكم الإسلام»[٢].

[١١] أما القرطبي فقد أطال الكلام في بيان معنى الفطرة، وذكر الأقوال في ذلك مبتدئاً بما نقل عن السلف، مع ذكر أدلتهم السابقة، قائلًا: «واستدلّوا أيضاً بقوله ﷺ: «خمس من الفطرة ـ وذكر منها ـ: قص الشارب»، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار».

وختم الأقوال بقول أبي العباس القرطبي السابق: «أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق. . .»، ثم قال:

[١٢] «وهذا القول ـ مع القول الأول المنقول عن السلف ـ موافق له في المعنى، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة: من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يمينًا وشمالًا، وأنهم إن ماتوا صغارًا فهم

---

(١) البيان والتحصيل (١/ ١٥ـ١٦).

(٢) البيان والتحصيل (٢/ ٢١٥).

في الجنة، أعني جميع الأطفال؛ لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذرّ أقرّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بالربوبية، وأنه لا إله غيره، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقيًا أو سعيداً على الكتاب الأول، فمن كان في الكتاب الأول شقيًا عمر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأول سعيدًا عمر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيدًا، ومن مات صغيرًا من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق.

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله ﷺ ـ لما سئل عن أولاد المشركين، فقال ـ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ـ يعني: لو بلغوا ـ.

ودل على هذا التأويل أيضًا حديث البخاري عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ ـ الحديث الطويل؛ حديث الرؤيا ـ وفيه قوله ﷺ: **«وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم** عليه السلام، **وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة»**. قال: فقيل: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: **«وأولاد المشركين»**، وهذا نص يرفع الخلاف، وهو أصحّ شيء روي في هذا الباب»[1].

[١٣] وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٠ـ٣١).

ذُرِّيَّتَهُمْ . . .﴾ بقوله : «وقد استدل بهذه الآية من قال : من مات صغيرًا دخل الجنة ؛ لإقراره في الميثاق الأول، ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول، وهذا القائل يقول : أطفال المشركين في الجنة، وهو الصحيح في الباب»(١) .

[١٤] وذكر ابن العربي معنى الفطرة في شرحه للحديث : «كل مولود . . » أنها الابتداء على مافي الكتاب الأول حين خلق الله القلم، حين أخرج الناس من صلب آدم كهيئة الذر، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ . . .﴾ فأقر الجميع بذلك لله سبحانه، ثم لما أوجدهم في حالة الدنيا أطواراً انقسمت حالهم .

[١٥] ثم بيّن ما يطرأ على تلك الفطرة من الفساد، فقال : «وضرب النبي ﷺ المثل بالبهيمة التي تنتج سليمة لا جدع فيها، ثم تجدع بعد ذلك فتعاد لأحد القسمين، وهو ما يطرأ من الفساد في الاعتقاد»(٢) .

[١٦] وأكّد هذا المعنى أيضًا، فقال : «إنّ الميت إن كان كبيراً فهو محمول على ظاهر الإيمان الذي كان عليه، وإن كان صغيراً فحكمه حكم خاصته، حتى قال علماؤنا : إن الرجل إذا اشترى الأبوين ومعهما ولد صغير ومات أنه محمول على حال الشاري من الإيمان لا على حال أبويه، وقد قال ﷺ : **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه . . .»** الحديث»(٣) .

[١٧] وبين أنّ الأصل الذي يخلق عليه الدين، ثم بعد ذلك يحصل التغير لتلك الفطرة، ومراده أنّ المرء يولد على الإسلام، فقال : «وذلك أنّ المراد يخلق سليماً

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣١٧) .

(٢) عارضة الأحوذي (٨/ ٣٠٤) .

(٣) القبس (٢/ ٤٣٥) .

على الملة والفطرة والدين، ثم تنشأ العيوب، فإن تمادى هلك أو عذب، وإن عاد على حال السلامة نجا وسلم»[(١)].

فبين معنى الفطرة، وأنها الميثاق الذي أخذ على بني آدم وهم في الأصلاب، ثم بعد ذلك ما يحصل من الفساد في الاعتقاد أمر طارئ إما على يدي أبويه وإما بقرين... وهذا كله يظهر معنى الفطرة الذي يتوافق مع قول السلف.

[١٨] وأورد المازري الخلاف في معنى الفطرة، ثم ردّ الأقوال المخالفة لتفسير الفطرة بالإسلام، مما يظهر تأييده لهذا القول. فعند شرحه لحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة...**» قال: «ذهب بعض الناس إلى أنّ المراد بالفطرة المذكورة في الحديث ما أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وأنّ الولادة تقع عليها حتى يقع التغيير بالأبوين. وذهب بعض االناس إلى أنّ الفطرة هي ما قضي عليه من سعادة أو شقاوة يصير إليها، وهذا التأويل إنما يليق بما في بعض الطرق، وهو قوله: «**على الفطرة**» مطلقًا، وأمّا ما وقع في بعض الطرق ـ وهو قوله: «**على هذه الفطرة**»، وقوله في أخرى: «إلّا وهو على هذه الملة» ـ فإنّ هذه الإشارة إلى فطرة معينة، وملّة معيّنة تمنع هذا التأويل، وقد يتعلق هؤلاء بقوله: «**إنّ الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً**»[(٢)]، وظاهر هذا يمنع من كل مولود على هذه الفطرة، وقد ينفصل الآخرون عنه بأن المراد به حالة ثانية طرأت عليه من التهيّؤ للكفر وقبوله عليه، غير الفطرة التي ولد عليها، وقال آخرون: يحتمل أن يريد بالفطرة ما هيئ له، وكان مناسباً لما وضع في العقول، وفطرة الإسلام صوابها كالموضوع في العقل، وإنما يدفع العقل عن

---

(١) عارضة الأحوذي (١٣/ ٥٤).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر ((٤/ ١٨٥٢) برقم (١٧٢).

إدراكه آفة وتغيير من قبل الأبوين وغيرهما»[١].

فذكره الأقوال السابقة والرد عليها، ثم ذكر تفسير الفطرة بالإسلام ووجه ذلك، وعدم رده عليها يدل على اختياره لهذا القول.

[١٩] وقد وجه أيضًا الحديث القدسي الذي قال الله تعالى فيه - فيما يرويه عنه رسوله ﷺ -: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلّا من هديته...**»[٢]، فقال: «ظاهره أنّ الناس على الضلال يخلقون إلّا من هداه سبحانه، وقد ذكر في الحديث الآخر أنهم على الفطرة يولدون، وقد يراد بهذا هاهنا وصفهم بما كانوا عليه قبل بعثة النبي ﷺ، أو أنهم إن تركوا وما في طباعهم من إيثار الراحة وإهمال النظر ضلوا إلّا من هداه سبحانه»[٣].

[٢٠] وقد جمع القرطبي بين الحديثين بأنه لا تعارض بينهما، فقال: «لا معارضة بين قوله تعالى: «كلكم ضال إلّا من هديته» وبين قوله: «كل مولود يولد على الفطرة»؛ لأنّ هذا الضلال المقصود في هذا الحديث هو الطارئ على الفطرة الأولى المغيّر لها، الذي بينه النبي ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر، حيث قال: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء»[٤].

[٢١] وذكر ابن عبد البصري: «أنّ الخلق يقرّون بربوبيته، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به على ألسنة السفراء...»[٥].

---

(١) المعلم (٣/ ١٨٠).

(٢) خرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧).

(٣) المعلم (٣/ ١٦٥).

(٤) المفهم (٦/ ٥٥٢).

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٥٠٩). تحقيق د. محمّد رشاد سالم. ط. دار الكنوز الأدبية.

[٢٢] وأورد القرافي قول الباجي السابق في معنى الفطرة[1]، ثم قال: «قال بعض العلماء: حمل الفطرة على التهيؤ أحسن؛ أي خلق الإنسان على حالة لو خلّي وإياها لكان موحّداً، وإنما العوائد تمنع.

ووجه الترجيح في القضاء على أولاد الكفار بأحكام الكفر من الاسترقاق وغيرها مع حصول الإيمان الفعلي خلاف القواعد، وأيضاً فإنا نقطع أنّ الطفل يتعذر في مجاري العادات أنه عارف بالله تعالى، فلا يمكن أن يكون ولد على الفطرة إلّا بمعنى التهيؤ والقبول»[2].

فما ذكره القرافي عن بعض العلماء مقرًّا له لا يختلف عن قول السلف في معنى الفطرة كما سبق، وذكر القرطبي أنهما متفقان في المعنى[3].

ويوضح ذلك فيما نقله: «خلق الإنسان على حالة لو خلي لكان موحّدًا»، فهذا يفهم منه أنه على الإسلام في الأصل، وإنما يحصل له بعد الإدراك والعقل معرفة الحق؛ لأنه لا يولد عالمًا، وإذا ما طرأ على تلك الفطرة طارئ من الأبوين أو غيرهما، انصرفت تلك الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية.

[٢٣] وأما ابن أبي جمرة فعند شرحه حديث سمرة بن جندب الطويل في صحيح البخاري، وفيه: «... والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم، والصبيان حوله فأولاد الناس»[4]، قال: «احتمل الألف واللام هنا أن تكون للجنس، فيكون

---

(١) قول أبي الوليد الباجي ص ١٥٨ .

(٢) الذخيرة (١٣/ ٢٧٩).

(٣) ما ذكره القرطبي ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٤) الحديث عن سمرة بن جندب قال: كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟». قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها، فيقول ما شاء الله. فسألنا يومًا =

المراد: أولاد المؤمنين والكافرين ؛ لأنه قد جاء أنّ أولاد الكفار يكونون في الجنة خدمًا للمؤمنين، لأنهم على فطرة الإسلام، فيكونون بعد في أصل الإسلام، لأنه ﷺ قد قال: «**ما من مولود يولد إلّا على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»(١).

فصرح رحمه الله ببيان معنى الفطرة وأنها الإسلام الذي يولد عليه «أولاد الناس»كما في رواية البخاري لحديث إبراهيم، فكانوا في كفالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لأنهم ولدوا على الفطرة ـ الإسلام ـ.

[٢٤] وبين ابن جزي إقرار جميع الخلق بربوبيته سبحانه، فقال: «اعلم أن العالم العلوي والسفلي كله محدث بعد العدم، شاهد على نفسه بالحدوث، وشاهد لخالقه بالقدم(٢)، وذلك لما يبدو عليه من تغير الصفات وتعاقب الحركات والسكنات، وغير ذلك من الأمور الطارئات، وكل محدث لا بد له من محدِث أوجده، وخالق خلقه، إذ لا بد لكل فعل من فاعل، فجميع الموجودات من الأرض والسماوات والحيوان والجمادات والجبال والبحار والأنهار والأشجار والثمار

= فقال: «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟». قلنا: لا. قال: «لكني رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي. . .» فذكر الحديث بطوله. خرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/ ٢٥١) برقم (١٣٨٦).

(١) بهجة النفوس (٢/ ١٢٣).

(٢) القديم ليس من أسماء الله تعالى الحسنى، قال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن. .﴾، وقال ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء. . .» الحديث. خرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٤) برقم (٢٧١٣).

والأزهار والرياح والسحاب والأمطار والشمس والقمر والنجوم والأزهار، واختلاف الليل والنهار، وكل صغير وكبير: تظهر منه آثار الصنعة ولطائف الحكمة والتدبير، ففي كل شيء دليل ساطع وبرهان قاطع على وجود الصانع، وهو ربّ العالمين، وخالق الخلق أجمعين، الملك الحقّ المبين، الذي احتجب عن الأبصار بكبريائه وعلو شأنه، وظهر للبصائر بقوة سلطانه ووضوح برهانه، فما أعظم برهان الله، وما أكثر الدلائل على الله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وحسبك الفطرة التي فطر الناس عليها، وما يوجد في النفوس ضرورة من افتقار العبودية، ومعرفة الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]»(١).

[٢٥] وقال ـ عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]ـ: «منصوب على المصدر؛ كقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، أو مفعول بفعل مضمر تقديره: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله. ومعناه: خلقة الله، والمراد به دين الإسلام؛ لأن الله خلق الخلق عليه، إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه...**».

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أنّ الله لا يبدلها: أي لا يخلق الناس على غيرها، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجنّ بعد الخلقة الأولى»(٢).

---

(١) القوانين الفقهية (١٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٢٦٥ـ٢٦٦).

[٢٦] وأما الزرقاني فذكر عند شرحه حديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**» أنّ الحديث عامّ في جميع المولودين على ظاهره، وأصرح منه رواية البخاري: «ما من مولود إلّا وهو على الملة»[١]، ثم ردّ على الذين لا يرون العموم، فقال: «ويكفي في الردّ عليهم الرواية عن أبي هريرة ﷺ: «ليس من مولود إلّا على هذه الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه»، وأصرح منه رواية: «كل بني آدم...»».

ثم بين معنى الفطرة، فقال: «وأشهر الأقوال أنّ المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبدالبر: وهو المعروف عند عامّة السلف...ـ ثم ذكر الآية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ..﴾، وحديث أبي هريرة وحديث عياض بن حمار[٢] ـ ﷺ ـ، ثم قال ـ: «ورجح بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، لأنها إضافة مدح، وقد أمر الله نبيّه بلزومها؛ فعلم أنّها الإسلام»[٣].

فنص على أنّ معنى الفطرة: الإسلام.

[٢٧] ونقل محمّد المختار قول ابن حجر في الفتح عند شرح الحديث: «كل مولود...»: «تعميم الوصف المذكور في المولودين...»[٤].

ثم أورد الخلاف في معنى الفطرة، ثم قال: «وأشهر الأقوال أنّ المراد بالفطرة في الحديث: الإسلام»[٥].

---

(١) لم أجدها في البخاري، وهي عند مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة من رواية ابن نمير (٤/ ٢٠٤٨) برقم (٢٦٥٨).

(٢) حديث أبي هريرة سبق تخريجه ١٥٥، وحديث عياض بن حمار سبق تخريجه ص ١٥٦.

(٣) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٨٧).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٤٨).

(٥) نور الحق الصبيح (٢/ ٧٤٩ـ٧٥٠).

[٢٨] وقال ابن عاشور: «أمّا المخلوقات الأرضية الفضلاء فهم مخلوقون للطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادًا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلًا أو كثيراً: هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق، متفاوتون فيه»(١).

[٢٩] وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . . .﴾ [الروم: ٣٠] قال: «أي: الدين الذي هو فطرة الله ؛ لأن التوحيد هو الفطرة، والإشراك تبديل للفطرة».

[٣٠] وبيّن معنى الفطرة بقوله: «ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف: أنّ الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله ؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان وتفكيره ـ ولم يلقّن اعتقادًا ضالًا ـ لاهتدى إلى التوحيد بفطرته»(٢).

[٣١] وعند قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ قال: «تصريح بأنّ الله خلق الناس سالمةً عقولهم مما ينافي الفطرة، من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأنّ ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلّا من جرّاء التلقّي والتعوّد، وقد قال النبي ﷺ: يولد على الفطرة، ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تولد

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٠/ ٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٩٠).

البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء؟ أي: كما تولد البهيمة من إبل أو بقر أو غنم كاملة جمعاء أي بذيلها، أي: تولد كاملة ويعمد بعض الناس إلى قطع ذيلها وجدعه، وهي الجدعاء».

[٣٢] وبيّن اختصاص الإسلام بكونه دين الفطرة، وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختصّ بها الإسلام من بين سائر الأديان(١).

[٣٣] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ...﴾ [آل عمران: ١٩٠] قال: «فوجه دلالة هاته الآيات على الوحدانية أنّ هذا النظام البديع في الأشياء المذكورة، وذلك التدبير في تكوينها وتفاعلها، وذهابها وعودها ومواقيتها؛ كل ذلك دليل على أنّ لها صانعاً حكيماً متّصفاً بتمام العلم والقدرة التي تقتضيها الإلهية. ولا جرم أن يكون الإله الموصوف بهاته الصفات واحداً، لاعتراف المشركين بأن نواميس الخلق وتسيير العالم في فعل الله تعالى، إذ لم يدعوا لشركائهم الخلق، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وذكر في سورة النحل الاستدلال ببعض ما هنا على أن لا إله مع الله، فالمقصود التذكير بانتفاء حقيقة الإلهية عن شركائهم»(٢).

[٣٤] وأما الشيخ الشنقيطي فقد بين أنّ الإقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري، فطر الله الخلائق عليه، وتعرفه النفوس؛ حيث يقول: «هذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]،

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٨٨).

وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]»[١].

فالشيخ يؤكّد أنّ القلوب مفطورة على هذا النوع من التوحيد، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أفي الله شك﴾، وقوله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلّا على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[٢].

[٣٥] وذكر ابن باديس أنّ الله أوجد خلقه على التوحيد. قال ـ عند قوله تعالى: ﴿لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ ـ: «خلق الله الخلق حنفاء موحّدين، فأتتهم الشياطين فأضلّتهم عن سواء السبيل».

[٣٦] ثم بيّن حال تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها، فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها؛ من عبادة الأوثان، وارتكاب الإثم والعدوان، وأنواع الضلال والخسران، معرضةً عن توحيد خالق الأرض والسماوات، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات، طال عليها أمد الجهالة، واستولت عليها أسباب الضلالة، فتمكنت منها الغفلة التمكّن التام، فذهبت في أوديتها البعيدة المدى كالأنعام، أو أضلّ من الأنعام[٣].

فظهر من كلامه أنّ التوحيد هو الذي خلق الله عليه الخلق، وأنّ ما حصل لهم بعد ذلك من الشياطين التي أدتهم إلى تقليد آبائهم وأتباعهم، والإعراض عن توحيد الخالق سبحانه، فهم بحاجة إلى من ينبّههم من غفلتهم، ويدعوهم إلى أصل فطرتهم.

[٣٧] وذكر محمّد المكّي أنّ الإسلام هو دين الفطرة القيّم الذي لا تناقض في

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٠).

(٢) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١/ ٩٩) د. عبدالعزيز الطويان.

(٣) تفسير ابن باديس (٢٨٩).

عقيدته، ولا اعوجاج في شريعته، فهو الملائم للفطرة، المنسجم معها منذ البداية، وهو الموافق للنظر الصحيح، والمطابق للعقل السليم(١).

وذكر أقدم وأول ميثاق أخذه الله على كافة العباد وهم يزالون في أصلاب آبائهم سرًا مكنوناً في عالم الغيب، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو يتضمّن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان، على أساس من التوحيد والإيمان، فما من إنسان وُكل إلى فطرته الأولى، ولم تتعرض فطرته لعوامل التشويه والإفساد؛ إلّا وهو مقرّ بألوهية الله وربوبيته للعباد، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق، دون معارضة ولا جحود، وبدون أي قيد من القيود، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾.

حتى إذا ما وقع الإنسان بين أيد غير أمينة، فعملت على تشويه فطرته وإفسادها انحرف عن الفطرة السليمة، واختلطت عليه العقيدة الصحيحة بالمعتقدات السقيمة، ونسي الميثاق الأزلي المعقود بين فطرته وبين ربّه، ووقع في شرك الشيطان وحزبه(٢).

ثم استدلّ بحديث عياض بن حمار، وبحديث أبي هريرة: «**كل مولود يولد على الفطرة**».

وبهذه النقول عن هؤلاء الأئمة يتبيّن أنّ غالب الخلائق تقرّ بربوبية الله ﷻ، وهو مقتضى الفطرة.

*****

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٠).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ٢٩٠).

المبحث الثاني

الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة

تقدم في الكلام على معرفة الخلق لربهم أنها أمر فطري قد غرس في نفوس البشرفي أصل خلقتهم، فيلزم من هذا الإقرار إفراده تعالى وحده بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]. وكقوله سبحانه ـ مشنّعاً على المشركين بعبادتهم غيره سبحانه ـ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

فالربوبية تقتضي استحقاق العبادة لله الخالق وحده، والآيات في هذا المعنى كثيرة، أي التي تنكر على هؤلاء كيف أقرّوا بالربوبية وأنكروا الألوهية؟! كما في قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾. قال عكرمة في تفسير الآية: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره![1].

وأئمة المالكية ساروا على هذا النهج القرآني القويم في الاحتجاج على هؤلاء المقرّين بالربوبية، ومطالبتهم إياهم بحقها المتمثل في الالتزام بعبادته ﷻ وحده لا شريك له.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣١٢).

[١] قال الباقلاني: «ويجب أن يعلم أنّ صانع العالم جلّت قدرته واحد أحد، ومعنى ذلك أنه ليس معه إله سواه، ولا يستحق العبادة إلّا إياه»(١).

فأثبت الربوبية، ولازم من أثبتها أن يفرد الله تعالى بالعبادة، إذ لا يستحق العبادة إلّا هو سبحانه.

[٢] أما ابن بطال فعند شرحه حديث: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»(٢) قال: «كيف تقتله وقد خلق رزقه؟! فلا يأكل من رزقك شيئاً، فمن خلقك وخلقه ورزقك ورزقه أحقّ بالعبادة من الند الذي اتخذت معه شريكاً»(٣).

[٣] وعند قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾(٤) نقل قول شيخه المهلّب مقرًا له: «فمن علم أنّ الله خلق كل شيء فقدّره تقديراً، فلا ينسب شيئاً من الخلق إلى غيره، فلهذا ذكر هذه الآيات في نفي الأنداد والآلهة المدعوة

---

(١) الإنصاف (٣٣).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب (١/ ٩٠) برقم (٨٦)، والبخاري بلفظ: «أي الذنب أكبر عند الله؟» في كتاب التفسير، باب ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر﴾ (٨/ ٤٩٢) برقم (٤٧٦١).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٢٢).

(٤) قال عكرمة: «نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له ندًا وعِدلًا في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها عليكم؛ فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً وندًا من خلقي، فإنكم تعلمون أنّ كل نعمة عليكم فمنّي». تفسير الطبري (١/ ١٩٩). ط. الباز.

معه، فمنها ما حذر به المؤمنين، ومنها ما وبخ به الكافرين الضالين، ثم أثنى على المؤمنين في قوله: ﴿والذي لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾، يريد: كما يدعو عبدة الأوثان لترزقهم وتعافيهم، وهي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعاً».

فبيّن أنّ الله ﷻ هو الخالق الرازق، فمن خلق ورزق أحقّ أن يعبد، فالأوثان وغيرها لا ترزق ولا تعافي، ولا تملك لهم ضرًا ولا نفعاً.

[٤] وذكر الباجي في رده على راهب فرنسا قوله: «ولو جاز أن يقال: عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الخالق، لما ظهر من ذلك على يده، والمنفرد بفعله؛ لجاز أن نقول: إن آدم وإبراهيم وموسى ومحمداً وسائر الأنبياء عليهم السلام انفردوا بخلق ما ظهر على أيديهم، وإن جميعها من خلقهم، وإنهم لذلك آلهة يعبدون! وذلك محال؛ فلا خالق إلّا الله، ولا معبود سواه، وهؤلاء أنبياء مكرمون ورسل مؤيدون، صدقهم الله تعالى بما ظهر على أيديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره، ولا يصح أن يخلقها سواه»[١].

فمراده رحمه الله أن الذي خلق وأوجد هو الذي يستحق أن يعبد، وهؤلاء الأنبياء والرسل إنما هم من خلقه، ولكن الله أيّدهم بالمعجزات ليظهر صدقهم وتقبل رسالتهم.

[٥] وقال ابن عطية ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ـ: «تقرير لهم على جهة التوبيخ في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته: أن من فطر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود؛ فهو الذي يستحقّ أن يُعبد».

وفي موضع آخر قال – عند قوله تعالى: ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده . . .﴾ –: «ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٦١-٦٢).

بالإله الخالق المبدع»(١).

[٦] وأكّد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾، فقال: «ثم عدد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم، وذلك أنهم مع اتخاذهم آلهة كانوا يقرّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، إلّا أنهم قال بعضهم: اتخذ الملائكة بنات! وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم، واليهود في عزير، فجاءت هذه الآية رادّة على جميعهم منبهة عليهم»(٢).

والمعنى: كيف تقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق، ثم بعد ذلك تعبدون غيره؟؟!

[٧] وعند قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] قال: «أي: المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق»(٣).

فما ذكره رحمه الله في الكشف عما ترشد إليه الآية نص على أنه إذا كان الله ربكم الحق، فهو المستوجب للعبادة وحده.

وذكر القرطبي هذا المعنى.

[٨] فعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] قال: «بين أنه المتفرّد بقدرة الإيجاد، فهو الذي

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤١٩).
(٢) المحرر الوجيز (١٠/ ١٣٩).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ١١٨).

يجب أن يعبد»(١).

[٩] وعند قوله تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم الحق...﴾ قال: «أي الذي تحقّ له الألوهية، ويستوجب العبادة، فتشريك غيره ضلال وغير حقّ».

وبيّن أيضا الاحتجاج على هؤلاء المشركين المقرين بأن الله خلقهم بأن الإقرار بمخلوقيتهم لله ﷻ يستوجب القيام بحق الخالقية، وهو أن يعبدوه وحده.

[١٠] فعند قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ قال: «أمر بالعبادة له... ﴿الذي خلقكم﴾: خص تعالى خلقه، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعاً لهم»(٢).

[١١] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال: «أي: ذلكم الذي فعل هذه الأشياء - من خلق السماوات والأرض - هو ربكم لا ربّ لكم غيره... ﴿فاعبدوه﴾: أي وحّدوه وأخلصوا له العبادة... ﴿أفلا تذكرون﴾: أي إنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه»(٣).

[١٢] وذكر عند قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: «عجب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه، مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة»(٤).

[١٣] وعند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٢١٨).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٢٦).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٨).

(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥).

لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] قال: «نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون؛ من أنّ الملائكة أولاد الله! يعني بنات الله! ﷻ وعما قالت اليهود: عزير ابن الله! جلّ الله تعالى. وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله! تعالى الله عن ذلك.

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ كما قال عبدة الأوثان.

﴿وخلق كل شيء﴾ لا كما قال المجوس والثنوية[1]: إن الشيطان ـ أو الظلمة ـ يخلق بعض الأشياء!! ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد.

فالآية ردّ على هؤلاء.

﴿فقدّره تقديرًا﴾ أي: قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراده، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة، وبعد القيامة، فهو الخالق المقدّر، فإياه فاعبدوه»[2].

فمراده إظهار ما دلت عليه النصوص من أنّ هؤلاء يقرون بأن الله ربهم الذي خلقهم ورزقهم، ثم هم بعد ذلك لا يخصونه بالعبادة، وهذا من انتكاس الفطر والعياذ بالله.

[١٤] وأما أبو العباس القرطبي، فعند حديث: «إنّ الشمس والقمر آيتان من

---

(١) الثنوية: فرقة تنسب إلى ماني بن فاتك المولود سنة ١٢٦م، فارسي الأصل، وتقوم عقيدتهم على ثنائية الإله، فهناك إله للنور وإله للظلمة، والأول إله للخير والخصب والثمار، والثاني إله للشر والدمار! انظر: نقد المسلمين للثنوية المجوس (٧) من رسائل الإمام القاسم الرسي. ط. دار الآفاق، ط. الأولى ١٤٢٠هـ، القاهرة.

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢-٣).

آيات الله تعالى . . . »[(١)] قال : «أي : دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال إلهيته . . . »[(٢)] ـ إلى قوله ـ : «وأيضا كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله ، وتمام قهره واستغنائه ، وعدم مبالاته ، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته ، كما قال تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ، وخص هنا خسوفهما بالتخويف ؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان ، والنادر العظيم مخوف موجع ، بخلاف ما يكثر وقوعه ، فإنه لا يحصل منه ذلك غالباً ، وأيضاً فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما ، ولما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما»[(٣)] .

فبين أنّ هذه المخلوقات العظيمة تدل على عظمة خالقها الذي أوجد كل ما في هذا العالم وأحكمه ، وقهر المخلوقات بقدرته ، فذلك كله يوجب خوفه وخشيته وتعظيمه وحده ، لأنه الموجد لتلك المخلوقات العظيمة التي عبدت من دون الله ؛ كالشمس والقمر .

[١٥] وأما ابن جزي ؛ فعند تفسيره لسورة الإخلاص قال : «وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته ، وذلك في القرآن كثير جدًا ، فمنها قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧] ؛ لأنه إذا ثبت أنّ الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحد منها شريكاً له . . . »[(٤)] .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف (٢/ ٥٢٩) برقم (١٠٤٤) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف (١/ ٦١٨) برقم (٩٠١) .

(٢) المفهم (٢/ ٥٥٢) .

(٣) المفهم (٢/ ٥٥٣) .

(٤) التسهيل (٤/ ٤٤٦) . وانظر ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٢٠) .

[١٦] وقال أيضاً: «تقرير يقتضي الرد على من عبد غير الله. . . وذكر من أول السورة أنواعاً من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(١).

[١٧] وأكّد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، فقال: «نزلت في كفار العرب الذين يقرّون بالله ويعبدون معه غيره»(٢).

[١٨] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] قال: «كأنه يقول: إنما أدعوكم إلى عبادة ربكم الذي خلق السماوات والأرض، فكيف تنكرون ذلك وهو الحقّ المبين؟!»(٣).

وبيّن بطلان عبادة الأصنام، إذ لا تقدر على خلق شيء.

[١٩] فقال ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ. . .﴾ الآية: «تنبيه بالأصغر على الأكبر من باب أولى وأحرى، والمعنى: أنّ الأصنام التي تعبدونها لا تقدر على خلق الذباب ولا غيره، فكيف تعبد من دون الله الذي خلق كل شيء»(٤).

[٢٠] وعند قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً

---

(١) التسهيل (٢/ ٢٧٧).

(٢) التسهيل (٢/ ٢٣٥).

(٣) التسهيل (٢/ ١٦٣).

(٤) التسهيل (٣/ ١٠٠).

فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ يقول ابن جزي تحت عنوان: «ثلاث فوائد:

الأولى: الآية ضمنت دعوة الخلق إلى عبادة الله بطريقين:

أحدهما: إقامة البراهين بخلقهم وخلقه السماوات والأرض والمطر.

الآخر: ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام، فقد ذكر أولاً ربوبيته لهم، ثم ذكر خلقته لهم وآبائهم؛ لأن الخالق يستحقّ أن يعبد، ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً، ومن إنزال المطر، وإخراج الثمرات؛ لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر.

الثانية: المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله، وترك ما عبد من دونه، لقوله في آخرها: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا: لا إله إلّا الله، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام، الذي قاعدته التوحيد...

الثالثة: وقول: لا إله إلّا الله، تكون في القرآن بعد ذكر المخلوقات والتنبيه على الاعتبار في الأرض وفي السماوات، والحيوان والنبات، والرياح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار... وأكثر ما يأتي ذكر المخلوقات في القرآن في معرض الاستدلال على وجوده تعالى، وعلى وحدانيته»(١).

فمراده رحمه الله ظاهر في بيان أسلوب القرآن في دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى، فإيجاد المخلوقات من أعظم الأدلة التي استعملها القرآن لإثبات وجود الباري ﷻ، والتدليل على تفرّده بالربوبية والألوهية: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

[٢١] وقال القرافي في ديباجة كتاب الذخيرة: «الحمد لله الذي تجلّى لخلقه في

---

(١) التسهيل (١/ ٧٠-٧١)، وابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٢٤-٥٢٥).

عجائب مبتدعات صنعته، واحتجب عنهم كمال هويته، وتفرد بوجوب الوجود[١]، فهو الأبدي في قيوميته، وتوحد بالإيجاد، فكل الأكوان خاضعة لجلال هيبته، وتنزَّه عن الشبيه والشريك؛ فهو الواحد الأحد في إلهيته»[٢].

فبيّن ربوبية الله ﷻ وعظمته، وأنه سبحانه الواحد الأحد في إلهيته، المنزَّه عن الشريك.

[٢٢] وأطال ابن العربي الكلام حول النظر في الآيات والمخلوقات، وذلك لتثبت القلوب على التوحيد والعبادة، فقال: «أمر الله تعالى بالنظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من آي القرآن، أراد بذلك زيادة في اليقين وقوة في الإيمان، وتثبيتاً للقلوب على التوحيد».

[٢٣] ثم بين أنّ الإيمان بالله بمعرفته ومعرفة صفاته وأفعاله وملكوته في أرضه وسمائه، ولا يحصل ذلك إلّا بالنظر في مخلوقاته، وهي لا تحصى كثرة، وأمهاتها السماوات، فترى كيف بنيت وزينت من غير فطور، ورفعت بغير عمد، وخولف مقدار كواكبها، ونصبت سائرة شارقة وغاربة، منيرة وممحوة، كل ذلك بحكمة ومنفعة... الخ.

فذكر ملكوت الله ﷻ في أرضه وسمائه، ما فيهما من المخلوقات والكائنات والإنسان وإيجاده، وما فيه من الآيات.

[٢٤] ثم قال: «فينظر حينئذ أنه عبد مربوب مكلّف مخوّف بالعذاب إن قصّر،

---

(١) إطلاق لفظ «واجب الوجود» على الله ﷻ مما ابتدعه الفلاسفة، وتبعهم المتكلمون على ذلك، وليس في الكتاب والسنة إطلاق هذا الاسم على الله ﷻ، والأصل في أسمائه ﷻ التوقيف.

(٢) الذخيرة (١/ ٣٣).

مرجى بالثواب إن ائتمر، فيقبل على عبادة مولاه، فإنه وإن كان لا يراه يراه، ولا يخشى الناس، فالله أحق أن يخشاه»[١].

فما ذكره رحمه الله من الاستدلال بأمور الربوبية، من الخلق والتدبير وغيرهما دال على وحدانية الله تبارك وتعالى، وبين ذلك قوله في آخر حديثه ـ بعد أن ذكر المخلوقات وما فيها من الآيات والعبر ـ: «ينظر حينئذ أنه عبد مربوب... فيقبل على عبادة مولاه... ولا يخشى الناس فالله أحقّ أن يخشاه».

[٢٥] وبمثل قوله ما ذكره التتائي بعد إيراده محاجة فرعون لموسى بقوله: ﴿وما ربّ العالمين﴾ إلى أن قال له موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] قال: «تستدلون بما أقول فتعرفون ربكم، وهذا غاية الإرشاد لتنبيهه أولًا على الاستدلال بالعام ـ وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما ـ، ثم ما هو أقرب إليهم ـ وهو أنفسهم وأموالهم ـ، ثم بالمشرق والمغرب وما بينهما من الميزات والموجودات، لزيادة بيان وتدرج في الاستدلال، وليعلم أنّ في كل شيء دليلًا على وحدانيته»[٢].

[٢٦] وذكر الثعالبي[٣] عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] قوله: «معناه: وحّدوه وخصّوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك

---

(١) انظر أحكام القرآن (٢/ ٨١٦-٨١٨).

(٢) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/ ١٦٦).

(٣) هو عبدالرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي، صاحب التصانيف، اختصر تفسير ابن عطية، وشرح ابن الحاجب الفرعي، وعمل في الوعظ وغير ذلك. مات سنة ٨٧٥هـ. انظر: الضوء اللامع (٤/ ١٥٢)، ونيل الابتهاج (١/ ٢٥٧).

سبحانه حجة عليهم»[١].

[٢٧] ونقل محمّد المختار عند شرحه باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] كلام ابن حجر على سبيل الإقرار في أنّ الآية وردت في إثبات استحقاق الخالق العبادة، لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون، فقال: «أتعبدون ما لا يخلق وتدعون عبادة من خلقكم؟!»[٢].

وأما ابن عاشور فقد أطال الكلام حول الاحتجاج بالربوبية على الألوهية من خلال تفسيره لعدة من الآيات.

[٢٨] فعند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] قال: «جملة: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ مفرّعة على قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعاً على وصفه بالربوبية والوحدانية؛ لأن الربوبية مقتضية استحقاق العبادة، والانفراد بالربوبية يقتضي تخصيصه بالعبادة»[٣].

[٢٩] وعند قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] قال: «وهو يخلص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاماً لهم بما يقرّون به من أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، ويقرون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً»[٤].

[٣٠] وبين هذا المعنى أيضاً عند قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ

(١) تفسير الثعالبي (١/ ١٩٥). ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت، لبنان. ط. الأولى.

(٢) نور الحق الصبيح (١٠/ ٦٣٣). وانظر فتح الباري (١٣/ ٥٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٣).

﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨]، فقال: «لأن انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية، أي على بطلان إلهية أصنامهم»[١].

[٣١] وعند قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] قال: «ضمير «له» عائد إلى اسم الجلالة من قوله: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين﴾، فعطفه على جملة: ﴿إنما هو إله واحد﴾؛ لأن عظمة الإلهية اقتضت الرهبة منه، وقصرها عليه مناسب أن يشار إلى أن صفة المالكية تقتضي إفراده بالعبادة»[٢].

[٣٢] قال: «المقصود: التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره. . . . ـ إلى قوله ـ: ففي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير، فهو الرب الحقّ المستحقّ للعبادة. . . »[٣].

[٣٣] وختم حديثه حول هذا المعنى؛ فعند قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض. . . ﴾ حيث قال: «لما تقرر بالقول السابق[٤] عبودية ما في السماوات والأرض لله، وأنّ مصير كل ذلك إليه؛ انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكاً لجميع ما احتوته السماوات والأرض»[٥].

وأما محمّد الأمين فقد بين أنّ الإتيان بتوحيد الربوبية لا ينفع إلّا إذا انضم له

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٧).

(٤) يريد في الآية التي قبلها: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله. . . ﴾، ومراده المالكية.

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ١٥٦).

توحيد الألوهية.

[٣٤] قال ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] ـ: «صرّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الكفار يقرّون بأنه ـ جل وعلا ـ ربهم الرازق المدبّر للأمور، المتصرف في ملكه بما يشاء، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته، ومع هذا أشركوا به جل وعلا، والآيات الدالة على أنّ المشركين يقرّون بربوبيته جلّ وعلا ـ ولم ينفعهم ذلك؛ لإشراكهم معه غيره في حقوقه جلّ وعلا ـ كثيرة، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ـ إلى قوله ـ: فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات المذكورة صريحة في أنّ الاعتراف بربوبيته جل وعلا لا يكفي في دخول دين الإسلام، إلّا بتحقيق معنى لا إله إلّا الله نفياً وإثباتاً»(١).

[٣٥] ثم بين أنّ الآيات الدالة على توحيد الربوبية إنما هي لإلزام المشركين أن يوحّدوه في العبادة، فيقول: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه المستحق

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٤٨١-٤٨٢ و ٣/ ٧٤-٧٥، ٤١٠)، والمعين والزاد ص (٦٥).

لأن يعبد وحده ؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يُعبد وحده»[١].

[٣٦] ثم ذكر أن الله ﷻ وبخ الكفار على إقرارهم بربوبيته ثم هم بعد ذلك يشركون في ألوهيته، فقال: «من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ـ إلى قوله ـ: فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فلما أقرّوا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿أفلا تتقون﴾، إلى غير ذلك من الآيات».

وذكر أن المشركين في حال الشدة يفزعون إلى الله، ويخلصون العبادة، ويعرضون في حال الرخاء، وهو تذكير للكفار بما في نفوسهم من التوحيد.

[٣٧] فعند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] قال:

«لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أنّ الله ذمّ الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقّه لمخلوق، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أنّ بعض جهلة المتسمّين بالإسلام أسوأ حالًا من عبدة الأوثان ؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممّن يعتقدون فيه الصلاح! في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أنّ الله جل وعلا أوضح في غير موضع أنّ إجابة

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١١ و ٥/ ٨١٣ و ٦/ ٦٢٠).

المضطر وإنجاده من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره(١) . . . »(٢) .

[٣٨] وعند قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر : ١٣] قال :

«ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه جلّ وعلا هو الذي يري خلقه آياته ، أي : الكونية القدرية ؛ فيجعلها علامات لهم على ربوبيته ، واستحقاقه العبادة وحده ، ومن تلك الآيات : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت : ٣٧]، ومنها : السماوات والأرض وما فيها ، والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، والبحار ، والأنهار ، والعيون ، والجبال ، والأشجار . . . الخ»(٣) .

[٣٩] وختم كلامه في ذلك بأنّ الاستفهامات المتعلقة بآيات توحيد الربوبية استفهامات تقرير لا إنكار . يقول : «إنّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير ، يراد منها أنهم إذا أقرّوا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك

---

(١) ولذا أسلم عكرمة ﷺ ؛ فقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ لماّ أهدر يوم الفتح دم جماعة ـ منهم عكرمة ابن أبي جهل ـ هرب من مكة وركب البحر ، فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ! فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً . فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلّا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره ، االلّهمّ إنّ لك عهداً إنْ أنتَ عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنّه عفوًا كريماً . فجاء فأسلم .
والقصة خرجها أبو يعلى في مسنده (٢/ ١٠١) برقم (٧٥٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ١٧٥)، وذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٩) .

(٢) أضواء البيان (٣/ ٦١٤-٦١٥) .

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٤) .

الإقرار؛ لأن المقرّ بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] ـ وإن زعم بعض العلماء أنّ هذا استفهام إنكار ـ لأن استقراء القرآن دلّ على أنّ الاستفهام المتعلّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه»[1].

[٤٠] وذكر أيضاً عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]: «ولا شكّ أنّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا؛ أي: ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل من ذلك المذكور؛ من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعيّن اعترافهم وبّخهم منكِراً عليهم بقوله: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾»[2].

فتوحيد الربوبية[3] مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمّن لتوحيد الربوبية.

[٤١] وذكر ابن باديس عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] قوله: «وجيء باسم الرب في مقام الأمر يقصر العبادة عليه، تنبيهاً على أنّ الذي يستحقّ العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام، وليس ذلك إلّا له، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه، فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٤).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤١٣).

(٣) أطال الشيخ محمّد الأمين الكلام على أنّ الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده، لأمور كلها داخلة في الربوبية، أخذاً من قوله تعالى: ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً﴾. انظر معارج الصعود (٣٠٧).

مقتضاها انفراده بالخلق والأمر الكوني الشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته»[١].

[٤٢] وقال محمّد المكي ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣] ـ: «يثبت الله عبودية المخلوقات كلها للإله الواحد الأحد؛ فله ما سكن وله ما تحرك في الليل والنهار من كافة العوالم، وجميع الأفلاك، ما علا منها وما سفل، وما نطق وما لم ينطق»[٢].

[٤٣] وفي الآية التي بعدها: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤] قال: «وفي ثاني آية منه يلقن كتاب الله للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ما يفحم به المشركين المعاندين، فيتساءل في لهجة الاستنكار والاستغراب: كيف يتخذ الإنسان له وليًا غير الله!؟ وكيف يستنصر بمن سواه؟ والله مبدع السماوات والأرض، الذي يرزق الخلق ويطعمهم، وهو مع ذلك غني عنهم جميعاً...»[٣].

[٤٤] ويقول أيضاً: «ولا شك أنّ مجرد الفكر السليم والفطرة التي فطر الناس عليها يدفعان بالإنسان مهما بلغ من الجحود والعناد إلى الاعتراف والاقتناع بأن شهادة الخالق هي فوق شهادة كل مخلوق كيفما كان: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]»[٤].

[٤٥] وعند قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا

---

(١) تفسير ابن باديس (٦٣).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ١١٠).

(٣) التيسير (٢/ ١١٠).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ١١٢).

أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ؟؟] يقول: «ويأخذ كتاب الله في التنبيه على بعض الحقائق الكونية التي تساعد الإنسان على الوصول بنفسه إلى إدراك عقيدة التوحيد الأساسية، متى أحسن التأمل فيها، واستخلص العبرة منها:

الحقيقة الأولى: أنه ما من جنس جنس، ونوع نوع، وصنف صنف؛ من أجناس الأحياء وأنواعها وأصنافها إلّا وله من الخصائص والصفات المشتركة، والنواميس الثابتة لسائر أطوار حياته ما يجعله ﴿أمة واحدة﴾ مشابهة لما في النوع الإنساني نفسه، من أمم مختلفة الألسنة ومختلفة الألوان، ولا تقل حكمة الله في بقية خلقه، وعنايته بتدبير أمره عن عنايته بالإنسان وتدبيره لأمره، وحكمته في خلقه.

الحقيقة الثانية: أنّ كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها، وتنوّع أنواعها، واختلاف أصنافها هو في نهاية الأمر كما في بدايته شيء واحد متماثل، ونظام واحد متكامل؛ لأنه انبثق عن خالق واحد، نفخ فيه الروح، له الخلق والأمر، وهو الحي القيوم.

الحقيقة الثالثة: أنّ الحق ﷻ الذي انفرد بخلق كل شيء قد انفرد أيضاً بتدبير كل شيء، فما من شيء ـ صغر أو كبر، جلّ أو حقر ـ إلّا وهو محل العناية الإلهية، بحيث لا يلحقه أدنى تفريط ولا إهمال، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وما من جزء من أجزاء الكون إلّا وهو يسير إلى مصيره المحتوم، وفق تدبير محكم ونظام مرسوم، لا يتخلف عنه قلامة ظفر، فمشيئة الله هي القانون الحتمي الأول، وتدبير الله هو القانون الحتمي الأخير.

وبديهي أنّ إدراك هذه الحقائق الثلاث كافٍ لأن يجعل من له أدنى مسكة من العقل، وأقل حظ من التفكير، وأبسط نصيب من الملاحظة مؤمناً بالله من أعماق

قلبه حق الإيمان، بعيداً كل البعد عن الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان»[١].

[٤٦] وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ [سبأ: ٢٤] بقوله: «ورغماً عن وضوح الحجة وسلامة البرهان على أنّ الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم، ومن عبده هو الذي يكون على هدى، وأنّ من لا تأثير له في خلق ولا رزق، ولا شرك له في السماوات والأرض ينبغي أن يهمل ويسقط من الحساب، ومن عبده هو الضال المضلّ. . . »[٢].

ومما سبق يتبيّن خطأ وضلال من أضنوا أنفسهم وبذلوا جهدهم، وأفنوا أعمارهم لتقرير توحيد الربوبية على أنه الذي جاءت به الرسل أممها[٣] دون سواه، إذ إنه من المتقرر في الفطر معرفة الله ﷻ، ودلائل ربوبيته ﷻ واضحة في كل شيء، فالبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وهذا الكون بما فيه من النظام البديع المحكم كله يدل عليه ﷻ، ولهذا كان إقرار الخلق بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته[٤].

يوضّح ذلك: أنّ مبدأ الانحراف ـ الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ ـ عن حقيقة التوحيد لم يكن شركاً في الربوبية، بل كان شركاً في الألوهية في الغالب، وهكذا كل انحراف إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة. قال تعالى ـ عن قوم نوح ـ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ١٩٠).

(٣) كما يقول به المتكلمون. انظر: أصول الدين للبغدادي (ص١٢٣)، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص١٢٤).

(٤) انظر شرح الطحاوية (٢٤)، وتطهير الجنان (٥).

والعرب كانت على بقية من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ حتى جاء عمرو بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة، فنصب هبل وعبده وعظّمه، وتبعه الناس في ذلك[١].

وقد بيّن القرطبي أنّ شهادة أن لا إله إلّا الله تعني عبادة الله وحده دون سواه، ولم يذكر قول المتكلمين الذين جعلوا معناها: أي لا خالق ولا موجود إلّا الله!

قال ـ عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه ﷺ: «بني **الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله...»** ـ: **«قد روي من طرق ؛ ففي بعضها: «شهادة أن لا إله إلّا الله»، وفي بعضها: «على أن تعبد الله وتكفر بما دونه»، فالأولى نقل للفظ، والأخرى نقل بالمعنى»**[٢].

وقال في موضع آخر: «من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة دخل الجنة»[٣].

وقد تبين مما سبق رد القرطبي على المتكلمين في (مسألة أول واجب على العبد)، وتشنيعه عليهم فيما ذهبوا إليه، وبين أنّ أول الواجبات النطق بكلمة التوحيد عند شرحه لحديث معاذ رضي الله عنه.

*****

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٨٣)، وشرح الطحاوية (٢٦)، وصيانة الإنسان (٤٦٥).

(٢) المفهم (١/ ١٦٩).

(٣) المفهم (١/ ٢٩٠).

الباب الثاني

العبادة

وفيه فصلان:

الفصل الأول: تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا

الفصل الثاني: أنواع العبادة وشروط صحتها، وفيه ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول: الأنواع الباطنة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المحبّة

المسألة الثانية: الخوف والرجاء

المسألة الثالثة: التوكل

المسألة الرابعة: الصبر

المسألة الخامسة: التوبة

* المبحث الثاني: الأنواع الظاهرة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الذكر

المسألة الثانية: الدعاء

المسألة الثالثة: الذبح

المسألة الرابعة: النذر

المسألة الخامسة: الطواف

* المبحث الثالث: في شروط صحة العبادة عند المالكية

الفصل الأوّل

تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا

العبادة في اللغة:

قال في المعجم الوسيط: عَبَد الله عبادةً وعبوديةً: انقاد له، وخضع وذلّ. والعبادة هي الخضوع للإله على وجه التعظيم[(١)].

وقال الجوهري: «العبادة الطاعة والتعبد والتنسّك.. وأصل العبودية الخضوع والذلّ.

وقال ابن الأنباري: فلان عابد، وهو الخاضع لربه، المستسلم لقضائه، المنقاد لأمره»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلّل»[(٣)].

وقال القرطبي: «أصل العبودية الخضوع والذلّ، والتعبيد التذليل»[(٤)].

وقال الشيخ محمّد الأمين: «العبادة لغةً الذلّ والخضوع، فكل مذلل معبّد،

---

(١) المعجم الوسيط (٥٧٩) حرف العين. ط. المكتبة الإسلامية ـ إستنبول، تركيا.

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ٢٣٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن (٣١٩). ط. دار المعرفة ـ بيروت.

(٤) تفسير القرطبي (١٧/ ٥٦).

ومنه قيل للرقيق عبد»(١).

فمعاني العبادة في اللغة تدور حول التذلل والخضوع.

العبادة في الاصطلاح:

تقدّم ـ عند الكلام على معنى التوحيد ـ أنّ المراد به إفراد الله بالعبادة التي هي حقّ الله على العباد، كما في حديث معاذ ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي. . . الخ»(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد»(٣). قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال القرطبي: «المعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلّا ليوحّدون»(٤).

أما من لم يوحد الله تعالى من الكفرة فإنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم لا يمتنعون منه إذا نزل بهم، كما قال ابن عباس في الآية: «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا لعبادتنا والتذلل لأمرنا»(٥).

فبين أنّ العبادة والتوحيد بينهما ارتباط وثيق، فالعبادة هي ذات القربة، وأما

---

(١) معارج الصعود (٤٠ـ٤١).

(٢) تقدّم تخريجه ص ٧٥.

(٣) درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد (٣٠٠)، الرسالة الثانية عشرة ضمن رسائل عبدالله بن سعدي الغامدي بعنوان: عقيدة الموحدين. مكتبة الطرفين، ط. الأولى ١٤١١هـ.

(٤) تفسير القرطبي (١٧/ ٥٥).

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٤٧٦).

توحيد العبادة فالمراد صرفها لله وحده لا شريك له، مما يبيّن أهمية الكلام عن العبادة كما سيأتي.

وقد ذكر علماء المالكية عدة تعريفات للعبادة متقاربة المعاني، وقبل ذكر أقوالهم ينبغي التنبيه على أنّ العبادة تطلق باعتبارين:

الأول: من جهة نوع ما يتعبد به، وهي فعل الأمر وترك النهي.

الثاني: من جهة فعل العبد، وهو الخضوع والذلّ.

وكلاهما تضمّنه كلام المالكية فيما يلي:

فقد خرج الإمام مالك في موطّئه حديث الرجل الذي رآه النبي ﷺ قائمًا في الشمس، فقال: «**ما بال هذا؟**». فقالوا: نذر ألّا يتكلّم، ولا يستظلّ من الشمس، ولا يجلس، ويصوم. فقال رسول الله ﷺ: «**مروه فليتكلّم، وليستظلّ، وليجلس، وليتمّ صيامه**»(١).

[١] ثم قال مالك: «ولم أسمع أنّ رسول الله ﷺ أمره بكفارة، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصيةً»(٢).

فبيّن الإمام مالك أنّ معنى العبادة: الطاعة، التي هي فعل الأمر وترك النهي، وهو ما أشار إليه بقوله: إن النبي ﷺ أمره بفعل ما كان لله طاعة، وترك ما كان لله معصية.

وعلى ذلك عرّف أبو العباس القرطبي العبادة بقوله:

[٢] «وعبادة الله إنما هي امتثال أوامره الواجبة والمندوبة، واجتناب نواهيه

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (١١/ ٥٨٥) برقم (٦٧٠٤).

(٢) موطأ مالك، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله (٢/ ٣٧٨) برقم (٦).

المحظورة والمكروهة»[١].

وفي موضع آخر قال: «أصل العبادة الخضوع والتذلل، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى»[٢].

فسمى تلك الأوامر والنواهي وظائف هنا، وأفصح عن حقيقة العبادة بأنها الخضوع والتذلل.

[٣] وقال ابن عطية - في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] -: «معناه: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى»[٣].

[٤] وزاد الأمر وضوحًا قوله: «نعبد: نقيم الشرع والأوامر، مع تذلل واستكانة، والطريق المذلل يقال له معبّد، وكذلك البعير. قال طرفة:

تباري عتاقًا ناجياتٍ وأتبعتْ وظيفًا وظيفًا فوق مورٍ مُعبَّد»[٤].

وإقامة الشرع تكون بفعل المأمور واجتناب المحظور، وهو حقيقة العبادة.

[٥] وقال محمّد الأمين - عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ -: «إلّا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشرّ»[٥].

[٦] وأفصح عن هذا المعنى بقوله: «التقرّب إلى الله جلّ وعلا بامتثال ما شرع

---

(١) المفهم (٤/ ٨٦).

(٢) المفهم (١/ ١٨١).

(٣) المحرر الوجيز (١٥/ ٢٢٦).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ١١٥). وقائل البيت هو طرفة بن العبد، شاعر جاهلي. «شرح المعلقات» (٤٣).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٧٣).

وأمر به واجتناب ما نهى عنه على وجه الخضوع والذلّ والمحبّة»[١].

وتعريفه رحمه الله من التعريفات الجامعة التي تشمل جميع أفراده ؛ فامتثال الأمر واجتناب النهي مع الإتيان بركني العبادة ـ كمال الذلّ مع كمال المحبّة ـ هو حقيقة العبادة.

[٧] وقال الباجي : «العبادة : هي الطاعة والتذلّل لله تعالى باتباع ما شرع»[٢].

وطاعته باتباع ما شرع إنما تكون بفعل ما أمر وترك ما نهى.

[٨] ونحوه قول ابن العربي : «والعبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره»[٣].

[٩] وقال القرافي : «أمرنا سبحانه أن نظهر الذلّ والانقياد لجلاله»[٤].

ومراده الانقياد لأمره ونهيه، وهو معنى العبادة.

[١٠] وأما القرطبي فقال : «وحقيقة العبادة : الطاعة بغاية الخضوع، ولا يستحقّها أحد سوى المالك المعبود»[٥].

[١١] وقال الخرشي : «العبودية : إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله سبحانه»[٦].

وهذا التعريف ـ والذي قبله ـ فيه بيان استحقاق العبادة لله وحده.

---

(١) معارج الصعود (٤١).

(٢) الحدود للباجي (٥٧). ط. دار الآفاق الجديدة، ط. الأولى ـ القاهرة، مصر ١٤٢٠هـ.

(٣) عارضة الأحوذي (١١/ ٧١).

(٤) الذخيرة (٢/ ١٨٩).

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ١٣٠).

(٦) الخرشي على مختصر سيدي خليل (١/ ١٣). دار صادر ـ بيروت.

[١٢] وأشار لهذا المعنى ابن عاشور، فقال: «ولما كان التذلل والخضوع إنما يحصل عن صدق اليقين كان الإيمان بالله وتوحيده بالإلهية مبدأ العبادة؛ لأنّ من أشرك مع ا لمستحقّ ما ليس بمستحق فقد تباعد عن التذلل والخضوع له»(١).

[١٣] وفي موضع آخر قال: «العبادة تعرف بأنها فعل ما يرضي الربّ من خضوع وامتثال واجتناب، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربّه»(٢).

فذكر امتثال الأمر واجتناب النهي إرضاءً لله تعالى، وهذه حقيقة العبادة.

[١٤] ونحو ذلك ما ذكره ابن باديس بقوله: «العبادة: نهاية الذلّ والخضوع، مع الشعور بالضعف والافتقار، وإظهار الانقياد والامتثال، ودوام التضرّع والسؤال»(٣).

وبالجملة: فأئمة المالكية قد عُنوا بحدّ العبادة، وجاءت تعريفاتهم متقاربة يجمعها وصف العبادة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي على وجه التذلل والخضوع والمحبّة للمعبود ﷻ، سواء كانت قوليةً أو فعليةً أو قلبيةً.

*****

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٨٠).

(٣) تفسير ابن باديس (٦٢).

الفصل الثاني

أنواع العبادة وشروط صحتها

وفيه ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول: الأعمال الباطنة
* المبحث الثاني: الأعمال الظاهرة
* المبحث الثالث: شروط صحة العبادة

المبحث الأول

الأعمال الباطنة

وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: المحبة

المسألة الثانية: الخوف والرجاء

المسألة الثالثة: التوكل

المسألة الرابعة: الصبر

المسألة الخامسة: التوبة

المسألة الأولى: المحبّة

تقدّم الكلام على معنى العبادة وأنّ لها ركنين هما: كمال الذلّ مع كمال المحبة؛ فالعبد محبّ خاضع لمولاه.

وقد دلّ كتاب الله ﷻ وسنة نبيّه عليه الصلاة والسلام على هذا الأصل:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ . . .﴾ [المائدة: ٥٤].

وخرّج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار»**(١).

وفي البخاري وغيره أنّ رجلًا كان يؤتى به إلى النبي ﷺ قد شرب الخمر، فقال رجل: اللهم العنهُ! ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: **«لا تلعنه؛ فإنه يحبّ الله**

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ٦٠) برقم (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦) برقم (٤٣).

ورسوله»(١).

وفي الصحيحين عن أنس ﷺ أنّ رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها؟**». قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة؛ ولكني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قوله: «**أنت مع من أحببت**»(٢).

فهذه المحبةَ حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها أنّ الله ﷻ محبوب لذاته محبّةً حقيقيةً، بل هي أكمل محبّة، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله﴾.

وكذلك هو سبحانه يحبّ عباده المؤمنين محبّةً حقيقيةً، إلّا أنّ الجهمية المبتدعة أنكرت حقيقة المحبة بين الخالق والمخلوق، وتبعهم على ذلك طوائف من المتكلمين، وزعموا أنّ المحبة لا تكون إلّا لمناسبة بين المحبّ والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدَث توجب المحبّة(٣).

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٧٥)، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، برقم (٦٧٨٠).

(٢) خرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ((٧/ ٤٤) برقم (٣٦٨٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٤/ ٢٠٣٢) برقم (٢٦٣٩).

(٣) أول من ابتدع هذا الكلام هو الجعد بن درهم، وقتله خالد بن عبدالله القسري على تلك المقالة. وخرّج البخاري في خلق أفعال العباد (ص٧) بسنده عن حبيب بن أبي حبيب قال: شهدت خالد بن عبدالله القسري بواسط في يوم أضحى، وقال: ارجعوا فضحّوا تقبل الله منكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم؛ زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله علوًّا كبيراً عما يقول ابن درهم. ثم نزل فذبحه. وكذا ذكره الآجري (٩٧)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٥-٢٠٦)، والبخاري في خلق أفعال العباد. ط. مؤسسة الرسالة، ط. الأولى ١٤٠٤هـ. =

قال شيخ الإسلام: «وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة، ومبتدعة أهل الكتاب، الذين يزعمون أنّ الربّ ليس له صفة ثبوتية أصلًا، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، الذي قال الله عنه: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فمن أنكر أن يحبّ الله أحداً من عباده فإنه يعني إنكار أن يتخذ الله خليلًا لنفسه، بحيث يحبّ الله عبده ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد، كما أنّ إنكار محبة الله لأحد من عباده يستلزم إنكار مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه ربًّا خالقاً، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه ربّ العالمين، ولكونه إله العالمين، وهذا قول أهل التعطيل والجحود. ومن المعلوم أنّه قد دلّ الكتاب والسنّة، واتفق سلف الأمة على أنّ الله يحبّ ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحبّ، ويحب من التزم ذلك الواجب والمستحبّ»[1].

وعلى هذا نصّ أئمة المالكية في إثبات المحبّة للخالق ﷻ، وكلامهم في ذلك على النحو التالي:

أولًا: إثبات محبة العبد لله ﷻ، وبيان وجوبها.

ثانياً: البرهان على محبة العبد لله تعالى.

أولًا: إثبات محبة العبد لله ﷻ وبيان وجوبها

[١] من ذلك ما ذكره مالك رحمه الله أنّ أقرب العلماء قرب رضا ومحبة إلى الله

= ثم أخذ المذهب عنه الجهم بن صفوان، وقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان، ثم بعد ذلك أخذ المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد تلك المقالة، واشتهرت في زمن المأمون.

(١) محبة الله والحبّ بين العبد والربّ لشيخ الإسلام (٥٢-٥٣).

ﷻ وأولاهم به أكثرهم له خشيةً، أي: خوفاً[(١)].

فمراد مالك أنّ العلماء هم أهل الخشية والمحبة لله ﷻ، وفي ذلك إثبات محبة العبد لله تعالى، قال بعض السلف: «من كان بالله أعرف كان منه أخوف»[(٢)]، والمحبّة ثمرة المعرفة.

وخرج الإمام مالك أحاديث تدلّ على إثبات محبة الله ﷻ:

[٢] منها ما رواه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ أعرابيًا أدرك النبي ﷺ فقال: متى تقوم الساعة؟ فقال: «**وما أعددت لها؟**». قال: لا شيء؛ والله لإني قليل الصلاة، قليل الصيام، إلّا أني أحب الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**»[(٣)].

فرواية مالك لهذا الحديث تبيّن اهتمامه وحرصه على بيان تلك المحبة بين الخالق والمخلوق.

[٣] وبيّن ابن بطال وجوب إخلاص المحبة لله ﷻ ورسوله، وتقديمها على كلّ شيء، فقال: «... وذلك أنّ الرجل إذا تذكر سالف أيادي الله[(٤)] وأيادي رسوله

---

(١) كفاية الطالب (٢/ ٦٦٣). ط. دار الفكر ـ بيروت ١٤١٢هـ.

(٢) خرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة قال: حدثنا أبو حاتم الرازي، ثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعتُ أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول: فذكره. قال أحمد: صدق والله. (٢/ ٧٢٨) برقم (٧٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان عن الإمام أحمد رحمه الله (١/ ٤٨٧) برقم (٧٩٣)، وعن الجنيد (١/ ٥٠٤) برقم (٨٥١).

(٣) البيان والتحصيل (١٧/ ٢٣٢). والحديث متفق عليه مع الاختلاف في بعض الألفاظ وقد سبق تخريجه.

(٤) ومعنى قوله هنا: «سالف أيادي الله..» أي: نعم الله، وهذا يتضح من سياق الكلام. وأهل السنة والجماعة يثبتون اليدين لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجُد لما خلقتُ بيدَي﴾.

ﷺ، وما منّ عليه أن هداه للإسلام وأنقذه من الضلالة، وعرفه الأسباب التي توخيه إلى النجاة من عذاب الأبد والخلود في جهنم، وغير ذلك من النعم التي وصلت إليه به، مما لا كفاء لها ولا استحقها من الله لسابقة تقدمت منه إلّا بفضله تعالى؛ وجب أن يخلص المحبة لله ولرسوله فوق كل شيء من جميع المحابّ»(١).

[٤] وجعل ابن رشد المحبة ثمرة من ثمار العلم بالله وصفاته، فقال: «... ومن عرف أنّ جميع النعمة منه أحبّه، وأثمرت المحبة آثارها المعروفة»(٢).

[٥] وبين ابن عطية وجوب محبة الله ﷻ، حيث قال: «ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه، وتكون أعماله بحسب إقبال النفس»(٣).

[٦] ثم وصف حال المؤمنين بأنهم أشدّ حبًا لله لإخلاصهم وتيقنهم الحق(٤).

[٧] وذكر القاضي عياض أنّ المحبة تترتب على العلم به سبحانه فيما أورده عند حديث: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان...»: «وحبّ العبد له على قدر معرفته لجلاله وكمال صفاته وتقدسه عن النقائص، وفيض إحسانه، وأنّ الكل منه، وكل جمال وجلال فمضاف إليه، وكل فضل وإجمال فمن بسط يديه، لا إله غيره»(٥).

ومراده أنه كلما قوي العلم بالله ازدادت خشيته التي هي سبيل لتعظيمه ومحبته تعالى في النفوس، قال القرطبي: «فالمحبة ثمرة المعرفة؛ فتقوى وتضعف بحسبها»(٦).

---

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ٦٨).
(٢) فتاوى ابن رشد (٣/ ١٦٢٥). ط. دار الغرب.
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٨٠ـ٨١).
(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥٥).
(٥) إكمال المعلم (١/ ٢٧٨).
(٦) انظر المفهم (١/ ٢٢٧).

[٨] ثم بيّن لازم تلك المحبة بقوله: «ومن محبته ومحبة رسوله التزام شريعته ووقوفه عند حدوده، ومحبة أهل ملته، وهو تمام محبته»(١).

[٩] وأما أبو عبدالله القرطبي فقد نصّ على إجماع الأمة على وجوب محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ، فقال ـ عند قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ـ: «في الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأنّ ذلك مقدم على كلّ محبوب»(٢).

ثم بين أنّ محبة العبد لله تعالى مترتبة على محبة الله ﷻ للعبد، فقال ـ عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ـ:

[١٠] «لأنّ الله تعالى أحبهم أولًا، ثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]»(٣).

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون العبد المؤمن محبًا لله والله تعالى غير محبّ له(٤)، بل بقدر محبة العبد لربه ﷻ يكون حبّ الله له، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «إن الله تعالى يقول: من تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا، ومن تقرّب إليّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، ومن أتاني

---

(١) إكمال المعلم (١/ ٢٧٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩٥).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٢٠٤).

(٤) أي المحبة الصادقة الخالصة من أهل الإيمان، لا من الأحبار والرهبان، كما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة* عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾.

يمشي أتيته هرولةً»[١].

[١١] وأثبت أبو العباس القرطبي جواز إضافة المحبة لله تعالى، وإطلاقها عليه محبًا ومحبوباً[٢]، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ثم بين أنّ بعض المتكلمين قد تأوّل محبة العبد لله تعالى بالإرادة، والإرادة إنما تتعلق بالحادث لا بالقديم[٣]، ومنهم من قال: لأن محبتنا إنما تتعلق بمستلذّ محسوس، والله منـزّه عن ذلك، وهؤلاء تأولوا محبة العبد لله بطاعته له وتعظيمه إياه وموافقته له على ما يريده منه، ثم قال: «وأما أرباب القلوب؛ فمنهم من لم يتأول محبة العبد لله تعالى حتى قال: المحبة لله تعالى هي الميل الدائم بالقلب الهائم[٤]. وقال أبو القاسم القشيري[٥]: أما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها العبد من قلبه، تلطف عن

---

(١) خرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (١٣/ ٣٨٤) برقم (٧٤٠٥).

(٢) فهو وإن أثبت إضافة المحبة لله تعالى إلّا أنه قال بالتأويل كغيره من المتكلمين حيث يقول: «ولا يختلف النظار من أهل السنة وغيرهم أنها مؤولة في حق الله تعالى». انظر المفهم (١/ ٢١٢).

(٣) وبقولهم هذا أنكروا خاصية الإلهية وخاصية العبودية، والأدلة تثبت محبة العبد لربه والرب لعبده، فهم في الحقيقة أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التي وجدوا لأجلها؛ فإن الخلق والأمر والثواب والعقاب إنما تنشأ عن المحبة ولأجلها، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي، وهي سر التأليه وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلّا الله.

(٤) هذا الحدّ للمحبة لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة، والصحيحة والمعلولة.

(٥) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري، أشعري صوفي صنف كتبًا، منها: نحو القلوب، ولطائف الإشارات، والجواهر، والمناجاة. مات سنة ٤٦٥هـ. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٨٣)، والسير (١٨/ ٢٢٧)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٠٥).

العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم لله تعالى وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه وعدم الفرار عنه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره».

[١٢] ثم أفصح عن حقيقة محبة العبد لله تعالى فقال: «فهؤلاء قد صرّحوا بأن محبة العبد لله تعالى هي ميل من العبد وتوقان، وحال يجدها المحب من نفسه من نوع ما يجده في محبوباته المعتادة له[١]، وهو صحيح. والذي يوضحه: أنّ الله تعالى قد جبلنا إلى الميل إلى الحسن والجمال والكمال، فبقدر ما ينكشف للعاقل من حسن الشيء وجماله مال إليه، وتعلّق قلبه به، حتى يفضي الأمر إلى أن يستولي ذلك المعنى عليه، فلا يقدر على الصبر عنه، وربما لا يشتغل بشيء دونه. ثم الحسن والكمال نوعان: محسوس، ومعنوي.

فالمحسوس كالصور الجميلة المشتهاة لنيل اللذة الجسمانية، وهذا في حقّ الله تعالى محال قطعًا[٢].

أما المعنوي فكمن اتّصف بالعلوم الشريفة، والأفعال الكريمة، والأخلاق

---

(١) يريد أنها محبة حقيقية وإن لم تكن مثل محبة المخلوق للمخلوق، فإن محبة المؤمن لربه فوق محبته لجميع المحبوبات، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبًّا لله﴾.

(٢) إن أراد في الدنيا فنعم؛ لأنّ العباد لن يروا ربهم في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم، ولذة نظرهم إلى وجهه الكريم فوق كلّ لذّة يجدونها في الجنة، وفي الدعاء المأثور: «وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم». ولذّة نظرهم ناشئة عن كمال محبتهم، وكمال جلاله وجماله.

وحديث «النظر إلى وجهك» خرجه النسائي (٣/ ٥٤ـ٥٥) في السهو، باب نوع آخر (يعني من الدعاء بعد الذكر)، واللالكائي رقم (٨٤٥)، وصححه الحاكم (١/ ٧٠٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي. انظر: صحيح ابن حبان (٥/ ٣٠٥) في الحاشية.

الحميدة ؛ فهذا النوع تميل إليه النفوس الفاضلة والقلوب الكاملة ميلًا عظيماً، فترتاح لذكره، وتنعم بخُبره[١] وخَبره، وتهتز لسماع أقواله، وتتشوف لمشاهدة أحواله، وتلتذّ بذلك لذّة روحانية لا جسمانية، كما تجده عند ذكر الأنبياء والعلماء والفضلاء والكرماء من الميل واللذة والرقة والأنس، وإن كنا لا نعرف صورهم المحسوسة، وربما قد نسمع أنّ بعضهم من غير الأنبياء قبيح الصورة الظاهرة أو أعمى أو أجذم، ومع ذلك فذلك الميل والأنس والتشوق موجود لنا.

ومن شكّ في وجدان ذلك أو أنكره كان عن جبلة الإنسانية خارجًا، وفي غمار المعتوهين والجاً.

وإذا تقرر ذلك ؛ فإذا كان هذا الموصوف بذلك الكمال قد أحسن إلينا، وفاضت نعمه علينا، ووصلنا ببره وعطفه ولطفه ؛ تضاعف ذلك الميل، وتجدد ذلك الأنس حتى لا نصبر عنه، بل يستغرقنا ذلك الحال إلى أن نذهل عن جميع الأشغال، بل ويطرأ على المشتهر بذلك نوع اختلال[٢]، وإذا كان ذلك في حق من كماله وجماله مقيداً مشوباً بالنقص، معرضاً للزوال كان من كماله وجماله واجباً مطلقاً لا يشوبه نقص، ولا يعتريه زوال، وكان إنعامه وإحسانه أكثر، بحيث لا ينحصر ولا يعد أولى بذلك الميل، وأحق بذلك الحب. وليس ذلك إلّا لله وحده، ثم لمن خصه الله بما شاء من ذلك الكمال، وأكمل نوع الإنسان محمّد عليه أفضل

---

(١) قوله (بخُبره) أي : بمعرفتها له.

(٢) كأنه يشير إلى ما يحدث لبعض الصوفية من الصعق والغشي من شدة المحبة، وهو مذموم شرعاً، وذكره لهذه الحال ليبين أنّ المحبة على حقيقتها، وأنّ لها أثراً في نفس من عقل حتى ربما أصاب المبالغ في هذا اختلال وهو يريد بذلك الردّ على من أنكرها، ومما يدل على هذا أنه أجهز على المانعين منها وذمهم، والله أعلم.

الصلاة والسلام، فمن تحقق ما ذكرناه واتصف بما وصفناه كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان كذلك تأهل للقائهما بالاتصاف بما يرضيهما واجتناب ما يسخطهما، ويستلزم ذلك كله الإقبال بالكلية عليهما والإعراض عما سواهما إلّا بإذنهما وأمرهما»[١].

فما قرره أبو العباس من إثبات محبة العبد لله تعالى وتركه التأويل الذي يقول به المتكلمون هو الصواب، وقد سبق أن خالف المتكلمين أيضاً في مسألة أول واجب على المكلف، واتبع طريقة سلف الأمة في ذلك.

[١٣] وبنحو ما قال القرطبي تكلم ابن جزي عن المحبة، وقسمها إلى درجتين، وبين ما يجب من ذلك، فقال: «اعلم أنّ محبة العبد لربه على درجتين:

إحداهما: المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن؛ وهي واجبة.

والأخرى: المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون، والأولياء والأصفياء، وهي أعلى المقامات، وغاية المطلوبات؛ فإن سائر مقامات الصالحين ـ كالخوف والرجاء والتوكّل وغير ذلك ـ مبنية على حظوظ النفس[٢]، ألا ترى أنّ الخائف إنما يخاف على نفسه، بخلاف المحبة، وأنّ الراجي إنما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبة؛ فإنها من أجل المحبوب، فليست من المعاوضة».

---

(١) المفهم (١/ ٢١٢ـ٢١٤).

(٢) وهذا الكلام فيه نظر؛ إذ إن الخوف والرجاء والتوكل والمحبة كلها من العبادات القلبية، لا كما قال: «مبنية على حظوظ النفس»! وكلامه هذا خطأ ظاهر، قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، وبهذا يعلم بطلان مقولة الصوفية: «ما عبدنا الله طمعاً في جنّته، ولا خوفاً من ناره، بل محبة له»! لو لم يكن في الردّ عليهم إلّا قول الله ﷻ: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ لكان كافياً.

[١٤] وفي موضع آخر قال: «فالتامة لجميع المسلمين، ولا يصحّ الإيمان إلا بها»(١).

فجعل المحبة شرطاً لصحة الإيمان.

[١٥] ثم بيّن أن معرفة الله ﷻ هي السبيل الموصل إلى محبته سبحانه، فقال: «واعلم أنّ سبب محبة الله معرفته، فتقوى المحبة على قدر المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة؛ فإن الموجب للمحبة أحد أمرين، وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال:

الموجب الأول: الحسن والجمال. والآخر: الإحسان والإجمال.

فأما الجمال فهو محبوب بالطبع؛ فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن.

والإجمال: مثل جمال الله في حكمته البالغة، وصناعته البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تروق العقول وتهيج القلوب، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار(٢).

وأما الإحسان: فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي، والمؤمن والكافر، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه، وهو المستحقّ للمحبة وحده»(٣).

---

(١) القوانين الفقهية (١/ ٤٦٨).

(٢) وهذا في الدنيا؛ أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم من غير إحاطة به ﷻ.

(٣) أشار الأبّي إلى هذا المعنى بعد إيراده الأقوال في محبة العبد لله تعالى. انظر: إكمال إكمال المعلم (١/ ٢٣٧).

[١٦] ثم أفصح عن أثر تلك المحبة بقوله: «واعلم أنّ محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح؛ من الجدّ في طاعة الله والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته، والتلذّذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات(١)، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل من يحبه الله، وإيثاره على كل ما سواه»(٢).

[١٧] وأثبت ابن عاشور محبة العبد لله على حقيقتها دون تأويل، فقال: «والمحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية أو إحسان، أو اعتقاد أنه يحب المستحسن ويجر إليه الخير؛ فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعل محبًا، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبًا، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالًا عند المحبّ»(٣).

وبيّن أنّ هذا الحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواسّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويستمد أيضاً من التفكّر في الكمالات المستدل عليها بالعقل، وهي المدعوة بالفضيلة، وكذلك يحب المؤمنون الله تعالى، ويحبون النبي

---

(١) وقوله: إن من آثار المحبة «الاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات» فيه نظر؛ إذ إنّ النبي ﷺ ـ وهو أشدّ الناس خشية وتعظيماً وحبًا لله ﷻ ـ لم ينفرد من الناس ويستوحش منهم، ويذهب إلى الخلوات! والخير كل الخير في اتباعه عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾.

(٢) التسهيل (١/ ١١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٥).

ﷺ تعظيماً للكمالات، واعتقاداً بأنهما يدعوانهم إلى الخير، ويحب الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبون سعاة الخير من الحاضرين، وهم لم يلقوهم ولا رأوهم[١].

[١٨] وردّ قول المتكلمين: ﴿إنّ المحبة والجمال مقصورة على المحسوسات﴾ قائلًا: «فالذين قصروها على المحسوسات لم يثبتوا غير المحبة المادية، والذين لم يقصروها عليها أثبتوا المحبة الرمزية؛ أعني المتعلّقة بالأكوان غير المحسوسة، كمحبة العبد لله تعالى؛ وهذا هو الحقّ».

[١٩] وأكّد قوله السابق بقوله: «فإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال، مثل الرسل وأهل الخير والذين نفعوا الناس، والذين اتصفوا بمحامد الصفات، كالعلم والكرم والعدل، فنجد من أنفسنا ميلًا إلى ذكرهم ثم يقوى ذلك الميل حتى يصير محبة منا إياهم، مع أننا ما عرفناهم، ألا ترى أنّ مزاولة كتب الحديث والسيرة مما يقوي محبة المزاول في الرسول ﷺ، وكذلك صفات الخالق تعالى لما كانت كلها كمالات وإحساناً إلينا وإصلاحاً لفاسدنا، أكسبنا اعتقادها إجلالًا لموصوفها، ثم يذهب ذلك الإجلال يقوى إلى أن يصير محبة. وفي الحديث: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[٢]، فكانت هذه الثلاثة من قبيل المحبة، ولذلك جعل عندها وجدان حلاوة الإيمان، أي وجدانه جميلًا عند معتقده»[٣].

---

(١) انظر المرجع نفسه (٣/ ٢٢٥).

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٧ .

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٧).

[٢٠] وأثبت الميلي محبة العبد لله تعالى مستدلًا على ذلك بآية التوبة وحديث: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان**. . . ». ثم بيّن أنّ «محبة غير الله إما أن تكون في الله أو مع الله ؛ فالمحبة في الله أن يحب من يحبه الله، والله يحب المحسنين، والمتقين، والتوابين، والمتطهرين، وإذن تكون محبة غير الله من معنى محبة الله مقوية لها، غير متنافية معها. والمحبة مع الله أن يتعلق قلبك بسواه، فتغفل عن الله، وتتوجّه إلى غيره بالرغبة والرهبة، فستكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها.

فالمحبة في الله محمودة متعدية إلى كل داع إلى الله ؛ من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، والعلماء العاملين. . . والمحبة مع الله ذميمة حاملة لكل ما في الشرك من مساوئ وأضرار»[١].

وذكر أنّ المؤمن يحب الله لما يعلم له من الحق المقدم على سائر الحقوق، فقال: «من استكمل الإيمان علم أنّ حق الله ورسوله آكد عليه من حقّ أبيه وأمه، وولده وزوجه، وجميع الناس ؛ لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله، ومن علامات محبته نصر دينه، والفعل والذب عن شريعته»[٢].

[٢١] وذكر محمّد المكي الناصري أنّ محبة العباد وخضوعهم لله ﷻ هو حال المؤمنين الصادقين، فعند قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله﴾ قال: «تتناول الآيات الكريمة في هذا السياق بالوصف والتعقيب طائفة من الناس غلبت عليها روح الانتهازية، فتجاهلت طاعة الله ومحبته،

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره (١٨٠).

(٢) المرجع نفسه (١٨٠).

ونسيت قضاءه وقدره، والتزمت بدلًا من ذلك طاعة بعض المخلوقين، إذ ملأت قلوبها بمحبتهم والخضوع لهم، ومسايرتهم في أهوائهم ابتغاء مرضاتهم، فجعلت من هواهم المدخول قانوناً متبعاً، ومن كلمتهم السفلى كلمةً عليا، وبذلك كله إقامتهم مقام الأضداد المنافسين، أو الأشباه المماثلين للحق جل جلاله، وذلك قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾، ثم عقبت الآية على ذلك بما يوضح البون الشاسع والفرق الكبير بين هذه الطائفة الخاسرة والمؤمنين الخلّص، فقالت: ﴿والذين آمنوا أشدّ حبًا لله﴾، وإذن فلن يستبدلوا بمحبة الله وطاعته طاعة ولا محبة أحد سواه»[١].

ومراده أنّ محبة العباد لله تعالى وخضوعهم له الذي هو حقيقة العبادة هو المتعين على العباد، وليس ذلك لأحد سواه من المخلوقين.

ثانيا: البرهان على محبة العبد لله تعالى

ذكر الله تبارك وتعالى أنّ محبة العباد له ليست مجرّد دعوى من غير دليل يثبت تلك المحبة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وذكر أهل التفسير الخلاف[٢] في سبب نزول هذه الآية: هل هي في وفد نجران

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (١/ ١٠٠).

(٢) ذكر هذا الخلاف الطبري (٣/ ٢٣١)، وابن عطية (٢/ ٧٩-٨٠)، والقرطبي (٤/ ٦٠).

قال ابن جرير: «قل - يا محمّد! - للوفد من نصارى نجران: إن كنتم تزعمون أنكم تحبون الله وأنكم تعظمون المسيح، وتقولون منه ما تقولون، حبًا منكم ربكم، فحققوا قولكم الذي تقولونه إن كنتم صادقين باتباعكم إياي، فإنكم تعلمون أني رسول الله إليكم» اهـ.

أو في غيرهم؟

وعلى كل حال ؛ فالآية سواء نزلت في وفد نجران أو في غيرهم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهي تدل على علامة محبة العبد لله ﷻ ، وهي اتباع النبي ﷺ ؛ فلا تنال محبة الله ﷻ إلّا باتباع نبيه ظاهراً وباطناً ، وتصديقه خبراً ، وطاعته أمراً ، وإجابته دعوة ، وإيثاره طوعاً .

وقد ذكر أئمة المالكية هذه العلامة وغيرها من العلامات الدالة على صدق محبة العبد لله ﷻ ، ومن ذلك :

[٢٢] ما ذكره ابن بطال عند حديث أنس ﷺ : قال عليه الصلاة والسلام : «**آية الإيمان حبّ الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار**»(١) وجوب محبة الأنصار ؛ لأنهم جاؤوا بشرط المحبة ، وهو اتباع الرسول ﷺ ، فقال : « . . . فصح أنّ الأنصار المبتدئون بالبيعة على إعلان توحيد الله وشريعته حتى يموتوا على ذلك ، فحبهم علامة الإيمان ، ومجازاة لهم على حبهم من هاجر إليهم ومواساتهم لهم في أحوالهم كما وصفهم الله تعالى ، واتباعاً بحب الله لهم بقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾ ، فكان الأنصار ممن اتبعه أولاً ، فوجبت لهم محبة الله ، ومن أحب الله وجب على العباد حبه»(٢) .

فبيّن أنّ الطريق لمحبة الله ﷻ هو اتباع النبي ﷺ .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١/ ٦٢) برقم (١٧) ، ومسلم باختلاف يسير في اللفظ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق (١/ ٨٥) برقم (٧٤) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١/ ٦٩) .

[٢٣] وعلى هذا نقل ابن عطية الخلاف الذي مؤداه واحد في سبب نزول الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ . . .﴾[١].

[٢٤] وبنحو ذلك ذكر القرطبي أبو عبدالله عند تفسيره لهذه الآية[٢].

[٢٥] وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله﴾: «لأنّ الله تعالى أحبهم أولًا، ثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتمّ»[٣].

[٢٦] وأما ابن أبي جمرة، فقد ذكر عند شرحه حديث أبي هريرة: «. . . **أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما** . . .» الخ: أنّ محبة الله ورسوله هي أصل كلّ محبة، وما جاء في بقية الحديث علامات لصدق دعوى تلك المحبة وبرهان عليها، فقال: «هذه الثلاثة الألفاظ ترجع إلى اللفظ منها، وهو أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما؛ لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل من ذكر بعد في ضمنه، لكن فائدة إخباره ﷺ بتينك الحالتين اللتين ذكرتا بعد ذلك اللفظ يريد به أنّ من ادعى حب الله ورسوله ﷺ فليختبر نفسه في حبّ المرء لماذا يحبّه؟ وفي الإكراه على الكفر كيف يجد نفسه إن ابتلي بذلك؟ لأنه قد يسبق للنفوس دعاء[٤] بحبّ الله وحبّ رسوله ﷺ، فجعل ﷺ هاتين العلامتين تفرق بين الدعوى والحقيقة، ومثل هذا قوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ لأنّ حقيقة الإيمان أن يتوكّل صاحبه في كلّ أموره على ربّه، ويعتمد عليه وإن كان بغير ذلك فإنما هو دعوى، وكذلك من ادعى حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ، ثم لم

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٧٩-٨٠).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٦٠).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٣٧).

(٤) كذا في النص، ولعل الصواب: «ادعاء».

يصدق في تينك العلامتين المذكورتين، فحبّه دعوى لا حقيقة»[١].

ولا ريب أنّ من أحبّ الله ورسوله وجب أن تكون سائر أحواله القلبية والقولية والفعلية تابعة لمراد الله ورسوله ؛ فيحب ما أحب الله، ويكره ما يكره سبحانه، ويؤثر مرضاته على ما سواه، فهذه من علامات المحبة الصادقة ولوازمها كما قال ابن عباس: «من أحبّ في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان ـ وإن كثرت صلاته وصومه ـ حتى يكون كذلك، وقد صارت عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[٢].

[٢٧] وأوضح ابن جزي معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بقوله: «جعل اتباع النبي ﷺ علامة على محبة العبد لله تعالى، وشرطاً في محبة الله للعبد ومغفرته له»[٣].

[٢٨] وبنحو ذلك ما ذكره الشنقيطي في الجمع بين حديث أبي هريرة في قوله: «ما سواهما»، وقصّة الخطيب[٤] وقوله: «ومن يعصهما فقد غوى» بقوله: «ومن

(١) بهجة النفوس (١/ ٢٦).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفًا، وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف مختلط. ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٢) عن ابن عمر مرفوعًا، وفيه أيضًا ليث، ورواه الطبراني (١٣٥٣٧) وفيه اضطراب.
ويشهد لأوله حديث أبي أمامة عند أبي داود (٤٦٨١)، وحديث معاذ بن أنس عند أحمد (٣/ ٤٤٠) والترمذي (٢٥٢١).

(٣) التسهيل (١/ ١٨٦).

(٤) حديث الخطيب هذا أخرجه مسلم عن عدي بن حاتم ﷺ أنّ رجلًا خطب عند النبي ﷺ =

محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصّة الخطيب أنّ تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أنّ المعتبر هو المجموع المركّب من المحبّتين، لا كلّ واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى؛ فمن يدعي حب الله مثلًا ولا يحبّ رسوله لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾، فأوقع متابعة مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد»(١).

ومراده أنّ محبة العبد لله تعالى ورسوله متلازمتان، وأنّ البرهان عليها اتباع النبي ﷺ، وبين ذلك استشهاده بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

[٢٩] وذكر هذا المعنى ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ . . .﴾ فقال: «وتعليق محبة الله إياهم على ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ المعلق على قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ ينتظم من قياس شرطي اقتراني، ويدل على الحبّ المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حبّ كاذب؛ لأنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع، ولأنّ ارتكاب ما يكرهه المحبوب إغاظة له وتلبس بعدوّه».

وأكّد هذا المعنى بقوله: «فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى؛ لأنّ الرسول دعا إلى ما يأمر الله به والى إفراد الوجهة إليه، وذلك كمال المحبة»(٢).

[٣٠] وبيّن الميلي أنّ آيتي المائدة وآل عمران، وهما: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . . .﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أفادتا «خمس صفات هي الدلائل على صدق

= فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: **«بئس خطيب أنت! قل: ومن يعص الله ورسوله»**. صحيح مسلم (٢/ ٥٩٤) برقم (٨٧٠).

(١) كوثر المعاني (١/ ٥٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٨).

المحبة لله، وهي: اتباع الرسول ﷺ، والتراحم مع الإخوان في الدين والشدة على الأعداء فيه، والقيام بكل ما يؤيد الدين وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاةً للناس»(١).

ومما سبق يتلخّص من كلام المالكية ما يلي:

أولًا: أنهم يثبتون محبة العبد لله ﷻ، وبيانهم عظيم منـزلتها ووجوبها، وأنها أصل كلّ محبة، فكل محبة محمودة كمحبة الأنبياء والملائكة والمؤمنين، فهي داخلة ضمن محبة الله ﷻ.

ثانياً: أن من البراهين الدالة على محبة العبد لربه اتباع النبي ﷺ، وأن تكون سائر أحوال العبد منقادة لله ورسوله، وبهذا تحصل المحبة لله تعالى التي هي من العبادات الباطنة.

*****

(١) رسالة الشرك (١٨٢).

المسألة الثانية: الخوف والرجاء

إنّ من أجلّ العبادات القلبية الخوف والرجاء، إذ بهما يسير المرء إلى الله ﷻ سيراً سويًا، فخوفه ووجله من الله يمنعه من معصيته ومخالفة أمره، ورجاؤه ورغبته تمنعه من القنوط واليأس من رحمة الله، على أن يكون كما قال مطرف بن عبدالله[(١)] رحمه الله: «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما صاحبه»[(٢)]، أي: يجعلهما كجناحي الطائر والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وقال سهل بن عبدالله[(٣)]: «الرجاء والخوف زمانان على الإنسان؛ فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر»[(٤)]، فمن غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله.

وقد جاءت النصوص الشرعية مبينة أهمية تلك المنزلة القلبية الإيمانية.

قال تعالى - في آل زكريا عليهم السلام -: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ

---

(١) هو مطرف بن عبدالله بن الشخير الحرشي البصري، كان رأسًا في العلم والعمل، ومن كبار التابعين، ثقة له فضل وورع وعقل وأدب، ولد في حياة النبي ﷺ، ومات سنة ٩٥هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٦٤)، والحلية (٢/ ١٩٨).

(٢) خرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٢) برقم (١٠٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٨).

(٣) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري، أبو محمّد، أحد الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص، وعيوب الأفعال. له كتاب في تفسير القرآن مختصر، وكتاب رقائق المحبين، وغير ذلك. مات سنة ٢٨٣هـ. انظر: الحلية (١٠/ ١٨٩)، وطبقات الصوفية (٢٠٦).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٨٠).

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى - في وصف بعض عباده الصالحين -: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ففي هذه الآية الكريمة يقرن الله ﷻ بين الرجاء والخوف.

ودخل النبي ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «**كيف تجدك؟**». قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**»(١).

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوّضت أمري إليك، رغبةً ورهبةً(٢) إليك**»(٣).

وروى ابن جرير من طرق عدّة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك

---

(١) خرجه الترمذي (٩٨٨)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٢/ ١٤٢٣) برقم (٤٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب الرجاء من الله تعالى (٢/ ٤) برقم (١٠٠١)، والمقدسي في المختارة (٤/ ٤١٣) برقم (١٥٨٧).
ونقل صاحب تحفة الأحوذي (٤/ ٥٠) قول المنذري: إسناده حسن. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٥٠٣) برقم (٩٨٣).

(٢) الرغبة والرهبة ترجع إلى معنى الخوف والرجاء.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾ (١٣/ ٤٦٢) برقم (٧٤٨٨)، ومسلم في كتاب الذكر، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨١) برقم (٢٧١٠).

بالله، واليأس من رَوْح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله»[١].

وقال الشاعر[٢]:

ليس يرجو الله إلّا خائفٌ   من رجا خاف ومن خاف رجا

وقال أيضاً:

أيا عجباً للناس في طول ما سَهَوْا   ولو أنهم يرجون خافوا كما رَجَوْا[٣]

وقد تكلم أئمة المالكية عن هذا النوع من العبادة بإسهاب، ويمكن حصر كلامهم في الفقرة التالية:

أهمية الخوف والرجاء وضرورة الجمع بينهما:

اعتنى أئمة المالكية بمقامي الخوف والرجاء، وأنهما يتصلان اتصالًا مباشراً بالإيمان واليقين؛ فكلما قوي إيمان العبد ويقينه قوي خوفه ورجاؤه، ومع ذلك فهذان المقامان العظيمان يجب أن يجمع بينهما كي تستقيم أحوال العبد، فخوفه يردعه، ورجاؤه يؤمّله، فهو بينهما.

ومن ذلك:

[١] ما ذكره أصبغ فيما يرويه عن أشهب قال: «ما رأيت مالكاً قطّ رافعاً بصره

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٤٢)، وقال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلا شك ـ يعني ابن مسعود ـ.

(٢) هو أبو العتاهية إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، قال في المواعظ والزهد فأجاد. مات سنة ٢١١، وقيل: ٢١٣هـ. انظر: السير (١٠/ ١٩٥)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩).

(٣) ديوان أبي العتاهية (٢٩٦ و ١١٩ـ١٢٢).

قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحبّ والخوف والرجاء فهو =

إلى امرأة، وما هو إلّا ناكس هكذا إذا أتته امرأة تسأله، وما رأيته قطّ رافعاً بصره إلّا مرّتين في سوداوين: إحداهما امرأة خلف بن عمر، وكانت سوداء وغدة[1] أرسلتها مولاتها إليه في شيء ـ أو قال: تسأله عن شيء ـ، وامرأة أخرى سوداء كبيرة أتته وهي ترعد فقالت: يا أبا عبدالله! إنّ صاحبي ـ أو قالت: ابني ـ استرفعني دراهم فكانت إلى جنبي فنمت، ثم قمت أكنس البيت فإذا بها، فأخذتها فجعلتها تحت الحصير، فأتاني بعد ذلك فطلبها مني، فقلت: ما دفعت إليّ شيئًا، فقال: بلى والله! فقلت: لا والله ما أخذتها منك، فقال: بلى. فقلت: عليّ المشي إلى بيت الله... ثم ذكرت ما كان.

فقال لها مالك: عليك المشي فامشي. فقالت: يا أبا عبدالله ما أقدر! قال: تركبين وتهدين. قالت: يا أبا عبدالله! ما أقدر على شيء. قال: وهي في ذلك ترعد فزعة، فرأيت مالكاً صعّد منها البصر وردده، فقال: اذهبي فليس عليك شيء. فلما أدبرت قال مالك: لئن دخلت هذه الجنّة ما ضرّها سوادها شيئاً؛ هذه في سوادها وحالها خائفة وجلة مما وقعت فيه، وأخرى أهيأ منها وأقبل وأنطق وأعقل وأعرف منها لعلّها لا تخاف ما خافت هذه! لئن دخلت هذه الجنّة ما ضرّها سوادها»[2].

[٢] «وقال أشهب إثر ذلك: ما الدين وما الأمر إلّا الخوف.

[٣] وقال أصبغ: وهو الخشية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]. وقال أيضاً: وبلغني عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يقول:

= مؤمن». انظر فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٨١).

(١) قال ابن فارس: «وغد: كلمة تدلّ على دناءة، ورجل وغد: وهو الدنيء، من قولك: وغدتهم أغدهم: إذا خدمتهم». معجم مقاييس اللغة (٦/ ١٢٨).

(٢) البيان والتحصيل (١٨/ ٥٥٧ـ٥٥٨).

كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار به جهلًا[١]. »[٢].

[٤] قال مالك: «صلى بالناس عمر بن عبدالعزيز المكتوبة، فقرأ بهم: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، فلما بلغ: ﴿فأنذرتكم نارًا تلظّى﴾ خنقته العبرة فلم يستطع أن يجاوز ذلك، ثم أعادها فلما بلغ ذلك الموضع أيضاً خنقته العبرة، فتركها، ثم قرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾».

قال ابن رشد: «هذا من فعل عمر بن عبدالعزيز نهاية في الخوف لله، ومن بلغ هذا الحدّ فهو من أهل الجنّة[٣] بفضل الله، قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان﴾»[٤].

[٥] وقد نظم ابن الفرضي[٥] في بيان مقامي الخوف والرجاء، واجتماعهما في قلب المؤمن بقوله:

«أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راج وخائف

---

(١) خرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الخوف من الله تعالى (١/ ٤٧١) برقم (٧٤٦)، والإمام أحمد في الزهد (٢٣١) برقم (٨٦٢).

(٢) البيان والتحصيل (١٨/ ٥٥٧ـ٥٥٨).

(٣) الجنة ترجى، ولا يقطع لمعيّن بجنة أو نار إلّا من شهد له النص من الكتاب والسنة.

(٤) البيان والتحصيل (٧/ ٢٨٠ـ٢٨١).

(٥) هو أبو الوليد وأبو محمّد عبدالله بن محمّد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي، الحافظ المشهور، كان فقيهًا عالمًا بعلم الحديث ورجاله، بارعًا في الأدب وغيره، وله من التصانيف: تاريخ علماء الأندلس، قتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣هـ. انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/ ١٢٩).

ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي ومالك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي إذا نُشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يصد ذوو القربى ويجفو المؤالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أرجّي لإسرافي فإنّي لتالف»[١].

فجمع بين الخوف والرجاء في أعظم مقام يقومه العبد.

[٦] وبيّن ابن بطال أن حال العباد بين الخوف والرجاء هو المطلوب؛ لأنهم لا يعلمون ما يختم لهم به، فقال: «في تغييب الله عن عباده خواتيم أعمالهم حكمة بالغة وتدبير لطيف، وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل من علم أنه يختم له بالإيمان، ومن علم أنه يختم له بالكفر يزداد غيًّا وطغياناً وكفراً، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء، فلا يعجب المطيع لله بعمله، ولا ييأس العاصي من رحمته، ليقع الكلّ تحت الذلّ والخضوع لله والافتقار إليه»[٢].

[٧] وذكر ما يثمره الخوف عند شرحه حديث حذيفة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظنّ بعمله، فقال لأهله: إذا أنا متّ فخذوني فذروني في البحر في يوم عاصف. ففعلوا به، فجمعه الله ثم قال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: مخافتك. فغفر له**»[٣] ذكره بقوله: «فغفر الله له بشدة مخافته، وأقرب الوسائل إلى الله خوفه، وألّا يأمن المؤمن مكره»[٤].

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لابن المقري (٢/ ١٢٩). ط. دار صادر الثانية ١٩٩٧م.

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٠٤).

(٣) خرجه مسلم في كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله (٤/ ٢١٠٩) برقم (٢٨٥٦).

(٤) شرح البخاري (١٠/ ١٩٠).

[٨] وبيّن أيضاً ـ عند شرحه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا: لسنا كهيئتك يا رسول الله! إنّ الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «**إنّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(١) ـ بقوله: «فإنما قالوا ذلك رغبةً في التزيّد من الأعمال، لما كانوا يعلمونه من اجتهاده في العبادة، وهو قد غفر له ما تقدّم من ذنبه، فعند ذلك غضب إذ كان أولى منهم بالعمل، لعلمه بما عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقد قال ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(٢)، وفي اجتهاده في عمله وغضبه من قولهم دليل أنه لا يجب أن يتكل العامل على عمله، وأن يكون بين الرجاء والخوف»(٣).

[٩] وأكّد هذا المعنى فيما نقله عن المهلّب قال: «وفيه من الفقه: أنّ الرجل الصالح يلزمه من التقوى والخشية ما يلزم المذنب التائب، لا يؤمن الصالح صلاحه، ولا يؤيس المذنب ذنبه ويقنطه، بل الكل خائف راجٍ، وكذلك أراد تعالى أن يكون عباده واقفين تحت الخوف والرجاء اللذين ساس بهما خلقه سياسة حكمة لا انفكاك منها»(٤).

فبيّن تلازم الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو مراد الله ﷻ.

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان ـ باب قول الرسول ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» (١/ ٧٠) برقم (٢٠).

(٢) خرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ٧٢ـ٧٣).

(٤) شرح صحيح البخاري (١/ ٧٣).

[١٠] وذكر ابن عبدالبرّ حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: كنّا عند النبي ﷺ في مجلس فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ـ وقرأ عليهم الآية ـ فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ﷻ عليه فهو إلى الله؛ إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له»(١)، ثم قال: «هذا من أصحّ حديث يروى عن النبي ﷺ، وعليه أهل السنة والجماعة، وهو يضاهي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، والآثار في هذا الباب كثيرة جدًّا لا يمكن أن يحيط بها كتاب، فالأحاديث اللينة ترجى، والشديدة تخشى، والمؤمن موقوف بين الخوف والرجاء، والمذنب إن لم يتب في مشيئة الله...»(٢).

فجمع بين الخوف والرجاء، وهي الحال التي يكون عليها أهل الإيمان.

[١١] وذكر أيضاً أنّ هذه هي حال الأنبياء والرسل، فقال: «المؤمن خوفه ورجاؤه معتدلان، ومعلوم أنّ الأنبياء والرسل أشدّ خوفاً لله، وأكثر إشفاقاً ووجلًا، ولذلك كانوا أرفع درجات وأعلى منازل»(٣).

[١٢] وذكر الطرطوشي أنّ من آداب الدعاء: «أن يكون راغباً راهباً متذلّلا خاشعاً، قال الله سبحانه: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: رغبة فيما عندنا ورهبة»(٤).

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الحدود، باب توبة السارق (١٢/ ١٠٨) برقم (٦٨٠١)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (٣/ ١٣٣٣) برقم (١٧٠٩).

(٢) التمهيد (١٧/ ٢٦).

(٣) الاستذكار (٨/ ٣٤٥).

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٤٧ـ٤٨).

وأكّد هذا المعنى بقوله:

«أن يقوى رجاؤه في مولاه، ولا يقنط من رحمة الله».

[١٣] وقال ـ مبيّناً أهمية الجمع بين الرجاء والخوف ـ: «ومن شروط الثقة بالله سبحانه قوة الرجاء فيما عنده»(١).

فبيّن حال المؤمن في دعائه الذي هو العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أن يكون خائفاً راجياً.

[١٤] وجعل ابن رشد الخوف والرجاء من ثمرات العلم بالله وصفاته، فقال: «فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها، ولأن ثماره أفضل الثمار، فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالًا عليه، وينشأ من تلك الحال ملابسة أخلاق سنيّة، ومجانبة أخلاق دنيّة، فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء، ومن عرف شدة النقمة أثمرت معرفته شدّة الخوف، وأثمر خوفه الكفّ عن الإثم والفسق والعصيان، مع البكاء والأحزان والورع، وحسن الانقياد والإذعان»(٢).

[١٥] وذكر ابن رشد راوية ابن القاسم عن مالك أنّ عمر بن عبدالعزيز كان رجلًا عيشه هذا القطاني، وأنه أكل يوماً عدساً وشرب عليه ماءً، ثم استلقى فضرب على بطنه فقال: بطين بطيء عن أمر الله، يتمنى على الله منازل الأبرار!

ثم قال: «وفي هذا بيان ما كان عليه عمر بن عبدالعزيز من الخوف لله ﷻ مخافة

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٢٥).

(٢) فتاوى ابن رشد (٣/ ١٦٢٥).

التقصير في أمره مع الرجاء فيما عنده من أن يحله محل الأبرار، وهذا هو الواجب أن يكون الرجاء والخوف في قلب الرجل سيّان، فلا يأمن من عذابه، ولا يقنط من رحمته»[١].

[١٦] وعلى ذلك سار ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] فقال: «أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتحزّن وتأميل الله ﷻ حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان»[٢].

[١٧] وذكر ابن العربي حديث الشابّ الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو في الموت فقال له: «**كيف تجدك؟**». قال أرجو الله وأخاف ذنوبي. قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذه الحال إلّا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف»[٣]، ثم قال: «وهذا باب بديع ليس في الرجاء مثله»[٤].

[١٨] وبيّن أنّ الأصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وما يحدث من تفاوت يكون بحسب حال العبد وأعماله عند طلب الفتوى ترغيباً وترهيباً، فقال: «استواء الرجاء والخوف في القلب، فتلك الحالة محمودة وقد تأتي أحوال يغلب فيها الخوف وأحوال يغلب فيها الرجاء، وقد بيّنا ذلك في تفسير القرآن مثال منها: كان ابن عباس إذا جاءه من لم يقتل يقول: هل للقاتل من توبة؟ فيقول له ـ تخويفاً له ـ:

---

(١) البيان والتحصيل (١٨/ ٤٧٤_٤٧٥).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٢_٥٣٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣٧ .

(٤) عارضة الأحوذي (٤/ ٢٠٢).

لا! وإذا جاءه من قتل يقول له: نعم له توبة[(١)] ؛ ترجيةً له، ووضع الرجاء موضع الخوف إهلاك، وكذلك بعكسه. والدليل حديث من قتل تسعة وتسعين، وجاء يسأل الراهب: هل من توبة؟ فقال: لا. فقتله، وجاء الراهب[(٢)] الثاني، فقال له: لك توبة. فتاب الله عليه»[(٣)].

[١٩] وأما القاضي عياض فعند شرحه حديث أبي هريرة المتقدّم[(٤)] ـ وفيه قول الرجل الذي اشتدّ خوفه: «إذا أنا متّ فأحرقوني ـ وأكثر علمي أنه قال: ثم اسحقوني، وأذروني في الريح فإني لم أجتهد عند الله خيرًا، وإنّ الله إن يقدر عليّ أن يعذبني. قال: فأخذ منهم ميثاقًا، ففعلوا ذلك به وربِّي! فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: مخافتك. قال: فما تلافاه غيرها» ـ قال: «وفيه فضيلة الخوف والخشية، وأنها من مقامات الإيمان وأركان الإسلام، وهي التي نفعت آخراً هذا المسرف وغفر له بسببها»[(٥)].

[٢٠] ونبّه على ترتيب الإمام مسلم بإيراده حديث أبي هريرة: «دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها...»[(٦)] بعد حديث الرجل المتقدّم وقول الزهري ـ بعد ذكره

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٥/ ٣٣٣).

(٢) والذي جاءت به الرواية: أنّ الآخر عالم وليس راهباً كالأول، كما في الرواية: «فدُلّ على عالم». والحديث خرجه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/ ٢١١٨) برقم (٢٧٦٦).

(٣) عارضة الأحوذي (٤/ ٢٠٣ـ٢٠٤).

(٤) انظر ص ٢٤٣ .

(٥) إكمال المعلم (٨/ ٢٥٧).

(٦) خرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الغار (٦/ ٥١٥) برقم (٣٤٨٢)، ومسلم في كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٤/ ١٧٦٠) برقم (٢٢٤٢ـ٢٢٤٣).

حديث الرجاء بعد حديث في الخوف ـ: «ذلك لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل»، ليربط بين الرجاء والخوف، فقال: «لما ذكر الحديث الأول وفيه من رحمة الله لهذا الذي أسرف، وجهل صفة ربّه، خشي على سامعيه الاتكال والاعتماد على الرجاء، وتعطيل الأعمال، فجاء في الحديث الأخر [المخوف بعذاب الهرة لأجل هذه ربطتها][(١)]، فظاهر الأمر أنه من صغائر الذنوب . . . ليمزج الرجاء بالخوف ليعتدل حال المطيع»[(٢)].

[٢١] وأشار إلى أنّ على الواعظ تغليب جانب الخوف لتوسع الخلق في جانب الرجاء، فقال: «فعبادة الخلق لله بين الرجاء والخوف، وهكذا يجب للواعظ والمذكّر مزج أمره ومعاناة ذكره، ويكون الغالب التخويف ؛ لأنّ النفوس إلى الرجاء والدعة أميل، ومن العمل والتكاليف أثقل»[(٣)].

ومراده أنّ الأصل هو استواء الخوف والرجاء في القلب، ولكن إهمال الناس للواجبات والطاعات يستدعي تخويفهم وترهيبهم حتى ينـزجروا ويقبلوا على طاعة الله ﷻ.

وبيّن أبو عبدالله القرطبي الحال التي ينبغي أن يكون عليها العبد، فقال: «ينبغي أن يكون خائفاً من ذنبه، راجياً عفو ربه . . . »[(٤)].

[٢٢] ولكن من غير إفراط ولا تفريط، كما ذكر عند قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ

---

(١) أشار المحقق أن في نسخة أخرى: [ليخوف به بعذاب هذه لأجل هرة ربطتها].

(٢) إكمال المعلم (٨/ ٢٥٩).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٢٥٩).

(٤) التذكار في أفضل الأذكار (٨٤). مكتبة دار البيان، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ.

عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠] حديث: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»(١).

وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره، فيخوف ويرجّي... فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها»(٢).

[٢٣] ونقل قول ابن عطية السابق في تمثيل الخوف والرجاء للإنسان كالجناحين للطائر.

[٢٤] ثم أورد قول الله ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، ثم قال: «فرجّى وخوّف فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه»(٣).

[٢٥] وبين في موضع آخر اقتران الخوف والرجاء فقال ـ عند قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ـ: «أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة، وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان»(٤).

[٢٦] وأما أبو العباس القرطبي فقد ذكر أنّ الخوف من الله تعالى دليل على كمال المعرفة به سبحانه، وهو أساس التقوى، قال: «المتقي شرعاً هو الذي يخاف الله

---

(١) خرجه مسلم في كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٩) برقم (٢٧٥٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٤).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٧).

(٤) تفسير القرطبي (١١/ ٣٣٦).

تعالى، ويجعل بينه وبين عذابه وقاية من طاعته، وحاجزاً عن مخالفته، فإن أصل التقوى الخوف، والخوف إنما ينشأ عن المعرفة بجلال الله وعظمته وعظيم سلطانه وعقابه»(١).

[٢٧] وبيّن أنّ الرجاء لا بد أن يصحبه العمل، وإلا فهو عجز وأماني، قال: «استصحبوا الأعمال الصالحة، والأعمال الحسنة التي يرتجي العامل لها قبولها، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها، فإن الله قريب من المحسنين، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين، وقد قلنا إنّ حسن الظنّ بغير عمل غرة، كما قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله»(٢)»(٣).

[٢٨] وذكر الحال التي يكون عليها المؤمنون، فقال ـ عند قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] ـ: «هكذا حال العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف، لا بد منها للمؤمن، ولذا قال بعض السلف: لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا».

[٢٩] وذكر القرافي أقسام الخوف من حيث الحلّ والحرمة في معنى يظهر منه

---

(١) المفهم (٦/ ٥٣٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٤)، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وابن المبارك في الزهد (١٧١)، والحاكم (١/ ٥٧). قال الترمذي: هذا حديث حسن. وصححه الحاكم، وتعقبة الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله! أبو بكر واهٍ. أي أبو بكر بن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات. وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٢٤٥٩).

(٣) المفهم (٧/ ١٤٣).

خوف الله ﷻ ورجاؤه، فقال: «الرغبة والرهبة لغير الله تعالى إن أريد بها خوف الظلمة أو السباع أو الغلاء أو الأمراض إن سلط الله تعالى بعض ذلك، فهذا لا ينهى عنه، وقد يؤمر به كما أمرنا أن لا نقدم على الوباء وأن نفرّ من المجذوم فرارنا من الأسد. وإن أريد بها أنّا نخاف الأسباب والخلق من حيث هم هم، بحيث نعصي الله تعالى لأجلهم، فهذا حرام، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]»[١].

[٣٠] وقال في موضع آخر: «اعلم أنه جاءت المدحة بأن يكون العبد لا يخشى إلّا الله، وجاء النهي عن خشية الناس؛ فقال تعالى: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾، وقال تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾. يقال: المراد بهذا الخوف المنهي عنه أن يؤثر على خوف الله تعالى حتى يترك به واجب أو يفعل به حرام»[٢].

[٣١] وذكر ابن أبي جمرة أنّ على المؤمن عدم اليأس من رحمة الله، فقال ـ عند حديث أبي هريرة الطويل في الرؤية[٣] ـ: «فيه دليل على أن من كان من أهل الإيمان ـ وإن كان في أي حالة ـ كان لا يقطع إياسه من رحمة أرحم الراحمين، فلعله ممن سبق له من الخير سابق، وقد قال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

---

(١) الذخيرة (١٣/ ٢٥٣).

(٢) ترتيب الفروق (٢/ ٤٥٧).

(٣) الحديث خرجه البخاري عن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فهل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك...» الحديث بطوله. انظر: صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب رؤية الله ((١١/ ٤٤٤) برقم (٦٥٣٣).

ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧]»[١] .

[٣٢] ثم بيّن الحال التي يكون عليها المؤمن عند دعائه الله ﷻ، وهي أن يكون راجياً، فقال ـ عند شرح الحديث السابق (حديث أبي هريرة الطويل المتضمّن ذكر الرؤية والشفاعة وآخر من يدخل الجنة من أهل النار . . . إلخ) ـ .

«وفيه دليل على قوة الرجاء في إجابة الدعاء وإن لم يكن الداعي أهلًا للإجابة يؤخذ ذلك من أن هذا السائل قد صحّ أنه من أهل النار، ومن هو من أهل النار فهو من المبعودين مقطوع به، ثم يتفضّل ﷻ وينيله رحمته، فكيف من هو في حال الاحتمال ؛ لأن الناس كلهم في هذه الدار محتملين للسعادة وغيرها، **فهو** أقوى رجاءً في رحمة أرحم الراحمين»[٢] .

[٣٣] وذكر أيضاً أنّ الله ﷻ تفضّل على عباده المؤمنين بالرحمة والمغفرة بعد علمه سبحانه شدة خوفهم ووجلهم منه ﷻ، ليجمع لهم بين الخوف والرجاء، فقال ـ عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا**» قال أبو شهاب بيده فوق أنفه[٣] ـ : « . . . المؤمن إذا رأى من نفسه ما يخالف الإيمان خاف على نفسه أشدّ الأشياء، وهو النفاق الذي الهلاك معه مقطوع به إن مات عليه وخاف من قول الله ﷻ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٢ـ ٣]، فحزنوا من أجل كبر هذا

(١) بهجة النفوس (٢/ ٣٠) .

(٢) بهجة النفوس (٢/ ٣٤) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التوبة (١١/ ١٠٢) برقم (٦٣٠٨) .

المقت ؛ لأنّ ما كبره الله سبحانه فهو أمر عظيم لا يحمله أهل الإيمان، ويصعقون منه، ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفهم من ذلك طمعهم ورجاهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]»(١).

[٣٤] وبيّن أنّ اجتماع الخوف والرجاء لا بد أن يصحبهما عمل، وإلا فلا ينفع، فقال: «... أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها، فإن كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غروراً، وذلك مظنة الهلاك... وكفى في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]»(٢).

[٣٥] وبيّن ابن جزي درجات الخوف والرجاء، ومقامات الناس حيال ذلك، فقال: «اعلم أنّ الخوف على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر ؛ فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قويًا فيوقظ العبد من الغفلة، ويحمله على الاستقامة.

والثالثة: أن يشتدّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس ؛ وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

والناس في الخوف على ثلاث مقامات: فخوف العامة من الذنوب(٣)، وخوف

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ٢٠١ـ٢٠٢).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٢٨٦).

(٣) خوف الذنوب لا تقصر على العامة فقط، بل حتى الخاصة ؛ يدل على ذلك مقام الأنبياء عليهم السلام عند طلب الشفاعة منهم يوم القيامة، فكل نبيّ يذكر ما وقع منه، ويقول: نفسي =

الخاصة من الخاتمة، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ؛ فإن الخاتمة مبنية عليها.

والرجاء على ثلاث درجات : الأولى : رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية ؛ فهذا هو الرجاء المحمود. والثانية : الرجاء مع التفريط والعصيان ؛ فهذا غرور. والثالثة : أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن ؛ فهذا حرام.

والناس في الرجاء على ثلاثة مقامات : مقام العامة رجاء ثواب الله. ومقام الخاصة رجاء رضوان الله. ومقام خاصة الخاصة : رجاء لقاء الله حبًّا فيه وشوقاً إليه»(١).

فما ذكره في هذا التقسيم يدل على منزلة الخوف والرجاء وأهميتها للمؤمن.

[٣٦] وعند قول الله : ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف : ٥٦] قال : «جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفاً راجياً كما قال تعالى : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء : ٥٧]، فإن موجب الخوف معرفة سطوة الله وشدّة عقابه، وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه جلّ جلاله : ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾».

[٣٧] ونقل محمّد المختار كلام ابن حجر عند شرحه «باب الرجاء مع الخوف» على سبيل الإقرار، ونصّه : «فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلّا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكلّ منهما مذموم. والمقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنّه بالله تعالى، ويرجو أن يمحو

= نفسي! . . . الخ إلّا نبيّنا محمّد ﷺ فيشفع. وذكر القرطبي أن محمّد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً، فقيل له : ما هذا الجزع؟! قال : أخاف آية من كتاب الله : ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾، فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب. القرطبي (١٥/ ٢٦٥ـ٢٦٦).

(١) التسهيل (٢/ ٦٤).

ذنبه، وإذا وقعت منه طاعة يرجو قبولها، وأما إذا انهمك في المعصية راجياً عدم المؤاخذة بها بغير ندم ولا إقلاع فإنه مغرور، وما أحسن قول أبي عثمان: من علامة السعادة أن يطيع ويخاف ألا يقبل، ومن علامة الشقاء أن يعصي ويرجو أن ينجو»(١).

[٣٨] ونقل أيضاً قول القسطلاني مقرًّا له في تشبيه الخوف والرجاء بجناحي الطائر، فقال: «وقد روينا عن أبي علي الروذباري أنه قال: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت(٢) اهـ. فمتى استقام في أحواله استقام في سلوكه في طاعة ربه، باعتدال رجائه وخوفه، ومتى قصر في طاعة ربه ضعف رجاؤه ودنا منه الاختلال، ومتى قلّ خوفه وحذره من مفسدات الأعمال تعرّض للهلاك، ومتى عدم الرجاء والخوف تمكّن منه عدوّه وهواه، وبعُد من حزب ربّه الذي حفظه وتولّاه، وبه يظهر وجه الشبه بينهما وبين جناحي الطائر. وقال بعضهم: المؤمن متردّد بين الخوف والرجاء لخفاء السابقة، وذلك لأنه تارة ينظر إلى عيوب نفسه فيخاف، وتارة ينظر إلى كرم الله فيرجوه»(٣).

[٣٩] وبيّن ابن عاشور أنّ خوف العباد ورجاءهم به تحقّق العبادة، فقال ـ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ـ: «وقد شمل الخوف والطمع جميع ما تتعلّق به أغراض المسلمين نحو ربّهم في عاجلهم وآجلهم، ليدعوا الله بأن ييسّر لهم أسباب حصول ما يطمعون،

---

(١) نور الحقّ الصبيح (٩/ ٦٤٩).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٢) برقم (١٠٢٧).

(٣) نور الحقّ الصبيح (٩/ ٦٥٠). وانظر فتح الباري (١١/ ٣٠١).

وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون، وهذا مقتضى توجه همتهم إلى اجتناب المنهيات لأجل خوفهم من العقاب، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطمع في الثواب»(١).

[٤٠] ولذا جعل الخوف والرجاء وصفاً ثابتاً للمؤمن لا يتغيّر في السير إلى الله ﷻ، فقال ـ عند قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] ـ: «والرجاء والخوف من مقامات السالكين، أي أوصافهم الثابتة التي لا تتحوّل، وللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله، وللرجاء مزيته من حثّها على ما يرضي الله، وكلاهما أنيس السالكين»(٢).

[٤١] وأوضح الشيخ محمّد الأمين عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] فقال: «بيّن جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنّه شديد العقاب، فجمع بين الوعد والوعيد، ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشتدّ خوفهم من عقابه وعذابه الشديد؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرّ، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة، وقد بيّن هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقوله جلّ وعلا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ...﴾ الآية

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٧).

[غافر: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات»[١].

[٤٢] وذكر ارتباط الخوف والرجاء، فقال: «فاعلم أنّهما متلازمان؛ فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشرّ، كالعكس»[٢].

[٤٣] ثم أفصح عن حال المؤمن مع هذين المقامين، فقال: «وقد أمرنا الله أن نكون في دعائه خائفين من عذابه وعقابه ونكاله، وطامعين في فضله ورحمته ورأفته وجوده، وما عنده من الخير؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في أمرين: جلب النفع ودفع الضرّ. وإذا كان من يعبد الله أو يدعو الله يستشعر الخوف من الله، والطمع في ثوابه وما عنده من الخير؛ كان الخوف والطمع جناحين يطير بهما إلى الاستقامة... وينبغي للمسلم إذا دعا الله أو عبَد الله أن يكون جامعاً بين الخوف من الله والطمع فيما عند الله جلّ وعلا، فلا يترك الرجاء لئلّا يكون من القانطين: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولا يترك الخوف فيأمن مكر الله؛ لأنه لا يأمن من مكر الله إلّا القوم الخاسرون، فيكون خائفاً من الله، طامعاً راجياً من فضل الله»[٣].

[٤٤] ثم إنه نبّه على مسألة مهمّة في الفرق بين الخوف المذموم والخوف الطبعي الذي جبل عليه الإنسان، فقال ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] ـ: «في هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن الكريم سؤال معروف، وهو أن يقال: لا يوجد أحد إلّا وهو يخشى من غير الله ويخاف من غير الله؛ لأنّ كلّ

(١) أضواء البيان (٣/ ٧٩ـ٨٠).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٠٠).

(٣) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١/ ١٧٥) د. عبدالعزيز الطويان.

المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها، والذي لم يخف شيئاً من المخاوف والمحاذير هذا أمر صعب، والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين:

بعضهم يقول: الخشية التي هي شرك بالله، والتي يحذّر الله منها هي خشية الأصنام، والخوف من المعبودات من دون الله[(١)]. وهذا النوع دلّت عليه آيات كثيرة؛ لأن عبدة الأصنام يخوّفون من يسبّ الأصنام بأنّ الأصنام ستفعل له وتفعل[(٢)]، كما قالوا لنبي الله هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ. . .﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وكذلك لما خوّفوا منها نبيّ الله إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام وقالوا له: ستفعل بك أصنامنا وتفعل، قال لهم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، وخوّف بها نبي الله صلوات الله وسلامه عليه، كما نصّ عليه في سورة الزمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، ثم ردّ عليهم قال: ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾؟ في قراءة أخرى: ﴿كافي عباده﴾، وهذا كثير في القرآن. وهذه الخشية التي خاف صاحبها من عاقبة الأصنام كفر بالله وشرك به.

---

(١) فإذا كان هذا الخوف خوف تألّه وتعبّد، وتقرّب بذلك إلى من يخافه بامتثال أمره وترك معصيته؛ كان تعلّقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلّقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة ـ التي هي من أعظم واجبات القلب ـ غير الله مع الله، بل قد يزداد خوفه من غير الله على خوفه من الله.

(٢) وهو الذي يفعله عبّاد القبور ونحوها؛ يخافونها ويخوّفون بها الموحّدين.

وقال بعض العلماء: هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله، كالذي يخشى الكفار، ويجبن عن الجهاد في سبيل الله، كما تقدّم في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجبلّته فهذا أمر لا مخالفة فيه؛ لأن الله لا يكلّف نفساً إلّا وسعها كما هو معلوم[(١)]»[(٢)].

فذكر الشيخ أقسام الخوف المذموم وبيّن أن منه المؤدّي إلى الشرك، ومنه الخوف المفضي إلى المعصية، ومقابل ما تقدم الخوف الجبلّي الذي لا إثم فيه ولا حرج.

[٤٥] وذكر محمّد المكّي أنّ الدعاء لا بدّ فيه من الخوف والرجاء، فعند قول الله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال: «يبيّن كتاب الله للمؤمنين كيف ينبغي أن يجمعوا في الدعاء بين الخوف والرجاء»[(٣)].

[٤٦] وبيّن أنّ ذلك هو حال أنبياء الله ورسله كما في قوله تعالى عن آل زكريا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]: «ويمكن أن يكون المراد به أنهم في حال دعائهم يجمعون بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء، إذ لا مانع من ذلك عند العارفين السالكين لهذه المسالك، وإذا

---

(١) ومن أنواع الخوف: خوف وعيد الله تعالى الذي توعّد به العصاة، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾. وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله. قال القرطبي: «(ذلك لمن خاف مقامي﴾ أي: قيامي عليه ومراقبتي له، قال تعالى: ﴿أمّن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾». التفسير (٩/ ٣٤٨).

(٢) جهود الشيخ محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١/ ١٧٧ـ١٧٨).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٢/ ٢٢٤).

كان كتاب الله يثني على الأنبياء والرسل السابقين، ويصف أحوالهم وأخلاقهم للمؤمنين اللاحقين فإنما يضرب أحسن قدوة يقتدون بها هي سيرة السلف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠][١].

[٤٧] وعند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧] قال: «ثم مضى كتاب الله يبيّن أنّ أهل المقامات العليّة الذين تعقد عليهم الآمال، وتناط بهم الآمال عند عامة الناس هم أنفسهم واقفون بباب الله، يتسابقون فيما بينهم إلى طاعة الله، ويلاحق كلٌ منهم الآخر في ابتغاء رضاه ليكون أقرب إلى مولاه، وقلوبهم جميعاً معلّقة بين جناحي الخوف والرجاء في حالتي السرّاء والضرّاء»[٢].

فوصف من علت منـزلتهم وارتفعت درجاتهم بتعلّق قلوبهم خوفاً ورجاءً على حدّ سواء بالله ﷻ.

وبعد هذا البيان من أئمة المالكية في الجمع بين الخوف والرجاء نبهوا على أمر مهمّ في هذا الباب، وهو أنّ العبد في حال صحته يجمع بين الخوف والرجاء على حدّ سواء، بيد أنّ بعضهم يرى تغليب الخوف في حال الصحة، ليكون حافزاً على العمل، وأما إذا كان في حال المرض وقرب الأجل فرأوا أنه يغلّب جانب الرجاء حتى يحسن الظنّ بالله ﷻ، ليحبّ لقاء الله فيحب الله لقاءه.

[٤٨] ومن ذلك ما نقله ابن عطية من قول كثير من العلماء من أنه: «ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء، وقد رأى كثير من

---

(١) التيسير (٤/ ١٤٦ـ١٤٧).

(٢) التيسير (٣/ ٣٩٨).

العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير، وهذا كلّه احتياط، ومنه تمني الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة، وتمنّى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف(١) ؛ لأنّ مذهبه أنهم مذنبون»(٢).

[٤٩] وبنحو ذلك قال القرطبي أبو عبدالله، واستدلّ بحديث النبي ﷺ: «**لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله**»(٣)(٤).

[٥٠] وأكّد هذا المعنى في موضع آخر، فقال: «ويكون الخوف في صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه لحسن الظنّ بالله تعالى»(٥).

[٥١] وبيّن القاضي عياض عند هذا الحديث المراد بالأمر بحسن الظنّ بالله عند الموت، فقال: «تحذير من القنوط المهلك، وحض على الرجاء عند الخاتمة لئلا

---

(١) ذكر الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار». ثم قال: اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله. ثم ساق الآثار المرفوعة في ذلك، وعقب بقوله: والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة، وفيه دلالة على ما ذكر اهـ. تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٣٢). ط. دار ابن حزم، الأولى ١٤١٩هـ.

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٣).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٤/ ٢٢٠٥) برقم (٢٨٧٧).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٧).

(٥) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (٨٤).

يغلب عليه الخوف حينئذ فيخشى عليه اليأس والقنوط فيهلك.

وعبادة الله إنما هي من أصلين: الخوف والرجاء، فيستحبّ غلبة الخوف ما دام الإنسان في خيرية العمل، فإذا دنا الأجل وذهب المهل، وانقطع العمل استحبّ حينئذ غلبة الرجاء ليلقى الله تعالى على حالة هي أحبّ الأحوال إليه جل اسمه، إذ هو الرحمن الرحيم، ويحبّ الرجاء، وأثنى على نبيّه ﷺ بذلك.

ويؤيّد ما قلناه قوله في الحديث ـ بعد هذا ـ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[١]، فهذا جامع لهذا وغيره، وأنّ العبد يبعث على الحالة التي مات عليها»[٢].

وبين أنّ مسلماً أراد من ذلك أن يكون الحديث بعده مفسّراً له.

[٥٢] وذكر القرطبي أبو العباس: «أنّ الخوف أولى بالمسيء، لكن بحيث لا يقنط من رحمة الله، والرجاء أولى بالمحسن، لكن بحيث لا يفتر فيكسل عن الاجتهاد في عبادة الله تعالى»[٣].

[٥٣] وفي موضع آخر قال: «وهذا في حال الصحة والقوة على العمل، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك الوقت وقتاً يقدر فيه على استئناف غير الفكر في سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله، وأنه لا يتعاظمه ذنب يغفره، وأنه الكريم الحليم، الغفور الشكور، والمنعم الرحيم. ويذكر بآيات الرخص وأحاديثها، لعلّ ذلك يقع بقلبه فيحب الله تعالى؛ فيختم عليه بذلك فيلقى الله تعالى وهو محبّ لله

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظنّ بالله عند الموت (٤/ ٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٨).

(٢) إكمال المعلم (٨/ ٤٠٩).

(٣) المفهم (٧/ ٣٥٨).

تعالى، فيحشر في زمرة المحبين بعد أن كان في زمرة الخطّائين، ويشهد له قوله: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(١).

[٥٤] وذكر ابن جزي «أنّه يستحبّ أن يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيّئات، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت، لقوله ﷺ: «لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله تعالى»(٢).

[٥٥] وبنحو ذلك قال محمّد الأمين:

«العلماء يقولون: ينبغي للإنسان ـ وهو في أيام صحته ـ أن يغلب الخوف دائماً على الرجاء، وأن يكون خوفه أغلب من رجائه، فإذا حضره الموت غلب الرجاء في ذلك ليطغى على الخوف، فلا ينبغي للمؤمن أن يموت إلّا وهو يحسن الظنّ بالله جل وعلا بأن ربه رؤوف رحيم، كما جاء بذلك الحديث عن النبي ﷺ»(٣).

وبهذه النقول عن أئمة المالكية يتبيّن أنّ الخوف والرجاء مقامان جليلان، لا بد من تحقيقهما والجمع بينهما في حال الصحة، وأمّا في حال المرض وقرب الأجل فيغلب جانب الرجاء إحساناً للظنّ بالله ﷻ.

*****

(١) المفهم (٧/ ١٤٣).

(٢) التسهيل (٢/ ٦٣).

(٣) جهود محمّد الأمين (١/ ١٧٥ـ١٧٦).

المسألة الثالثة: التوكّل

التوكّل على الله تعالى فرض من فرائض الرحمن وشرط من شروط الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فعلّق الإيمان بالتوكّل.

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

وقد اعتنى أئمة المالكية بهذا المقام الجليل ـ مقام التوكّل على الله ﷻ ـ، ويمكن بيان تناولهم للتوكل وما يتعلق به في الفقرتين الآتيتين:

أولًا: بيان حقيقة التوكّل.

ثانياً: صلة الأسباب بالتوكّل.

أولًا: بيان حقيقة التوكّل

ذكر المالكية أنّ التوكّل على الله ﷻ له معانٍ متعدّدة؛ فتارةً يفسّرونه بالثقة بالله، وتارة بالتفويض، وتارة بالتسليم والاعتماد على الله؛ ومقام التوكّل يجمع كل هذه المعاني.

[١] ومن ذلك ما ذكره القرطبي بقوله:

«سئل مالك عن البلد يقع فيه الموت، فهل يكره الخروج إليه؟ فقال: لا أرى بأساً

خرج أو أقام. قيل: فهذا يشبه ما جاء في الحديث عن الطاعون؟ قال: نعم.»[١].

وهذا من مالك ـ والله أعلم ـ لإثبات التوكّل على الله، وتعلّق القلب به سبحانه، وأنّ الخروج إلى الموضع الذي فيه الموت لن يغيّر من قدر الله شيئاً[٢].

ولكن جاء الحديث عن النبي ﷺ فيما إذا وقع الوباء أن لا يخرج من هو في مكان الوباء ولا يقدم من كان خارجاً عليه.

ولذا عقّب القرطبي على قول مالك السالف بقوله: «فيه نظر».

ثم ذكر ما حصل من عمر رضي الله عنه[٣]، فقال: «وهذا يدلّ على أنه عزم على الرجوع لرأي أولئك المشيخة لما ظهر أنه أرجح من رأي غيرهم ممن خالفهم، ووجه أرجحية هذا الرأي أنه جمع فيه بين الحزم والأخذ بالحذر، وبين التوكّل والإيمان بالقدر».

[٢] يؤكّد هذا المعنى عن مالك رحمه الله أنّ القرطبي نقله قولًا عن بعض السلف، ثم قال: «واعتمد أصحاب هذا القول على أنّ الآجال محدودة، والأرزاق مقدّرة، فلا يتقدم شيء على وقته، ولا يتأخّر شيء عن أجله، فالواجب صحة

---

(١) المفهم (٥/ ٦١٨).

(٢) والحديث الوارد في الطاعون يمنع القدوم على بلد وقع بها الطاعون، كما يمنع الخروج منها لمن كان مقيماً بها، وهذا يؤكّد أن الإمام مالك رحمه الله إنما أراد ما ذكرته من تعلّق القلب بالله تعالى، فلو خرج فراراً من الطاعون لن يغيّر من قدر الله شيئاً إن قُدر عليه الموت، وكذا بقاؤه. ويأتي كلام القرطبي في إيضاح هذا المعنى.

(٣) خرج الإمام مالك في موطئه بسنده عن عبدالله بن عامر بن ربيعة، أنّ عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، فلما جاء سرغ بلغه أنّ الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبدالرحمن بن عوف أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». فرجع عمر بن الخطاب من سرغ. انظر الموطأ (٢/ ٦٨٣).

الاعتماد على الله والتسليم لأمر الله، فإن الله تعالى لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه، فالقدوم على الوباء والفرار سيان بالنسبة إلى سابق الأقدار[١]»[٢].

[٣] ونقل ابن بطال قول الطبري على سبيل الإقرار في بيان حدّ التوكّل، فقال: «الثقة بالله تعالى، والاعتماد في الأمور عليه، وتفويض كل ذلك إليه»[٣].

[٤] وبيّن ابن عبدالبرّ حقيقة التوكّل عند حديث النبي ﷺ في النهي عن الكيّ بقوله: «يحتمل أن يكون النبي ﷺ نهى عن الكيّ في أمر ما، أو في علة ما، أو نهى عنه نهي أدب وإرشاد إلى التوكّل على الله، والثقة به، فلا شاف سواه، ولا شيء إلّا ما شاء»[٤].

[٥] وعلّل ذلك في موضع آخر بقوله: «لأنّ من ترك ذلك توكّلًا على الله، وعلماً بأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ أيام الصحة لا سقم فيها؛ كان أفضل منزلة وأعلى درجة، وأكمل يقيناً وتوكّلًا»[٥].

وبهذا يظهر حقيقة التوكّل، إذ تركه للكيّ اعتماداً على الله وثقةً به تعالى وأنّ السقم والبرء بيده تعالى تحقيق لمقام التوكّل على الله.

[٦] ولذا قال: «فمن ترك الكيّ ثقةً بالله، وتوكّلًا عليه كان أفضل؛ لأنّ هذه

---

(١) ومرادهم رحمهم الله واضح في الحضّ على صدق وصحة الاعتماد على الله تعالى، وليس ذلك من باب ترك الأسباب. وذلك لأن هذه الأقدار مغيبة عن الإنسان، فكان عليه الأخذ بالأسباب كما أمر النبي (بعدم القدوم على الطاعون أو الفرار منه إذا ما وقع، والله أعلم.

(٢) المفهم (٥/ ٦١٣).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٠٧ـ٤٠٨).

(٤) الاستذكار (٢٧/ ٤٣).

(٥) فتح البرّ (٦/ ٢٦١).

منـزلة يقين صحيح، وتلك منـزلة رخصة وإباحة»[(١)].

[٧] وفسّر ابن عطية قول الله ﷻ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] بقوله: «عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أمر به، ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، وينظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره»[(٢)].

ولا يتحقق شيء من ذلك إلّا لمن وثق بالله تعالى، واعتمد عليه وحده.

[٨] وبين منـزلة التوكّل من الإيمان، فقال: «والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجد، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل، وإنما هو كما قال ﷺ: «قيّدها وتوكّل»[(٣)][(٤)].

[٩] ونقل قول ابن مسعود في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]: «هذه أكثر الآيات حضًا على التفويض»[(٥)].

[١٠] وعند قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ

---

(١) فتح البر (٦/ ٢٦٠).

(٢) المحرر الوجيز (٦/ ٢١٧).

(٣) خرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب التوكل والتسليم (٢/ ٧٩) برقم (١٢٠٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣) من طريق حاتم بن إسماعيل به. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩١): رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما عمرو بن عبدالله بن أمية الضمري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال الذهبي: سنده جيد.

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٠٠).

(٥) المحرر الوجيز (١٤/ ٤٩٥).

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] قال ابن العربي: «التوكل: هو إظهار العجز والاعتماد على الغير».

[١١] ثم بيّن أساسه ومنزلته من الإيمان، فقال: «أصل هذا علم العبد بأن المخلوقات كلها من الله، لا يقدر أحد على الإيجاد سواه، فإن كان له مراد ـ وعلم أنه بيد الذي لا يكون إلّا ما أراد ـ جعل له أصل التوكل، وهذا فرض عين، وبه يصح الإيمان الذي هو شرط التوكل. قال الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾».

[١٢] ورتب على تحقق التوكل سكون القلب، وزوال الانزعاج والاضطراب، وهما من الأحوال التي تلحق وتعقب التوكل[١].

ومراده أنّ القلب لا يسكن ولا يطمئنّ إلّا بتفويض الأمور كلها لله وحده، الذي بيده تصريف كل شيء.

[١٣] ونقل القاضي عياض على سبيل الإقرار ما اختاره الطبري من قول عامة الفقهاء في بيان حدّ التوكّل: «حدّه: الثقة بالله، والإيقان بأنّ قضاءه ماضٍ»[٢].

[١٤] وقال بنحو قول القاضي عياض القرطبيُّ أبو عبدالله، ثم قال: «وهو الصحيح»[٣].

[١٥] وعند قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] قال ـ معرّفاً التوكّل ـ: «إنه اعتماد القلب

---

(١) انظر أحكام القرآن (٣/ ٤٤٨ـ٤٤٩).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٦٠٣ـ٦٠٤).

(٣) انظر تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٣).

على الله تعالى في كلّ الأمور»(١).

[١٦] ونقل القرطبي أبو العباس قول عامة الفقهاء السابق في بيانه لمعنى التوكل(٢).

[١٧] وفي موضع آخر قال: «التوكّل على الله هو الاعتماد عليه والتفويض إليه فيما يجوز الإقدام عليه، أو فيما يخاف وقوعه، أو يرتجى حصوله، وقد يفضي التوكل بصاحبه إلى ألّا يخاف شيئاً إلّا الله، ولا يرجو سواه، إذ لا فاعل(٣) في الحقيقة إلّا هو»(٤).

فالخوف والرجاء إنما ينشآن عن التوكل على الله ﷻ.

[١٨] وبيّن القرافي حقيقة التوكّل، فقال: «التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يجلبه من خير أو يدفعه من ضرّ»(٥).

[١٩] ونحو ذلك قال ابن جزي: «التوكّل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع، أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها».

[٢٠] ثم ذكر أنه من أعلى المقامات، وذلك لأنّ الله يحبّ المتوكّلين، وللضمان(٦) في قوله: ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٦٢).

(٢) انظر المفهم (١/ ٤٦٧).

(٣) الأسلم أن نقول: لا مقدّر إلّا هو ﷻ. قال ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». خرجه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣).

(٤) المفهم (٤/ ٤٣).

(٥) الذخيرة (١٣/ ٢٤٧). وبيّن مراتب الناس حيال التوكل على الله ﷻ.

(٦) ومراده بالضمان الوارد في الآية: حفظ الله وكفايته للمتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿ومن =

[٢١] وأشار إلى أنه شرط في الإيمان مستدلّاً بقوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾[١].

[٢٢] وذكر ابن عاشور أنّ التوكّل هو «الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكَّل عليه، وهو الوكيل، أي المتولّي مهمات غيره».

[٢٣] ووصف حال أهل الإيمان الكمّل، فقال ـ عند قوله تعالى: ﴿وتوكّل على الحي الذي لا يموت...﴾ ـ: «إشارة إلى أنّ المرء الكامل لا يثق إلّا بالله؛ لأنّ التوكل على الأحياء المعرّضين للموت وإن كان قد يفيد أحياناً لكنه لا يدوم»[٢].

ومراده أنّ الاعتماد لا يكون إلّا على الله وحده، وهو حقيقة التوكل.

[٢٤] وعرف محمّد الأمين التوكل بقوله: «التوكل على الله: الثقة به، وإسناد الأمور وتفويضها إليه، مع تعاطي الأسباب؛ لأن الله أمر بها، ولا بد مع تعاطيها من الثقة بأنه لا يقع إلّا ما أراد الله تعالى»[٣].

[٢٥] وبيّن أنّ التوكّل لا يكون إلّا على من يستحقّ العبادة، وهو الله جلّ وعلا، فقال ـ عند تفسير سورة الفاتحة ـ: «وإتيانه بقوله: ﴿إياك نستعين﴾ بعد قوله: ﴿إياك نعبد﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلّا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر، وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيّناً واضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ

= يتوكل على الله فهو حسبه﴾ أي: كافيه. والله أعلم.

(١) التسهيل (١/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٩).

(٣) معارج الصعود (٣٠٧).

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]»[١].

ثانياً: صلة الأسباب بالتوكل

يقرن العلماء في حديثهم عن التوكل الحديث عن تعاطي الأسباب، إذ إنّ تعاطيها لا يقدح في التوكل على الله ﷻ كما يظنه غالب الصوفية الذين أعرضوا عن الأسباب بالكلية[٢].

وقابلهم آخرون[٣] يرون الالتفات إلى الأسباب بالكلية، واعتماد القلب

---

(١) أضواء البيان (١/ ١٠٤). وذكر الشيخ ثمرات التوكل، فقال ـ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد...﴾ ـ: «دليل واضح على أنّ التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه: سبب للحفظ والوقاية من كل سوء... وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون التوكل على الله سبباً للحفظ والوقاية من السوء جاء مبيّناً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾، وقوله: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ۞ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾». أضواء البيان (٧/ ٨٩).

(٢) ومما يدل على انحرافهم في مفهوم التوكل ما جاء عنهم من تعريفات للتوكل أسوق إليك شيئًا منها:
قال سهل التستري وهو يتحدث عن مقام التوكل عند الصوفية: «أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله ﷻ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة ولا تدبير».
الرسالة القشيرية (١/ ٤٦٦). ط. دار الكتب الحديثة ـ مصر، تحقيق عبدالحليم محمود.
ومراده أن المتوكل على الله ينبغي له أن يقصد ولا يتحرك في هذه الحياة لتأمين لوازم الحياة، وإلا لا يوصف بأنه متوكل على الله.
وقال ذو النون المصري: «التوكل: ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة».
وقال أيضًا: «التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب». وهو صريح في ترك الأسباب. انظر الرسالة القشيرية (١/ ٤٦٨ـ٤٧٠).

(٣) وهو قول الماديين والعقلانيين قديماً وحديثاً.

والجوارح عليها من غير نظر إلى مسببها.

وكل قول منهما تضمن الإفراط أو التفريط.

ولذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد(١)، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع(٢).

وقد بين أئمة المالكية الصواب في تعاطي الأسباب، وأنّ القلب يعتمد على الله وحده حال تعاطيها من خلال أقوالهم الآتية:

[٢٦] قال ابن بطال رادًا على الصوفية إعراضهم عن الأسباب ـ عند شرحه لحديث هجرته عليه الصلاة والسلام وهو يعدد الفوائد ـ: «وفيه اتخاذ الفضلاء والصالحين الزاد في أسفارهم، وردّ قول من أنكر ذلك من الصوفية، وزعم أنّ من صحّ توكّله ينـزل عليه الطعام من السماء إذا احتاج إليه! ولا أحد أفضل من رسول الله ﷺ ولا من صاحبه وصديقه، وهما كانا أولى بهذه المنـزلة، ولو كانت كما زعموا ما احتاجا إلى سفرة فيها طعام»(٣).

---

(١) الالتفات إلى الأسباب ضربان: أحدهما شرك والآخر عبودية وتوحيد، فالشرك: أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها نافعة بذاتها، فهو معرض عن المسبب لها. وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب. وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٤٣) كتاب التوحيد والتوكل، وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات.

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٩٣ـ٩٤).

[٢٧] ونقل قول الطبري محتجًا به على أهمية الأخذ بالأسباب، ونصّه: «ومن اتباع سنته سعي فيما لا بد له من مطعم ومشرب وملبس، كما قال تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾، ومن سنته أن يحترز من عدوّه كما فعل النبي ﷺ يوم أحد من مظاهرته بين درعين، وتغفره بمغفر يتقي به سلاح المشركين، وإقعاده الرماة على فم الشعب ليدفعوا من أراد إتيانه، وكصنيعه الخندق حول المدينة حصناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد، ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد؛ من تحولهم عن منازلهم مرة إلى الحبشة، ومرة إلى مدينته ﷺ، خوفاً على أنفسهم من مشركي مكة وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم إياهم»(١).

[٢٨] وأيّد(٢) «مقالة الحسن البصري بقوله قد أحسن حين ذكر له قصة عامر ابن عبدالله(٣)، وأنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء وأخذ منه حاجته، فقيل له: قد خاطرت بنفسك! قال: لأن تختلف الأسنة في جوفي خير لي من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه. فقال الحسن: قد خاف من كان خيراً من عامر: موسى عليه السلام حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ . .﴾ [القصص: ٢٠

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٤٠٦).

(٢) لا يزال النقل عن الطبري.

(٣) هو عامر بن عبدالله، وهو الذي يقال له: ابن عبدالقيس، يكنى أبا عمرو، وقيل: أبا عبدالله، من بني تيم. قال عنه مالك بن دينار: هذا راهب هذه الأمة. كان من سادات التابعين وعبادهم. مات سنة ٥٥هـ. انظر: صفة الصفوة (٣/ ١٤١)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٧٧)، والحلية (٢/ ٨٧).

ـ ٢١]، وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

قالوا: فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله عليه نفوس بني آدم كاذب، وقد طبعهم الله على الهرب مما يضرّهم، وقد أمر الله عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وقال تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه﴾، فأحلّ للمضطر ما كان حرم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاغتذاء به، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعي في طلب ما يتغذى به حتى هلك كان لنفسه قاتلًا، وقد كان رسول الله ﷺ يتلوّى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وهو أفضل البشر، وكان يدخر لنفسه قوت سنة حين فتح الله عليه الفتوح[1]»[2].

وقد أطال في ردّه على الصوفية الأغمار، وما أتي القوم إلّا بسبب قلة بضاعتهم في العلم، وتفشّي الجهل في صفوفهم[3].

[٢٩] ثم ختم نقله لمقالة الطبري النفيسة مؤكداً وملخّصاً لما سبق في وجوب الأخذ بالأسباب وتعاطيها. فبعد أن ذكر حدّ التوكّل بأنه الاعتماد على الله، قال:

«بعد استفراغ الوسع في السعي فيما بالعبد له حاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي فيه لا فيما قاله الزاعمون أن حده: الاستسلام للسباع، وترك الاحتراز من الأعداء، ورفض السعي للمكاسب والمعاش، والإعراض عن علاج

(١) خرجه البخاري في كتاب النفقات، باب حبس الرجل قوت سنة على أهله (٩/ ٥٠١) برقم (٥٣٥٧).
(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٠٧ـ٤٠٨).
(٣) قال ابن الجوزي: «قلة العلم أوجبت هذا التخليط، ولو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد». تلبيس إبليس (٢٨٦). ط. دار الكتب العلمية.

العلل!! لأنّ ذلك جهل وخلاف لحكم الله في عباده وخلاف حكم رسوله في أمته، وفعل الأئمة الراشدين»(١).

[٣٠] وأشار ابن عطية إلى ارتباط التوكل بتعاطي الأسباب، فقال: «الذي أقول: إنّ التوكل الذي أمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: «**قيّدها وتوكّل**»، فقد جعله متوكّلًا مع التقييد، والنبي ﷺ رأس المتوكّلين، وقد تسبب عمره كله، وكذلك السلف كله».

[٣١] ثم ذكر ما وجه الله به جماعة المسلمين، فقال: «وللمسلمين جميعاً قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ولهم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقول النبي ﷺ - في مدح السبعين ألفاً من أمته -: «وعلى ربهم يتوكّلون» ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملةً واحدةً، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب، بل كان يغزو ويأخذ سهامه، وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء، وأما ترك التسبب في الطبّ فسهل، والكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة، فكيف بمن يحتسب؟»(٢).

[٣٢] وذكر القاضي عياض أنّ «كلّ سبب مقطوع به غير قادح في التوكّل، كالأكل للغذاء، والشرب للري لا يقدح في التوكّل، وكذلك المظنون كالطبّ للبرء، ولبس الدرع للتحصّن من العدوّ...»(٣).

[٣٣] وبعد ذكره حدّ التوكّل قال: «... واتباع سنة نبيه فيما لا بد منه من مطعم

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٤٠٨).

(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٣).

(٣) إكمال المعلم (١/ ٦٠٢).

ومشرب، والتحرز من العدوّ، كما فعل ﷺ وفعله الأنبياء»(١).

[٣٤] ثم نقل قول الطبري السابق، وعقّب عليه بقوله: «. . . بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته، والثقة أنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرًا سبب ولا أحد، والكل من الله وحده»(٢).

ومراده أنه لا يعتمد على السبب لذاته؛ لأنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرًا، وإنما يعتمد على الله تعالى وحده مسبب الأسباب.

[٣٥] وذكر القرطبي مقالة الصوفية في التوكّل بأنه ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب، فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكل، ثم قال: «قال سهل: من قال إنّ التوكّل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ، لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، فالغنيمة اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذا عمل. وقال النبي ﷺ: **«إنّ الله يحبّ العبد المحترف»**(٣).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يفرضون على السرية».

[٣٦] وعند قول الله ﷻ: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] قال: «وهو ردّ على الصوفية الجهلة الأغمار الذين يقتحمون المهامِهَ والقفار زعماً أنّ ذلك هو

---

(١) إكمال المعلم (١/ ٦٠٤).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٦٠٤).

(٣) قال في فيض القدير: أخرجه البيهقي والطبراني والحكيم الترمذي (٢/ ٣٦٨) برقم (١٨٧٣).
وقال في كشف الخفاء: في سنده أبو الربيع متروك. وفي معناه ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود ﷺ: «إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل الدنيا ولا الآخرة». رواه أحمد وابن المبارك والبيهقي وابن أبي شيبة. انظر كشف الخفاء (١/ ٢٩١).

التوكّل على الله الواحد القهّار![1] هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد، مع معرفته بربه وتوكله على ربّ العباد»[2].

[٣٧] ثم بيّن أنّ القلب لا يطمئنّ ولا يلتفت إلى الأسباب، بل إلى مسبب الأسباب، وذلك «لأنّ الأسباب وسائط أمر بها عباده من غير اعتماد عليها»[3].

ثم ذكر أقسام المتوكّلين، فقال: «على حالين:

الأول: حال التمكن في التوكل، فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطاه إلّا بحكم الأمر.

الثاني: حال غير المتمكن، وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً، غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية، والبراهين القطعية، والأذواق الحالية، فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتمكنين، ويلحقه بدرجات العارفين»[4].

[٣٨] وهذا التقسيم للمتوكّلين نص عليه شيخه أبو العباس القرطبي[5].

[٣٩] وبيّن أنّ تعاطي الأسباب لا ينافي التوكّل؛ فعند إيراده قصة إبراهيم وسارة

(١) قال القرطبي: «قال رجل لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج من مكة على التوكل بغير زاد. فقال له أحمد: اخرج في غير القافلة. فقال: لا إلّا معهم. قال: فعلى جرب الناس توكّلت!». التفسير (٢/ ٤١١).

(٢) التفسير (١١/ ١٣).

(٣) التفسير (١٣/ ٦٢).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ١٩٠).

(٥) انظر المفهم (١/ ٤٦٨). وجُهّال المتوكلة: هم المتصوفة ومن نحا نحوهم ممن اعتبر التواكل توكّلًا.

مع الجبار، وقول إبراهيم لها: «فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام»(١)، قال: «وفيه ما يدل على أنّ العمل بالأسباب المعتادة التي يرجى بها دفع مضرّة أو جلب منفعة لا يقدح في التوكّل، خلافاً لما ذهب إليه جهّال المتوكّلة»(٢).

[٤٠] وفي موضع آخر قال: «فمن أهمل شيئاً من الأسباب المعتادة، زاعماً أنه متوكّل فقد غلط؛ فإن التوكّل لا يناقض التحرز، بل حقيقته لا تتم إلّا لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سنة الله، وبين التفويض إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ»(٣).

[٤١] وذكر القرافي في تعاطي الأسباب كلاماً بديعاً بعد تعريفه للتوكل وهل من شرطه ترك الأسباب، قال: «قال المحققون: لا يشترط ذلك، بل الأحسن ملابسة الأسباب؛ للمنقول والمعقول:

أما المنقول: فقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأمر تعالى بملابسة أسباب الاحتياط والحرز في غير موضع من كتابه العزيز، ورسوله ﷺ سيد المتوكّلين، وكان يطوف على القبائل ويقول: «من يعصمني حتى أبلغ رسالات ربّي»(٤)، وكان له جماعة يحرسونه من العدوّ حتى نزل

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب في فضائل إبراهيم الخليل ((٤/ ١٨٤٠) برقم (٢٣٧١).

(٢) المفهم (٦/ ١٨٦).

(٣) المفهم (٦/ ٥٨).

(٤) خرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٢)، وابن حبان (١٢/ ١٧٢) برقم (٦٢٧٤) بلفظ: «من يؤويني». وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٦) وقال: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح.

قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [الأنفال:]، ودخل مكة مظاهراً بين درعين في كتيبته الخضراء من الحديد[١]، وكان في آخر عمره وأكمل أحواله يدخر قوت عياله سنة.

وأما المعقول: فهو أن الملك العظيم إذا كانت له عوائد في أيام لا يحسن إلّا فيها، أو أبواب لا يخرج إلّا منها، أو أمكنة لا يوقع إلّا فيها؛ فالأدب معه ألا يطلب منه فعل إلّا حيث عوّده، وأن لا يخالف عوائده، بل يجري عليها، والله سبحانه ملك الملوك وأعظم العظماء، بل أعظم من ذلك، رتب ملكه على عوائد أرادها وأسباب قدرها، وربط بها آثار قدرته، ولو شاء لم يربطها. فجعل الري بالشرب، والشبع بالأكل، والاحتراق بالنار، والحياة بالتنفس في الهواء، فمن رام من الله تعالى تحصيل هذه الآثار بدون أسبابها فقد أساء الأدب، بل يلتمس فضل الله تعالى في عوائده»[٢].

[٤٢] ثم بيّن أنّ الخلائق ينقسمون حيال هذه الأسباب أقساماً ثلاثةً فقال: «قسم عاملوا الله تعالى باعتماد قلوبهم على قدرته مع إهمال الأسباب والعوائد، فلجوا في

---

(١) ومظاهرته عليه الصلاة والسلام بين الدرعين كان يوم أحد، كما خرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٤٩)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٨٧)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٥٨) (٢٦٥٩).
وأما دخوله مكة فقد لبس على رأسه المغفر، كما في البخاري (٨/ ١٥) برقم (٤٢٨٦)، ومسلم (١٣٥٧).
قال السندي: قوله «ظاهر بين درعين» أي: أوقع الظهار بينهما بأن جعل أحدهما ظهارًا للأخرى، أو الظهار بمعنى المعاونة، والمراد أنه لبسهما، وفيه أن التوكل لا يقتضي ترك مراعاة الأسباب.

(٢) الذخيرة (١٣/ ٢٤٨).

البحار في زمن الهول، وسلكوا القفار العظيمة المهلكة بغير زاد. . . فهؤلاء فاتهم الأدب، وهم جماعة من العبّاد.

وقسم لاحظوا الأسباب وأعرضوا عن التوكّل، وهم عامة الخلق، وهم شرّ الأقسام، وربما وصلوا بذلك للكفر.

وقسم اعتمدت قلوبهم على قدرة الله تعالى، وطلبوا فضله في عوائده، ملاحظين في تلك الأسباب مسبّبها وميسّرها، فجمعوا بين التوكّل والأدب، وهؤلاء هم النبيّون والصدّيقون وخاصة عباد الله، العلماء بالله والعارفون بمعاملته. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه»[١].

[٤٣] وقسّم ابن جزي الأسباب من حيث الفعل والترك إلى ثلاثة أقسام:

«**أحدها**: سبب معلوم قطعاً، قد أجراه الله تعالى؛ فهذا لا يجوز تركه، كالأكل لدفع الجوع، واللباس لدفع البرد.

والثاني: سبب مظنون، كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك؛ فهذا لا يقدم[٢] فعله في التوكل، لأن التوكل من أعمال القلب، لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه. الثالث: سبب موهوم بعيد؛ فهذا يقدم[٣] فعله في التوكّل»[٤].

[٤٤] وألمح الشاطبي إلى أهمية تعاطي الأسباب بقوله: «الصحابة قد كانوا حازوا رتبة التوكل، ورؤية إنعام النعم من المنعم لا من السبب، ومع ذلك فلم يتركوا

(١) الذخيرة (١٣/ ٢٤٨ـ٢٤٩)، وترتيب الفروق (٢/ ٣٧٨).

(٢) كذا في النص، والصواب: «لا يقدح».

(٣) والصواب: «يقدح» كما سبق.

(٤) التسهيل (١/ ٢١٨).

الدخول في الأسباب العادية التي ندبوا إليها، ولم يتركهم النبي ﷺ مع هذه الحالة التي تسقط حكم الأسباب وتقضي بانخرام العوائد، فدل على أنها العزائم التي جاء الشرع بها؛ لأن حال انخراق العوائد ليس بمقام يقام فيه، وإنما محله الرخصة، كما تقدم ذكره، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**قيّدها وتوكّل**»؟»(١).

[٤٥] ونقل محمّد المختار قول الجمهور في تعاطي الأسباب والتقسيم الذي ذكره القرطبي فيما مضى عن حال الناس مع تعاطي الأسباب على سبيل الإقرار(٢).

[٤٦] وذكر ابن عاشور عند قول الله ﷻ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]: «وبعد أن أمر القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمرهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله...»(٣).

[٤٧] وذكر محمّد الأمين الأدلة على أنّ تعاطي الأسباب لا يقدح في التوكل، فقال: «ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] مع أنه تعالى لو أراد لأسقطه لها بدون هزّ منها، ومن أوضح الأدلة على ذلك قول يعقوب ـ الذي وصفه الله بالعلم في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ـ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، محافظةً عليهم من العين، ثم قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، فقد أخذ بالأسباب

---

(١) الموافقات (٢/ ٥٠٧)، والحديث مضى تخريجه ص ٢٦٧.

(٢) انظر نور الحق الصبيح (٩/ ٧٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٥).

والحيطة، وصرح بأن الاعتماد على الله تعالى وحده، فهو متوكّل وآخذ الأسباب.

[٤٨] ومما يدل على أنّ السبب لا ينفع إلّا بإرادة الله تعالى: ما قصّه الله في سورة الأنبياء وغيرها عن إبراهيم ﷺ، فالنار طبيعتها المستمرة الإحراق، ولكن عندما لم يرد الله لها أن تؤثّر في إبراهيم أحرقت الحطب، وكانت عليه برداً وسلاماً في آن واحد، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٦٩].

فالمؤثّر في الحقيقة هو ربّ العالمين، ولو شاء أن تتخلّف مقتضيات الأسباب لتخلّفت، كما أنه لو شاء أن يجعل ما لم تجر العادة بأن يكون من الأسباب سبباً لجعله كذلك»[١].

ومن خلال ما تقدّم من أقوال المالكية تعلم حقيقة التوكّل عندهم، وأنه من أعلى المقامات، وأنّ المتعاطي للأسباب لا يقدح فعله في اعتماده على الله ﷻ ما دامت الأسباب أسباباً مشروعةً، محذّرين في الوقت نفسه من الاعتماد على الأسباب وحدها دون مسبّبها، أو نبذ تلك الأسباب بالكلية، فذاك عجز وضلال ينافي التوكّل، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ولا بدّ مع هذا من مباشرة الأسباب.

*****

(١) معارج الصعود (٢١٤ و ١١٣ و ٣٠٧).

المسألة الرابعة: الصبر

للصبر منزلة عظيمة من الإيمان، فقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم في تسعين موضعًا، وقال عليه الصلاة والسلام: «**فما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**». **رواه الشيخان**[١].

وقال علي ﷺ: «ألا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، **فإذا قطع** الرأس بان الجسد»، ثم رفع صوته فقال: «ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[٢].

وكلام أئمة المالكية عن هذا المقام ـ الصبر ـ في أمرين:

أولًا: معنى الصبر اصطلاحًا.

ثانيًا: أنواع الصبر.

أولًا: معنى الصبر اصطلاحًا:

الصبر في اللغة: الحبس، كما قال الجوهري[٣]: «الصبر حبس النفس عن الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبرًا، وصبرته أنا حبسته، قال الله تعالى:

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٣/ ٣٣٥) برقم (١٤٦٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر (٢/ ٧٢٩) برقم (١٠٥٣).

(٢) خرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة برقم (١٥٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦). وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ١٤٦).

(٣) الصحاح (٢/ ٧٠٦) مادة صبر. ط. دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٢٩) ط. دار الجيل.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم . . .﴾ [الكهف : ٢٨] .

وقد أوضح علماء المالكية أنّ المعنى الشرعي للصبر هو نفس المعنى اللغوي ولكنه الحبس فيما يحمد شرعًا :

[١] من ذلك ما خرجه الإمام مالك بسنده عن أبي سعيد الخدري أنّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، ثم قال : «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر**»[١] .

فرواية الإمام مالك لهذا الحديث وما ترجم له بقوله : «باب التعفف عن المسألة» يبيّن المعنى الشرعي للصبر ، وهو حبس النفس عن المسألة رجاء ما عند الله ﷻ .

[٢] يوضح هذا المعنى ما ذكره ابن عبدالبر عند هذا الحديث : «وفيه الحض على التعفف والاستغناء بالله عن عباده والتصبر ، وأنّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان ، وفي هذا كله نهي عن السؤال وأمر بالقناعة والصبر . . .»[٢] .

[٣] وبين أنّ الصوم يسمى صبرًا في لسان العرب ، ثم نقل قول أبي بكر الأنباري في أنّ «الصوم يسمى صبرًا ، لأنه حبس النفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات»[٣] .

فبين فيما نقله أن الصبر هو حبس النفس عن الشهوات ، من مطعم وغيره .

---

(١) الموطأ (٢/ ٧٦٢) باب التعفف عن المسألة .

(٢) التمهيد (١٠/ ١٣٢) .

(٣) التمهيد (١٠/ ١٣٢) .

[٤] وقال ابن بطال: «الصبر في لسان العرب: حبس النفس عن المطلوب حتى يدرك، ومنه نهيه ﷺ عن صبر البهائم، يعني أنه نهى عن حبسها على التمثيل بها، ورميها كما ترمى الأغراض»(١).

[٥] وفسر فيما نقله كلام علي ﷺ السابق: «الصبر من الإيمان بمنـزلة الرأس من الجسد»، فقال: «وصدق علي؛ وذلك أنّ الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فمن لم يصبر على العمل بشرائعه لم يستحق اسم الإيمان بالإطلاق، والصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من جسد الإنسان الذي لا تمام له إلّا به، وهذا في معنى حديث أنس وجابر أن الصبر نصف الإيمان، وعامة المواضع(٢) التي ذكر الله فيها الصبر وحث عليه عباده إنما هي مواضع الشدائد، ومواطن المكاره التي يعظم على النفوس ثقلها، ويشتد عندها جزعها، وكل ذلك محن وبلاء، ألا ترى قوله ﷺ للأنصار: «**لن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(٣).

[٦] وبين الطرطوشي معنى الصبر، فقال: «الصبر حبس النفس على الأوامر والمكاره»(٤).

[٧] وحيث إن حبس النفس عما تنـزع إليه من أعظم مكروهاتها فقد عرف ابن العربي الصبر بأنه «حبس النفس عما تكرهه من تسريح الخواطر وإرسال اللسان

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٢٨٥).

(٢) إن قصد بقوله «عامة المواضع» أكثرها فهذا له حال، وإن قصد كلها فليس بصحيح، قال تعالى: ﴿واصطبر لعبادته﴾، فهذا صبر على الطاعة بنص الآية.

(٣) شرح البخاري (٩/ ٢٨٥).

(٤) سراج الملوك (٨٤).

وانبساط الجوارح على ما يخالف حال الصبر»[١].

ولما كان الحبس الذي تكرهه النفس منعها من الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن الفعل المخالف للشرع:

[٨] فقد نقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًا له في بيان معنى الصبر، فقال: «وأحسن ما فسر به الصبر: أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج»[٢].

[٩] ونظرًا لأن النفس تنفر من كل أمر يخالف هواها، فقد نبه ابن عاشور إلى أن الصبر «هو عبارة عن احتمال النفس أمرًا لا يلائمها، إما لأن مآله ملائم، أو لأن عليه جزاءً عظيمًا، فأشبه ما مآله ملائم، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر، فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم»[٣].

[١٠] وذكر المازري أنّ الصبر «هو منع النفس من التشفي والانتقام، أو منعها من غير ذلك»[٤].

[١١] وقال التتائي: «الصبر هو حبس النفس وربط القلب بخاتم الامتناع مما حل بها»[٥].

[١٢] وعرف محمّد الأمين الصبر بأنه «حبس النفس»[٦].

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ٧٦-٧٧).

(٢) نور الحق (٩/ ٦٥٢). وانظر فتح الباري (١١/ ٣٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٨).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٣٣٦).

(٥) تنوير المقالة (٢/ ٥٦٩).

(٦) معارج الصعود (٥٦).

ومرادهم قصر النفس على كل أمر يكون فيه نجاتها وسلامتها، وإن كان في ظاهره مخالفًا للشهوات والرغبات، إلّا أن مآله يكون مآلًا حسناً.

[١٣] ولذا قال القرطبي: «الصبر الحبس. . . وهو باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها، ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين»[(١)].

وبهذه النقول عن أئمة المالكية ما يكفي إن شاء الله تعالى لبيان المعنى الاصطلاحي للصبر عندهم.

ثانيا: أنواع الصَّبر:

ذكر المالكية أنّ للصبر أنواعًا بيّنوها بعد حديثهم عن المعنى الاصطلاحي للصبر، وبذلك يكتمل ما ذكروه عن هذا الخلق العظيم ـ الصبر ـ، وهو: الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

[١٤] ويحسن البداءة هنا بما ذكره ابن العربي، حيث قسم الصبر إلى أنواع ثلاثة، فقال: «الأول: الصبر على الطاعة. . الثاني: الصبر على[(٢)] المعاصي. . . الثالث: الصبر على الأذى، قال الله سبحانه: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وذلك هو الصبر على البلاء»[(٣)].

[١٥] وذكر القرطبي نحو قول ابن العربي هذا عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥][(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٧١ـ٣٧٢).

(٢) كذا في النص، والصواب: «عن المعاصي».

(٣) عارضة الأحوذي (٨/ ١٧٩).

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ١٧٤).

[١٦] وقال ابن بطال: «أرفع الصابرين منـزلة عند الله من صبر عن محارم الله، وصبر على العمل بطاعة الله، من فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته»(١).

[١٧] ثم ذكر الأقسام الثلاثة للصبر مجتمعة فيما رواه عن علي بن أبي طالب ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «**الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية**»(٢)(٣).

[١٨] ونحو من قول ابن بطال ما ذكره الطرطوشي عند قول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ بقوله: «أخبر الله تعالى أنه أثابهم جنته بصبرهم، يعني صبرتم على طاعة الله، وصبرتم عن معصية الله... فمن أمارات حسن التوفيق، وعلامات السعادة الصبر في الملمات، والرفق عند النوازل»(٤).

فانتظم في قوله ذلك أنواع الصبر: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على الأقدار المؤلمة.

[١٩] وفي موضع آخر قال: «الصبر على أربعة أقسام، فأول أقسامه وأولاها: الصبر على امتثال أمر الله، والانتهاء عما نهى الله عنه، والثاني: الصبر على ما فات إدراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة، والثالث: الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة ترجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها، والرابع: الصبر على ما نزل من

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٨٤).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﷺ برقم (٣٨٤٦). وأورده المناوي في فيض القدير (٥١٣٧)، والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٦) ورمز له بالضعف. وقال ابن الجوزي: والحديث موضوع.

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٨٤).

(٤) سراج الملوك (٨٤).

مكروه أو حل من أمر مخوف، وجميع أقسامه محمودة بكل لسان وفي كل ملة، وعند كل أمة مؤمنة أو كافرة»(١).

فما ذكره أخيرًا لا يتنافى مع كلامه السابق، إذ إنّ الصبر على الامتثال والانتهاء عما نهى عنه هو الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، وما تبقى كله يدخل ضمن الصبر على الأقدار المؤلمة.

[٢٠] وأوضح ابن جزي أنّ للصبر أربعة أقسام، فقال: «صبر على البلاء، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها، وصبر عن المعاصي بكف النفس عنها»(٢).

وهذه الأقسام للصبر لا تخرج عما تقدم، إذ إن الصبر على النعم يؤول في الحقيقة إلى الصبر على الأقدار؛ لأن الابتلاء قد يكون بالسراء والضراء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥](٣).

[٢١] ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًا له في تقسيم الصبر، فقال: «... ثم الصبر على ثلاثة أقسام: صبر عن المعصية فلا يفعلها، وصبر على الطاعة فلا يتركها، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها... والمرء لا بد له من كل واحدة

---

(١) سراج الملوك (٨٥).

(٢) التسهيل (١/ ١١٥).

(٣) وفي هذا المعنى قول أبي تمام:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله أدنى القوم بالنعم

انظر خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر الحموي (٢/ ٣٧٧)، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط. الأولى ١٩٨٧م.

من هذه الثلاث»[١] .

[٢٢] وهذا التقسيم الثلاثي للصبر ذكره محمّد المكي ، فقال : «صفة الصبر تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة ، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها ، والصبر على الطاعات والخصال الحميدة ، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها ، والصبر عند مفاجآت الأقدار ، وذلك بعدم السخط من أجلها وعدم الاعتراض على الله فيها»[٢] .

[٢٣] وقد أشار الإمام مالك إلى نوع من أنواع الصبر ، وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة ، وذلك فيما رواه بسنده من حديث النهي عن المسألة الذي جاء في آخره : «وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر»[٣] .

[٢٤] ومن ذلك قول ابن أبي زيد القيرواني : «وحسن التعزي والتصبر أجمل»[٤] .

ومراده الصبر على الأقدار المؤلمة عند حلول الموت وترك البكاء .

[٢٥] ومثل ذلك ـ أي الصبر على الأقدار المؤلمة ـ ما ذكره القرطبي عند حديث أبي هريرة : «**ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء**»[٥] بقوله : «وفائدة هذا الحديث احتساب المصائب والصبر عليها ، وانتظار الثواب عليها ، والخوف من عدم

(١) نور الحق (٩/ ٦٥٤) .

(٢) التيسير (٥/ ١٣٠) .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٨٦ .

(٤) الرسالة (٦٨) .

(٥) خرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز (٤/ ٢١٦٣) رقم (٢٨٠٩) .

المصائب وبسط الدنيا»[١].

[٢٦] وعند حديث الساحر والغلام في تفسير سورة البروج[٢] وما لقيه الغلام من الصلب والقتل قال: «وهذا الحديث كله إنما ذكره النبي ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به»[٣].

فهذا الصبر الجليل الذي ذكروه هنا هو الصبر على أقدار الله المؤلمة، ولا ريب أنّ المؤمن إذا كان مأمورًا بالصبر على تلك الأقدار المؤلمة فمن باب أولى أن يؤمر بالصبر على امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالدين أمر ونهي كما لا يخفى.

[٢٧] وقد جعل محمّد الأمين ذلك سببًا للفوز بالجنة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، فقال: «أي بسبب صبرهم في دار الدنيا على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخريًا، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله واجتناب نهيه»[٤].

فجمع أنواع الصبر الثلاثة لنيل الفوز، وهو المطلوب الأعظم في الآخرة.

وختامًا يتبين من كلام المالكية عن الصبر أنّ الصبر المحمود عندهم هو حبس النفس على طاعة الله ﷻ، والانكفاف عن معصيته والصبر على قضائه وحكمه، فمن

---

(١) المفهم (٧/ ١٢٧).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٤/ ٢٣٠٠) برقم (٣٠٠٥).

(٣) المفهم (٧/ ٤٢٦).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٨٢٩).

حقق ذلك المقام فهو الصابر حقيقة، وله حظ من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

*****

المسألة الخامسة: التوبة

أفاض المالكية في كلامهم عن التوبة، وتنوعت مسالكهم في إثبات حقيقة التوبة، فمنهم من يذكر الشروط على أنها التوبة إذا اكتملت وتحققت، وبعضهم يعبر عنها بالأركان.

وعلى كل حال فهذا لا يؤثر؛ إذ العبرة بتحقق رجوع العبد إلى ربه، واستقامته على طاعته ولا يضر بعد ذلك تعدد المسميات.

وسوف أبين كلام المالكية في التوبة من خلال الآتي:

أولًا: بيان معنى التوبة.

ثانيًا: بيان شروط التوبة.

أولًا: بيان معنى التوبة

التوبة في اللغة: الرجوع.

قال ابن فارس: «التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه»[1].

وحقيقة التوبة في الشرع: الرجوع إلى الله ﷿ مما يكرهه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا[2]، وهي عبادة لا يجوز أن تصرف إلّا لله ﷿، وقد بين المالكية

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٥٧).

(٢) انظر قريبًا من هذا المعنى عند الطرطوشي في الدعاء المأثور (٢٢٧).

هذا المعنى:

[١] ومن ذلك ما ذكره ابن القاسم عن مالك: أنه سئل عن الرجل المحدود في القذف الذي يعرف بالصلاح والحالة الحسنة قبل القذف، كيف يعرف من توبته حتى تقبل شهادته، قال: «إذا زاد خيرًا على حالته التي كان عليها، والناس يزيدون في الخير، وقد كان عمر بن عبدالعزيز عندنا بالمدينة رجلًا صالحًا، ثم ولي الخلافة فزاد على حالته التي كان عليها وزهد في الدنيا، فبهذا يعتبر وإن كان داعرًا حين ضرب في الحد في القذف فعرفت توبته، فهذا تقبل شهادته، فأرى إن أقام على الشهود البينة أنهم قد جلدوا في القذف، فإن القاضي ينظر إلى حالهم اليوم وإلى حالتهم قبل اليوم، فإن عرف منهم تزيدًا في الخير أو توبة عن حالة كانت لا ترضى قبل شهاداتهم»(١).

فجعل الإمام مالك توبة ورجوع المحدود في القذف من تلك المعصية وغيرها من الآثام، والإقبال على الخير والزيادة منه شرطًا لقبول شهادته.

[٢] وأخذ ابن القاسم بقول مالك في ذلك، فقال: «لا تقبل شهادته حتى يحدث توبة وخيرًا مثل ما وصفت لك من قول مالك»(٢).

[٣] وبين مالك أنّ المحارب المنفي لا يخلى سبيله حتى يصدق في توبته ورجوعه عن فعلته، فحين سئل: كم يسجن حيث ينفى؟ قال: «يسجن حتى تعرف له توبة»(٣).

---

(١) المدونة (٦/ ٢٨٤_٢٨٥).

(٢) انظر: المدونة (٦/ ٢٤٨).

(٣) المدونة (٦/ ٢٩٩).

[٤] وقال ابن وهب في بيان معنى الأواب بأنه «العبد يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب».

[٥] وبين ابن رشد معنى قول ابن وهب أنه الذي «كلما وقع في ذنب تاب منه ورجع إلى طاعة ربه...»، ثم أورد أثر ابن عباس في معنى الأواب: «أنه الذي حفظ ذنوبه ثم رجع عنها»(١).

فبيّن معنى الأواب: أنه رجوع العبد عن الذنوب، وهو معنى التوبة.

[٦] ولذا فسر قول الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] بأنه: «الرجاع إلى طاعة الله، تواب إليه مما يكرهه منه»(٢).

[٧] وبين القاضي عياض أنّ «التوبة من الذنب هي الندم عليه، وأصله الرجوع يقال: تاب وثاب وآب وأناب، بمعنى رجع، استعمل منه في الرجوع عن الذنب»(٣).

[٨] ومثله ما ذكره القرطبي في بيان معنى التوبة بقوله: «أصل التوبة الرجوع، يقال: تاب وثاب وآب وأناب: رجع، وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه، وعبد تواب: كثير الرجوع إلى الطاعة»(٤).

[٩] وأشار ابن أبي زيد لمعنى التوبة حين بين ما هو ضد للتوبة ـ وهو الإصرار ـ، فقال عن التوبة إنها «فريضة من كل ذنب من غير إصرار، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود عليه»(٥).

---

(١) البيان والتحصيل (١٨/ ٥١٣ـ٥١٤).

(٢) المصدر نفسه (١٨/ ٥١٤).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٢٤٠).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٣٢٤).

(٥) الرسالة (١٩٤).

[١٠] وبعد أن بيّن الطرطوشي معنى التوبة لغة قال: «فالتوبة في الشرع: الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع»(١).

[١١] وقال ابن عبدالبر: «التوبة أن يترك ذلك العمل القبيح بالنية والفعل»(٢).

ومراده الرجوع عن ذلك العمل إلى طاعة الله ﷻ.

[١٢] وعرف المازري التوبة من الذنب، فقال: «هي الندم عليه رعايةً لحق الله تعالى»(٣).

والذي يندم على فعل شيء لا يعود إليه في الغالب، بل يرجع إلى الله تعالى نادمًا، وهو ما أشار إليه بقوله: «رعاية لحق الله تعالى».

[١٣] وأوضح ابن عطية أن التوبة من العبد: «الرجوع عن المعصية»(٤).

وفي موضع آخر قال: «تاب معناه: رجع، فتوبة العبد رجوعه عن المعصية إلى الطاعة»(٥).

[١٤] ولما كانت المعصية شرًا والطاعة خيرًا قال في معنى «التوبة في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير»(٦).

[١٥] وعند قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] قال:

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٧ـ٢٧٨).

(٢) التمهيد (١٥/ ١٢).

(٣) المعلم (٣/ ١٨٨).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٢٦٢).

(٥) المصدر السابق (١٤/ ٥٢٤).

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٥٣٢).

«معناه: أي ارجعوا وميلوا بنفوسكم، والإنابة: الرجوع بالنفس إلى الشيء»(١).

[١٦] ونظيره قول ابن العربي في التوبة إنها «رجوع العبد عن حالة المعصية إلى حالة الطاعة»(٢).

[١٧] وبين أبو العباس القرطبي معنى التواب أنه الذي يقع منه الذنب ثم يعود إلى التوبة(٣).

فنص على أنّ التوبة الرجوع عن الإثم.

[١٨] وقال ابن باديس: «التوبة: الرجوع إلى الله، أي الرجوع من معصية الله إلى طاعته»(٤).

[١٩] وأوضح ابن عاشور «أنّ أصل معنى «تاب»: رجع، ونظيره بالمثلثة، وقال: إنها رجوع من التائب إلى الطاعة ونبذ للعصيان»(٥).

[٢٠] وعرف الشيخ محمّد الأمين التوبة بقوله: «هي الرجوع عن الذنب، والإنابة إلى الله بالاستغفار منه»(٦).

وبذلك يتبين أنّ المعنى الشرعي للتوبة هو الرجوع إلى الله تعالى، كما قرره أئمة المالكية.

---

(١) المحرر الوجيز (١٢/ ٥٥٣).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٣٧).

(٣) المفهم (٧/ ٨٥).

(٤) تفسير ابن باديس (٢٢٤).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٨).

(٦) أضواء البيان (٦/ ٢٠٣).

ثانيا: بيان شروط التوبة

بيّن المالكية أنّ حقيقة التوبة لا تتم إلّا بتوفر شروطها والإتيان بها، وإلا لم تصحّ التوبة، ويمكن تقسيم هذه الشروط إلى قسمين:

الأول: الشروط المتعلقة بالذنب.

الثاني: اشتراط أجل للتوبة.

أولًا: الشروط المتعلقة بالذنب:

يرى المالكية تقسيم الذنب إلى قسمين: ذنب فيما بين العبد وبين ربه، وذنب فيما بينه وبين الناس، وعلى هذا فمنهم من يجعل الشروط للتوبة ثلاثة، ومنهم من يزيد على ذلك شرطًا، وعلى كل حال من ذكر ثلاثة شروط فيعني بها المتعلق بحق الله تعالى، ومن زاد على الثلاثة فبسبب ما تضمنته من حق الآدمي، والتوبة الصادقة لا بد أن تشتمل على سائر الحقوق وردها إلى أهلها والتحلل منها.

[٢١] وأترك الكلام لهم في بيان تلك الشروط، وهي كما بيّن الدسوقي[١] أن منها ما هو متعلق بالماضي، ومنها ما هو متعلق بالحال، ومنها ما هو متعلق بالمستقبل، فجعل المتعلق باعتبار الحال: الإقلاع، وباعتبار الماضي: الندم، وباعتبار المستقبل: العزم على أن لا يعود. فأتت على جميع الأزمنة، لكل منها حظ من التوبة، ويعبر عنها بالأركان أو الشروط[٢].

---

(١) هو محمّد بن عرفة الدسوقي، شمس الدين الأزهري، له من التصانيف: حاشية على الدردير. مات سنة ١٢٣٠هـ. انظر شجرة النور (١/ ٣٦٣).

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/ ٤٠٧). ط. دار إحياء الكتب العربية.

وهذه الشروط بالنسبة للتائب منها ما هو متعلق بقلبه، ومنها ما هو متعلق بجوارحه:

[٢٢] كما قال ابن باديس من خلال تعريفه للتوبة: «. . . وذلك بالندم على ما فات، والعزم على عدم العود إليه، وهذا من عمل القلب، وبالإقلاع عما هو متلبس به، وهذا من عمل الجوارح»[١].

ولم يذكر ما يتعلق بالندم من جهة متعلقه، وهو متعلق بالقلب كما لا يخفى.

فأما عن شرط الإقلاع فإنه مربوط بحالة محددة لا يتصور حصوله إلّا إذا وجدت، وهي حالة التلبس بالذنب، كما أوضح ذلك الطرطوشي وهو يعدد شروط التوبة بقوله:

[٢٣] «أولًا: الإقلاع عما هو متضمخ[٢] به والخروج عنه. ثانيًا: الندم على ما فعل من المخالفات. ثالثًا: العزم على أن لا يعود لمثلها. فإن اختلّ منها ركن لم تصح توبته»[٣].

[٢٤] وكذا ما ذكره محمّد الأمين مبينا شروط التوبة بقوله: «الإقلاع عن الذنب إن كان متلبسًا به. الثاني: الندم على ما وقع منه من المعصية. والثالث: النية أن لا يعود إلى الذنب أبدًا»[٤].

وهذه الشروط الثلاثة إنما تجب مجتمعة، في حال تمكن التائب من الفعل

---

(١) تفسير ابن باديس (٢٢٤).

(٢) قال ابن الأثير: «التضمخ: هو التلطخ بالطيب وغيره». النهاية (٣/ ٩٩).

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٨).

(٤) أضواء البيان (٦/ ٢٠٣).

والقدرة عليه، أما إذا لم يتمكن فلا يتصور عزمه على الفعل، لعدم تمكنه منه. وكذا شرط الإقلاع لا يتصور إلّا في حال التلبس بالذنب كما في القولين السابقين.

[٢٥] وقد نبه ابن عطية على أنّ توبة العاجز تصح منه، إذ لا يمكن عوده إلى الذنب مع عجزه عن مقارفته. فبعد أن ذكر شرطين للتوبة قال: «هذا من المتمكن، وأما غير المتمكن كالمجبوب[(١)] في الزنا، فالندم وحده يكفيه»[(٢)].

[٢٦] وزاد هذا المعنى إيضاحًا، فقال: «وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنا فيجب بأثر ذلك ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك»[(٣)].

[٢٧] ونظيره ما ذكره القرافي بقوله: «وقد يكون الندم وحده توبة في حق العاجز عن العزم والإقلاع، كمن كان يعصي بالنظر إلى المحرمات فعمي، أو بالزنا فجُبَّ؛ لقوله ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[(٤)]، فيجب الندم وحده، وعليه حمل قوله ﷺ: «الندم توبة»[(٥)]، أو يحمل على أنّ معظمها الندم كما قال

---

(١) جبه جبًا وجبابًا: قطعه، ومنه الحديث: «الإسلام يجبّ ما قبله»، أي: يمحو ويقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب. ويقال: جبَّ الخصية: استأصلها. انظر المعجم الوسيط (١٠٤).
والحديث خرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٩٩)، والحاكم (٣/ ٢٩٧، ٢٩٨، ٤٥٤)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٢٣). قال الأرنؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد. حاشية المسند (٤/ ١٩٩).

(٢) المحرر الوجيز (١٤/ ٥٢٥).

(٣) الذخيرة (١٣/ ٣٥٦).

(٤) خرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (١٣/ ٢٥١) رقم (٧٢٨٨).

(٥) خرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٣٦١)، وأحمد (٣٥٦٨)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، والبغوي في شرح =

ﷺ: «**الحج عرفة**»[(١)]»[(٢)].

[٢٨] وقد رجح القاضي عياض ما نقله عن بعض العلماء في بيان شروط التوبة بقوله: «ذهب بعض مشايخنا إلى أنّ التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم على ما سلف، والعزم على ألا يعاوده»[(٣)].

[٢٩] ثم قال: «وهذه الشروط في صحة التوبة ـ من الندم على الذنب السالف والإقلاع عنه في الحال والمستقبل ـ، وهذا إذا لم يتعلق بالذنب تباعة، فأما إن تعلق به مع ارتكابه حق لله تعالى أو لآدمي فلا بد من شرطين: أحدهما متفق عليه في حق الآدمي، وهو رد مظلمته إليه والخروج له عنها، أو يحلله منها بطيب نفسه. الثاني: المختلف فيه، وهو ما كان من حق الآدمي فيما لا يصح الإقلاع دونه، كضربه أو قتله، أو إفساد ما يلزمه غرمه، وكذلك في حق الله فيما ضيعه من فرائضه، فإن الإقلاع عن ذلك توبة صحيحة مستقلة بنفسها»[(٤)].

فزاد بذلك على الشروط الثلاثة المتعلقة بحق الله ما كان حقا لآدمي تجب

= السنة (١٣٠٧)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١٥٤). قال الأرنؤوط: وهذا طريق موصول يصح به. انظر كلامه في حاشية الإحسان (٢/ ٣٧٨).

(١) الحديث عند ابن خزيمة (٤/ ٢٥٧) رقم (٢٨٢٢) في باب ذكر الدليل على أن الحاج إذا لم يدرك عرفة قبل طلوع الفجر يوم النحر فهو فائت الحج غير مدركه، والحاكم (١/ ٦٣٥) رقم (١٧٠٣).

قال الأعظمي: إسناده صحيح. انظر تعليقه على ابن خزيمة (٤/ ٢٥٧).

(٢) الذخيرة (١٣/ ٣٥٦).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٢٤١).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٢٤٢).

مراعاته، وبهذه تصح التوبة.

[٣٠] ونقل ابن بطال قول ابن المبارك مقرًا له في بيان شروط التوبة حيث ذكر من ذلك «الندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود، ورد المظالم وتأديتها»(١).

[٣١] وفي موضع آخر صرح بشروط التوبة، فقال ـ وهو يتكلم عن الكبائر ـ: «فأهل السنة مجمعون على أنه لا بد فيها من التوبة والندم والإقلاع واعتقاد أن لا عودة فيها»(٢).

فانتظم في قوله هذا شروط التوبة الثلاثة.

[٣٢] وجعل ابن عبدالبر تحقق شروط التوبة هو معنى التوبة، وذلك «بأن يترك العمل القبيح بالنية والفعل، ويعتقد أن لا يعود إليه أبدًا، ويندم على ما كان منه، فهذه التوبة النصوح المقبولة إن شاء الله...»(٣).

[٣٣] وأوضح القرطبي أبو عبدالله أنّ الله ﷻ لا يقبل التوبة إلّا «إذا كانت بشروطها المصححة لها، وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود لمثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله لا من غيره»(٤).

[٣٤] وبعد أن نقل أبو العباس القرطبي كلام العلماء في بيان معنى التوبة فمن «قائل يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على ألا يعود، وآخر يقول: الإقلاع عن الذنب، ومنهم من يجمع بين الأمور الثلاثة. قال: وهو أكملها»(٥).

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٨٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٥٥).

(٣) التمهيد (١٥/ ١٢)، وانظر (٥/ ٧٨).

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٩١).

(٥) المفهم (٧/ ٦٩).

فجعلوا تحقق شروط التوبة هي حقيقة التوبة، وذلك لأن الشرط إذا تحقق تحقق المشروط.

[٣٥] وفي موضع آخر أكد هذه الشروط فقال: «فحق التائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه وينوح دائمًا عليه حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلّا بلقاء الله تعالى، فواجب عليه ملازمة الخوف من الله تعالى والرجوع إليه بالندم على ما فعل، وبالعزم على ألا يعود إليه، والإقلاع عنه»[١].

[٣٦] وأفاض القرافي في الكلام على التوبة مبيّنًا حكمها، ومتى تلزم العبد، وما يترتب عليها، فقال: «التوبة واجبة بالإجماع على الفور، وهي تمحو ما تقدمها من آثام الذنوب المتعلقة بالله تعالى، لا تسقط حقوق العباد ولا حق الله تعالى الذي ليس بذنب، كقضاء الصلوات[٢] ونحوها، فإن ترتب العبادات والحقوق في الذمم هو تكليف تشريف لا إثم وعقوبة..».

[٣٧] ثم بين شروط التوبة، فقال: «الندم على المعصية، والعزم على عدم العود، والإقلاع في الوقت الحاضر عما تاب عنه»[٣].

[٣٨] وذكر ابن أبي جمرة نحوًا من قول القرافي في بيان الشروط، فقال: «الندم، والإقلاع، ورد المظالم، والعزم على أن لا يعود»[٤].

[٣٩] وبين أنّ هذه الشروط متضمنة لما نص عليه النبي ﷺ في قصة الإفك[٥].

---

(١) المفهم (٧/ ٢٨).

(٢) وهذا عند من يرى وجوب قضاء الصلاة على من تركها تهاونًا.

(٣) الذخيرة (١٣/ ٣٥٥).

(٤) بهجة النفوس (٣/ ٦٦).

(٥) أخذه من قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي =

[٤٠] وقال ابن جزي: «التوبة واجبة على كل مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وفرائضها ثلاثة: الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال[١]، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان، والعزم ألا يعود إليها أبدًا، ومهما قضي عليه بالعود أحدث عزمًا مجدّدًا»[٢]. فحصره شروط التوبة في ثلاثة إنما هو في التفريط في حقوق الله تعالى.

[٤١] وسلك التتائي مسلك ابن جزي في ذكر ثلاثة شروط للتوبة[٣]، ثم فصل القول في اشتراط رد المظالم إلى أهلها موضحًا أنه قول الجمهور[٤].

[٤٢] وأوضح الشاذلي أنّ للتوبة شروطًا ثلاثة:

«**الأول**: الندم على ما مضى من المعصية لرعاية حق الله تعالى، فمن ترك المعصية من غير ندم لا يكون تائبًا شرعًا، وكذلك من ندم عليها لكونها أضرت به في بدنه.

الثاني: العزم على ألا يعود في المستقبل.

الثالث: الإقلاع في الحال، فيرد المظالم إن أمكن وإلا فيرجع إلى الله تعالى بالتضرع والتصدق ليرضي عنه خصمه...»[٥].

= إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

(١) المقصود بالبدن والمال هنا بدن ومال المذنب نفسه، أما لو أخذ ببدن أو مال غيره فلا بد أن يندم على ذلك، وهذا لا يتم الندم لله إلّا به، لأن الله حرم ذلك عليه، فيندم على اقتحامه أمر الله وتجاوز حده في هذا التعدي.

(٢) التسهيل (٣/ ١٤١).

(٣) تنوير المقالة (١/ ٢٥٩ـ٢٦٠).

(٤) انظر: تنوير المقالة (١/ ٢٦٠).

(٥) انظر: حاشية العدوي (١/ ٩٩). ط. دار الفكر.

[٤٣] وبسط العدوي الكلام في حاشيته على قول الشاذلي السابق عن شروط التوبة(١).

[٤٤] ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًّا له في بيان معنى التوبة، فقال: «التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على فعله، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظلمة إن كانت، أو طلب البراءة من صاحبها»(٢).

[٤٥] وأورد محمّد المكي قول العلماء في بيان التوبة النصوح بقوله: «هي أن يقلع المؤمن عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل الذنب في المستقبل»(٣).

وعلى هذا فشروط التوبة المتعلقة بالذنب التي ذكرها المالكية هي هذه الثلاثة، ومن ذكر زيادة على ذلك فقوله عائد إلى تلك الشروط الثلاثة، ومن اقتصر على بعضها فقد يشير بما تضمنته إلى ما يدل عليها مجتمعة.

[٤٦] ولذا فقد ذكر الإمام مالك أنّ المحارب «إذا تاب فأخذه بعض من قطع عليه الطريق في المسجد أو في طريقه أو بيته أو السوق، فدفعه وأقام عليه البينة، فإن عرف بالتوبة سقط عنه حد الحرابة، وبقي عليه حقوق الناس في الدماء والجراح، ويتبع بالأموال في ماله وذمته»(٤).

[٤٧] ونظيره ما ذكره ابن نصر من قوله في توبة المحارب: «إن حقوق الناس قبله(٥)

---

(١) انظر: حاشية العدوي، الموضع السابق.

(٢) نور الحق (٩/ ٥٢٨). وانظر فتح الباري (١١/ ١٣٠).

(٣) التيسير (٦/ ٢٦٧).

(٤) النوادر والزيادات (١٤/ ٤٨٥).

(٥) وذلك لأن توبة المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه الحد، أما حقوق الناس فلا تسقط.

لا تسقط، لأن التوبة لا تأثير لها في حقوق الآدميين، ألا ترى أن من غصب شيئًا وأتلفه ثم تاب فإن بدله واجب عليه؟ كذلك القتل والجراح وغيره، ولأن التوبة من هذه الأشياء إذا انفردت عن الحرابة لا تسقط حقوق الناس المتعلقة بها، فكذلك إذا انضمت إليها»[١].

فذكرهم لما يرتبط بالتوبة من حقوق الناس وتأكيدهم عليه يدل على ما كان مرتبطًا بالتوبة من حق الله تعالى من باب أولى، وهو ما أشار إليه الإمام مالك بقوله: «فإن عرف بالتوبة»[٢]، إذ التائب حقًّا ما توافرت فيه شروط التوبة الثلاثة المذكورة.

[٤٨] وذكر ابن أبي زيد شروط التوبة على أنها التوبة، فقال: «التوبة فريضة من كل ذنب من غير إصرار، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود إليه، ومن التوبة رد المظالم والنية على ألا يعود»[٣].

فما ذكره من اشتراط الإقلاع، وهو ما أشار إليه من عدم الإصرار على الذنب، وكذا الندم على ألا يعود لا يعني عدم اشتراط الندم، إذ لا يتصور أن يقلع عن الذنب ويعزم على أن لا يعود وهو غير نادم على فعله واقترافه.

[٤٩] وبين ابن رشد أن الرجل «إذا تاب من الذنب فإن ندم عليه ونوى أن لا يعود إليه بنية صحيحة، ثم لم يعد[٤] إليه كان قد تاب توبة نصوحًا»[٥].

---

(١) المعونة (٢/ ٣٠٠).

(٢) سبق ص ٢٩٧ .

(٣) الرسالة (١٩٤).

(٤) وهذا غير صحيح، فلو عزم وأقلع في الحال وندم ولكنه بعد مدة رجع للذنب لم يقدح ذلك في توبته لو حقق شروطها فيما بعد، وقد رد ابن حجر على من اشترط هذا الشرط. انظر الفتح (٢٣/ ١٢١).

(٥) البيان والتحصيل (١٨/ ٤٦٨).

[٥٠] وأقرّ بذلك المازري[١].

وما ذكروه من هذين الشرطين ـ الندم والعزم على عدم العود ـ ليس معناه إغفال شرط الإقلاع، وذلك لأن الندم والعزم الصادقين لا يتحققان إلّا بعد الإقلاع.

[٥١] وذكر ابن عطية أن «التوبة الندم على فارط المعصية، والعزم على ترك مثلها في المستقبل»[٢].

[٥٢] وقال أبو عمرو الداني: «إن فرضًا على جميع العصاة التوبة إلى الله ﷻ. . . من الندم على ما كان منهم، ورد الظلامات إلى العباد، وضمان قيمة ما أتلفوه، والعزم على أدائه»[٣].

ولا ريب أن النادم حقيقة من يقلع عن ذنبه، ويعزم على أن لا يعود إليه، وإلا فلا يجدي ندمه.

ثانيا: اشتراط أجل للتوبة:

بيّن الله تعالى أنّ للتوبة أجلًا تنتهي إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ. . .﴾ الآية [النساء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) انظر المعلم (٣/ ١٨٨).

(٢) المحرر الوجيز (١٤/ ٥٢٥).

(٣) الرسالة الوافية (٩٢).

وبهذا يعلم أنّ أجل التوبة ينتهي بحضور الموت، أو بطلوع الشمس من مغربها، وقد بين أئمة المالكية هذا المعنى:

[٥٣] ومن ذلك ما ذكره أبو عمرو الداني عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . .﴾ بقوله: «الآية دليل على أنها عليه واجبة قبل المعاينة وحضور الملائكة. . . ـ ثم ذكر حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «**إن الله سبحانه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[(١)] ـ».

[٥٤] وعند ذكره لأشراط الساعة قال: «ومنه طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت أغلق باب التوبة . . .»، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، وقوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[(٢)][(٣)].

فذكر أنّ للتوبة أجلين: أجلًا خاصًا، وهو ما أوضحه من وجوب التوبة قبل المعاينة وحضور الموت، وأما الأجل العام فهو ما ذكره من طلوع الشمس من مغربها حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا.

[٥٥] وأورد ابن عطية حديث: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**

---

(١) خرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٢٥)، والحاكم (٤/ ٢٥٧). قال الأرناؤوط: إسناد ضعيف لضعف عبدالرحمن البيلماني وبقية رجاله ثقات. وبنحو هذه الرواية خرج الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر برقم (٦١٦٠) بإسناد حسن.

(٢) خرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (لا ينفع نفسًا إيمانها) (٨/ ٢٩٧) برقم (٤٦٣٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/ ١٣٧) برقم (١٥٧).

(٣) الرسالة الوافية (٩٢ـ٩٣) و(١٣٧ـ١٣٨).

ويغلب على عقله»، ثم قال: «لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك»[(١)].

[٥٦] وقال أيضًا: «. . . ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين»[(٢)].

ثم ذكر الأجل العام عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فقال: «الآية التي ترفع التوبة معها، وقد بينت الأحاديث أنها طلوع ا الشمس من مغربها»[(٣)].

[٥٧] ونسبه قولًا للجمهور فقال: «وقال جمهور أهل التأويل: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب»[(٤)].

[٥٨] وعند قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ ذكر القرطبي أنه طلوع الشمس من مغربها، ثم قال: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٥٣٦).

(٢) نفس المصدر (٣/ ٥٣٨).

(٣) قال ابن عطية: «روي في الحديث أنّ الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش تستأذن فيؤذن لها في الطلوع من المشرق، وحتى إذا أراد الله سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها». وهو يرويه بالمعنى، والحديث خرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٦/ ٢٩٧) رقم (٣١٩٩)، ونصه: «. . فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾».

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٩).

حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت»[١].

[٥٩] فذكر أن التوبة لا تنفع من حضره الموت، كحال فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهره من الإيمان، لأنها حال زوال التكليف[٢].

[٦٠] وقال القاضي عياض عند رواية: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»[٣]: «هذا حد للتوبة جعله الله تعالى، ولها باب يسدّ عند هذه الآية، كما جاء في الحديث، وقد جاء في التفسير أنه معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا . . . ﴾»[٤].

[٦١] وبيّن أنّ التوبة لا تقبل بعد المعاينة، لقصة أبي طالب حين حضرته الوفاة، أي قرب حاله وظهرت دلائل موته، وذلك كله قبل المعاينة ولو كان من بعد المعاينة والحضور الحقيقي لما نفعه، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ الآية، ويدل على أنه لم يكن يعاين ما جرى من محاورة النبي ﷺ وكفار قريش معه، ومجاوبتهم بما جاوب[٥].

[٦٢] وعند قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٥_١٤٦).

(٢) انظر تفسير القرطبي (٥/ ٩٣).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار (٤/ ٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٣).

(٤) إكمال المعلم (٩/ ١٩٨).

(٥) انظر: إكمال المعلم (١/ ٢٥١).

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ قال ابن جزي: «الآية في الذين يصرون على الذنوب إلى حين لا تقبل التوبة، وهو معاينة الموت»(١).

[٦٣] وذكر عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أنها «أشراط الساعة(٢)، كطلوع الشمس من مغربها، فحينئذ لا يقبل إيمان الكافر ولا توبة عاص.. لأن باب التوبة يغلق حينئذ»(٣).

[٦٤] وبين التتائي في كلامه عن توبة القاتل أنّ «محل القبول ما لم تحضر أسباب الموت عند الغرغرة وطلوع الشمس من مغربها»(٤).

ولا ريب أنّ هذين الشرطين يعمان في التوبة من القتل وغيره.

[٦٥] وأوضح ابن عاشور أنّ التوبة لا تقبل عند اقتراب الأجل، فقال عند آية سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾: «تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة؛ لأن المقصد من العزم ترتب آثاره عليه وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعية، فإذا وقع

---

(١) التسهيل (١/ ٢٤٠).

(٢) وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ...﴾ بأنها طلوع الشمس من مغربها كما في الصحيحين ـ وقد سبق ـ، وعليه فليس كل الأشراط بل هي محددة بطلوع الشمس من مغربها. وقد أورد ابن كثير أثر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: «الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أنّ الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ...﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها». انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٤).

(٣) التسهيل (٢/ ٤٩).

(٤) تنوير المقالة (١/ ٢٦٢).

اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة»[١].

وعند آية سورة الأنعام: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ. . .﴾ ذكر أنّ تفسير هذه الآية جاء في السنة بطلوع الشمس من مغربها، ثم أورد الحديث. . .

[٦٦] وبين أنه لا تعارض بين هذه الآية وآية سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ. . .﴾ موضحًا الأجل الخاص والأجل العام للتوبة بقوله: «لأن محمل تلك الآية على تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة للأحوال الخاصة بآحاد الناس، وذلك ما فسره حديث ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»، ومحمل الآية التي نتكلم فيها تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة إلى الناس كافة، وهي حالة يأس الناس كلهم من البقاء»[٢].

[٦٧] ونقل ابن بطال قول المهلب مقرًا له في أنه «إنما تنفع كلمة التوحيد لمن قالها قبل المعاينة للملائكة التي تقبض الأرواح، فحينئذ تنفعه شهادة التوحيد، وهو الذي يدل عليه كتاب الله. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني حضور ملك الموت، وهي المعاينة لقبض روحه، ولا يراهم أحد إلّا عند الانتقال من الدنيا إلى دار الآخرة»[٣].

[٦٨] وقال ابن عبدالبر: «. . . وأما التوبة من الخمر وغيرها من كبائر الذنوب فمبسوطة للمؤمن ما لم تحضره الوفاة ويعاين الموت ويغرغر، فإذا بلغ هذه الحال فلا توبة له وإن تاب حينئذ، فتوبته مردودة عليه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٠-١٩١).

(٣) شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٤٤).

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ . . ﴾، يعني المسلمين. ثم قال: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني جماعة الكافرين»(١).

[٦٩] ثم قال: «وهذه الآية تفسر قوله ﷻ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ يريد: قبل حضور الموت على ما وصفنا، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن الله تعالى قد نص عليه في كتابه للمذنبين من المسلمين وللكفار أيضًا».

[٧٠] وأكّد هذا المعنى - بعد إيراده حديث: «من أحبّ لقاء الله. . .» وغيره من الآثار - بقوله: «فهذه آثار كلها قد بان فيها أنّ ذلك عند حضور الموت ومعاينة ما هناك، وذلك حين لا تقبل توبة التائب إن لم يتب قبل ذلك»(٢).

وبهذا يعلم أنّ المالكية جعلوا معنى التوبة الشرعي هو رجوع العبد إلى ربه تعالى، بترك ما كان حصل منه من الآثام، وأن توبته تلك لها شروط حتى تقبل، منها ما يتعلق بالذنب نفسه؛ من الندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على تركه. فإن كان الذنب متعلقًا بحق آدمي فلا بد من رده أو التحلل منه، وهذا كله إنما يكون في الوقت الذي حده الله لقبول توبة عباده ما لم يغرغر وتحضره الوفاة، أو تطلع الشمس من مغربها، فلا تقبل التوبة حينئذ، والله أعلم.

---

(١) التمهيد (١٥/ ١١).

(٢) التمهيد (١٨/ ٣٣).

المبحث الثاني

الأعمال الظاهرة

وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : الذِّكر

المسألة الثانية : الدُّعاء

المسألة الثالثة : الذَّبْح

المسألة الرابعة : النَّذر

المسألة الخامسة : الطواف

المسألة الأولى: الذِّكر

الذِّكر عبادة من أجل القربات وأفضل العبادات، وقد أمر الله تعالى به عباده، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ويستخدم لفظ «الذكر» بإطلاقين: ذكر بالمعنى الخاص، وذكر بالمعنى العام.

فالذكر بالمعنى الخاص هو ذكر القلب، وذكر اللسان وهو أشهر أنواع استخداماته.

أما الذكر بمعناه العام فهو ما كان من ذكر القلب واللسان والجوارح، وهو بهذا يشمل جميع الطاعات والقربات، ووجه إدخاله ضمن العبادة الظاهرة أنّ الغالب إطلاقه على ذكر اللسان، مع أنه يشمل سائر العبادات.

وقد عني أئمة المالكية بالذكر وبينوا أقسامه.

[١] وفي هذا يقول الطرطوشي ـ مبينًا أقسام الذكر بالمعنى الخاص ـ: «الذكر على ضربين: ذكر اللسان، وذكر القلب، فذكر اللسان يصل به إلى ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه»[(١)].

[٢] وأوضح ابن العربي «أنّ الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، فذكر القلب أن لا يحضر فيه إلّا الله، وذكر اللسان أن لا يتحرك إلّا بذكره وهو المهتز[(٢)] الذي جاء

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه (٢٨٧).

(٢) ولعلها المهتر بالمهملة، كما ذكر القاضي عياض في شرحه حديث «سبق المفرّدون» بقوله: «جاء تفسيره في حديث آخر قال: «هم الذين اهتروا في ذكر الله»، أي: أولعوا. وقيل: =

في الحديث: «**سبق المفردون**»[١][٢].

[٣] وعند رواية الحديث القدسي، وفيه: «**وأنا معه حين يذكرني**»[٣] قال القاضي عياض: «الذكر بالقلب لأنه إذا شاهده بذكر قلبه ذكره بلسانه»[٤].

[٤] ولهذا قرر القرطبي أبو العباس أنّ أصل الذكر: «التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمي الذكر باللسان ذكرًا لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم»[٥].

[٥] وبه قال تلميذه القرطبي أبو عبدالله[٦]، فقال: «المراد بالذكر ذكر القلب الذي يجب استدامته في عموم الحالات».

فما ذكروه هنا هو المعنى الخاص للذكر ـ ذكر القلب وذكر اللسان ـ.

[٦] وأما الذكر بمعناه الشامل فهذا ذكره الطرطوشي قسمًا ثالثًا للذكر، أقرب ما يكون إلى كف الجوارح عن المحرم عبر عنه بالتوبة، فقال: «فرض وهو ذكر الله سبحانه عندما حرم، وهو الصفاء الزلال الذي لا تثبت عليه قدم، كما روي في

= استهروا». انظر إكمال المعلم (٨/ ١٧٤).

(١) خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٦).

(٢) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٩٧).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ١٧٢).

(٥) المفهم (٧/ ٦).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٧١ـ١٧٢).

حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار أن أحدهم قال: «فلما قعدت بين رجليها ذكرتك أي رب فقمت عنها ولم آخذ المئة دينار»(١)، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والذكر هاهنا التوبة»(٢).

[٧] وأشار ابن أبي زيد القيرواني إلى أقسام الذكر بإيراده قول عمر ﷺ عند كلامه عن الذكر، ونصه: «أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه»(٣).

والمعنى المراد الذكر بمعناه الشامل كما سبق، ويدخل ضمن ذلك ذكر القلب والجوارح، إذ إنّ استغراق الجوارح للطاعات واجتناب المنهيات إنما يكون بوجود دافع قلبي لذلك، كما قرره القرطبي سابقًا أنّ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له.

[٨] وسلك ابن بطال مسلك ابن أبي زيد بإيراده قول عمر ﷺ، ثم قال: «وكلاهما فيه الأجر، إلّا أن ذكر الله تعالى عند أوامره ونواهيه إذا فعل الذاكر ما أمر به وانتهى عما نهي عنه أفضل من ذكر باللسان مع مخالفة أمره ونهيه، والفضل كله والشرف والأجر في اجتماعهما من الإنسان، وهو أن لا ينسى ذكر الله عند أمره ونهيه فينتهي، ولا ينساه من ذكره بلسانه»(٤).

---

(١) خرجه البخاري في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا بغير إذنه فرضي (٤/ ٤٠٨) برقم (٢٢١٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة (٤/ ٢٠٩٩) برقم (٢٧٤٣).

(٢) الدعاء المأثور (٢٨٧).

(٣) انظر الرسالة (٢٠٣).

(٤) شرح البخاري (١٠/ ١٣٧).

[٩] وفي موضع آخر نص على الذكر بالقلب فيما نقله عن الطبري مقرًّا له، فقال: «ومن جسيم ما يرجى به للعبد الوصول إلى رضى ربه ذكره إياه بقلبه، فإن ذلك من شريف أعماله عنده»[١].

فتحصل من قوله أقسام الذكر من ذكر اللسان وذكر القلب وذكر بالجوارح كما تقدم.

[١٠] ولذا قال الباجي: «الذكر على ضربين: أحدهما: ذكر باللسان. والثاني: ذكر عند الأوامر بامتثالها والنواهي باجتنابها».

ثم بين أن معنى قول معاذ (: «ما عمل ابن آدم عملًا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» بأن «المراد ههنا بذكر الله ﴿والذاكرين الله كثيرا﴾ بالقلب عند الأوامر والنواهي، والذكر باللسان من التسبيح والتهليل»[٢].

[١١] وبين ابن عطية أن أولي البصائر هم أهل الذكر الذي تواطأ عليه القلب واللسان، فعند قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم..﴾ قال: «هذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصر القلب واللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات[٣].

[١٢] وقد نبه بعض المالكية إلى هذا المعنى العام للذكر الشامل للطاعات، أي فعل الجوارح، ومن ذلك ما ذكره ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] بقوله: «ذكر الله هنا عام في التوحيد

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ١٣٨).

(٢) المنتقى (١/ ٣٥٥).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٥٩).

والصلاة والدعاء، وغير ذلك من فرض ومندوب»[(١)] .

[١٣] وعند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١] قال ـ فيما نقله عن جماعة من المفسرين ـ: «إنما هو عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعودًا وعلى جنوبهم»[(٢)] .

وقد تقدم أن ذكر الجوارح إنما يكون بالاستغراق في الطاعات وخلوها من المنهيات.

[١٤] وبين ابن العربي في معرض رده على الصوفية المعنى العام للذكر، فبعد إيراده قول الحسن البصري: «أدركت قومًا لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا: فساقًا»[(٣)] قال: «غلطت ههنا الصوفية فقالوا: إنّ المراد به الذكر الدائم باللسان في غير فتور، حتى إذا رأوا الرجل قالوا: هذا مجنون! وليس كذلك؛ إنما المراد به الذي ليس له عمل إلّا الله تعالى، إن صلى وصام فلله تعالى، وإن جلس فقال: أجم نفسي للطاعة فهذه طاعة، وإن وطئ وطئ ليعصم نفسه وأهله، فهذه طاعة، وإن تطيب يقول: أتطيب اقتداءً برسول الله ﷺ ومنفعة للجليس، وترفيعًا للملائكة، فلا يكون له عمل حتى في النوم إلّا وهو لله تعالى، فهذا هو الذاكر الشاكر»[(٤)] .

وهذا يبين سعة معنى الذكر عنده، وهو الذكر بمعناه الشامل.

[١٥] وبين ابن أبي جمرة أنّ الذكر يكون باللسان وبالقلب، وعند الطاعات، كما

---

(١) المصدر نفسه (١٤/ ٤٦٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٦٠).

(٣) الأثر في حلية الأولياء (٢/ ١٣٤). ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان.

(٤) القبس (٢/ ٤٠٩ـ٤١٠).

في قول عمر ﷺ: «أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه».

[١٦] ورأى أنّ «ذكر الله ﷻ عند الأمر والنهي أفضل من ذكره باللسان، وأكمل من ذلك كله ذكره بالقلب، كما في قول النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد، ألا وهي القلب»**[(١)]»[(٢)].

فقدم هنا ذكر القلب مع أن المعروف عند أهل العلم أنّ أفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان معًا، وأضاف بعضهم الذكر بمعناه الشامل وفضلوه على كل أنواع الذكر؛ لأنه مستغرق للقلب واللسان والجوارح كلها.

والذي يظهر من تقديمه هنا ذكر القلب أنه يريد الذكر الشامل المستغرق، أي أنه يدمج بين هذا النوع من الذكر وذكر القلب.

[١٧] يؤكد هذا المعنى أنّ الأبي حين بين أن الذكر الكامل ما كان بالقلب واللسان، وأورد قول عمر ﷺ السابق قال: «لا ينافي أنّ أكمل الذكر الجمع بينهما». ثم جعل ذكر القلب «نوعين؛ أصلهما الفكرة في عظمة الله تعالى وجلاله[(٣)] وجبروته وآياته في سمائه وأرضه، ويليه ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيمتثل ما أمر به وينتهي عما نهى عنه»[(٤)].

[١٨] وبعد أن أوضح النفراوي أن الذكر الكامل على ضربين: ذكر اللسان، وذكر القلب، قال: «فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة فكر القلب والتأثير بذكر

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ١٢٦) برقم (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩).

(٢) بهجة النفوس (١/ ٢٣٢).

(٣) والتفكر هنا إنما يكون في آلاء الله وعظيم صنعه تعالى، لا التفكر في كيفية صفاته أو ذاته.

(٤) الثمر الداني (٧٠٠). ط. دار المعرفة ـ بيروت.

القلب، فإذا كان ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكمال في وصفه في حال سلوكه»(١).

فأدخل ذكر الله عند الأمر والنهي ضمن ذكر القلب، وهذا يؤكد المعنى الذي قلته من دمج بعضهم بين الذكر الشامل المستغرق، ويدخل فيه ذكر الله عند الأمر والنهي وذكر القلب.

[١٩] وبين الزرقاني ـ فيما نقله عن ابن حجر مقرًا له عند حديث: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**». قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى» ـ «أن المراد بالذكر هنا الذكر الكامل، وهو ما اجتمع فيه ذكر اللسان والقلب، بالشكر واستحضار عظمة الرب، وهذا لا يعدله شيء»(٢).

[٢٠] وقال ابن جزي: «الذكر ثلاثة أنواع: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وبهما معًا»(٣).

[٢١] وأورد الشاذلي قول الباجي السابق على سبيل الإقرار(٤).

[٢٢] ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًا له في أنّ الذكر يقع تارة باللسان،

---

(١) الفواكه الدواني (٢/ ٤٢٨).

(٢) شرح الزرقاني (٢/ ٢٩).

والحديث خرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٩٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٠)، والترمذي (٣٣٧٧)، والبيهقي في السنن (٥١٩)، والبغوي في شرح السنة (١٢٤٤). قال الألباني: حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣٨٦). وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح. المسند (٥/ ١٩٥).

(٣) التسهيل (١/ ١١٢).

(٤) انظر حاشية العدوي (٢/ ٦٢٥).

فإن انضاف إلى النطق بالذكر الذكر بالقلب فهو الأكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من التعظيم لله تعالى، ونفي النقص عنه ازداد كمالًا، فإن وقع في ذلك عمل صالح ـ من صلاة أو جهاد أو غيرهما ـ ازداد كمالًا، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهذا أبلغ الكمال»(١).

ومراده الذكر بمعناه الشامل: ذكر اللسان والقلب والجوارح.

[٢٣] وقريب من ذلك ما أشار إليه ابن باديس من أنواع الذكر اللساني، ويكون بالتسبيح والتحميد والتهليل، والقلبي يكون بالتدبر والتفكر، والعملي ويثمر التوبة والإنابة والرجاء... وذلك عند حديثه عن اشتمال القرآن لأقسام الذكر(٢).

والذي يظهر أن فيه التفريق بين ذكر القلب والذكر الشامل، فيكون هذا اتجاهًا آخر في المذهب، خلاف من يدمج بينهما كما سبق.

[٢٤] وألمح ابن عاشور إلى تنوع الذكر عند قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله﴾ بقوله: «إما من الذكر اللساني، وإما من الذكر القلبي»(٣).

[٢٥] وأوضح محمّد المكي أنّ الذكر لا يقتصر على ذكر الله باللسان، بل يقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخاطر باستمرار(٤).

[٢٦] وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] بقوله: «وجه كتاب الله الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعيًا

---

(١) نور الحق (٩/ ٦٠٠). وانظر الفتح (١١/ ٢٠٩).

(٢) انظر تفسير ابن باديس (٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٦)، وانظر (٢/ ٥٠).

(٤) انظر التيسير (٥/ ١٣١).

إياهم إلى الإكثار من ذكر الله وتسبيحه بقدر المستطاع باللسان والجنان»[١].

ومن خلال ما تقدم من أقوالهم يتضح أن الذكر على أنواع: ذكر الله تعالى باللسان، وذكره بالقلب، والأكمل ذكر الله تعالى بهما معًا، وأفضل وأكمل من ذلك من يضيف معنًى آخر، وهو الذكر الشامل، حيث يشمل أنواع الذكر كلها، من لسان وقلب وجوارح، فيكون العبد مستديمًا لذكر ربه تبارك وتعالى، وعلى هذا فالذكر يأتي بمعنى العبادة لأنه شامل لسائر الطاعات والعبادات التي تذكر بالله تعالى.

*****

(١) التيسير (٥/ ١٣٧).

المسألة الثانية: الدعاء

الدعاء في أصله: هو النداء والصياح(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦].

ودعاء العبادة هو نداء، ولكنه متضمن للتضرّع والخضوع والذلة، فمن عبد شيئًا فإنه يدعوه على الوصف المذكور؛ لأنه يعتقد أنه قادر على أن يلبي له طلبه، فالموحِّد يدعو ربه مخلصًا، ويلحّ على ربه في قبول دعوته، ويقطع الأمل إلّا منه تعالى وحده.

[١] وقد صرّح ابن العربي بأن الدعاء يشتمل على التوحيد ودلالته، فقال: «أذن الله في دعائه وعلم الدعاء في كتابه لخليقته، وعلّم النبي ﷺ الدعاء لأمته، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء: العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة لأمته»(٢).

وعلى هذا فإن الدعاء خالص حق الله تعالى، كما قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].(٣)

---

(١) انظر الصحاح للجوهري (٦/ ٢٣٣٧)، ولسان العرب لابن منظور (٤/ ٣٥٩) ط. الثانية، ط. دار إحياء التراث العربي ١٤١٧هـ - بيروت.

(٢) القبس (٢/ ٤٢١).

(٣) خرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وإسناده صحيح. وصححه ابن حبان (٢٣٩٦) والحاكم (١/ ٤٩٠)، ووافقه الذهبي.

وقد بيّن المالكية هذا المعنى بوضوح، وسأورد أقوالهم من خلال الفقرتين الآتيتين:

أولًا: بيان حقيقة الدعاء. ثانيًا: النص على كون الدعاء عبادة.

أولًا: بيان حقيقة الدعاء:

لما كان الدعاء عبادة من العبادات، فإن المالكية أبرزوا هذا المعنى عند كلامهم عن الدعاء، وبيان حقيقته وما اشتمل عليه من المعاني الجليلة الموضحة للصلة القوية بين الدعاء وبين العبادة.

[٢] وفي هذا يقول ابن العربي: «حقيقة الدعاء مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة أو دفع مضرّة من المضار والبلاء بالدعاء، فهو سبب لذلك واستجلاب لرحمة المولى»(١).

[٣] وفي موضع آخر يقول: «الدعاء طلب وتضرّع»(٢).

فالدعاء هو التضرّع إلى الله تعالى واللجوء إليه ونداؤه لجلب النفع ودفع الضرّ.

[٤] وأبان ابن بطال أنّ في تكرار العبد دعاءه ربه لأجل أنه «إظهار لموضع الفقر والحاجة إلى الله والتذلل له والخضوع»(٣).

وهذا يشعر بمسيس الحاجة إلى الله، والطلب منه بتذلل ورغبة ورهبة.

[٥] ونبّه على أنه «يجب أن يكون غرض العبد من الدعاء هو الدعاء لله والسؤال منه والافتقار إليه أبدًا، ولا يفارق سمة العبودية وعلامة الرق، والانقياد للأمر

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٦٦).

(٢) القبس (٢/ ٤١٢)، وأحكام القرآن (٢/ ٣٥٠).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ١٢٥).

والنهي، والاستسلام لربه تعالى بالذلة والخشوع»[١].

[٦] ولما ذكر ابن عبدالبر حديث: «الدعاء مخّ العبادة»[٢] بيّن سببه فقال: «لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء، وذلك صريح الإيمان واليقين»[٣].

[٧] وذكر الباجي أنه وإن حصل مع الدعاء معرة أو مضرة فالمطلوب الزيادة من الدعاء رغبة في الإخلاص والتضرع والبكاء[٤].

[٨] ونوه الطرطوشي بمقام الدعاء، وبيّن أنه يشتمل على التذلل وإظهار الفاقة[٥].

ولما كان الدعاء مظهرًا من مظاهر الاستكانة لرب العالمين، إذ هو مقصد عظيم من مقاصد الشرع وإن لم يتحقق له مطلوبه، فقد بيّن ابن أبي جمرة «أنّ الدعاء نفسه هو عين الخير، وقضاء الحاجة في حكم التبع؛ لأنه مناجاة للمولى الجليل، وإظهار الفقر إليه، وهي خلع العبودية ولم يخلع على عبد أجل منها»[٦].

[٩] وبعد أنّ ذكر القرافي أنّ الدعاء شرع ليكون سببًا لحصول المدعو به، بين المعنى الجليل للدعاء فقال: «وليذل به الإنسان ويظهر به عبوديته ويطيع به ربه»[٧].

---

(١) المرجع نفسه (١٠/ ١٠١).

(٢) خرجه الترمذي (٣٣٧١) ـ وقال: حديث غريب لا نعرفه إلّا من حديث ابن لهيعة ـ. وأورده المناوي في فيض القدير (٣/ ٧٢١). وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣/ ٣٦٩). وقال الأرنؤوط: هو حسن في الشواهد. انظر حاشية المسند (٤/ ٢٦٧).

(٣) الاستذكار (٨/ ٣٤٥).

(٤) وصية الباجي لولديه (٤٥ـ٤٦).

(٥) انظر الدعاء المأثور وآدابه (٣٩).

(٦) بهجة النفوس (٢/ ٦٢).

(٧) ترتيب الفروق (٢/ ٣٨٩).

وذلك لأنه كما وصفه أبو العباس القرطبي خلاصة العبودية، وأن يعلم أنه لا قادر على حاجته إلّا الله، وأنّ الله ﷻ قد يؤخّر إجابة الدعاء لأنه سبحانه يحب استماع دعائه ودوام تضرّعه[١].

[١٠] ولذا بيّن عند قصة سحر النبي ﷺ - وفيه: «ثم دعا، ثم دعا»[٢] - أنه «إظهار للعجز والافتقار، وعلمًا منه بأنّ الله هو الكاشف للكرب والأضرار، وقيامًا بعبادة الدعاء عند الاضطرار»[٣].

فهذا القول يبيّن أن الاضطرار مفتاح الدعاء.

[١١] وإلى المعنى السابق والاستدلال عليه يشير محمّد المكي[٤]، مبينًا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

[١٢] وقد ذكر ابن جزي أنّ من الدعاء «الطلب والرغبة... لأنّ الدعاء يظهر فيه افتقار العبد وتضرعه إلى الله»[٥].

---

(١) انظر المفهم (٧/ ٦٢-٦٣).

(٢) خرجه مسلم في كتاب السلام، باب السحر (٤/ ١٧٢٠) برقم (٢١٨٩). وحديث: أنّ النبي ﷺ سحر عند البخاري عن عائشة رضي الله عنهما (١٠/ ٢٢١) كتاب الطب، باب السحر، ومسلم (٢١٨٩).

قال القاضي عياض: «وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل الشيء ولم يفعله ونحوه: محمول على التخييل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبسًا على الرسالة، ولا طعنًا لأهل الضلالة». انظر إكمال المعلم (٧/ ٨٨).

(٣) المفهم (٥/ ٥٧١).

(٤) انظر التيسير (٢/ ٢٢٤).

(٥) التسهيل (٤/ ١٤).

[١٣] ونبه محمّد المختار فيما نقله عن القشيري إلى مزية الدعاء على السكوت والرضى . . . لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار[١].

[١٤] وأشار الزرقاني إلى «اشتمال الدعاء على معرفة الربوبية وذل العبودية»[٢].

[١٥] وحيث كان الدعاء يحوي تلك المعاني الجليلة فلا غرو أن يأمر الله تعالى به كما أوضح ذلك ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ . . ﴾ [الأعراف : ٥٥] بقوله : «هذا أمر بالدعاء وتعبد به ، ثم قرن ﷻ بالأمر به صفات تحسن معه بينها عند قوله ﴿تضرعًا﴾ أي : بخشوع واستكانة»[٣].

[١٦ ـ ١٧] وأقرّ قول ابن عطية هذا القرطبي[٤] محمد المكي[٥] عند تفسيرهما للآية .

[١٨] وذكر الميلي حقيقة الدعاء فيما نقله عن الطيبي في قوله : «إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له ، وما شرعت العبادات إلّا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه»[٦].

وبهذا التفصيل لحقيقة الدعاء عندهم يتبين أنه من ضمن أنواع العبادة ، وذلك لاشتماله على التذلل والاستكانة والافتقار والخضوع التي هي من معاني العبادة ، وهو ما سنبينه في الفقرة الآتية ـ إن شاء الله تعالى ـ .

---

(١) نور الحق (٥/ ٥٢١).

(٢) شرح الزرقاني (٢/ ٣٢).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٥٢٩ـ٥٣٠).

(٤) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٣).

(٥) انظر التيسير (٥/ ٣٩٩).

(٦) رسالة الشرك (١٨٥).

ثانيا: النص على كون الدعاء عبادة:

أوضح المالكية أنّ الدعاء عبادة من العبادات، محتجين على ذلك بحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الدعاء هو العبادة** - ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»[1].

[١٩] ومن ذلك إدخال الإمام مالك رحمه الله الدعاء ضمن كلامه على العبادات، فقد بوّب في موطئه: «باب ما جاء في الدعاء» و«باب العمل في الدعاء»[2]، ممّا يدلّ على أنّ الدعاء عنده عبادة من العبادات.

[٢٠] وذكر ابن بطال حديث «الدعاء هو العبادة» مستدلّاً به على أنّ الدعاء عبادة[3].

[٢١] وأكّد هذا المعنى فيما نقله عن الطبري عند حديث النعمان السابق قوله: «فسمى الدعاء عبادة»[4].

وقد ذكر غير واحد من المالكية أنّ الدعاء الوارد في بعض النصوص القرآنية يراد به العبادة، فمن ذلك ما أورده الطرطوشي عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ [الفرقان: ٧٧]، حيث قال في بيانه: «ما يصنع بكم، وأي مقدار لكم لولا توحيدكم وعبادتكم لله تعالى»[5].

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٢٨.

(٢) انظر موطأ مالك (١/ ١٨٦-١٨٩).

(٣) انظر شرح البخاري (١٠/ ١٢٥).

(٤) المرجع نفسه (١٠/ ٧٣).

(٥) الدعاء المأثور (٣٦).

[٢٢] ومن خلال سرده النصوص المرغبة في الدعاء ذكر أنّ «الدعاء هو العبادة»[١].

[٢٣] وفسر ابن عطية قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ بقوله: «اعبدوني». واحتجّ على ذلك بقوله ﷺ: **«الدعاء هو العبادة»**[٢].

[٢٤] وعند قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] قال: «معنى ﴿ادعوا﴾: اعبدوا»[٣].

ونقل قول الزجاج[٤] في معنى قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم﴾ أي: اعبدوا ربكم[٥].

[٢٥] وعند قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ قال القرطبي: «أقبل عبادة من عبدني، فالدعاء بمعنى العبادة». واستدلّ بحديث النعمان بن بشير المرفوع «الدعاء هو العبادة»، قال ربكم ادعوني أستجب لكم، فسمى الدعاء عبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: دعائي. فأمر بالدعاء وحضّ عليه وسماه عبادة»[٦][٧].

---

(١) المرجع السابق (٣٩).

(٢) المحرر الوجيز (١٣/ ٥٩).

(٣) المحرر الوجيز (١٣/ ١٧).

(٤) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق النحوي الزجاج، كان من أهل الفضل والدين، له كتاب معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، وغيرها. مات سنة ٣١١هـ. انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٨٩)، وطبقات المفسرين (١/ ٧).

(٥) المرجع نفسه (٥/ ٥٣٠). انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٤). ط. عالم الكتب. ط. الأولى ١٤٠٨هـ. بيروت ـ لبنان.

(٦) تفسير القرطبي (٢/ ٣٠٨ـ٣٠٩).

(٧) وقد ذكر الطبري حديث النعمان بن بشير عند هذه الآية، وقال: «فأخبر ﷺ أنّ دعاء الله إنما هو عبادته ومسألته بالعمل له والطاعة»، ثم قال: «وذكر عن الحسن نحوه». انظر تفسير =

[٢٦] وقال الزرقاني: «الدعاء من أشرف الطاعات...».

[٢٧] وبيّن أنه يأتي بمعنى العبادة كثيرًا في القرآن، كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾[١].

ونقل وجهًا في تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى...﴾ أنّ المراد به الدعاء[٢].

[٢٨] وصدّر ابن العربي كلامه في باب الدعاء بحديث: «**الدعاء مخ العبادة**»، ثم قال: «لا أحد أحبّ إليه السؤال من الله تعالى»[٣].

فهو بهذا الصنيع يشير إلى أنّ الدعاء عبادة من العبادات.

[٢٩] وقد صرّح ابن رشد بهذا، فقال: «الدعاء عبادة من العبادات، يؤجر فيها الأجر العظيم، أجيبت دعوته فيما دعي به أم لم تجب»[٤].

[٣٠] وذكر القاضي عياض أنّ استغفار النبي ﷺ هو من الدعاء: «إظهار للعبودية والافتقار، وملازمة الخضوع شكرًا لما أولاه به»[٥].

[٣١] وعند حديث: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل»[٦] قال: «بل يجب أن

= الطبري (٢/ ١٦٧).

(١) شرح الزرقاني (٢/ ٣٢).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) القبس (٢/ ٤١١).

(٤) نقله عنه الثعالبي في تفسيره (١/ ١٣٩).

(٥) إكمال المعلم (٨/ ١٩٧).

(٦) خرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (١١/ ١٤٠) برقم (٦٣٤٠)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي =

يكون أبدًا في دعائه باسم إظهار الحاجة والطاعة له وسمة العبودية»[١].

ومراده أن لا يترك المسلم الدعاء حتى يصدق عليه وصف العبودية لله تعالى.

ولما كان الداعي لله ﷻ إنما يدعوه ويسأل من يرجو منه كشف ضرّه وإجابة دعوته على حال من الذل والفاقة والافتقار؛ كان ولا بد أن يتصف بذلك الداعي حال دعائه، إذ به تحقق المعاني العظيمة بتلك العبادة.

[٣٢] وهو ما أشار إليه أبو العباس القرطبي عند حديث: «اللهُم اغفر لي إن شئت»[٢] بقوله: «. . . وكأنّ هذا القول يتضمّن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء. . .»[٣][٤].

فأطلق على الدعاء عبادة، والافتقار والاضطرار من لوازمها.

= ما لم يعجل (٤/ ٢٠٩٥) برقم (٢٧٣٥).

(١) إكمال المعلم (٨/ ٢٣٢).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (١/ ١٣٩) برقم (٦٣٣٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء (٤/ ٢٠٦٣) برقم (٢٦٧٩).

(٣) المفهم (٧/ ٢٩).

(٤) اعتنى المالكية بذكر آداب الدعاء، ما بين مقلّ ومكثر. انظر هذه الآداب عند ابن بطال في شرح صحيح البخاري (١٠/ ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٠)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٨/ ١١٤ـ١٤٥). والطرطوشي حيث أفرد لها بابًا كاملًا في كتابه الدعاء المأثور وآدابه (٤٤)، وابن العربي في القبس (٢/ ٤١٢)، والقاضي عياض في إكمال المعلم (٨/ ١٧٨ـ٢٣١)، والقرطبي في التفسير (٢/ ٣١٠)، القرطبي أبو العباس في المفهم (٧/ ٢٩، ٦٢، ٦٣)، والزرقاني في شرحه موطأ مالك (٢/ ٣٤ـ٣٥)، ومحمد المختار في نور الحق (٩/ ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٨).

[٣٣] وفي موضع آخر قال: «. . وقيامًا بعبادة الدعاء عند الاضطرار»[(١)].

[٣٤] وبيّن ابن أبي جمرة فيما نقله مقرًا له «أنّ الدعاء نفسه هو عين الخير وقضاء الحاجة في حكم التبع؛ لأنه مناجاة للولي الجليل، وإظهار الفقر إليه، وهو خلع العبودية، ولم يخلع على عبد أجل منها»[(٢)].

وكما فسروا الدعاء بالعبادة، فإن بعضهم فسر العبادة بالدعاء، كما ذكر ابن عاشور «أنّ الدعاء يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالمنادى ويطلق على الطلب».

[٣٥] وبيّن أنه قد جاء من كلام النبي ﷺ ما يلائم المعنيين، كما في حديث النعمان بن بشير: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ . .﴾. فإن قوله: «الدعاء هو العبادة» يقتضي اتحاد الحقيقتين، فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء[(٣)] لا محالة[(٤)]»[(٥)].

[٣٦] وحيث كان الدعاء ينقسم إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة فقد بيّن محمّد الأمين تلازم هذين النوعين، وذلك لأن من دعا الله فقد تحققت منه العبودية.

وبهذا فسر الدعاء في الآية: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فيما نقله عن بعض العلماء: «اعبدوني أثيبكم عن عبادتكم، أو اسألوني أعطكم» بأنه لا منافاة بين القولين؛ لأن

---

(١) المفهم (٥/ ٥٧١).

(٢) بهجة النفوس (٢/ ٦٢).

(٣) سبق في كلام ابن عطية هذا المعنى من تفسير الدعاء بالعبادة. انظر ص ٣٣٤.

(٤) وضح هذا المعنى بقوله: «فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته، وهو ظاهر في معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية؛ لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه». انظر التحرير (٢٤/ ١٨٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٢).

دعاء الله من أنواع عبادته»(١).

[٣٧] ووصف الميلي الدعاء بأنه من خواص العبادة، ثم قال: «فكون الدعاء عبادة دلّ عليه الكتاب والسنة وكلام الأئمة»(٢).

وختامًا يتبين من كلام أئمة المالكية أنّ الدعاء عبادة من العبادات العظيمة، حتى إن الدعاء يطلق على العبادة، وتطلق العبادة على الدعاء، لشدة ما بينهما من الاتصال.

وبذلك يعلم أنّ من صرف شيئًا من الدعاء لغير الله فقد أتى أمرًا خطيرًا، لكونه صرف نوعًا من العبادة لغير الله تعالى ﴿قل الله أعبد مخلصًا له ديني . . .﴾.

*****

(١) أضواء البيان (٧/ ٩٦) و(١/ ١٨٣).

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (١٨٨).

المسألة الثالثة: الذَّبح

ذكر الله ﷻ الذبح في كتابه الكريم مقرونًا بأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي الصلاة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. فكما أنه لا يصلي إلّا لله تعالى وحده، فكذلك لا يذبح إلّا لله وحده.

وقد بين أئمة المالكية هذا الحكم العظيم بيانًا شافيًا من خلال الآتي:

أولًا: منـزلة الذبح من العبادة.

ثانيًا: الذكر المشروع عند الذبح.

أولًا: منزلة الذبح من العبادة:

جاء عن مالك ما يبيّن المنـزلة العظيمة لشعيرة النسك من العبادة.

[١] فقد بين أنه لا بد أن يحتاط في الضحايا، معلّلًا ذلك بقوله: «لأنه يتقرّب إلى الله بذلك...»(١).

[٢] وحين سئل: هل يضحى أو يعق بشيء من الوحش؟ قال: «لا؛ ليس يتقرّب إلى الله بشيء من الوحش، ولا الطير، ولا يتقرّب إلى الله في هذا إلّا بالأنعام»(٢).

---

(١) البيان والتحصيل (٣/ ٣٣٨).

(٢) المرجع نفسه (٣/ ٣٥٣).

[٣] وذكر الصفة التي ينبغي أن يكون عليها من أراد الذبح من التواضع والخضوع والذلة لله تعالى، وهي من المعاني العظيمة للعبادة، فقال: «إني لأستحبّ للمرء أن يتواضع لله ويخضع له، ويذل نفسه، كان رسول الله ﷺ ينحر بدنه، وإنّ ناسًا يأمرون من يذبح لهم» ـ يريد بذلك أهل الطول، ويعيب ذلك عليهم[(١)].

ومراده أن استشعار تلك المعاني العظيمة لعبادة الذبح ـ من التواضع والذلة والخضوع ـ تكون على أكمل حال إذا باشرها العبد بنفسه، ولذا باشرها عليه الصلاة والسلام بنفسه.

[٤] وعلى هذا قال مالك في حقّ من لم يذبح بنفسه: «إن وجد سعة فأحبّ إليّ أن يعيد ويذبحها بنفسه صاغرًا، فهو من التواضع لله سبحانه، وسمى فعل النبي ﷺ»[(٢)].

[٥] ولهذا اختار ابن نصر أن يلي الرجل ذبح أضحيته بيده؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعله، ولأنها من عبادة الأبدان، فاستحب أن يليها بنفسه كسائر عبادات الأبدان[(٣)].

[٦] وبين القاضي عياض أنه يستحبّ للمؤمن تولي الذبح معلّلًا ذلك بأنه «نسك وفدية ودم مهراق لله»[(٤)].

[٧] ونقل محمّد المختار قول القسطلاني مقرًّا له في أنّ «الذبح عبادة، والمطلوب في العبادة أن يباشرها بنفسه»[(٥)].

---

(١) المرجع نفسه (٣/ ٤٣٦).

(٢) النوادر والزيادات (٤/ ٣٢٠).

(٣) المعونة (١/ ٤٣٩).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٤١٣).

(٥) نور الحق (٨/ ٤٩٩). وانظر إرشاد الساري (٨/ ٣٠٥).

فتأكيدهم هنا على أن يلي المسلم ذبح قربانه، لما له من المنزلة الرفيعة من العبادة، إذ هو دليل أكيد على خضوع العبد وإقباله واستكانته لربه تعالى.

[٨] وقد أوضح القرافي المعنى الجليل من القرابين، إذ هي امتثال وطاعة لله تعالى، كما في قصة إبراهيم عليه السلام، للتأسي به، فقال: «فالمطلوب إحياء قصة الخليل عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٧-١٠٨]، قيل: معناه: وجعلناه سنة للآخرين.. ولأنّ الله وصفه بالعظيم، ولم يحصل هذا الوصف لغيره من جهة المعنى أن المفدى لم تكن نفاسته بعظم جسمه، بل لعظم معناه»[١].

[٩] ونبه على أنّ تلك العبادة لا بد فيها من الإخلاص، فقال: «ولا يقصد بها المباهاة والمفاخرة، فلا يقبل الله تعالى إلّا الخالص له، فإنه أغنى الشركاء عن الشرك، وفي الصحيح: سئل عليه الصلاة والسلام: أي الرقاب أفضل؟ فقال: «أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها»[٢][٣].

[١٠] ولهذا فقد بيّن عدم جواز بيع شيء منها، ليتحقق فيها الإخلاص كسائر العبادات، وذلك «لأنها صارت قربة لله تعالى، والقربات لا تقبل المعاوضة... ولئلّا يجتمع له العوض الذي هو الثمن والمعوض الذي هو منفعة القربة من الثواب، ولذلك منع بيع سائر العبادات»[٤].

---

(١) الذخيرة (٤/ ١٤٣).

(٢) خرجه البخاري في كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل (٥/ ١٤٨) برقم (٢٥١٨).

(٣) الذخيرة (٤/ ١٤٦).

(٤) المرجع نفسه (٤/ ١٥٧).

[١١] وسلك التتائي مسلك القرافي في عدم جواز بيع شيء منها، فقال: «لأنّ هذه الأمور قربة، والقرب لا تقبل المعاوضة»(١).

وذلك لأن العبادة مصدر رقي الإنسان، وبها يسمو عن جميع المقاصد والعلائق الدنيوية.

[١٢] ولذا فقد فسّر ابن عطية قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] بقوله: «أمر الله ﷻ أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله ﷻ، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به، حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله ﷻ»(٢).

[١٣] وعند قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] قال: «إشارة إلى ما عمل إبراهيم، كأنه يقول: إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة نجزي المحسنين»(٣).

[١٤] وقال ابن عاشور: «معنى النسك: العبادة، ويطلق على الذبيحة المقصود فيها التعبد. وأغلب إطلاقه على الذبيحة المتقرب بها إلى المعبود»(٤).

[١٥] وأوضح أنّ الله ﷻ لم «يجعل لكل أمة إلّا منسكًا واحدًا للقربان إليه

(١) تنوير المقالة (٣/ ٥٨٨).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤١٦).
(٣) المرجع نفسه (١٢/ ٣٨٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٥).

تعالى، الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها، فلا يحق أن يجعل لغير الله منسك، لأنّ ما لا يخلق الأنعام المقرب بها ولا يرزقها الناس لا يستحقّ أن يجعل له منسك لقربانها. .»(١).

[١٦] وبين القرطبي أنّ الله تعالى «أمر عند الذبح بذكره، وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك»(٢).

[١٧] وذكر الميلي أنّ الذبح الديني يسمى نسكًا، وكانت العرب تنسك في جاهليتها النسائك حول أصنامها وأنصابها تقرّبًا إليها(٣).

[١٨] وعلى هذا جعل عليش من شروط حل الذبيحة «أن لا يذبحه لمعبود غير الله تعالى»(٤).

فهو الذي شرف الآدمي ويسر له هذه الأنعام، وشرع له ذبحها.

[١٩] كما بينه ابن العربي: «تارة في التقرب إليه، كالهدايا والضحايا، وتارة في التلذذ به، كذبحه للأكل»(٥).

[٢٠] وذكر أنّ «العبادة إنما هي في الذبح أو النحر خاصة. .»(٦).

[٢١] وعليه فقد أبطل الله تعالى ما نحره المشركون لأصنامهم، كما يومئ إليه قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، ذكر ذلك ابن عاشور في قوله: «فلا يمنعك

---

(١) المرجع نفسه (١٧/ ٢٥٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٥٨).

(٣) رسالة الشرك (٢٤٧).

(٤) منح الجليل (٢/ ٤١٢).

(٥) القبس (١٢/ ٦١٣-٦٢٩).

(٦) نفس المرجع.

نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناويًا بما تنحره أنه لله تعالى»[(١)].

وقد لحظ بعض المالكية ورود تلك العبادة العظيمة ـ الذبح ـ مقرونة بالصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، لمعنى عظيم نقله ابن جزي وجهًا في تفسيرها، فقال:

[٢٢] «إنّ الكفار يصلون مكاءً وتصدية، وينحرون للأصنام، فقال الله لنبيه ﷺ: صل لربك وحده وانحر له، أي: لوجهه لا لغيره، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص»[(٢)].

[٢٣] ونقل محمّد الأمين عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي. . .﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢] قول بعض العلماء مقرًا له أنّ «المراد بالنسك هنا النحر؛ لأنّ الكفار كانوا يتقرّبون لأصنامهم بعبادة من أعظم العبادات هي النحر، فأمر الله تعالى أن يقول: إن صلاته ونحره كلاهما خالص لله تعالى، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾»[(٣)].

[٢٤] وعلى هذا سار محمّد المكي في تفسير الآية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فقال: «أي: أخلص صلاتك لربك، وبذلك تخالف المشركين الذي يعبدون غير الله، وأخلص نحرك لربك، وبذلك تخالف المشركين الذين لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله على غرار قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي. . .﴾».

[٢٥] ثم نقل قول ابن كثير أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٥).

(٢) التسهيل (٤/ ٤٣٦ـ٤٣٧).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٨٤).

الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول: «**من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له**»[١]. »[٢].

[٢٦] وأوضح الميلي أنّ الذبح لله وحده كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ...﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ مبيّنًا أنّ الله تعالى عطف النسك على الصلاة، وأنّ المراد بالنحر نحر النسك ينادي بأن الذبح لغير الله كالصلاة لغير الله[٣].

ونظرًا لأهمية تلك العبادة وعظم منـزلتها فإنّ مالكًا وأصحابه لم يروا أن يتولى ذبحها غير المسلم.

[٢٧] فقد ذكر ابن القاسم أنّ مالكًا روى عن رجل من بني عبدالأشهل له فضل أنه قال: «كان الناس يبتغون لذبائحهم أهل الفضل».

[٢٨] وزاد ابن حبيب: «وأهل الإصابة والمعرفة»[٤].

[٢٩] ومن عناية الإمام مالك رحمه الله بأمر الذبح بيانه لحكم قيام النصراني بذبح أضحية المسلم بقوله: «إن ذبح النصراني أضحية المسلم أعاد أضحيته».

[٣٠] وقال ابن القاسم: «واليهودي مثله»[٥].

---

(١) خرجه البخاري في كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٢/ ٤٧١) برقم (٩٨٣)، ومسلم باختلاف يسير في اللفظ في كتاب الأضاحي، باب وقتها (٣/ ١٥٥٣) برقم (١٩٦١).

(٢) التيسير (٦/ ٤٧٤).

(٣) انظر رسالة الشرك (٢٤٩).

(٤) النوادر والزيادات (٤/ ٣٦٥).

(٥) المدونة (٢/ ٦٧).

[٣١] ونصّ ابن حبيب على أن لا يتولى ذبحها غير المسلم(١).

[٣٢] ونحو من قول ابن حبيب هذا قول ابن الجلاب(٢).

[٣٣] وقال ابن عبدالبر: «ولا يذبح الضحية ولا النسك كله إلّا مسلم، فإن ذبحها غير مسلم لم تجز، وقيل: يجزئ مع الكراهة، وهو قول أشهب. والأول تحصيل المذهب وبه أقول»(٣).

[٣٤] وبعد أن نقل القاضي عياض قول الإمام مالك السابق في حكم ذبح غير المسلم لأضحية المسلم بيّن علة الحكم، فقال: «إذ هي قربة لا تصح على يد كافر».

ثم قال: «وكره ذلك جماعة من السلف وعامة أصحاب الفتوى وأئمة الأمصار»(٤).

[٣٥] وأورد القرافي قول اللخمي باستحباب مباشرة الأضحية اقتداءً بالنبي ﷺ وإلا وكل من له دين(٥)، فقد كان الناس يتخيّرون لضحاياهم أهل الدين؛ لأنهم أولى بالتقرب، فإن وكل تارك الصلاة استحبّ له الإعادة(٦)؛ للخلاف في حلّ ذكاته، أو كتابيًا... لا يجزئه؛ لأنه ليس من أهل القربة(٧)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لن

---

(١) النوادر والزيادات (٤/ ٣١٩).

(٢) انظر التفريع (١/ ٣٩٢).

(٣) الكافي (١/ ٤٢٤).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٤١٣).

(٥) ومراده هنا أهل الصلاح من المسلمين لا أي أحد له دين.

(٦) وهذا ينبني على الخلاف في تارك الصلاة: هل يكفر أمر لا؟

(٧) ونقل وجهًا آخر بجواز ذلك عن أشهب مع الكراهة، معللًا ذلك بأن القربة لا تفتقر إلى نية التقرب من الذابح، بل من المالك. الذخيرة (٤/ ١٥٥).

أستعين بمشرك»[١][٢].

[٣٦] وذكر الحطاب أنّ المجوسي والكتابي لا يليان أمر ذبيحة المسلم، ونقل قول مالك السابق في ذلك، ثم قال: «فإن عزّ اليهودي أو النصراني ـ بأن تزيّا بزي المسلمين الذين يذبحون ـ ضمن ذلك وعاقبه السلطان»[٣].

[٣٧] وقال الأبي: «وإن وكل كافرًا كتابيًا أو غيره لم تجزه ولو كان ملكًا له»[٤].

[٣٨] وصرّح العدوي[٥] بأن ما ذكاه المجوسي أو غيره من أهل الكتاب لا يؤكل ولو كان ملكًا له[٦].

وبهذا يتبيّن عناية المالكية بتلك العبادة العظيمة، إذ جعلوها من الشعائر التي يقوم بها أهل الإسلام تقرّبًا إلى الله ﷻ، وتنـزيهًا لتلك العبادة من دنس ورجس الكافر والمشرك.

الذكر المشروع عند الذبح:

تقدم أنّ المؤمن إنما يتقرّب إلى الله ﷻ بهذه القرابين التي خلقها الله ﷻ، وعليه

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر (٣/ ١٤٤٩) برقم (١٨١٧).

(٢) الذخيرة (٤/ ١٥٥).

(٣) مواهب الجليل (٤/ ٣٨٣).

(٤) الثمر الداني (٣٩٤).

(٥) هو أبو الحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي، صاحب التصانيف: حاشية على ابن تركي، وعلى الزرقاني على العزية. مات سنة ١١٨٩هـ. انظر شجرة النور (١/ ٣٤٢).

(٦) انظر حاشية كفاية الطالب (١/ ٤٤٦).

فإنه لا بد من أن تذبح مخلوقاته التي أحل ذبحها على اسمه العظيم دون سواه.

وقد بيّن أئمة المالكية أنه لا يذكر إلّا اسم الله وحده تعالى عند التقرب إليه بهذه النسائك، ومن ذلك:

[٣٩] سؤال سحنون لابن القاسم: «كيف التسمية عند مالك على الذبيحة؟ قال: بسم الله والله أكبر»(١).

[٤٠] وحين سئل مالك رحمه الله: هل يسمي الله تعالى إذا توضأ(٢)؟ قال: أيريد أن يذبح(٣).

فاستفهامه هنا رحمه الله يبين أنّ ذكر اسم الله تعالى على الذبيحة هو المتعيّن.

[٤١] وقال ابن القاسم: «إذا ذكر عليها اسم غير الله لم تؤكل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]»(٤).

[٤٢] وذكر ابن عاشور «أنّ غير ما ذكر اسم الله عليه لا يأكله المسلمون»(٥).

---

(١) المدونة (٢/ ٦٦).

(٢) مسألة التسمية عند الوضوء وردت فيها أحاديث عن النبي ﷺ. قال المنذري: «وفي الباب أحاديث كثيرة لا يسلم شيء منها عن مقال، وقد ذهب الحسن وإسحاق بن راهويه وأهل الظاهر إلى وجوب التسمية في الوضوء، حتى إنه إذا تعمد تركها أعاد الوضوء، وهو رواية عن الإمام أحمد، ولا شك أن الأحاديث التي وردت فيها وإن كان لا يسلم شيء منها عن مقال فإنها تتعاضد بكثرة طرقها، وتكسب قوة، والله أعلم». قال الألباني رحمه الله معلّقًا على قول المنذري السابق: «وهو الحق». انظر صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٠١).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٧٦).

(٤) منح الجليل (١/ ٥٧٠)، وتبيين المسالك للأحسائي (٢/ ٣٤٤).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ٣٢).

[٤٣] وذلك «لأن الذبح إنما هو لله تعالى وحده، فلا يذكر هناك إلّا اسم الله تعالى وحده، كما أمر حيث يقول: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾»، كما قاله ابن رشد[١].

[٤٤] وبعد أن أورد ابن بطال النصوص الآمرة بالتسمية عند الذبح قال: «إنّ الله تعالى إنما أراد نسخ أمر الجاهلية التي كانت تذكر اسم طواغيتها على صيدها وذبائحها»[٢].

[٤٥] ومراده أن يذكر اسم الله تعالى وحده عند الذبح، تعظيمًا له ﷻ، ومخالفة للمشركين الذين وصف ابن عبدالبر حالهم بقوله: «فالذابح منهم كان إذا ذبح للآلهة سماها ورفع صوته بذكرها»[٣].

[٤٦] وعلى هذا بين أنّ ما ذبحه المسلم ولم يعرف هل سمى الله عليه أم لا أنه لا بأس بأكله، وهو محمول على أنه قد سمى، والمؤمن لا يظن به إلّا الخير، وذبيحته وصيده أبدًا محمول على السلامة حتى يصح فيه غير ذلك، من تعمد ترك التسمية ونحوه»[٤].

[٤٧] ولذا رأى مالك أنّ من ترك التسمية عمدًا لا تحل ذبيحته.

[٤٨] كما نقله ابن عبدالبر، وقال: «هو رأي الجمهور، وحجة من ذهب إلى ذلك أنّ تارك التسمية عمدًا[٥] تلاعب بإخراج النفس على غير شريطتها، وقد

---

(١) البيان التحصيل (٣/ ٢٨١).

(٢) شرح البخاري (٥/ ٣٨١).

(٣) التمهيد (١٣/ ١٦٨).

(٤) التمهيد (٢٢/ ٢٩٩).

(٥) ويأتي الكلام على ترك التسمية عندهم عمدًا أو نسيانًا.

أجمعوا أنّ من شرائط الذبيحة والصيد التسمية، فمن استباح ذلك على غير شريطته عامدًا دخل في الفسق الذي قال الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]»(١).

[٤٩] وفسّر ابن عطية قول الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨] بقوله: «معناه: أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحد لجميعكم، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له»(٢).

[٥٠] ورد ابن العربي مقالة الجويني من «أنّ ذكر الله تعالى إنما شرع في القرب والذبح ليس بقربة» فقال: «وهذا يعارض القرآن والسنة. قال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»(٣)»(٤).

فبيّن أنّ الذبح قربة لله تعالى يفتقر إلى ذكر اسم الله تعالى عليه.

[٥١] وأوضح القرطبي أنّ الذكر المشروع عند الذبح هو «الذكر لله بالقلب والذي كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنصب باللسان، فنسخ الله ذلك بذكره في الألسنة، واشتهر ذلك في الشريعة»(٥).

[٥٢] وعند قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦] قال:

---

(١) التمهيد (٢٢/ ٣٠١).

(٢) المحرر الوجيز (١٠/ ٢٧٨).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الشركة، باب من عدل عشرة من الغنم بجزور في القسم (٥/ ١٣٩) برقم (٢٥٠٧)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب جواز بكل ما أنهر الدم (٣/ ١٥٥٨) برقم (١٩٦٨).

(٤) نقله القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٦).

(٥) المرجع نفسه (٧/ ٧٦).

«أي انحروها على اسم الله»[١].

[٥٣] وذكر الأحسائي وجوب التسمية عند الذبح مستدلّاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

[٥٤] وبيّن أنّ من أراد الذبح إذا قال: «بسم الله فقط، أو الله أكبر فقط، أو لا إله إلّا الله، ونحو ذلك أجزأه»[٢].

[٥٥] ولما ذكر ابن عاشور ما كان عليه العرب بجهرهم عند الذبح أو النحر باسم المقصود بتلك الذكاة يبين أنّ قوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ «تدل على شدة اتصال فعل الذكر بذات الذبيحة، بمعنى أن يذكر اسم الله عليها عند مباشرة الذبح لا قبله أو بعده..»[٣].

[٥٦] ونبه على أهمية الذكر عند الذبح بأن بين أن ختم الآية بقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾: «تحريض على التزام ذلك وعدم التساهل فيه، حتى جعل من علامات كون فاعله مؤمنًا، وذلك حيث كان شعار أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح»[٤].

[٥٧] وجعل محمّد المكي المراد من ذكر الله الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ هو نفس النحر أو الذبح، معلّلًا ذلك بأن المسلم «لا ينفك عن ذكر اسم الله كلما نحر أو ذبح، ولأن الغاية الأولى والأخيرة مما يتقرب به

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٦١).

(٢) تبيين المسالك (٢/ ٣٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٣٢).

(٤) نفس المرجع.

المؤمن إلى الله هو ذكر اسم الله ونيل تقواه»[(١)].

ومراده أنّ التسمية غير واجبة، فالمسلم وإن ذبح ولم يذكر اسم الله فإنه ذاكر لله في سائر أحواله، كما يشير إليه هنا[(٢)].

---

(١) التيسير (٤/ ١٧٣).

(٢) اختلف العلماء في حكم متروك التسمية على أقوال:

القول الأول: إن تركها سهوًا جاز أكلها، وإن تركها عمدًا لم تؤكل. وهو قول الجمهور، ومنهم: إسحاق، ورواية عن أحمد بن حنبل، وقاله في الكتاب مالك وابن القاسم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري. وقاله سعيد بن جبير وعطاء، واختاره البخاري، وقال: هذا أحسن؛ لأنه لا يسمى فاسقًا إذا كان ناسيًا.

القول الثاني: إن تركها عامدًا أو ناسيًا يأكلها. وهو قول الشافعي، والحسن. وروي ذلك عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء، والنخعي، وحكاه الزهراوي روايةً عن مالك، ورجحه ابن عاشور.

القول الثالث: إن تركها عامدًا أو ساهيًا حرم أكلها. قاله ابن سيرين، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، ونافع، والشعبي، وهو رواية عن أحمد.

القول الرابع: إن تركها عامدًا كره أكلها. قاله من المالكية القاضي أبو الحسن، والشيخ أبو بكر.

القول الخامس: قال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلّا أن يكون مستخفًا. وقال نحوه الطبري.

قال القرطبي: قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾، وقال: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه﴾. فبين الحالين وأوضح الحكمين، فقوله: ﴿لا تأكلوا﴾ نهي على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة؛ لتناوله في بعض مقتضياته الحرام المحض، ولا يجوز أن يتبعض أي يراد به التحريم والكراهة معًا، وهذا من نفيس الأصول.

وأما الناسي فلا خطاب يتوجه إليه، إذ يستحيل خطابه، فالشرط ليس بواجب عليه.

وأما من رأى جواز أكل متروك التسمية عمدًا أو نسيانًا فلأجل أن المؤمن لا ينفك عن ذكر الله تعالى، إذ قلبه مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده، فلا يفتقر إلى ذكر باللسان، كما أشار إليه =

وعلى هذا فأئمة المالكية بينوا أنّ الذبح عبادة يتقرب بها إلى الله ﷻ لا يجوز صرفها لغيره تعالى يدل على ذلك تشديدهم في أهمية ذكر اسم الله تعالى وحده عند إرادة الذبح، وأن لا يتولى الذبح غير المسلم إذ هي قربة لا تصح على يد كافر(١).

*****

= القرطبي ومحمد المكي. انظر: المحرر الوجيز (٥/ ٣٣٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٧٦)، والتحرير والتنوير (٨/ ٤٠).

(١) يستثنى من ذلك ذبائح أهل الكتاب إذا ذكروا اسم الله تعالى عليها، كما قال تعالى: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾. وقد ذكر ابن كثير الحكمة في إباحة ذبائح أهل الكتاب، فقال: «لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهو متعبِّدون بذلك، ولهذا لم يبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم؛ لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة». انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١١١٣).

المسألة الرابعة: النذر

النذر: ما يوجبه المرء على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما(١).

ولما كان النذر منه ما يحمد ومنه ما يذم، فإن الكلام هنا عن نذر العبادة الذي أثنى الله تعالى على الموفين به، كما قال ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧](٢).

وسيكون بيانه من خلال أقوال المالكية مقصورًا على الآتي:

أولًا: معنى نذر العبادة.

ثانيًا: حكم التقرب بهذا النذر.

أولًا: معنى نذر العبادة

[١] أوضح الإمام مالك معنى هذا النذر عندما روى بسنده: أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلًا قائمًا في الشمس، فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلّم، ولا يستظلّ من الشمس، ولا يجلس، ويصوم. فقال رسول الله ﷺ: **«مروه فليتكلّم،**

---

(١) انظر المعجم الوسيط (٢/ ٩١٢).

(٢) قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه». خرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (١١/ ٥٨٥) رقم (٦٧٠٠).
قال مالك: «معنى قول رسول الله ﷺ: «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»: أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام، أو إلى مصر، أو إلى الربذة، أو ما أشبه ذلك مما ليس لله فيه طاعة، إن كلم فلانًا أو ما أشبه ذلك فليس عليه في شيء من ذلك شيء إن هو كلمه أو حنث بما حلف عليه؛ لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة، وإنما يوفي لله بما له فيه طاعة». الموطأ (٢/ ٤٧٦).

وليستظلّ، وليجلس، وليتمّ صيامه»[١] .

ثم قال : ولم أسمع رسول الله ﷺ أمره بكفارة، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يتم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية[٢] .

[٢] وبيّن معناه أيضًا عند سؤاله عن رجل يحلف بنذور مسماة مشيًا إلى بيت الله، فقال : «ما أعلمه يجزئه من ذلك إلّا الوفاء بما جعل على نفسه، فليمش ما قدر عليه من الزمان، وليتقرّب إلى الله تعالى ما استطاع من الخير»[٣] .

[٣] وعند جوابه فيمن نذر نذرًا ليس لله فيه طاعة، قال : «وإنما يوفى لله بما له في طاعة»[٤] .

فتبيّن أنّ معنى النذر عند الإمام مالك رحمه الله هو ما أوجبه المرء على نفسه من الطّاعة .

وقد جاءت تعريفات المالكية حول هذا المعنى :

[٤] ومن ذلك ما ذكره ابن بطال من أنّ النذر هو ما أوجبه المرء على نفسه ولزمها إياه لله تعالى، «فكل من ألزم نفسه شيئًا لله فقد تعيّن عليه فرض الأداء فيه، وقد ذمّ الله من أوجب على نفسه شيئًا ولم يف به. قال تعالى : ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم . . .﴾، وإن كانت تلك الطاعة قبل النذر غير لازمة»[٥] .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠٧ .

(٢) الموطأ (١/ ٣٧٩).

(٣) الموطأ (١/ ٣٧٩)، والمدونة (٢/ ٧٧).

(٤) نفس المصدرين السابقين.

(٥) انظر شرح صحيح البخاري (٦/ ١٥٦).

[٥] وقريب من قول ابن بطال ما ذكره القرطبي حيث يقول: «النذر حقيقة العبارة عنه أن تقول: هو ما أوجبه المكلف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه»[(١)].

[٦] وقال أبو العباس القرطبي: «النذور جمع نذر، كفلس وفلوس، وهو عبارة عن التزام فعل الطاعات بصيغ مخصوصة، كقوله: لله عليّ صوم، أو صلاة، أو صدقة»[(٢)].

[٧] وعرفه ابن العربي بقوله: «النذر هو التزام في الذمة بالقول لما لا يلزم من القرب بإجماع من الأمة، ويلزم بالنية عند علمائنا خاصة[(٣)] دون غيرهم من العلماء»[(٤)].

[٨ ـ ١٦] وقد قال بنحو هذه التعريفات خليل[(٥)]، والحطاب[(٦)]،

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٣).

(٢) المفهم (٤/ ٦٠٤).

(٣) يعني علماء المالكية في اعتبار النيات، وما انعقد عليه القلب موضحًا ذلك بقوله: «والعمدة الالتـزام إنما يكون بالقصد في القلب والقول في النفس فيما يخص به المرء ولا يتعداه إلى غيره يلزمه ذلك فيه، وإنما يحتاج إلى القول أو الكتاب فيما يتعلق بسواه ويدور بينه وبين غيره. وهذا أصل لا تزعزعه الاعتراضات؛ لأنه أوضح الدلالات، وعليه عوّل مالك حين قال فيمن التـزم الطلاق بقلبه: إنه يلزمه، كما يكون مؤمنًا بقلبه وكافرًا بقلبه، ومن عداه من أصحابه لم يرووا عنه خلاف هذا». انظر القبس (٢/ ٦٥٨).

(٤) القبس (٢/ ٦٥٨).

(٥) مختصر خليل (٨٨). ط. الحلبي ١٣٤١هـ.

(٦) مواهب الجليل (٤/ ٤٨٩).

والصاوي[١] وعليش[٢][٣]، والنفراوي[٤]، والداه الشنقيطي[٥]، والجعلي[٦]، والشنقيطي[٧]، والأحسائي[٨][٩].

وعلى هذا فالنذر عندهم يختصّ بالقرب والطاعات من المندوبات والمستحبات، أما المحرم والواجب فهما باقيان على أصلهما لا يتغيران بالنذر، وأما المباح فلا يتعلق بنذره حكم أصلًا؛ لأنّ المقصود من النذر القربة وليس في فعل المباح قربة[١٠].

واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن**

(١) بلغة السالك لأقرب المسالك (٢/ ١٦٣). ط. دار الكتب العلمية. ط. الأولى ١٤١٥هـ. بيروت لبنان.

(٢) هو أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن محمّد عليش، الطرابلسي، شيخ المالكية وفقيهها، له من التصانيف: شرح مختصر خليل، وحاشية عليه، وحاشية على أقرب المسالك. مات سنة ١٢٩٩هـ. انظر شجرة النور (١/ ٣٨٥).

(٣) منح الجليل (٣/ ٩٧).

(٤) الفواكه الدواني (٢/ ٢).

(٥) الفتح الرباني (٢/ ٢١).

(٦) سراج السالك شرح أسهل المسالك لعثمان بن حسين الجعلي (٢/ ٢١). ط. الحلبي ـ مصر.

(٧) شرح خليل بن إسحاق المسمى نصيحة المرابط للشنقيطي (١/ ٢٧٧).

(٨) هو عبدالعزيز بن حمد بن عبداللطيف بن مبارك التميمي، من تصانيفه: تدريب السالك إلى أقرب المسالك على مذهب الإمام مالك. مات سنة ١٣٦٠هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتاب تبيين المسالك (١/ ٣٩).

(٩) تبيين المسالك (٢/ ٤٠١).

(١٠) انظر كلامهم في تقسيم النذر في: المدونة (٢/ ١١٢)، والذخيرة للقرافي (٤/ ٧٢)، والكافي لابن عبدالبر (١/ ٤٥٤)، وابن نصر في المعونة (١/ ٤٢٧ـ٤٢٩)، والمنتقى للباجي (٣/ ٢٩٩ـ١٤١).

يعصي الله فلا يعصه»(١) . وحديث أبي إسرائيل لما رآه رسول الله ﷺ حافيًا قائمًا في الشمس، فقال: «**مروه فليستظلّ ولينتعل**»(٢) .

ثانيًا: حكم التقرب بهذا النذر

يرى المالكية أنّ ابتداء عقد النذر وإلزام النفس به مكروه، أما إذا وقع فإنه يلزم الوفاء به، لقوله تعالى ـ مثنيًا على الموفين نذورهم ـ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

[١٧] وقد احتجوا بالأحاديث التي تنهى عن النذر، كما قال ابن رشد: «كره جماعة من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم النذر، لما روي أنّ رسول الله ﷺ: نهى عن النذر. وقال: «إنه لا يغني شيئًا ولكن يستخرج به من البخيل»، ولما روي عنه أيضًا من رواية أبي هريرة أنه قال: «لا تنذروا، فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل»(٣) .

[١٨] وقد نقل القرطبي عن مالك كراهة النذر مطلقًا(٤) . وهو الصواب إن شاء الله تعالى(٥) ، إذ هو المتفق مع ما كان عليه الإمام مالك من الحرص على السنة واتباع

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (١١/ ٥٨٥) برقم (٦٧٠٠).

(٢) خرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك (١١/ ٥٨٦) برقم (٦٧٠٤).

(٣) البيان والتحصيل (٣/ ١٣٦). والحديث خرجه مسلم في كتاب النذر، باب الأمر بقضاء النذر (٣/ ١٢٦١) برقم (١٦٤٠).

(٤) المفهم (٤/ ٦٠٨).

(٥) خلافًا لابن رشد؛ فقد ذكر عن مالك القول باستحباب النذر، وهو بعيد؛ للإجماع الذي حكاه ابن العربي، وقد خرج الإمام مالك حديث أبي إسرائيل، ثم قال: «فأمره أن يتمّ ما كان =

آثار الصحابة، سيما أن الأحاديث الصحيحة ثابتة في كراهية النذر.

[١٩] يؤكد هذا أنّ ابن العربي حكى إجماع الأئمة على كراهية النذر، فقال ـ في كلامه عن النذر ـ: «أما اجتماع الأمة فلا خلاف بينهم في وجوب الوفاء به، كما لا خلاف بينهم في كراهة التزامه، لما ثبت في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إنّ النذر لا يردّ من القدر شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل»[(١)].

[٢٠] ونقل المازري عن بعض علماء المالكية قولهم: «إنّ الغرض بهذا الحديث التحفظ على النذر، والحفظ على الوفاء به»[(٢)].

وبهذا يتبين أنهم يرون كراهة التزام النذر ابتداءً، فإذا ما انعقد وجب الوفاء به، وبعضهم يرى أنّ الكراهة تتعلق بنذر المجازاة، أما النذر المطلق فلا كراهة فيه.

[٢١] ومن ذلك ما ذكره الباجي عند حديث عبدالله بن عمر: نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «إنه لا يردّ شيئًا، ولكنه يستخرج من البخيل» حيث ذكر أنّ «معنى ذلك: أن تنذر لمعنى من أمر الدنيا، مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي أو قدم غائبي أو أنجاني من أمر كذا، فإني أصوم يومين أو أصلي صلاة، أو أتصدق بكذا.. فهذا المكروه المنهي عنه، وإنما يستحب أن يكون فعله ذلك لله تبارك وتعالى رجاء ثوابه، وأن يكون نذره على ذلك الوجه دون تعلق نذره بشيء من أمر الدنيا وغرضها»[(٣)].

= طاعة، ويترك ما كان لله معصية، فقوله «يتم» يشعر بكراهيته لفعل الطاعة المنذورة ابتداء، والله أعلم». انظر الموطأ (٢/ ٤٧٦). وانظر البيان والتحصيل لابن رشد (٣/ ١٣٧).

(١) القبس (٢/ ٦٦٠).

(٢) إكمال المعلم (٥/ ٣٨٧).

(٣) المنتقى (٣/ ٢٢٨).

[٢٢] وبيّن ابن بطال أنّ النذر لا يغيّر من القدر شيئًا من جلب نفع أو دفع ضر، فقال: «ونهيه ﷺ عن النذر ـ وهو من أعمال الخير ـ أبلغ زاجر عن توهّم العبد أنه يدفع عن نفسه خيرًا أو يجلب إليها نفعًا، أو يختار لها ما يشاء، ومن اعتقد ذلك فقد جعل نفسه مشاركًا لله في خلقه، ومجوّزًا ما لم يقدّره، تعالى الله عما يقولون»[١].

[٢٣] وقال المازري ـ عند كلامه على حديث ابن عمر السابق ـ: «يحتمل عندي أن يكون وجه النهي أنّ الناذر يأتي القربة مستقلّا[٢] لها لما صارت عليه ضربة لازم، وكل محبوس الاختيار كأنه لا يبسط للفعل ولا يبسط إليه نشاط مطلق الاختيار، ويحتمل أيضًا أن يكون الناذر لما لم ينذر ما بذل من القربة، إلّا بشرط أن يفعل له ما يختار، وصار ذلك كالمعاوضة التي تقدح زينة التقرب، ويذهب الأجر الثابت للقربة المجردة، وفي الحديث: **«من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو له»**[٣]»[٤].

[٢٤] وذكر الاحتمال الأول القاضي عياض أيضًا في توجيه كراهة النذر[٥].

[٢٥] وقريب من قول المازري هذا قول القرطبي أبو العباس، حيث يقول:

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٠٨).

(٢) كذا في النص، والصواب: «مستثقلًا»، وهو الذي ينتظم معه السياق.

(٣) الحديث خرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٥).

(٤) المعلم (٢/ ٢٣٦).

(٥) انظر إكمال المعلم (٥/ ٣٨٧).

«هذا النذر محله أن يقول مثلًا: إن شفى الله مريضي فعليّ صدقة كذا، ووجه الكراهة أنه لما وقف فعل القربة المذكورة على حصول الفرض المذكور ظهر أنه لم يتمحض له فيه التقرب إلى الله مما صدر منه، بل سلك مسلك المعاوضة. يوضحه أنه لو لم يشف الله مريضه لم يتصدّق بما علقه على شفائه، وهذه هي حالة البخيل؛ فإنه لا يخرج من ماله شيئًا إلّا بعوض دخل يزيد على ما أخرج غالبًا»(١).

[٢٦] ثم قال: «ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض، أو أنّ الله تعالى يفعل منه الغرض لأجل ذلك النذر، وإليهما الإشارة بقوله ﷺ: «**فإنّ النذر لا يردّ من قدر الله شيئًا**». وهاتان جهالتان: فالأولى: تقارب الكفر. والثانية خطأ صراح. فإذا تقرّر هذا فهل هذا النهي محمول على التحريم أو على الكراهة؟ المعروف من مذاهب العلماء الكراهة... والذي يظهر لي حمله على التحريم في حقّ من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد، فيكون إقدامه على ذلك محرّمًا، والكراهة في حقّ من لم يعتقد ذلك. والله أعلم»(٢).

فبيّن بهذا الكلام أنّ الناذر نذرًا معلقًا كأنه لا يحصل على مطلوبه ومقصوده من الشفاء وغيره إلّا إذا أعطى مقابلًا له! وهذا سوء ظنّ بالله ﷻ، وهذا فيمن اعتقد هذا الاعتقاد.

[٢٧] وبعد أن نقل الرواية عن مالك بكراهية النذر مطلقًا قال: «يمكن حمله على الأنواع التي بينا كراهتها، ويمكن حمله على جميع أنواعه؛ لكن من حيث أنه

---

(١) المفهم (٤/ ٦٠٧).

(٢) المفهم (٤/ ٦٠٧).

أوجب على نفسه ما يخاف عليه التفريط فيه فيتعرّض للوم الشرع وعقوبته»[١].

[٢٨] وأقرّ الحطاب قول القرطبي السابق في كراهة نذر المجازاة[٢].

[٢٩ ـ ٣١] وقد قال بكراهة نذر المجازاة عليش[٣]، والجعلي[٤]، والشنقيطي[٥].

[٣٢] ونقل محمّد المختار إنكار ابن حجر على من زعم أنّ النذر غير مكروه مقرًّا له، فقال: «قد ثبت النهي بخصوصه، فيكون مكروهًا، وإني لأتعجّب ممن انطلق لسانه بأنه ليس بمكروه مع ثبوت النهي الصريح عنه، فأقلّ درجاته أن يكون مكروهًا كراهة تنـزيه»[٦].

[٣٣] وأورد أيضًا رأي ابن حجر بتخصيص النهي بنذر المعاوضة واللجاج، جمعًا بين آية سورة الإنسان التي تضمنت الثناء والحديث الذي تضمّن النهي، فيخص كلّ منهما بصورة من صور النذر[٧].

وعلى كلّ حال فالعبد لا يأتي هذه النذور إلّا وهو على يقين تام بقدرة الله ﷻ، والذي دفعه لذلك طلب مرضاة الله ﷻ على وجه الذلة والخضوع له تعالى، وسؤاله التيسير على عباده، وعلى هذا فالمعاني التي دفعت العبد لأن ينذر هي الثقة بالله من

---

(١) المفهم (٤/ ٦٠٨).
(٢) انظر مواهب الجليل (٤/ ٤٩٤).
(٣) منح الجليل (٣/ ٩٩).
(٤) سراج السالك (٢/ ٢٢).
(٥) نصيحة المرابط (٢/ ٢٧٨).
(٦) نور الحق (١٠/ ١١١). وانظر فتح الباري (١١/ ٥٧٨).
(٧) نور الحق (١٠/ ١١٣). وانظر فتح الباري (١١/ ٥٨٠).

جهة قدرته تعالى فيقبل على النذر خاضعًا متذلّلًا لمولاه. ولا ريب أنّ تلك المعاني الجليلة من العبادة.

يؤيّد ذلك أنّ المالكية وغيرهم يمنعون أن يصرف النذر لأحد غير الله[١].

وأما الوفاء به فقد أثنى الله ﷻ على الموفين نذورهم، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

وقد بيّن أئمة المالكية هذه المسألة وأنّ الناذر يلزمه الوفاء.

[٣٤] حتى إنّ ابن العربي حكى إجماع الأمة على وجوب الوفاء به[٢].

[٣٥] وقال القرطبي: «لا إشكال في أنّ النذر من جملة العقود أو العهود المأمور بالوفاء بها، وأنّ الوفاء بذلك من أعظم القرب المثنى عليها، وكفى بذلك مدحًا وتعزيرًا قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾».

[٣٦] وتقدّم عن مالك فيمن نذر نذرًا ليس فيه طاعة قوله: «إنما يوفى لله بما له في طاعة»[٣].

وهذا يبيّن أنّ الوفاء عند مالك رحمه الله فيما كان قربة وطاعة دون تفصيل في النذر أكان معلقًا أو منجزًا.

[٣٧] وقال القاضي عياض: «ويلزم النذر عند مالك مطلقًا».

ومراده يلزم الوفاء به؛ لأنه ذكر ذلك بعد إيراده لقوله تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ

---

(١) ويأتي كلامهم إن شاء الله تعالى في الباب الثالث.

(٢) انظر القبس (٢/ ٦٦٠).

(٣) الموطأ (١/ ٣٧٩)، والمدونة (٢/ ٧٧).

﴿نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقوله ﷺ: «**وينذرون ولا يوفون**»[١][٢].

[٣٨] وذكر ابن بطال اتفاق العلماء على أنّ الوفاء بالنذر إذا كان طاعة واجب لازم لمن قدر عليه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾. فمدحهم بذلك... وذمّ من لم يف بالنذر، وقرن النبي ﷺ ذم من لم يف بالنذر بخيانة الأمانة.

[٣٩] وبيّن أنّ الوفاء بالنذر مما يدفع به شر ذلك اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

[٤٠ ـ ٤١] وهؤلاء ذكروا وجوب الوفاء بنذر الطاعة في الجملة، وكذلك الباجي[٣] والقاضي عياض[٤].

[٤٢] وأشار المازري إلى أنّ النذر الذي يجب الوفاء به هو المعلق بشرط، أما النذر غير المشروط فلا يسمى نذرًا، والوفاء به مستحبّ[٥].

[٤٣] وجزم أبو العباس القرطبي بأنّ النذر المعلق يلزم «الوفاء به قطعًا من غير خلاف، لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»، ولم يفرّق بين النذر المعلق ولا غيره»[٦].

(١) خرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إثم من لا يفي بالنذر (١١/ ٥٨٠) برقم (٦٦٩٥)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤) برقم (٢٥٣٥).

(٢) انظر إكمال المعلم (٥/ ٣٩٢).

(٣) المنتقى (٣/ ٢٢٨).

(٤) إكمال المعلم (٥/ ٣٨٤).

(٥) المعلم (٢/ ٢٣٩).

(٦) المفهم (٤/ ٦٠٧).

[٤٤ ـ ٥٠] وبنحو قول القرطبي بلزوم الوفاء بالنذر المعلق قال خليل[(١)][(٢)]، والصاوي[(٣)]، وعليش[(٤)]، والنفراوي[(٥)]، والشنقيطي[(٦)]، والحطاب[(٧)]، الأحسائي[(٨)].

وسبب كلامهم هنا عن النذر المعلق لأن منهم من يرى تحريمه أو كراهيته ابتداءً، فإذا ما وقع فيلزم الوفاء به، وذلك لحملهم النهي الوارد عليه، والله أعلم[(٩)].

*****

---

(١) هو خليل بن إسحاق، ضياء الدين، أبو المودة، الحافظ، له من التصانيف: مختصر في المذهب مشهور أقبل عليه الطلبة من كل الجهات واعتنوا بشرحه وحفظه. مات سنة ٧٧٦هـ. انظر شجرة النور (١/ ٢٢٣).

(٢) مختصر خليل (٨٨).

(٣) بلغة السالك (٢/ ١٦٥).

(٤) منح الجليل (٣/ ١٠١ـ١٠٢).

(٥) الفواكه الدواني (٢/ ١٢).

(٦) نصيحة المرابط (٢/ ٢٧٨).

(٧) مواهب الجليل (٤/ ٤٩٤).

(٨) تبيين المسالك (٢/ ٤٠٩).

(٩) ذكر ذلك القرطبي أبو العباس في المفهم (٤/ ٦٠٧). وأورد الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾. قال: «كانوا ينذرون طاعة لله من الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة، وما افترض عليهم، ويوفون بذلك فسماهم الله أبرارًا». الطبري (١٢/ ٣٥٩). قال ابن حجر: «وهذا صريح في أنّ الثناء وقع في غير نذر المجازاة». الفتح (١١/ ٥٧٩).

المسألة الخامسة: الطواف

الطواف في اللغة: الدوران حول الشيء[1]، وهو كذلك في الاصطلاح الشرعي إلّا أنه قد خصّ بكونه عبادة يتقرّب بها لله تعالى في مكان معيّن لا يتحقق التعبد بالطواف في غيره. وكذلك بصلته وارتباطه الوثيق بالعبادة.

وقد أبان المالكية هذه المسألة من خلال الفقرتين الآتيتين:

أولًا: مكان الطواف.

ثانيًا: صلة الطواف بالعبادة.

أولًا: مكان الطواف

بيّن المالكية أنّ الطواف مختصّ ببيت الله الحرام، ولا يجوز في غيره من سائر البقاع.

[١] ومن ذلك ما أورده الإمام مالك عند أثر عمر بن الخطاب ﷺ: «لا يصدر أحد من الحاج حتى يطوف بالبيت، فإنّ آخر النسك الطواف بالبيت»[2]. حيث

---

(١) المعجم الوسيط (١/ ٣٠٢ و٢/ ٥٧٠).

(٢) خرجه مالك في الموطأ، باب وداع البيت (١/ ٢٩٨)، والبيهقي في الحج (٥/ ١٦٢)، والشافعي في المسند (١٣١)، وأبو يعلى (٤٧٦٢)، ورجاله ثقات إلى عمر (، وهو موقوف عليه، غير أن ابن إسحاق قد عنعن، وهو موصوف بالتدليس. ويشهد له أثر ابن عباس في الصحيح: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلّا أنه خفف عن الحائض». وصححه ابن خزيمة برقم (٣٠٠١)، وكذا ابن حبان (٣٩٠٧).

يقول: «إنّ ذلك فيما نرى ـ والله أعلم ـ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾. وقال: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾، فمحل الشعائر كلها وانقضاؤها إلى البيت العتيق»(١).

فجعل الإمام مالك الشعائر كلها ـ ومنها الطواف ـ مختصة بالبيت العتيق.

[٢] قال الباجي: «وظاهر اللفظة إنما يقتضي أنّ الشعائر تنتهي إلى البيت العتيق، وإما أن يكون الطواف به آخر الشعائر، وإما أن يكون الطواف به نهايتها وتمامها»(٢).

[٣] وذكر نحو ذلك ابن العربي(٣).

[٤] ولما كان الطواف عبادة تختصّ بمكان معيّن تفوت بفوته، فقد بيّن ابن القاسم أنّ الطواف بالبيت أفضل من صلاة النافلة لمن كان من أهل البلاد البعيدة(٤).

[٥ ـ ٧] وقال بنحو ذلك ابن بطال(٥) والقرافي(٦) والمهدي الفاسي(٧).

وما ذاك إلّا لأنّ الطواف عبادة لا يمكن تحققها إلّا حول الكعبة فقط.

[٨] ولهذا حين ذكر ابن نصر أنّ الطواف كالصلاة، موردًا الأدلة في ذلك قصر

---

(١) الموطأ (١/ ٢٩٨).
(٢) المنتقى (٢/ ٢٩٤).
(٣) أحكام القرآن (٣/ ٢٨٨).
(٤) انظر المدونة (١/ ٤٠٧).
(٥) شرح صحيح البخاري (٤/ ٣٠٨).
(٦) الذخيرة (٣/ ٢٤٨).
(٧) النوازل (٢/ ٣٠٤).

فعله على الكعبة، فقال: «.. لأنها عبادة مختصة بالبيت، فلم تجز إلّا بطهارة كالصلاة»[١].

[٩] ونقل الباجي قول مالك فيمن استلم الركن ابتداءً من غير طواف بأنه لا بأس به، معلّلًا ذلك بأنه «عبادة متعلقة بالبيت»[٢].

والاستلام من أعمال الطواف، فظهر اختصاصهما بالبيت الحرام.

[١٠] وعند بيانه لاستحباب الإتيان بركعتي الطواف في المسجد قال: «لاتصاله بالطواف، ولكونهما من توابع الطواف المختصة بالمسجد»[٣].

[١١] ولما عرّف ابن عاشور الطواف بأنه المشي حول الكعبة بيّن أنه عبادة قديمة من زمن إبراهيم عليه السلام قررها الإسلام[٤].

[١٢] وحين بين ابن جزي ما يصح به الطواف ذكر منها: «أن يطوف بداخل المسجد»[٥].

[١٣ ـ ١٩] وقد نص على ذلك القرافي[٦]، وخليل[٧]، والزرقاني[٨]،

(١) المعونة (١/ ٣٧٠).
(٢) المنتقى (٢/ ٢٨٦).
(٣) نفس المرجع (٢/ ٢٩١).
(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١).
(٥) القوانين الفقهية (١٢٦).
(٦) الذخيرة (٣/ ٢٤١).
(٧) المختصر (٦٦).
(٨) شرح الزرقاني (٢/ ٢٦٣).

والجعلي[١]، والشنقيطي[٢]، وميارة[٣]، والخرشي[٤].

ومرادهم أنّ الطواف عبادة تختص ببقعة معينة، فلا يجوز إيقاعها إلّا في المسجد الحرام وحول الكعبة فقط.

وإنّ المتأمّل لتأكيدهم على هذا المعنى ليلمس أنّ له ارتباطًا عقديًا أكثر من كونه بيانًا لحكم فقهي.

وكما اعتنى المالكية بتحديد مكان الطواف، فقد اعتنوا أيضًا بذكر ما يجب على الطائف بالكعبة من تحقق «خروج جملة جسده عن البيت»، فيكون طوافه من وراء الحجر والشاذروان[٥].

ولذا فقد رأى مالك أنّ من طاف من خلال الحجر لا يعتدّ بطوافه ولا يجزئه؛

---

(١) سراج السالك (١/ ٢٩).

(٢) نصيحة المرابط (٢/ ١١٢).

(٣) الدر الثمين (٣٧٠).

(٤) الخرشي على مختصر خليل (٢/ ٣١٥).

(٥) الشاذروان: بالشين المعجمة وبفتح الذال وإسكان الراء: هو القدر الذي ترك من عرض الأساس خارجًا عن عرض الجدار مرتفعًا عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع. قال الأزرقي: «طول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعًا وعرضه ذراع. قال: والذراع: أربعة وعشرون إصبعًا. قال أصحابنا وغيرهم: هذا الشاذروان جزء من الكعبة، نقضته قريش من أصل البناء حين بنوها، وهو ظاهر في جوانب البيت، لكن لا يظهر عند الحجر الأسود، وقد أحدث في هذه الأزمان عنده شاذروان.

وقال الفاسي: الأحجار التي تلي جدار الكعبة الشامي ليست شاذروانًا، لكون موضعها من البيت بلا ريب. تحرير التنبيه للنووي (١٧٣)، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (١/ ٥٥). ط. الرسالة، الثانية ـ بيروت ١٤٠٦هـ.

لأنه لا يصدق عليه أنه طاف بالبيت.

[٢٠] قال ابن القاسم: أرأيت من طاف بعض طوافه في الحجر فلم يذكر حتى رجع إلى بلده؟ قال مالك: «ليس ذلك بطواف، فليرجع.. وهو مثل من لم يطف»[١].

[٢١] وقال ابن نصر: «.. ومن طاف في الحجر أعاد الطواف ولم يجزه»[٢].

[٢٢/ ١ ـ ١٠] وقد نصّ على ذلك القرافي[٣]، وخليل[٤]، والحطاب[٥]، وميارة[٦]، والخرشي[٧]، والزرقاني[٨]، والتتائي[٩]، والجعلي[١٠]، والصاوي[١١]، الأحسائي[١٢].

فذكرهم ما يتوقف عليه صحة الطواف بهذا التفصيل لمن يطوف بالكعبة يبين أنّ تلك العبادة مختصة بالبيت الحرام دون سائر البقاع، إذ مجرّد الإخلال بالطواف

---

(١) المدونة (٢/ ٤٠٦).

(٢) عيون المجالس (٢/ ٨١١).

(٣) الذخيرة (٣/ ٢٤٠).

(٤) المختصر (٦٦).

(٥) مواهب الجليل (٤/ ٩٩).

(٦) الدر الثمين (٣٧٠).

(٧) الخرشي (٢/ ٣١٥).

(٨) شرح الزرقاني على مختصر خليل (٢/ ٢٦٣).

(٩) تنوير المقالة (٣/ ٤٣٧).

(١٠) سراج السالك (١/ ٢٠٩).

(١١) بلغة السالك (٢/ ٢٩).

(١٢) تبيين المسالك (٢/ ٢٣٩).

يبطله، فكيف بمن يتركه إلى بقعة أخرى؟!

وعلى هذا فالمالكية يرون أنّ الطواف مختصّ ببيت الله الحرام الذي شرع الله الطواف به، ليحصل بذلك تعظيم ما عظّمه الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ويظهر على العبد أثر تلك العبادة من الخضوع والاستكانة والتذلل لرب هذا البيت ﷻ.

ثانيا: صلة الطواف بالعبادة

[٢٣] لما كان حديث المالكية عن الطواف حديثًا عن عبادة جليلة تتحقق فيها معان عظيمة من التذلل والخشوع والتعظيم لله ﷻفقد بين القرافي أنّ العبد يؤدي هذه العبادة وهو في «غاية الوقار والمبالغة مع الله تعالى؛ لأنه في عبادته وعند بيته»(١).

[٢٤] وعليه فالذي «ينبغي أن يفتتح الطواف بتوحيد الله، كما يفتتح الصلاة بالتكبير، ويخشع لربه، ويعقل ببيت من يطوف، ولمعروف من يتعرّض، وليسأل غفران ذنوبه، والتجاوز عن سيآته، ويشغل نفسه بذلك وخواطره، ويترك أمور الدنيا..»، كما أوضح ابن بطال(٢).

[٢٥] ونبه القاضي عياض إلى أنّ تقبيل الحجر ـ وهو من أعمال الطواف ـ ليس

---

(١) الذخيرة (٣/ ٢٤٤).

(٢) شرح صحيح البخاري (٤/ ٣٠١). وأورد أيضًا فعل ابن عمر ﷺ حين خطب إليه عروة بن الزبير ابنته في الطواف فلم يردّ عليه كلامًا، فلما جاء إلى المدينة لقيه عروة فقال له ابن عمر: «أدركتني في الطواف، ونحن نتراءى الله بين أعيننا، فذاك الذي منعني أن أردّ عليك». ثم زوّجه. ثم قال ابن بطال: «والذي سأل عروة بابًا من أبواب المباح، فأبى ابن عمر أن يجيبه تعظيمًا لله تعالى، إذ هو طائف ببيته الحرام».

عبادة له، بل لله تعالى بامتثال أمره فيه، وشرع مع ذلك التكبير للناس إظهارًا أنّ ذلك الفعل تذلّلًا له لا لغيره، وسرّ ذلك محض العبودية[١].

فجعل الطواف شاملًا لتلك المعاني العظيمة التي متى قام بها العبد فقد تجرّد من كل العلائق سوى الله تعالى.

[٢٦] وقد ذكر القرافي أنّ الحكمة في كون الطائف يجعل البيت عن يساره، ويبتدئ بالحجر الأسود لأنه موضع اليمين، ولأنه يقابل يسار الإنسان، وباب البيت وجهه، فلو جعل الحجر على يمينه لأعرض عن باب البيت الذي هو وجهه، ولو جعله على يساره أقبل على الباب، ولا يليق بالأدب الإعراض عن وجوه الأماثل وتعظيم بيت الله تعالى تعظيم له[٢].

[٢٧] ونقل قول القرافي هذا الحطاب مقرًا له[٣].

[٢٨] وذكر ابن عاشور أنّ البيت جعل معلمًا للتوحيد وإعلانه، فلا يقربه مشرك، إذ هو أول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده، فيأوي إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى[٤].

وبهذا يكون الطواف من أعظم العبادات، إذ إنّ توحيد الله تعالى هو أصل كل عبادة.

[٢٩] ونظيره ما ذكر محمّد المكي بقوله: «إنّ أول بيت أقيم على وجه الأرض باسم الله ولعبادته وحده عبادة خالصة من كل شرك، ظاهرة من كل دنس: هو مقام

---

(١) انظر إكمال المعلم (٣/ ٣٤٥).

(٢) انظر الذخيرة (٣/ ٢٤٠).

(٣) انظر مواهب الجليل (٤/ ٩٧).

(٤) انظر التحرير والتنوير (١/ ٧٠٨).

إبراهيم الذي أمر الله باتخاذه مصلى، فهو بيت الله الحرام، وهو البيت العتيق، وهو البيت المقدّس قبل بيت المقدس»(١).

فإذا كان الطواف يحمل تلك المعاني العظيمة والمقاصد الجليلة فقد شبهه أئمة المالكية بالصلاة التي هي عماد الدين، من حيث مراعاة العبد لطوافه ما يراعيه في الصلاة(٢)(٣).

[٣٠] وقد نقل القرافي قول بعض العلماء في المفاضلة بين أركان الحج مقرًا له، ونصه: «أفضل أركان الحج الطواف؛ لأنه مشتمل على الصلوات، وهو نفسه مشبه بالصلاة، والصلاة أفضل من الحج، فيكون أفضل الأركان»(٤).

[٣١] وفي موضع آخر نص على أنّ الطواف عبادة «متعلقة بالبيت، فأشبهت الصلاة»(٥).

[٣٢] وقال الخرشي: «الطواف عند مالك كالصلاة، إلّا أنه يباح فيه

---

(١) التيسير (١/ ٨٢).

(٢) معلوم أنّ الذي يشترط للطواف بعض شروط الصلاة لا كلها، كما نبه على ذلك ابن جزي وغيره في بيانهم لشروط الطواف.

(٣) كاشتراط الطهارة، نص عليه في المدونة لمالك (١/ ٢٠٤)، وابن رشد في البيان والتحصيل (٤/ ٧ وابن نصر في المعونة (١/ ٣٧٠)، وابن بطال في شرح البخاري (٤/ ٣٢٠)، والقرطبي في المفهم (٣/ ٣٠٥)، والقاضي عياض في الإعلام بحدود وقواعد الإسلام (١٣٦) واشترط أيضًا ستر العورة والموالاة كالصلاة. ومثله القرافي في الذخيرة (٣/ ٢٣٨)، وابن جزي في قوانين الأحكام الشرعية (١٢٦)، والخرشي في شرحه مختصر خليل (٢/ ٣١٣ـ٣١٤)، وميارة في الدر الثمين (٣٦٩)، والكشناوي في أسهل المدارك (١/ ٤٦٣).

(٤) الذخيرة (٣/ ١٧٥).

(٥) الذخيرة (٣/ ٢٣٨).

الكلام»[١].

[٣٣] ونقل محمّد المختار قول القسطلاني مقرًا له، ونصه: «فليتأدّب بآداب الصلاة خاضعًا حاضر القلب، ملازم الأدب في ظاهره وباطنه، مستشعرًا بقلبه عظمة من يطوف ببيته»[٢].

[٣٤] وبيّن الباجي أنّ الطواف عند المالكية عبادة محضة كالصلاة، والعبادة حق الله وحده، ولا يجوز صرفها لغيره، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨][٣].

وكما أنّ المصلي يتوجّه في صلاته باستقبال البيت العتيق، كذلك لا يتطوف إلّا به، وذلك برهان على ارتباط الطواف بالعبادة، وماله من المنزلة الرفيعة من بين العبادات.

*****

(١) الخرشي على مختصر خليل (٢/ ٣١٤).

(٢) نور الحق (٣/ ٢٣٨). وانظر إرشاد الساري (٣/ ١٧٤).

(٣) المنتقى (٢/ ٢٩٠).

المبحث الثالث

شروط صحّة العبادة

تقدّم الكلام على بيان معنى التوحيد، وأنه إفراد الله بالعبادة، وأنه أحد الأصول العظيمة التي قام عليها الدين، وأما الأصل الثاني: فهو أن لا يعبد الله تعالى إلّا بما شرع، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ولهذا كان عمر ﷺ يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل فيه لأحد شيئًا»[١].

وقال الفضيل بن عياض[٢] ـ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ـ قال: «أخلصه وأصوبه». قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة»[٣].

---

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ٢٦٢) رقم (١٠١٨). ط. الرسالة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ. بيروت.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، كان ثقة نبيلًا، فاضلًا عابدًا ورعًا، كثير الحديث، له أقوال مأثورة ومواعظ بليغة. مات سنة ١٨٧هـ. انظر: السير (٨/ ٤٢١)، حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، التذكرة (١/ ٢٤٥).

(٣) تفسير البغوي (٨/ ١٧٦)، جامع العلوم والحكم (١/ ٧٢).

فيستفاد مما ذكره الفضيل أنّ هناك شرطين لصحة العبادة، وقد بيّن أئمة المالكية هذين الشرطين، وهما: الإخلاص والمتابعة، وزاد بعضهم شرطًا ثالثًا، وهو الإيمان، علمًا بأن هذا الشرط لا يخفى على من اقتصر على الشرطين فقط، إذ إنّ غير المؤمن لا يقبل منه عمل أصلًا وإن جاء بشرطي العمل المقبول، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ولهذا لم يذكر أكثرهم هذا الشرط.

وقد نبّه بعضهم عن طريق الإشارة إلى شرط المتابعة، وذلك بذكر وصف للعمل يغني عن التنصيص على هذا الشرط، فإذا اقترن هذا الوصف مع شرط الإخلاص انتظم شرطا صحة العبادة.

وفيما يلي أعرض بيانهم وتفصيلهم لهذين الشرطين:

[١] ويحسن هنا البدء بكلام محمّد الأمين رحمه الله، لأهميته وتضمنه شروط العبادة، حيث يقول: «دلّ القرآن العظيم على أنّ العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

أولًا: موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه..﴾.

ثانيًا: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ لأنّ الله جل وعلا يقول: ﴿وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين...﴾، ﴿قل الله أعبد مخلصًا له ديني﴾.

ثالثًا: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأنّ الله يقول: ﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾. فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح»[١].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٥٢-٣٥٣).

[٢] وذكر القاضي عياض أنّ حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**. . .»[١]: «يرجع إلى معنيين؛ أحدهما: تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد. والآخر: تجريده بخالص السنة»[٢].

[٣] وأبان ابن أبي زيد جملة من مسائل العقيدة التي أجمع عليها الأئمة، ومنهم مالك، كما نص على ذلك[٣] فقال: «والإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. . ولا قول إلّا بعمل، ولا قول وعمل إلّا بنية، ولا قول وعمل ونية إلّا بموافقة السنة»[٤].

وعلى هذا فالعمل لا بد له من نية، أي قصد وجه الله تعالى به، ولا ينفع إلّا أن يكون موافقًا للسنة، وبهذين الشرطين يتم قبول العمل.

[٤] وقال أبو عمرو الداني: «والأعمال كلها بالنية؛ لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**». فمن فعل شيئًا مما أمر به أو نهي عنه[٥] غير مختار لفعله ولا مريد له، ولا قاصد، فأدى به الفرض لم يجزه، وكان حكمه كحكم

---

(١) خرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ((١/ ٩) برقم (١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٣٣٢).

(٣) ذكر ابن أبي زيد بعد إيراده هذه المسائل قوله: «وكله من قول مالك، فمنه منصوص من قوله، ومنه معلوم من مذهبه». الجامع (١٤٩).

(٤) الجامع (١٤٢).

(٥) لعله يريد من كف عما نهي عنه، لأنّ فعل المنهي عنه لا شك في تحريمه، والإخلاص لا يطلب من أحد في فعل المحرم.

من لم يفعل شيئًا . . . »[١] .

فبين أهمية حسن القصد في كل عمل، وأن يكون على وفق الشرع، وهو ما أشار إليه بقوله : «فمن فعل شيئًا مما أمر به أو نهي عنه . . »، فانتظم شرطًا صحة العمل في ذلك .

[٥] وبيّن الشاطبي[٢] أنّ «العمل إذا روعيت فيه المقاصد الأصلية[٣] للشرع فهو أقرب إلى إخلاص العمل وصيرورته عبادة، وأبعد عن مشاركة الحظوظ التي تغبّر في وجه محض العبودية»[٤] .

[٦] ثم بين أنّ «العامل بالمقاصد الأصلية عامل في هذه الأمور في نفسه امتثالًا لأمر ربه، واقتداءً بنبيه عليه الصلاة والسلام، فكيف لا تكون تصاريف من هذه سبيله عبادات كلها»[٥] .

فنص على أنّ امتثال الأمر يكون بالاقتداء بالنبي ﷺ، إذ بهذين الشرطين يصدق على العمل كونه عبادة .

[٧] وأكّد هذا المعنى فيما نقله عن أبي حمد الثقفي، ونصه : «لا يقبل الله من الأعمال إلّا ما كان صوابًا، ومن صوابها إلّا ما كان خالصًا، ومن خالصها إلّا ما وافق

---

(١) الرسالة الوافية (١٣٩) .

(٢) هو إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق الشهير بالشاطبي، الحافظ، كان أصوليًا مفسّرًا فقيهًا محدّثًا لغويًا نظّارًا ثبتًا ورعًا صالحًا، له من التصانيف : كتاب الموافقات في أصول الفقه، وكتاب الاعتصام . مات سنة ٧٩٠هـ . انظر نيل الابتهاج (١/ ٤٨) .

(٣) ومراده بالمقاصد الأصلية كما بينها بقوله : «الواجبات عينية أو كفائية» .

(٤) الموافقات (٢/ ٤٩٣) .

(٥) الموافقات (٢/ ٥٠٠) .

السنة»[(١)].

[٨] ونقل قول سفيان أيضًا: «لا يستقيم قول إلّا بعمل، ولا قول وعمل إلّا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلّا بموافقة السنة»[(٢)].

[٩] وحين ذكر ما يتعلق به الصوفية في أقوالهم من أكل الحلال واتباع السنة والإخلاص قال: «وهذا هو الحق»[(٣)].

[١٠] وأورد الطرطوشي قول ابن عباس في المساجد: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى»[(٤)] ثم قال: «والمعنى في ذلك: أنّ اليهود والنصارى إنما زخرفوا المساجد عندما حرفوا وبدلوا، فتركوا العمل بما في كتبهم، فأنتم تصيرون إلى مثل حالهم إذا طلبتم الدنيا بالدين، فتركتم الإخلاص في العمل، فصار أمركم إلى المراءاة في المساجد والمباهاة بتشييدها وتزيينها»[(٥)].

فذكره لانحراف اليهود والنصارى إشارة إلى أنهم خالفوا منطوق نصوص الكتاب عندهم، فابتدعوا ما هو مخالف له، من عدم الإخلاص والمتابعة، وهذان شرطَا قبول العمل.

[١١] وعلى هذا نقل القاضي عياض قول سهل التستري مقرًّا له، ونصه: «أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من

---

(١) الاعتصام (١/ ٩٣). ط. دار المعرفة.

(٢) الاعتصام (١/ ٨٤).

(٣) ثم بين مخالفتهم لهذا الأصل العظيم بارتكابهم أشياء لم تأت في كتاب ولا سنة، ولا عمل بأمثالها السلف الصالح. وذلك في بيان بدعهم.. الخ. الاعتصام (١/ ٢١٢).

(٤) خرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد (١/ ٥٣٩) برقم (٤٤٥).

(٥) الحوادث والبدع (٢٢٠).

الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال»[(١)].

[١٢] وعند قول عمر حين قبّل الحجر: «لقد علمت أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله يقبّلك ما قبّلتك» قال القاضي عياض: «فيه الاقتداء وترك الاعتراض على السنن بالعقول، وأنّ تقبيله الحجر ليس عبادة له، بل لله تعالى بامتثال أمره فيه»[(٢)].

فتضمن قوله الاقتداء بالسنة، وقصد الله تعالى بهذا العمل، وهما شرطَا صحة العمل.

[١٣] وذكر القرطبي أبو عبدالله عند قول الله ﷻ: ﴿إليه يصعد الكلم والطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فيما رآه حديثًا بقوله: «وفي الحديث: «لا يقبل الله قولًا إلّا بعمل، ولا يقبل قولًا وعملًا إلّا بنية، ولا يقبل قولًا وعملًا ونيةً إلّا بإصابة السنة»[(٣)(٤)].

فنص فيما أورده على شرطي صحة العمل: إخلاص النية، وأن يكون على وفق السنة.

وبعد كلامهم عن شرطي العبادة بينوا في مواضع أخرى الإشارة إلى شرط المتابعة، وذلك من خلال حديثهم عن شرط الإخلاص بوصف العمل الذي مصدره الشرع بأنه عمل صالح، أو قربة، أو عبادة، وما في معناها. وفي ذلك غنية عن نسبة العمل إلى الشرع، إذ لا يصح إطلاق هذه الألفاظ إلّا على ما كان مصدره الشرع.

---

(١) الشفا (٢/ ٥٥٨).

(٢) إكمال المعلم (٤/ ٣٤٥).

(٣) خرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة برقم (١٨) عن الحسن البصري، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٢) عن سفيان. وذكر ابن رجب أنه مروي بإسناد ضعيف عن ابن مسعود ﷺ في جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠)، وابن حجر في التلخيص الحبير (٢٠٤) عن الحسن وسعيد بن جبير، ثم قال: وهذان الأثران موقوفان.

(٤) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٣٠).

فانتظم في كلامهم هذا شرطًا صحة العبادة: الإخلاص والمتابعة.

[١٤] ومن أقوالهم المتضمنة لهذا الشرط أن مالكًا سئل عن رجل يذهب إلى الغزو ومعه فضل مال ليصيب به من فضل الغنيمة، أي ليشتري من الناس ما صح لهم من الغنيمة، فأجاب: لا بأس به، ونزع بآية التجارة في الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وأنّ ذلك غير مانع ولا قادح في صحة العبادة إذا كان قصده بالعبادة وجه الله، ولا يعد هذا تشريكًا في العبادة، لأن الله هو الذي أباح ذلك ورفع الحرج عن فاعله مع أنه قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فدلّ على أنّ هذا التشريك ليس بداخل بلفظه ولا بمعناه تحت آية الكهف»(١).

فنص مالك رحمه الله على الإخلاص في العمل، ووصفه بكونه عبادة وعملًا صالحًا، ولا يصدق هذا الوصف إلّا على ما كان وفق الشرع.

[١٥] ونحو من ذلك ما أورده القاضي عياض قال: «كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده، وإذا وقف في الصلاة فكأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء، فلما فرغ قيل له: لو خففت من هذا قليلًا؟ فقال: ما ينبغي لأحد يعمل لله عملًا إلّا حسنه، والله تعالى يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]»(٢).

فذكر شرطي قبول العمل، من كونه لله تعالى وأن يكون حسنًا، ولا يوصف بالحسن إلّا ما وافق الشرع.

[١٦] وقال ابن بطال: «سئل مالك عن الرجل يقول بين الصفين: من يبارز؟

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٩).

(٢) الإمام مالك مفسّرًا (٣٩٥)، ترتيب المدارك (٢/ ٥١).

قال: ذلك إلى نيته، إن كان يريد به وجه الله فأرجو أن لا يكون به بأس، وقد كان يفعل ذلك من مضى».

ومراده بما كان من العمل في زمن النبي ﷺ والصحابة من بعده والتابعين، فهو العمل المرضي عنه شرعًا(١)(٢).

---

(١) يرى الإمام مالك رحمه الله أنّ عمل أهل المدينة حجة إذا كانوا من الصحابة والتابعين فيما طريقه النقل والتوقيف، مستدلّاً بقوله ﷺ: «**إنّ المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد**»، والخطأ خبث، فوجب نفيه، وأيضًا فإن أخلافهم ينقلون عن أسلافهم، أبناءهم عن آبائهم الخبر عن دائرة الظن والتخمين إلى دائرة التعيين. انظر إحكام الفصول (١/ ٤٨٩). وانظر الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة للمشاط (٢١٣) ط. دار الغرب. ط. الأولى ١٤٠٦هـ، ومقدمة في أصول الفقه لابن القصار (٢٢٦) ط. دار المعلمة ـ الرياض، ط. الأولى ١٤٢٠هـ.
قال الباجي: «وإنما عول مالك رحمه الله ومحققو أصحابه على الاحتجاج بذلك فيما طريقه النقل، . . . وإنما خصت المدينة بهذه الحجة دون سائر البلاد لوجود ذلك فيها دون غيرها من البلاد، لأنها كانت موضع النبوة، ومستقرّ الصحابة والخلافة بعده عليه الصلاة والسلام، ولو تهيأ مثل ذلك في سائر البلاد لكان حكمها كذلك أيضًا» اهـ. كتاب الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل (٢٨١). ط. دار البشائر ـ بيروت. ط. الأولى ١٤١٦هـ.
وخلاصة القول: أنّ العمل المنقول عن أهل المدينة إما أن يكون مبناه على التوقيف والنقل، وإما على الاجتهاد والاستدلال. أما الأول: فلم يختلف فيه. قال القرطبي أبو العباس: «ينبغي ألا يختلف فيه؛ لأنه من باب نقل المتواتر». وقال القاضي عياض: «ولا خلاف في صحة هذا الطريق وكونه حجة عند العقلاء». وأما الثاني فرده جمهور العلماء، ورأى بعض المالكية أنه ليس بحجة، ولكن يرجح على اجتهاد غيرهم. انظر إحكام الفصول للباجي (١/ ٤٨٨). ط. دار الغرب. ط. الثانية ١٤١٥هـ. وانظر: مذكرة محمّد الأمين الشنقيطي في أصول الفقه (١٥٣ـ١٥٤) ط. السلفية، وتقريب الوصول إلى علم الأصول لأبي القاسم بن جزي الغرناطي (٣٣٧ وما بعدها)، تحقيق د. محمّد المختار بن الشيخ محمّد الأمين. ط. مكتبة ابن تيمية، ط. الأولى ١٤١٤هـ.

(٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٨٥ـ١٨٦).

[١٧] وقال ابن أبي زيد: «وفرض على كل مؤمن ومؤمنة أن يريد بكل قول أو عمل من البر وجه الله الكريم، ومن أراد بذلك غير الله لم يقبل عمله»(١).

فصرح هنا بشرط الإخلاص وألمح إلى شرط المتابعة بقوله: «من البر»، إذ لا يكون العمل أو القول برًّا إلّا إذا كان عملًا صالحًا موافقًا للشرع.

[١٨] ونقل ابن بطال قول المهلب مقرًّا له في أنّ «العمل لا يكون إلّا مقصودًا لله معنًى متقدمًا، وذلك المعنى هو علم ما وعد الله عليه من الثواب وإخلاص العمل لله تعالى، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع، إذ تقدمه العلم، ومتى خلا العمل من النية ورجاء الثواب عليه وإخلاص العمل لله تعالى فليس بعمل، إنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم، وقد بين ذلك ﷺ بقوله: **«الأعمال بالنيات»**(٢).

فذكر العمل المرجو نفعه، وهو ما كان مخلصًا، وأشار إلى المتابعة، إذ إنه لا يرجى الثواب إلّا بعمل الصواب على وفق الكتاب والسنة.

[١٩] وأبان ابن عبدالبر «أنّ الله تعالى يحب من عباده الإخلاص في عبادته في التوحيد وسائر الأعمال التي يعبد بها، وفي الإخلاص طرح الرياء كله؛ لأنّ الرياء شرك أو ضرب من الشرك»(٣).

[٢٠] ونقل «إجماع أهل الفقه والحديث على أنّ الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلّا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم

---

(١) الرسالة (١٩٤).

(٢) شرح البخاري (١/ ١٥١).

(٣) فتح المالك (١٠/ ٤٧٧).

إيمان . . . »[١] .

[٢١] وعند حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : «**تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلّا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته** . . . » قال : «وفيه دليل على أنّ الأعمال لا يزكو منها إلّا ما صحبته النية والإخلاص لله ﷻ والإيمان به»[٢] .

فركز الكلام هنا على الإخلاص في سائر الأعمال المقربة لله ، واجتناب الشرك ، ولم يذكر المتابعة اكتفاءً بوصف العمل بكونه عبادة ، ولا يكون عبادة إلّا إذا كان على وفق الشرع .

[٢٢] ونظيره ما ذكره ابن العربي بقوله : «فكل ما أمر الله به فإنما ينبغي أن يقصد به الطاعة له ، وإلا فليس يكون امتثالًا ، ولا يحصل الاحتذاء على مثال الآمر إلّا بأن يخلص له القصد ، كما أخبر عن الأعمال وشرط على العمال . قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر : ٢ ـ ٣] ، على الاختصاص . وقال في عموم المؤمنين : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥]»[٣] .

فنص على الإخلاص في العبادة ، ولا تكون عبادة إلّا ما كان على وفق الشرع ، وكذلك يقال في لفظ «الطاعة» ، فإن العمل لا يوصف بأنه طاعة إلّا إذا كان على وفق الشرع .

---

(١) التمهيد (٩/ ٢٣٨ـ٢٤٣) .

(٢) فتح البر (١١/ ٣٥) .

(٣) عارضة الأحوذي (٧/ ١٥١) .

[٢٣] وقال ابن رشد ـ عند قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[(١)] ـ: «معناه: إنما العبادات التي ينتفع بها عند الله ما أخلصت النية فيه لله»[(٢)]. وهذا كسابقه.

[٢٤] ومثله قول ابن عطية حيث ذكر عند قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]: «أنّ معنى الآية الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل، والدين هنا يعمّ المعتقدات وأعمال الجوارح»[(٣)].

[٢٥] ونحو من قولي ابن رشد وابن عطية قول القرطبي أبي العباس فيما ذكره عند حديث ابن مسعود ﷺ في التشهد عند قوله: «التحيات لله» بقوله: «في هذا الموضع تنبيه على الإخلاص في العبادات، أي: ذلك كله من الصلوات والأعمال لا تفعل إلّا لله تعالى»[(٤)].

[٢٦] وفي موضع آخر قال: «الإخلاص شرط في جميع العبادات، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، والإخلاص مصدر من: أخلصت العسل وغيره، إذا صفيته وأفردته من شوائب كدره، أي: خلصته منها. فالمخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتى له إلّا بأن يكون الباعث على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى، وابتغاء ما عنده. فأما إن كان الباعث عليها غير ذلك من أغراض الدنيا فلا يكون عبادة، بل يكون معصية موبقة لصاحبها، فإما كفر وهو الشرك الأكبر، وإما رياء وهو الشرك الأصغر»[(٥)].

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٢٤ .

(٢) البيان والتحصيل (١٧/ ٢١٥).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٥١٨).

(٤) المفهم (٢/ ٣٤ـ٣٥).

(٥) المفهم (٣/ ٧٤٢).

[٢٧] ونقل الحطاب قول القرطبي هذا مقرًا له[١].

[٢٨] وعرف الأبي الإخلاص بقوله: «أن تقصد إفراد المعبود بالعبادة»[٢].

[٢٩] وذكر ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] أنّ «حاصل ما تضمنه هو الإخلاص لله في العبادة»[٣].

ففي تلك الأقوال وصف الأعمال بأنها عبادات، ولا يوصف عمل بهذا الوصف إلّا ما كان من جهة الشرع كما تقدم، وبهذا يتم شرطًا صحّة العمل من إخلاصها لله تعالى ومتابعة الشرع فيها.

[٣٠] وأوضح القرافي في كلامه عن العمل أن الضابط له «أن يعمل المأمور به والمتقرب به إلى الله تعالى وهو يقصد به وجه الله»[٤].

[٣١] وعند قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] قال محمّد المختار: «أي: مصفّين له العبادة من الرياء والشرك... وذلك أي ما أمروا به من عبادة الله وإخلاص الدين له والميل عن الباطل إلى الحق..»[٥].

[٣٢] وفسر ابن عاشور قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] بقوله: «ومما يتفرع على معنى الآية إخلاص المؤمن الموحد في عبادة ربه، أي أن

---

(١) حيث قال قبل أن ينقل كلامه عن الإخلاص: «وحرره غاية التحرير الإمام القرطبي». مواهب الجليل (٣/ ٥٠٣).

(٢) الثمر الداني (١/ ٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٠).

(٤) الفروق (٣/ ٤٣).

(٥) نور الحق (١/ ١٢١).

يعبد الله لأجله، أي طلبًا لرضاه وامتثالًا لأمره»[١].

ولا ريب أنّ وصف العمل بأنه مأمور به يراد به عند أهل العلم العمل المأمور به في الشرع، فإذا ضم إلى هذا الوصف الإخلاص انتظم ذلك شرطي صحة العبادة.

[٣٣] وذكر النفراوي أنّ «الإخلاص فرض عين على كلّ مكلّف، وهو قصد وجه الله تعالى وحده بالعبادة قولية أو فعلية، ظاهرة أو خفية»[٢].

[٣٤] وأوضح الوزاني أنّ المقصود من العبادات «تعظيم الله تعالى والخضوع له، وذلك إنما يحصل إذا فعلت من أجله»[٣].

والحاصل أنّ العمل مهما بلغ من إخلاص صاحبه وحسن قصده، إلّا أنه عند فقد إذن الشرع له فلا قيمة له، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فلا بد إذًا من اجتماع الشرطين كما تقدم، لسلامة العمل وقبوله.

هذا؛ ولم يكتف أئمة المالكية بالإشارة إلى شرط المتابعة في المواضع المتقدمة، بل إنهم أفصحوا عن هذا الشرط وبينوا أنّ صحة العبادة متوقفة على تحققه.

[٣٥] فقد نقل الشاطبي قول أحمد بن أبي الحواري[٤] مقرًّا له: «من عمل عملًا

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٨).

(٢) الفواكه الدواني (٢/ ٣٩٥).

(٣) النوازل (٢/ ٣٣٧).

(٤) هو أبو الحسن شيخ أهل الشام، الثعلبي الغطفاني الدمشقي، الزاهد. قال يحيى بن معين: أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث. وقال محمّد بن خالد: ما بقي على وجه الأرض مثله. مات سنة ٢٤٦هـ. انظر: السير (١٢/ ٨٥)، الحلية (١٠/ ٥).

بلا اتباع سنة فباطل عمله»[١].

فما نقله هنا نص في أنّ العمل لا بد أن يكون على وفق السنة، وإلا فلا اعتبار للعمل.

[٣٦] وهو ما أكده في موضع آخر بقوله: «وقد ثبت بالنقل الصحيح الصريح بأنه لا يقربه إلى الله إلّا العمل بما شرع، وعلى الوجه الذي شرع»[٢].

وما سوى ذلك من العمل فلا يكون قربة وطاعة لله ﷻ، ولذا قال:

[٣٧] «والعامل بغير السنة تديُّنًا هو المبتدع بعينه»[٣].

[٣٨] وعلى هذا أبطل القرطبي أبو العباس ما لا يدلّ عليه دليل من الكتاب أو السنة، وإنما العبرة بالعبادة المشروعة فقط، فقال عند حديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[٤]: «أي: من اخترع في الشرع ما لا يشهد له أصل من أصوله فهو مفسوخ، لا يعمل به ولا يلتفت إليه»[٥].

[٣٩] وبين أنّ العبادة ما كان عن طريق الأنبياء، فقال: «سنة الله تعالى في العبادة أنه لا تتلقى إلّا من جهة الأنبياء»[٦].

[٤٠] ونظيره ما نقله محمّد المختار عن ابن حجر مقرًا له عند نفس الحديث

---

(١) الاعتصام (١/ ٩٥).

(٢) الاعتصام (١/ ١١٧).

(٣) الاعتصام (١/ ٤٤).

(٤) خرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٥/ ٣٠١) برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/ ١٣٤٣) برقم (١٧١٨).

(٥) المفهم (٥/ ١٧١).

(٦) المفهم (٣/ ٥٧٤).

السابق: «من أحدث في أمرنا...» يقول: «هذا الحديث معدود من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده، فإنّ معناه: من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه»[١].

والمخترع هو الذي يحدث عبادة ليست في الكتاب ولا في السنة.

[٤١] وقد ذكر القاضي عياض أنّ العمل إذا لم يكن على وفق السنة فلا عبرة به، فعند شرحه الحديث السابق: «من أحدث في أمرنا هذا...» قال: «أي غير موافق لسنة، وصاحبه غير مأجور فيه، ومردود عليه»[٢].

[٤٢] وعلى هذا فقد جعل الاقتداء بالنبي ﷺ هو العمل الصالح الذي يقبله الله ﷻ، فقد نقل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ بأنه الاقتداء بالنبي ﷺ[٣].

ومراده من هذا النقل أنّ العمل الذي يخلو من الاقتداء بالنبي ﷺ فإنه غير صالح، وغير مقبول عند الله ﷻ.

[٤٣] ونحوه قول الأبي عند شرحه لحديث: «**من أحدث في أمرنا**...»[٤].

[٤٤ ـ ٤٧] وهذا الذي جعل الباجي يذكر عن أئمة المالكية وجوب الاتباع للنبي ﷺ في كل «ما فيه قربة وعبادة... نقله عن ابن القصار[٥]، وأبي بكر

---

(١) نور الحق (٥/ ٩). وانظر كلام ابن حجر في الفتح (٥/ ٣٠٢).

(٢) إكمال المعلم (٥/ ٥٧٦).

(٣) الشفا (٢/ ٥٥٩).

(٤) شرح صحيح مسلم (٦/ ٢٤٨ـ٢٤٩).

(٥) هو علي بن أحمد البغدادي، القاضي أبو الحسن، المعروف بابن القصار، تفقه بالأبهري، وله كتاب في مسائل الخلاف، كان أصوليًا نظّارًا. مات سنة ٣٩٨هـ. انظر: الديباج =

الأبهري[١]، وابن خويز منداد[٢] وغيره. ورواه أبو الفرج عن مالك»[٣].

[٤٨] وأكد هذا المعنى بأن الأمر باتباع النبي ﷺ يشمل القول والفعل، فقال: «ورد الأمر بوجوب اتباعه على الإطلاق، فيجب أن تتبعه في كل شيء إلّا ما خصه الدليل»[٤].

[٤٩] وبنحو قول الباجي ما ذكره ابن عبدالبر عند إيراده حديث: «خذوا عني مناسككم»[٥] بقوله: «وقد أمر الله ﷻ بطاعته واتباعه أمرًا مطلقًا مجملًا لم يقيد بشيء»[٦].

[٥٠] وعند أمر الله ﷻ باتباع النبي ﷺ بقوله: ﴿واتبعوه﴾ قال ابن عطية: «لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة»[٧].

= (٢٩٦)، شجرة النور (١/ ٩٢).

(١) هو أبو بكر محمّد بن عبدالله الأبهري، له من التصانيف: شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبدالحكم، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة. مات سنة ٣٧٥هـ. انظر: شجرة النور (١/ ٩١)، ترتيب المدارك (٦/ ١٨٣).

(٢) هو محمّد بن أحمد بن عبدالله، أبو عبدالله، تفقه على الأبهري، له كتب كثيرة في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن. وكان يجانب الكلام وينافر أهله ويعدهم من أهل الأهواء. مات سنة ٣٩٠هـ. انظر: الديباج (٣٦٣)، شجرة النور (١/ ١٠٣).

(٣) انظر إحكام الفصول في أحكام الأصول (١/ ٣١٥). ط. دار الغرب، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

(٤) إحكام الفصول (١/ ٣١٥-٣١٨).

(٥) خرجه الإمام مسلم بلفظ: «لتأخذوا مناسككم» في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا وبيان قوله (: «لتأخذوا مناسككم» (٢/ ٩٤٣) برقم (١٢٩٧).

(٦) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٩٠).

(٧) المحرر (٦/ ١٠٨).

[٥١] ونقل ابن بطال الإجماع على أنه لا يجوز الصلح المنعقد على غير السنة، وأنه منتقض[١]. فإذا كانت المعاملات لا تصح إلّا أن تكون على وفق السنة فلا ريب أنّ العبادات من باب أولى وأحرى.

[٥٢] والذي يبين ذلك ما ذكره الطرطوشي عند إيراده أثر ابن عمر رضي الله عنهما أنه (حضر جنازة فقال: لتسرعنّ بها وإلا رجعت!)[٢]، فقال: «انظروا ـ رحمكم الله ـ لما ترك الإسراع ـ وهو السنة ـ همّ ابن عمر بالانصراف ولم ير أن قيراطين من الأجر تغنيان بترك سنة من سنن النبي ﷺ[٣]»[٤].

ومراده رحمه الله أنّ العمل وإن كان في تأديته حصول الأجر الكبير، إلّا أنه لا بد من أن يكون على وفق سنة النبي ﷺ، من هنا فقد أكدوا على لزوم السنة.

[٥٣] وفي هذا يقول مالك: قال عمر بن عبدالعزيز: «سنّ رسول الله ﷺ وولاة

---

(١) شرح صحيح البخاري (٨/ ٨٦).

(٢) الأثر بهذه الصيغة لم أقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وإنما خرجه الطبري بصيغة الرفع عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «لتُسرعنّ بها أو لأرجعنّ». وفي إسناده عبدالرحمن بن واقد، قال الحافظ: صدوق يخطئ واتهمه ابن عدي في الكامل بسرقة الحديث. انظر مسند الشاميين للحافظ أبي القاسم الطبراني (٢/ ٢٥٣). وحديث الإسراع بالجنازة عند البخاري من رواية أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ مرفوعًا: **«أسرعوا بالجنازة، فإن تكُ صالحة فخير تقدّمونها إليه، وإن يك سوى ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم»**. كتاب الجنائز، باب السرعة بالجنازة (٣/ ١٨٢) رقم (١٣١٥).

(٣) وذلك لما خرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: **«من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيرط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان»**. قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين». (٢/ ٦٥٢) برقم (٩٤٥).

(٤) الحوادث والبدع (٢٨٧).

الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا». قال مالك: «أعجبني عزم عمر في ذلك».

قال القاضي عياض: «كان مالك إذا حدث بهذا ارتجّ سرورًا»[(١)].

فما أقرّه الإمام مالك هنا يبين أهمية اتباع السنة في العمل، إذ لا تحقق الطاعة ويحصل الاهتداء إلّا بها، وترك ما سواها، فمن خالف في ذلك فهو متوعد ومردود عليه عمله والعياذ بالله.

[٥٤] ولذلك حذّر الإمام مالك من زاد في عمله على هدي النبي ﷺ من الوقوع في الفتنة، مما يدل على أنه لا بد للعمل من أن يكون على وفق السنة. فقد أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله! من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة! فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟! إني سمعت الله يقول: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[(٢)].

[٥٥] قال مالك: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[(٣)].

---

(١) الجامع (١٤٩). وذكره الذهبي في السير (٨/ ٩٨)، ونسبه إلى مالك بقوله: «من قول مالك في السنة..»، القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤١).

(٢) الاعتصام (١/ ١٣٢).

(٣) ذم الكلام للهروي (١٧٤)، والعقيدة السلفية للمغراوي (٣٠).

فلا ريب أنّ العمل يدخل ضمن ما قاله مالك رحمه الله، فلا نجاة إلّا بأن يكون على وفق السنة.

[٥٦] وذكر ابن عبدالبر ضمن «باب الحض على لزوم السنة والاقتصار عليها» أثر عمر بن عبدالعزيز السابق، مما يبين أهمية اتباع السنة في كل قربة وطاعة(١).

[٥٧] وذكر ابن أبي زيد تحت عنوان «فضل الاتباع والخير فيه» قوله: «واللجأ إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين وخير القرون، من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة، وهم القدوة...». فإذا لم تكن الأعمال على وفق الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح فهي مصدر هلاك وشقاء، إذ إنّ الخلق إنما تعبدوا بما في هذين المصدرين: الكتاب والسنة، فبهما يتحقق الحفظ من مخالفة المأمورات.

فتدخل سائر الأعمال والقرب ضمن الأمر باتباعه فيها، وإلا لم تكن أعمالًا مشروعة.

وبهذا الذي سبق يعلم عناية المالكية بشرطي صحة العبادة، كما جاءت في الكتاب والسنة، من وجوب إيقاع العبادة على وفق ما شرعه الله، وأن يبتغى بتلك العبادة وجه الله تعالى دون سواه، فإذا لم يتوافر الشرطان في أي عمل حكم ببطلانه ورده.

وقد كان بيانهم لهذين الشرطين على وجه التفصيل أحيانًا وبالإشارة إلى شرط المتابعة في حين آخر، ولهذا عقب بشرط المتابعة على وجه البسط ليعلم عناية المالكية بأن إخلاص العمل لا يكفي وحده، بل لا بد من أن يكون على وفق ما شرعه الله.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧٦). ط. دار ابن الجوزي، ط. الثانية ١٤١٨هـ السعودية.

الباب الثالث

الشرك

وفيه : تمهيد، وفصلان

* تمهيد

* الفصل الأول : التعريف بالشرك وبيان سببه

* الفصل الثاني : أنواع الشرك

تمهيد

لما كان الشرك بالله تعالى من أعظم الذنوب التي عصي الله بها، فقد جاءت النصوص الشرعية محذرة منه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فالمشرك حلال الدم والمال، ولا يقبل الله منه العمل، ولا تنفعه الشفاعة، ولا يستجاب له في الآخرة دعوة، ولا تقال له فيها عثرة.

«والمتأمل في سيرته ﷺ بعد البعثة ليجدها سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الدائب لإعلاء كلمة التوحيد، وتقويض دعائم الشرك، ومحاربة الوثنية في كل صورها ومظاهرها، فقد قضى ثلاثة عشر عامًا في مكة من سني بعثته لا شغل له إلّا إقرار العقائد الصحيحة، والدعوة إلى التوحيد، حتى طهّر جزيرة العرب من عبادة الأوثان، وجرى أصحابه ﷺ على هذه الطريقة في كل موطن نسجت منه عناكب الشرك، فأبادوا الأصنام وما يشبه الأصنام. . . وتفقهوا في الدين، فأخذوا في إبعاد الناس عن عقيدة الشرك بطريق الجزم، وسدوا الذرائع[1] التي قد تفضي

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك ما فعله عمر ﷺ بقطع الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، وأيضًا ما جاء في قصة عبدالله بن مسعود مع زوجته حيث تقول: جاء ذات يوم فرأى في عنقي خيطًا، قال: ما هذا الخيط؟! قالت: قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه ثم قال: إنّ آل =

إليه . . »[١] .

وهذا فيما يتعلق بالشرك على سبيل العموم ، أما ما يتعلق بخصوص هذا البحث المرتبط بالمالكية فإنّ الإمام مالكًا رحمه الله قد روى بسنده عن أميمة بنت رقية رضي الله عنها أنها قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة بايعنه على الإسلام فقلت : يا رسول الله! نبايعك ألا نشرك بالله شيئًا . . . [٢] .

فروايته لهذا الحديث الذي فيه البيعة من النساء على التوحيد وعدم الإشراك بالله تعالى تظهر عناية الإمام مالك بالتوحيد وحمايته من كل ما يناقضه ، كالشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب[٣] .

وعلى هذا كان تطبيقه العملي على وفق هذه القاعدة ، فمن ذلك ما جاء في المدونة[٤] : قلت : هل كان مالك يكره أن يستعين المسلمون بالمشركين في حروبهم؟ قال : «سمعت مالكًا يقول : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : «**لن أستعين بمشرك**»[٥] .

= عبدالله لأغنياء عن الشرك! . وكذلك حذيفة ﷺ دخل على مريض فرأى في عضده سيرًا فقطعه وانتـزعه ثم قال : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ . خرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨١)، والحاكم (٤/ ٢١٧) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٥١٤).

(١) انظر مصرع الشرك والخرافة . لخالد محمّد علي الحاج ، تحقيق عبدالله الأنصاري ، ط . إدارة الشؤون الدينية بقطر ١٣٩٨هـ.

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٢٤ .

(٣) ذكر الإمام مالك أن جميع الذنوب يغفرها الله عدا الشرك ، فعند قول الله تعالى : ﴿يغفر الذنوب جميعًا﴾ قال : «إنه ما دون الشرك» . الإمام مالك مفسّرًا (٣٤٢) .

(٤) المدونة (٢/ ٤٠).

(٥) سبق تخريجه ص ٣٤٩ .

فإيراد مالك رحمه الله لهذا النص يبين أنه لا يجيز الاستعانة بالمشركين في القتال، وذلك لشناعة جرمهم، وخشية الاختلاط بهم، مما يهون الشرك عند المسلمين.

بل إنه حض على عمل كل ما فيه توهين للشرك وأهله[١].

ورأى أن سائر ما يعمله المرتد مردود عليه إذا رجع إلى الإسلام، ويلزمه أن يقضي الحج[٢].

وقرر ما جاءت به النصوص من نجاسة المشرك[٣] النجاسة المعنوية، ومن قطع كل العلائق مع المشركين، فلا يحل أن ينكح المسلم المشركة والعكس[٤].

وحيث كانت عناية الإمام مالك بهذا الأمر ـ الذي هو الشرك ـ بالغةً هذا القدر

---

(١) ومن ذلك أنه لم ير بأسًا أن تحرق قراهم وحصونهم بالنيران، وتغرق بالماء وتخرب. قال سحنون: «وأصل ما جاء عن أبي بكر ﷺ في النهي عن قطع الشجر وإخراب العامر أن ذلك لم يكن من أبي بكر ﷺ نظرًا للشرك وأهله والحيطة لهم والذب عنهم، ولكنه أراد النظر للإسلام وأهله والتوهين للشرك». المدونة (٢/ ٨).

(٢) حيث ذكر أن المرتد إذا حج قبل ردته فإن عليه أن يحج مرة أخرى. قال: لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾، فحجه من عمله، وعليه حجة أخرى، فهذا يخبرك أن كل ما فعل من الفرائض قبل ارتداده لم ينفعه، فكذلك ما ضيع قبل ارتداده، ولا يكون عليه شيء وهو ساقط عنه. المدونة (٢/ ٣١٧).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾.

(٤) قال مسعر: قلت لمالك بن أنس: خطب إلي رجل من القدرية أفأزوجه؟ فقال: لا. قال الله ﷻ: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾. الإمام مالك مفسّرًا (١٠٧).

وقال: إن الله حرم نكاح المشركات منها والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم. نفس المرجع.

قال مالك: «وإذا أسلم الرجل قبل امرأته وقعت الفرقة بينهما إذا عرض عليها الإسلام فلم تسلم؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾. الموطأ (٢/ ٤٢٩).

فقد حرص هو وأصحابه من بعده على إيضاح حقيقة الشرك، وبيان أنواعه؛ لما فيه من الخطر العظيم الذي يقضي على التوحيد ويفسد العبادة.

وسوف يكون عرض كلام المالكية في بيان هذا الجانب على سبيل الإيجاز، وذلك من خلال ما يأتي في الفصلين الآتيين:

الفصل الأول: التعريف بالشرك وبيان سببه.

الفصل الثاني: أنواع الشرك.

*****

الفصل الأول

التعريف بالشِّرك وبيان سببه

المبحث الأول : بيان حقيقة الشرك

المبحث الثاني : بيان سبب الشرك

المبحث الأول

بيان حقيقة الشرك

تقدم في الكلام على معنى التوحيد والإقرار بربوبية الله ﷻ ما يدل على أن الإيمان الذي ينفع صاحبه لا يتحقق إلّا بترك الشرك مطلقًا، وعدم صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**من قال: لا إلّا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»(١).

فلا بد لمن نطق بهذه الكلمة موقنًا بها من نبذ ما يعبد من دون الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا . . .﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وعلى هذا؛ فحقيقة الشرك هو اتخاذ شريك لله تعالى في العبادة، وهو ما أفصح عنه علماء المالكية في بيانهم حقيقة الشرك تصريحًا أو تلميحًا، وسأذكر في هذا المبحث أقوالهم على سبيل الإيجاز والاختصار.

[١] ومن ذلك تعريف القرطبي للشرك بأنه «اتخاذ الإنسان إلهًا غير خالقه المنعم عليه».

[٢] وأكد في موضع آخر أن المراد شرك العبادة فقال: «أصل الشرك المحرم:

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله (١/ ٥٣) برقم (٢٣).

اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية»[١].

وأهل الجاهلية كانوا يقرون بربوبية الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، كما تقدم بيانه، وعليه فإن إشراكهم المذكور هنا هو الشرك في العبادة.

[٣] ونظيره ما ذكره الميلي في بيان حقيقة الشرك بقوله: «الشرك في الشرع: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى»[٢].

[٤] قال ابن القاسم: «سمعت مالكًا قال: بلغني أن رجلًا من المسلمين في بعض مغازي رسول الله ﷺ حمل على رجل من المشركين، فلما علاه بالسيف قال المشرك: لا إله إلّا الله، فقال الرجل: إنما تتعوذ بها من القتل! فقتله، فأتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال له رسول الله ﷺ: **«كيف لك بلا إله إلّا الله؟!»**. فقال: يا رسول الله! إنما كان يتعوذ بها من القتل! فما زال يعيدها على النبي ﷺ والنبي ﷺ يعيد: **«فكيف لك بلا إله إلّا الله؟!»**. فقال الرجل: وددت أني أسلمت في ذلك اليوم، وأنه بطل ما كان من عملي قبل ذلك، وأني استأنفتُ من ذلك اليوم»[٣].

فقرر مالك رحمه الله نفع كلمة التوحيد للمشرك إذا نطق بها، إذ بها يحقن دمه؛ لأنه ترك ما يعبد من دون الله من الشركاء الذين كان يعتقد استحقاقهم للعبادة مع الله، وهذا هو حقيقة الشرك.

---

(١) المفهم (٦/ ٦١٥).

(٢) رسالة الشرك ومظاهره للميلي (٦٣).

(٣) البيان والتحصيل (١٧/ ٢١٦). وفي الباب عن أسامة بن زيد عند البخاري (٤٢٦٩)، وعن المقداد بن الأسود عند البخاري (٤٠١٩). وقد سبق تخريجه أيضًا ص ٣٧.

[٥] وأوضح ابن بطال أن «الرياء ينقسم إلى قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله فليس ذلك بمخرج من الإيمان، إلّا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حمد المخلوقين مع حمد ربه، فحرم ثواب عمله ذلك»(١).

ومراده بالشرك الذي ينقض عقد الإيمان اتخاذ شريك مع الله ﷻ في عبادته، وهو حقيقة الشرك.

[٦] كما يبين ذلك ما ذكره في موضع آخر من أن الشرك هو عدم الاعتراف بالعبودية والربوبية لله تعالى ـ وهما خالص حق الله ـ وجعلها لغيره، حيث قال: «وإنما سمى الله الشرك ظلمًا لأن الظلم عند العرب وضع الشيء في غير موضعه؛ لأنه كان يجب عليه الاعتراف بالعبودية والإقرار بالربوبية لله تعالى»(٢).

[٧] ونبه الباجي إلى أن كمال قدرة الله ﷻ ونفوذ أمره وحكم تشريعه تقتضي عدم اتخاذ شريك أو ند له تعالى، إذ له الكمال المطلق، بخلاف المخلوق، فمن لم يقر بذلك فقد أشرك معه غيره، حيث يقول: «فمن عظمته تعالى وقدرته وعزته انفراده عن الأشراك والأنداد، واستغناؤه عن الصاحبة والأولاد، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ...﴾ [المؤمنون: ٩١].. تفرد بالخلق والإنشاء، وكشف الضر والبلوى، وبعث النبيين مبشرين ومنذرين، فأخبروا عن ربنا بعظم قدرته، وعلو كلمته، وتمام مشيئته، وبينوا شرائعه، وأوضحوا براهينه

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ١١٣).

(٢) شرح صحيح البخاري (٨/ ٥٧٠).

وأمره، وكل ذلك بالكلام المبين والمنهج القويم، والأدلة التي تضطر من تأملها إلى الحق، وتُنكِّب من خالفها إلى الشرك»[(١)].

فكلامه وإن كان في الربوبية فهو مستلزم للألوهية؛ لأن الرسل جميعًا إنما جاؤوا بالدعوة إلى عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وبهذا تتبين حقيقة الشرك، وهو اتخاذ شريك أو ند له تعالى في العبادة.

ولذا كان من أعظم الشرك تسوية الخالق بالمخلوق فيما اختص به الخالق من استحقاق العبادة.

[٨] وذلك ما أوضحه ابن عطية من مقالة المشركين عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]: «قسمًا بالله إن كنا لفي ضلال مبين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم...»[(٢)].

[٩] وذكر القرطبي نفس المعنى عند تفسيره للآية ﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾ بقوله: «أي في العبادة»[(٣)].

[١٠] وأفصح عن حقيقة الشرك، وأنه عبادة غير الله تعالى ـ عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] ـ فقال: «أي: لو عبدوا غيري لحبطت أعمالهم»[(٤)].

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٦٧).

(٢) المحرر الوجيز (١١/ ١٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١١٦).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤).

[١١] وعلى هذا بين محمّد المختار «أن المشرك بالله ﷻ قد ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا، حيث سوى بين الرب والمربوب، والمنعم بجميع النعم وما لا نعمة منه أصلًا»(١).

[١٢] وأبان محمّد الأمين أن تلك التسوية لا تكون من ذي عقل، فقال: «ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر على شيء مع من بيده الخير كله، المتصرف بكل ما شاء، لا تصدر إلّا عمن لا عقل له»(٢).

[١٣] وهو ما أراده القرافي حين بين توحيد الله تعالى بالعبادة، فقال: «فيجب على كل أحد أن لا يشرك معه تعالى غيره في ذلك»(٣).

[١٤] وحكم على من فعل ذلك بالكفر حيث قال: «ولا خلاف في تكفير من نفى الربوبية أو الوحدانية، أو عبد مع الله غيره»(٤).

فمن عبد مع الله غيره جعله مستحقًّا للعبادة دون الله تعالى، وهو ما أبطله الله.

[١٥] كما ذكر محمّد المكي أن «المشرك بالله يزعم زورًا وبهتانًا أن الوثن يستحق العبادة، ويشهد له بالقدرة على الضر والنفع وغيره من صفات الكمال، التي هي من صفات الله وحده دون ما سواه»(٥).

[١٦] وأوضح ابن أبي جمرة حقيقة الشرك فقال: «. . . لأن المؤمنين ينطبق عليهم اسم عباد وإن كان منهم المذنب؛ لأنه قد عبد الله، أي أنه قد أقرّ له سبحانه

---

(١) نور الحق (١٠/ ٣٤١).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٨٣).

(٣) الذخيرة (٤/ ٧).

(٤) الذخيرة (١٢/ ٢٧).

(٥) التيسير (٤/ ١٧٢).

بالألوهية ولم يجعل له شريكًا ولا عبد شيئًا دونه»[١].

[١٧] وبين القرافي عند ذكره قاعدة في الرياء في العبادات والتشريك فيها أن «هذه القاعدة وسرها وضابطها أن يعمل العمل المأمور به والمتقرب به إلى الله وهو يقصد به وجه الله»[٢].

ومراده أن ما لم يقصد به وجه الله فهو من الشرك.

[١٨] وعند قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال محمّد الأمين: «المراد بشركهم: عبادتهم غيره معه»[٣].

[١٩] وأوضح معنى العدل في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] فقال: «معنى ﴿يعدلون﴾: يجعلون له نظيرًا في العبادة»[٤].

فجعل معنى الشرك اتخاذ معبود مع الله تعالى.

ولذا فقد جاء النهي عن الشرك في النصوص بعد الأمر بالعبادة، إشارة إلى اختصاصها بالله وحده دون سواه.

[٢٠] وهو ما أشار إليه أيضًا ابن عاشور عند قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦] حيث يقول: «ولما كان المأمور به مجموع شيئين: عبادة الله، وعدم الإشراك به في ذلك؛ آل المعنى: إني ما أمرت إلّا بتوحيد الله»[٥].

[٢١] ثم ذكر أن التوحيد يبطل بالشرك في العبادة، وهو حقيقة الشرك فقال:

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ٣٠).

(٢) الفروق (٣/ ٤٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٧٤).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١٨٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨).

«وإثبات الوحدانية له يبطل الشريك في الإلهية»(١).

[٢٢] وأبان محمّد المختار نفس المعنى عند حديث جبريل ـ وفيه قول النبي ﷺ: **«أن تعبد الله ولا تشرك به»**(٢) ـ بقوله: «أي معه في العبادة شيئًا»(٣).

وبهذا البيان من أئمة المالكية لحقيقة الشرك يعلم أن غالب الشرك الذي جاءت النصوص الشرعية بالنهي عنه إنما هو شرك العبادة، إذ إنّ غالب الأمم تقر بربوبية الله ﷻ(٤)، وإنما وقع الانحراف في العبادة، بإن صرفت لغير الله ﷻ منذ أمد بعيد(٥).

*****

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ١١٤) برقم (٥٠).

(٣) نور الحق (١/ ١٣٦).

(٤) وقد تقدم هذا المعنى في الباب الأول.

(٥) حين وقع الشرك في الأرض في قوم نوح، كما قال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي على التوحيد، عشرة قرون بين آدم ونوح، كما أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢١٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٠).

المبحث الثاني

بيان سبب الشرك

لما كان الشرك أمرًا حادثًا، وأن الأصل هو التوحيد، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ كان لا بد له من أسباب توصل وتؤدي إليه، كالصور وتعظيمها، والبناء على القبور وتشييدها. والإسلام جاء بسد منافذ الشرك، وحسم أسبابه، فقد حرم البناء على القبور، ونهى عن تشييدها، واتخاذ الصور؛ لأنها السبيل إلى الغلو في أصحابها، ومن ثم عبادتها كما وقع في الأمم السالفة.

وهذا الذي قرره أئمة المالكية في بيان أسباب الشرك، مستدلين على ذلك بما جاء في قصة قوم نوح(١)، وما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسةً رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: **«إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**(٢).

---

(١) كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما هلكوا أوصى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت». (٨/ ٦٦٧) برقم (٤٩٢٠).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (١/ ٥٢٣) برقم (٤٢٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي =

[١] وفي هذا يقول القاضي عياض ـ عند حديث عائشة رضي الله عنها ـ: «. . . ولأن هذا كان الأصل في عبادة الأصنام فيما يذكر، وكانوا قديمًا إذا مات فيهم نبي أو رجل صالح صوروا صورته، وبنوا عليه مسجدًا ليأنسوا برؤية صورته، ويتَّعظوا بمصيره، ويعبدوا الله عنده، فمضت على ذلك أزمان، وجاء بعدهم خلف رأوا أفعالهم وعباداتهم عند تلك الصور، ولم يفهموا أغراضهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم وألقى إليهم أنهم كانوا يعبدونها؛ فعبدوها»(١).

[٢] ونظيره ما ذكره القرطبي عند هذا الحديث ثم عقب بقوله: «فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدد النكير والوعيد على فعل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك، فقال: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد»**(٢)، وقال: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، وقال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»**(٣). ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر رسول الله ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة، إذ كان مستقبل المصلين، فتتصور الصلاة

= عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (١/ ٣٧٥) برقم (٥٢٨).

(١) إكمال المعلم (٢/ ٤٥٠).

(٢) خرجه مالك في الموطأ، باب جامع الصلاة (١/ ١٥٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١٥٨٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (٥/ ٤١)، وقال: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، وهو حديث صحيح عند من قال بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند؛ لإسناد عمر بن محمّد له، وهو ممن تقبل زيادته.

(٣) خرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (٣/ ٢٠٠) برقم (١٣٣٠)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٦) برقم (٥٢٩).

إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره، ولهذا الذي ذكرناه كله قالت عائشة: «ولولا ذلك لأبرز قبره»[١][٢].

[٣] وبين أن النهي عن الصلاة إلى القبور «لقطع الذريعة أن يعتقد الجهال في الصلاة إليها ـ أو عليها ـ الصلاة لها، فيؤدي إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام»[٣].

فجعل السبب الذي أدى إلى وقوع الشرك الغلو في أولئك الرجال الصالحين حتى عبدوهم من دون الله.

[٤] وهو ما بينه ابن بطال بقوله: «لأنهم كانوا يعبدون تلك القبور، ولذلك نهى ﷺ أن يتخذ قبره مسجدًا، قطعًا للذريعة في ذلك؛ لئلا يعبد الجهال قبره»[٤].

[٥] وقد كان السبب في حدوث تلك العبادة اتخاذ القبور مساجد، وفعل التصاوير، وذلك لأن الغلو في القبور والصور يوصل إلى اتخاذها آلهة، كما بين ذلك ابن بطال فيما نقله عن المهلب بقوله: «إنما نهي عن ذلك ـ والله أعلم ـ قطعًا للذريعة، ولقرب عبادة الأصنام واتخاذ القبور والصور آلهة»[٥].

[٦] وذكر الميلي أن مبدأ الشرك كان في قوم نوح، فقال: «أول ما عرفوا

(١) وهذا قالته عائشة رضي الله عنها بعد روايتها لهذا الحديث عند البخاري ومسلم، كما هو مخرج في الحاشية (٣).
(٢) المفهم (٢/ ١٢٧ـ١٢٨).
(٣) المفهم (٢/ ٦٢٨).
(٤) شرح البخاري (٣/ ٣٢٧).
(٥) شرح البخاري (٢/ ٨٢).

بالشرك قوم نوح الطَّيْلا، وأول ما وقعوا فيه منهم القبوريون المنصرفون بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم، فكان نوح أول رسول من الله لمقاومة الشرك، وإقامة الحجة على المشركين بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها، ودلالتهم على سوء مغبة الشرك، ولزوم التبرئ منه، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك».

ثم ذكر أنهم أخذوا يتواصون بذلك حتى «أخذ الخلف بوصية السلف، فلم يستمعوا لنبيهم على قوة الحجة، ولم يتأثروا بآدابه على طول مدته»[(١)].

فقرر أن الغلو في أولئك الموتى هو الذي أوصلهم إلى الشرك.

[٧] وذكر ابن جزي السبب الذي أدى إلى وقوع الشرك في قوم نوح بإيراده نفس القصة السابقة[(٢)].

فما فعله قوم نوح من الشرك بالله تعالى هو من الأعمال القبيحة التي سرت إلى غيرهم من سائر الأمم.

[٨] وهو ما أشار إليه محمّد المكي عند قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ . . .﴾ [نوح: ٢٣] بقوله: «هذه الأصنام وغيرها قد استمرت تقاليد عبادتها إلى حين ظهور الإسلام» وأن تلك «السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنها قوم نوح قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البشر، ولا تزال عبادة الأصنام قائمة إلى اليوم»[(٣)].

وحيث إن البناء على القبور وتشييدها، واتخاذ الصور سبيل لتعظيمها والغلو في

---

(١) رسالة الشرك (٦٨ـ٦٩).

(٢) انظر التسهيل (٤/ ٢٨٤).

(٣) التيسير (٦/ ٣١٢).

أهلها كما تقدم، فقد جاء عن الإمام مالك رحمه الله النهي عن كل سبب يؤدي إلى الشرك، ومن ذلك:

[٩] كراهية الإمام مالك تجصيص القبور والبناء عليها، هذه الحجارة التي يبني عليها[1].

[١٠] قال مالك: «وناس يقولون: زرنا قبر النبي ﷺ!». قال ابن القاسم: فكان مالك يكره هذا ويعظمه أن يقال: إن النبي ﷺ يزار[2].

وهذا من الإمام مالك رحمه الله خشية الفتنة بعبادة القبر كما وقع في الأمم السالفة. يدل عليه ما خرجه في موطئه من قول النبي ﷺ: **«قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب»**[3].

[١١] ونقل الطرطوشي عن مالك قوله: «ولا يتخذ على القبور مساجد، ويكره أن يبنى على القبور بالحجارة»[4].

[١٢] وعند حديث: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد» قال القرطبي: «وقد ذكر مالك في الموطأ ما يدل على ذلك من حديث ابن عمر فإنه قال فيه: أول[5] ما تكلم به رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان

(١) المدونة (١/ ١٨٩).

(٢) المدونة (١/ ٣٧٠).

(٣) الموطأ (٢/ ٨٩٢). وقد سبق تخريجه، وهو في الصحيحين.

(٤) الحوادث والبدع (٣٠٤).

(٥) لعله يريد أول ما يفيق من غم سكرات الموت التي عاناها النبي ﷺ، فإن هذا الحديث قاله في سياق الموت.

بجزيرة العرب»[(١)] . »[(٢)] .

[١٣] ونقل القرطبي مقالة الإمام مالك السابقة في كراهة البناء على القبور، ثم قال معلّلًا تلك الكراهة: «لأنه تشبه بمن كان يعظم القبور ويعبدها».

وهذا يبين أنه استقرّ لدى الإمام مالك رحمه الله خشية الفتنة العظيمة التي تقع من تشييد القبور والبناء عليها واتخاذها مساجد، إذ هي ذريعة ووسيلة إلى الشرك بالله تعالى.

[١٤] وعلى هذا سار المالكية[(٣)] . قال القرطبي ـ عند شرح حديث: «**لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها**»[(٤)] ـ: «أي لا تتخذوها قبلة تصلوا عليها أو إليها، كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك»[(٥)] .

[١٥] ولهذا ذكر ابن رشد ما أورده الإمام مالك من أثر عمر بن عبدالعزيز ﷺ حين أصلح ما انهدم من حائط بيت رسول الله ﷺ وستره القبر، ثم قال: «وإنما ستر

---

(١) خرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٧٥)، وعبدالرزاق في المصنف (٩٩٨٧)، وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٥)، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال الأرنؤوط: حسن لغيره. المسند (٦/ ٢٧٥).
وله شاهد عند مسلم (١٧٦٧) من حديث عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلّا مسلمًا».

(٢) المفهم (٤/ ٥٦٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٨٠).

(٤) خرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٢/ ٦٦٨) برقم (٩٧٢).

(٥) انظر التمهيد (١/ ١٦٨)، والمنتقى (٧/ ١٩٥).

القبر على الناس وبنى عليه بيتًا صيانةً له، مخافة أن ينقل ترابه ليستشفى به، أو يتخذ مسجدًا يصلى فيه، فقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]. »[٢].

[١٦] وبعد أن ذكر القاضي عياض تغليظ النبي ﷺ في النهي عن أن يتخذ قبره مسجدًا قال: «ولأن هذا كان أصل عبادة الأصنام»[٣].

[١٧] قال ابن عبدالبر: «وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجدًا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه وأنه مما لا يرضاه، خشيةً عليهم أمثال طرقهم»[٤].

[١٨] وأكد هذا المعنى أيضًا بقوله: «ليس فيه حكم أكبر من التحذير أن يصلى إلى قبره وأن يتخذ مسجدًا، وفي ذلك أمر بأن لا يعبد إلّا الله وحده، وإذا منع ذلك في قبره فسائر آثاره أحرى بذلك»[٥].

[١٩] ونظيره قول محمّد المختار حيث ذكر أن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لعنوا على ذلك، وأن اتخاذهم هذا مغالاة لتعظيم أنبيائهم حتى عبدوهم[٦].

---

(١) سبق تخريجه ص ٤١٤ .

(٢) البيان والتحصيل (١٧/ ١٠١).

(٣) إكمال المعلم (٢/ ٤٥٠).

(٤) التمهيد (٥/ ٤٥).

(٥) الاستذكار (٥٠).

(٦) نور الحق (١/ ٥٩٧).

[٢٠] ولما ذكر ابن الحاج حرمة الطواف بقبر النبي ﷺ والتمسح به وتقبيله والتبرك به قال: «وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلّا من هذا الباب»(١).

فجعلوا الغلو في قبور الأنبياء ـ باتخاذها مساجد ـ عبادةً لها من دون الله تعالى، وكما أن الغلو يقع بتشييد القبور واتخاذها مساجد فهو أيضًا يحصل باتخاذ الصور، كما تقدم.

[٢١] قال مالك: «بلغني أن أول ما اتخذت الصور في موت نبي، فصوروا ليأنسوا بصورته، فما زال ذلك حتى صار إلى أن عبدت»(٢).

فقرر الإمام مالك أن اتخاذ الصور سبب لوقوع الشرك واتخاذ الصور سببه الغلو في محبة من صوروه، فلم يزل بهم صنيعهم إلى أن عبدوها.

[٢٢] وهو ما أشار إليه القرطبي حين بين كراهة الصور بقوله: «لأن ذلك مضاهاة لمن يعظم الصور ويعبدها كالنصارى، وكما كانت الجاهلية تفعل»(٣).

ولهذا فإن القاضي عياضًا بين أن عدم دخول الملائكة في «البيت لأجل الصور التي ضاهى صانعها خلق الله، ونصب أمثلتها للعبادة من دون الله»(٤).

[٢٣] وعلى هذا نقل محمّد المختار عن ابن حجر قوله: «إن تصوير الحيوان فعل أحدثه عباد الصور»(٥).

---

(١) المدخل (١/ ١٩١).

(٢) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (٢٦١).

(٣) المفهم (٥/ ٤٢٦).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٦٢٩).

(٥) نور الحق (٩/ ٢٥٣). وانظر فتح الباري (١٠/ ٣٨٢).

وهذا يدل عليه ما تقدم من أقوال.

وقد بين بعض المالكية أن شبهة المشركين قديمًا وحديثًا في وقوع الشرك طلب الشفاعة من هؤلاء الشركاء؛ لما لهم من المنـزلة والجاه عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

[٢٤] وبين ابن عطية السبب في ذلك، فيقول: «وكأن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته»[(١)].

فأوضح أن تلك الوجهة الخاطئة منهم هي التي أوصلتهم إلى الشرك بالله تعالى.

[٢٥] وعلى هذا ذكر ابن جزي أن تلك هي مقولة جميع المشركين، فعند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قال: «يعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة، والذين عبدوا الأصنام، أو الذين عبدوا عيسى أو عزيرًا، فإن جميعهم قالوا هذه المقالة»[(٢)].

[٢٦] ولهذا ذكر الميلي أن المشركين «لم تزد عقيدتهم في أوليائهم وشركائهم عن تعليقهم الآمال عليهم في تحقيق مآربهم من الله؛ لما لهم عنده في زعمهم من المنـزلة والجاه، كما ينظر الناس إلى من يتصلون به من حاشية أمير أو ملك في إسماعه مطالبهم»[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز (١٢/ ٤٩٩).

(٢) التسهيل (٣/ ٤١٤).

(٣) رسالة الشرك (٨٣).

أي أن هذا ما تعلقوا به لتبرير شركهم.

[٢٧] ونقل القرطبي قول قتادة: «كانوا إذا قيل لهم: من ربكم؟ ومن خالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله. فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده».

[٢٨] ولما كانت تلك الشبهة التي تعلقوا بها قد جاء الرد عليها في كتاب الله ﷻ فقد عقب القرطبي عليها بقول الكلبي: «جواب هذا الكلام في سورة الأحقاف ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]».

[٢٩] وبين ابن عاشور بطلان تلك الوسيلة التي اتخذها المشركون للقرب من الله ﷻ؛ لمنافاتها حقيقة العبادة، فقال ـ أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٣] ـ: «الذين زعموا أنهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصًا على القرب من الله يزعمونه عذرًا لهم، فقولهم من فساد الوضع وقلب حقيقة العبادة، بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها، وتطلبوا القربة بما أبعدها، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسل بها ضربًا من العبث»(١).

[٣٠] وعند الآية نفسها أيضًا أكد هذا المعنى، فقال: «وإثبات القهار يبطل ما زعموه من أن أولياءهم تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم»(٢).

وبهذا الذي مضى يتبين أن السبب في حدوث الشرك هو الغلو في المخلوقات،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٧).

والذي من أبرز أسبابه الغلو في الصالحين، والذي من آثاره البناء على القبور وتشييدها، واتخاذها مساجد، وفعل التصاوير وتعظيمها[1]، وأن مبدأ ذلك كان في قوم نوح ﷺ، ثم سرت تلك الطريقة السيئة في سائر الأمم التي وقع منها الشرك على اختلافه وتنوعه، وأن طلب شفاعة هؤلاء المتخذين من دون الله أولياء وتقريبهم إلى الله هي الشبهة التي رددها أولئك على اختلاف الأزمنة لتبرير شركهم.

*****

(١) وقد سبق ذكر الأحاديث التي تنهى عن البناء على القبور واتخاذها مساجد، وكذا النهي عن التصوير.

الفصل الثاني

أنواع الشِّرك

وفيه تمهيد ومبحثان

تمهيد

المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد

المبحث الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد

تمهيد

ذكر المالكية أن الشرك ينقسم إلى قسمين جامعين، ينضوي تحت كل قسم مسائل عديدة.

وحكموا على القسم الأول بأنه الشرك الأكبر المخرج عن الإسلام، والثاني هو الشرك الأصغر، وهو الذي لا يخرج فاعله من الإسلام[(١)].

---

(١) ومن بيانهم لهذين القسمين ذكر ابن بطال «أن الرياء ينقسم إلى قسمين، فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، وإن كان الرياء لمن سلم من عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان، إلّا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حمد المخلوقين مع حمد ربه، فخرج ثواب عمله ذلك». شرح صحيح البخاري (١/ ١١٣).
فذكر القسم الأول الذي ينقل عن الملة، وهو الأكبر، إذا اعتقد مستحقا للعبادة مع الله.
والثاني: من سلم له عقد الإيمان، ولكن راءى في بعض أعماله حمد المخلوقين، وهو الأصغر.
وقال القرطبي ـ مبينًا أقسام الشرك ـ: «أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية... ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل...». ثم قال: «... ويلي هذا في الرتبة الإشراك في العبادة، وهو الرياء». انظر المفهم (٦/ ٦١٥).

وفي موضع آخر قال: «المخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتي له إلّا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى وابتغاء ما عنده، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أعراض الدنيا فلا يكون عبادةً، بل يكون مصيبة موبقة لصاحبها، فإما كفر ـ وهو الشرك الأكبر ـ، وإما رياء ـ وهو الشرك الأصغر ـ». المفهم (٣/ ٧٤٢).

=

وقد جاء تحذيرهم من الشرك كبيره وصغيره، إذ إنّ من وقع في الشرك ـ وإن كان صغيرًا ـ يخشى عليه أن يجره ذلك إلى الوقوع في الشرك الأكبر، بحسب ما يصاحبه من الاعتقاد، كما أن المعاصي بريد الكفر، وسوف يكون الحديث على ذكر نماذج مهمة من أنواع الشرك الأصغر والأكبر؛ لتفشيهما في الناس، مما جعل أئمة المالكية يتكلمون عنهما بذكر حقيقتيهما، ومحذرين من خطورتهما.

وسيكون ذلك كله في مبحثين:

الأول: الشرك المنافي للتوحيد.

الثاني: الشرك المنافي لكمال التوحيد.

= ونقل قول القرطبي أبو العباس هذا القرطبي أبو عبدالله في بيانه أقسام الشرك. انظر تفسير القرطبي (٥/ ١٨١).

وصرح بهذين القسمين أيضًا ابن جزي، حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾: «أي: لا أريد بأعمالي غير الله، فيكون نفيًا للشرك الأصغر، وهو الرياء، ويحتمل أن يريد: لا أعبد غير الله، فيكون نفيًا للشرك الأكبر». التسهيل (٢/ ٥٠).

وقال الميلي: «الشرك العظيم: هو إثبات شريك لله تعالى... والشرك الأصغر: هو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور». رسالة الشرك (٦٣).

وأشار محمّد الأمين إلى القسمين عند قوله تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾، فقال: «والتحقيق أن قوله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا (أعم من الرياء وغيره، أي: لا يعبد ربه رياءً وسمعةً، ولا يصرف شيئًا من حقوق خالقه لأحد من خلقه». أضواء البيان (٤/ ١٩٩).

وفي موضع آخر بين الشرك الأعظم الذي يقع فيه من هم أسوأ حالًا من عبدة الأثان. انظر أضواء البيان (٣/ ٦١٤، ٧/ ٦٢٣ـ٦٢٤).

المبحث الأول

الشِّرك المنافي للتوحيد

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : شرك الدعاء .

المسألة الثانية : شرك الطاعة .

المسألة الثالثة : شرك السجود .

المسألة الرابعة : شرك الطواف .

المسألة الخامسة : شرك النذر .

المسألة السادسة : شرك السحر .

المسألة السابعة : شرك الرقى والتمائم .

المسألة الأولى: شرك الدعاء

تقدم في بيان أنواع العبادة الحديث عن الدعاء بوصفه عبادةً جليلةً، والعبادة حق لله تعالى وحده، وعلى هذا فإنّ من دعا غير الله تعالى فقد أتى أمرًا خطيرًا ينقض إيمانه وتوحيده(١)، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقد عني المالكية ببيان هذا النوع من الشرك، وحذروا منه.

[١] ومن ذلك ما خرجه الإمام مالك في موطئه تحت «باب العمل في الدعاء» عن عبدالله بن دينار قال: «رآني عبدالله بن عمر وأنا أدعو وأشير بأصبعين، أصبع من كل يد، فنهاني»(٢).

[٢] قال ابن عبدالبر: «هذا مأخوذ من فعل النبي ﷺ، إذ مرّ بسعد وهو يدعو في صلاته ويشير بأصبعيه جميعًا، فنهاه عن ذلك وقال: «أحِّد أحِّد»(٣)(٤).

---

(١) وقد جاء في القرآن الكريم البيان والعناية بموضوع شرك العبادة، وهو دعاء غير الله تعالى، وذلك لأنه أعظم مسألة خالف فيها رسول الله (المشركين، فإنهم كانوا يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون بذلك شفاعتهم ووساطتهم، كما قال تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾. ولأنه أصل شرك العالم، إذ إن طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم هو الذي وقعت به الفتنة منذ زمن قديم وحصل به الشرك.

(٢) خرجه مالك في الموطأ، باب العمل في الدعاء (١/ ١٨٩).

(٣) خرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٢٠)، وأبو داود (١٤٩٩)، والنسائي (٣/ ٣٨)، والحاكم (١/ ٥٣٦) وصححه. قال الأرنؤوط: حديث صحيح. المسند (٢/ ٢٤٠).

(٤) الاستذكار (٨/ ١٦٧).

[٣] وهو ما أوضحه الباجي عند شرحه لهذا الأثر بقوله: «إنما نهاه أن يشير بأصبعين لأن الدعاء إنما يجب أن يكون إما باليدين وبسطهما على معنى التضرع والرغبة، وإما بالإشارة بالواحدة على معنى التوحيد»(١).

[٤] ونقله الزرقاني مقرًّا له(٢).

[٥] وقد ذكر ابن العربي «أن معنى الإشارة بالإصبع في الصلاة والحكمة فيه أن يستعمل في التوحيد قلبه اعتقادًا، ولسانه قوله، ويده عملًا حتى يكون الاستيفاء على العموم»(٣).

[٦] ومما يؤكد هذا المعنى عن مالك أن القرطبي بعد إيراده قول النبي ﷺ للمشركين عند تلبيتهم بالتوحيد «قدِ قدِ»(٤) قال: «أي: حسبكم التوحيد ينهاهم عن الشرك»(٥).

[٧] ولذا فقد كره الإمام مالك أن يقول الرجل في دعائه: يا سيدي، وقال: «أحبّ إليّ أن يدعو بما في القرآن، ولما دعت به الأنبياء: يا رب»، وكره الدعاء بيا حنّان(٦).

فإذا كان الإمام مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لم يكن مشروعًا عنده، فكيف إذًا بمن يدعو غير الله ﷻ؟!!

---

(١) المنتقى (١/ ٣٦٠).

(٢) شرح الزرقاني (٢/ ٤٣).

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٤) خرجه مسلم في كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (٢/ ٨٤٣) برقم (١١٨٥).

(٥) المفهم (٣/ ٢٦٩).

(٦) البيان والتحصيل (١/ ٤٥٦).

[٨] وبين الإمام مالك ـ كغيره من الأئمة ـ ما يشرع عند زيارة قبر النبي ﷺ فقال: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ويمضي»(١).

قال: «وقال نافع: كان ابن عمر يسلم على القبر، ورأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ثم ينصرف»(٢).

فجعل الإمام مالك الدعاء عند القبر لا مبرر له، إذ هو خالص حق الله، إلّا إذا كان للميت بأن يدعو له، كما جاء في الرواية الأخرى عنه(٣)، وما سوى ذلك فإنه قد يفضي إلى دعاء الرسول ﷺ وطلب الحوائج منه، وطلب شفاعته عند قبره؛ وهذا ما لم يفعله أحد من السلف.

[٩] وعلى هذا؛ فإنه مع تعظيم الإمام مالك رحمه الله للنبي ﷺ بعد موته ونهيه عن رفع الصوت عند قبره، إلّا أنه كره أن يقول الرجل: زرت قبر النبي ﷺ، واستعظمه(٤).

[١٠] ومن هنا فإن القاضي عياضًا اختار ما يوافق هذا المعنى في بيانه مقالة الإمام مالك، فقال: «والأولى عندي: أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ، وأنه لو قال: زرت النبي، لم يكرهه؛ لقوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري**

---

(١) الشفا (٢/ ٦٧١).

(٢) خرجه الإمام مالك في كتاب قصر الصلاة في السفر، باب ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ (١/ ١٥٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٤١) في كتاب الجنائز. وأورده ابن بطة في الإبانة بإسناد صحيح. انظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٣).

(٣) انظر الشفا (٢/ ٦٧٢).

(٤) المدونه (١/ ٣٧٠).

وثنًا يُعبد بعدي، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر، والتشبه بفعل أولئك قطعًا للذريعة وحسمًا للباب، والله أعلم»(١).

وذلك لأن لفظ «الزيارة» مجمل يدخل فيه الزيارة الشرعية التي يقصد بها السلام على أهل القبور والدعاء لهم، والزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك، كزيارة المشركين وأهل البدع، ودعاء الموتى، وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاد أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد، ولهذا فقد عدل الإمام مالك إلى لفظ لا لبس فيه، كلفظ السلام عليه(٢).

---

(١) الشفا (٢/ ٦٦٩).

(٢) وبهذا يعلم بطلان قول من جوز على الإمام مالك دعاء الرسول ﷺ أو غيره بعد موته، وغاية ما يستندون إليه في ذلك قصة الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور، كما رواها القاضي عياض بسنده عن محمّد بن حميد الرازي أنه قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدّب قومًا فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾، ومدح قومًا فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾، وذم قومًا فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾، وإنّ حرمته ميتًا كحرمته حيًّا. فاستكان لها أبو جعفر، فقال: يا أبا عبدالله! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله. قال تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا﴾. انظر الشفا (٢/ ٥٩٥ـ٥٩٦)، وترتيب المدارك (٢/ ١٠١).

وهذه الحكاية باطلة من وجوه:

أولًا: بطلان هذه الرواية سندًا:

١ـ لأن الراوي عن مالك هو محمّد بن حميد الرازي، لم يلق مالكًا، فضلًا عن أنه لم يسمع =

ولما كان دعاء غير الله ﷻ من الشرك الأكبر الذي لا يتصور وقوعه من مسلم،

= منه ولم يعرف أنه من تلاميذه، وعلى هذا فالحكاية فيها انقطاع. وذلك لأن مولده ـ كما قال الذهبي ـ في حدود الستين ومائة، وتوفي مالك ١٧٩هـ، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلّا وهو كبير مع أبيه. السير (١١/ ٥٠٣).

٢ـ ضعف محمّد بن حميد الرازي الذي روى عن مالك هذه الحكاية، بل إن بعض العلماء كذبه، وإذا كان كذلك فيعتبر هذا القول كذبًا على مالك.

قال البخاري: في حديثه نظر. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال صالح بن محمّد: كل شيء يحدثنا ابن حميد كنا نتهمه فيه. وقال أبو زرعة: صح عندنا أنه يكذب. قال فضلك الرازي: عندي عن ابن حميد خمسون ألف حديث ولا أحدث عنه بحرف.

الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢)، ميزان الاعتدال (٣/ ٥٣٠)، تاريخ بغداد (٢/ ٢٦٢ـ٢٦٣).

٣ـ إن في إسناد القاضي من لا تعرف حاله، أي أنهم مجاهيل.

٤ـ انفراد محمّد بن حميد الرازي بهذه الرواية عن بقية أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكايةً لا تعرف إلّا من جهته؟!

وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول في مسألة في الفقه، بل إذا روى عنه الشاميون ضعفوا روايتهم، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه كثيرة رواها واحد من الخراسانيين، وهو ضعيف عند أهل الحديث.

ثانيًا: هذه الرواية تناقض مذهب الإمام مالك المشهور عنه وعن غيره من السلف في صفة السلام على رسول الله ﷺ: أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له. فمن تأمل ما جاء عن مالك يعرف أنه يمنع الوقوف عند القبر للدعاء مطلقًا. منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة (٣٣٠).

ثالثًا: أن الإمام مالكًا من أعلم الناس بهذه الأمور، فإنه مقيم بالمدينة يرى ما يفعله التابعون وتابعوهم ويسمع ما ينقلونه على الصحابة وأكابر التابعين، وهو ينهى عن الوقوف عند القبر =

فإن بعض المتقدمين من المالكية حذروا منه، وبينوا خطورته في سياق الرد على المبتدعة بأنه يلزم من قولهم دعاء غير الله ﷻ، وهو من أبين الأدلة على تهافت أقوالهم المؤدية إلى الشرك.

وذلك ما أوضحه ابن عبدالبر عند رده على الجهمية الذين زعموا أن كلام الله تعالى مخلوق، حيث ذكر حديث: «من نزل منزلًا فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لن يضره شيء حتى يرحل»(١).

[١١] ثم قال ابن عبدالبر: «وفي الاستعاذة بكلمات الله أبين دليل على أن كلام الله فيه تبارك اسمه من صفاته ليس بمخلوق؛ لأنه محال أن يستعاذ بمخلوق، وعلى هذا جماعة أهل السنة والحمد لله»(٢).

= للدعاء، ويذكر أنه لم يفعله السلف، فكيف يخالفه كما في هذه القصة؟! انظر الشفا (٢/ ٨٧ـ٨٨).

رابعًا: أن الإمام مالكًا كان من أبعد الناس عن البدع، وقد كره قول الرجل: زرت قبر النبي واستعظمه، وقد سبق، فكيف يستدل هنا بالآية: ﴿ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم...﴾؟ فهذا تناقض ظاهر، بل إنه كره حتى زيارة قباء مع وروده، خشية الزيادة على العبادة المشروعة، فكيف يأمر بما لم يثبت بالسنة من الدعاء عند القبر؟!

خامسًا: لو صحت هذه الحكاية فيحتمل أن يكون مالك نهى عن رفع الصوت في مسجده ﷺ، ويكون مالك آمرًا بما أمر الله به من توقيره وتعزيره ﷺ؛ لكن وقع تحريف في ألفاظ الحكاية.

فعلى فرض صحتها ليس معنى التوسل الذي في الحكاية هو التوسل في الدنيا، بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، ولكن من الناس من يحرف نقلها مع أن أصلها ضعيف.

(١) خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٤/ ٢٠٨٠) برقم (٢٧٠٨).

(٢) فتح البر (٢/ ٦١).

[١٢] وقد بين القرطبي أبو العباس معنى الكلمات التامات في هذا الحديث بقوله: «هي الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه الكافية الشافية، وقيل: الكلمات هنا هي القرآن. . . وعلى هذا فحق المتعوذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه. فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه»(١).

فقصر الاستعاذة هنا على كلمات الله تعالى دون غيره، وذلك أن الاستعاذة نوع من الدعاء الذي هو العبادة، فمن صرفه لغير الله تعالى فقد أشرك.

[١٣] وعلى هذا فقد بين القرطبي أبو عبدالله ـ عند قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] ـ ما ورد من الآثار وأنها نزلت في تعوذ أهل الجاهلية بالجن(٢). . . ثم قال: «ولا خفاء أنّ الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك».

فحكم على من استعاذ بغير الله بالشرك؛ لأنه دعا غير الله ﷻ.

[١٤] ولهذا قال الميلي: «فإذا كان الدعاء عبادةً وجب أن يختص بالله، وأن يحترز فيه من الوقوع في الشرك أو فيما هو ذريعة إليه»(٣).

---

(١) المفهم (٧/ ٣٦).

(٢) ومن ذلك أورد قصةً فيها أن ذئبًا عدا على غنم، فحمل حملًا من الغنم، فقال الراعي: يا عامر الوادي! أنا جارك. فنادى منادٍ: يا سرحان! أرسله. فأتى الحمل يشتدّ، وأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا﴾. انظر تفسير القرطبي (١٩/ ٩).

(٣) رسالة الشرك للميلي (١٩٢).

[١٥] وإذا ما دعي غير الله ﷻ «فهو شرك صريح وكفر قبيح»[(١)].

من هنا فقد أبطل الطرطوشي كل ما يدعى من دون الله من سائر المخلوقات، إذ هي عاجزة على أن تنفع أو تضر، ويقوم بها ما يقوم بغيرها من الذلة والحاجة والضعف، فكيف تسأل ما لا تقدر عليه؟! وهو حقيقة الشرك.

[١٦] فقد أورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ . . .﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ثم قال: «فجمع الله ﷻ بين الأصنام وبين آدم في اسم العبودية، فدلت الآية على أن من دخل تحت العبودية لا يضر ولا ينفع، ولا يستأهل كل ذلك التعظيم، بل هو خلق محتاج قد لحقه ذل التكوين، مفتقر إلى ما يفتقر إليه من دعاه»[(٢)].

[١٧] ونظير قول الطرطوشي قول محمّد الأمين، حيث ذكر عند قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ . . .﴾ [يونس: ٣٤]: «ألقم الله تعالى المشركين في هذه الآيات حجرًا بأن الشركاء الذين تعبدونهم من دونه لا قدرة لهم على فعل شيء، وأنه وحده جل وعلا الذي يبدأ الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى، وأنه يهدي من يشاء . . .»[(٣)].

وذكر عند قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾ [الأحقاف: ٤] قوله: «ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه لا تقدر أن تكشف ضرًا أراد الله به أحدًا، أو تمسك رحمةً أراد بها أحدًا، جاء موضحًا في آيات كثيرة،

---

(١) نفس المرجع (١٩٧).

(٢) الدعاء المأثور (٣١ـ٣٢).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٤٨٢).

كقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾» [الشعراء: ٧٢ـ٧٣].

والمعنى: أن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يقدرون على فعل شيء من جلب نفع أو دفع ضر، وإنما ذلك لله وحده، فمن سألها أو طلبها من غيره تعالى فلن يتحقق له سؤله مع ما في ذلك من الشرك الأكبر.

[١٨] ولذا أوضح محمّد المكي ما يندرج تحت وصف المشرك بقوله: «كل من نسب الضر والنفع والعطاء والمنع إلى غير الله، وكل من علق أمله ورجاءه على المخلوق لا على الخالق»[١].

[١٩] وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١] بقوله: «... أن ما يدعونه ويعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع، وأن التعلق بغير الله محض ضلال وخبال»[٢].

وعلى هذا فإن هذا الفعل القبيح ـ الذي هو الشرك بدعاء غير الله تعالى ـ لو وقع من أكرم الخلق فإنه متوعَّد، فكيف بمن دونه؟!

[٢٠] وهو ما نبه عليه ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] فقال: «والمقصود من هذا الغرض تنبيه الناس على فظاعة هذا الفعل، حتى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]»[٣].

---

(١) التيسير (٣/ ٢١٢).

(٢) التيسير (٥/ ٤٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٥).

[٢١] وعند هذه الآية نفسها ذكر ابن عطية أيضًا أن «هذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا، فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره»[(١)].

[٢٢] ونقل الميلي ما ذكره القرافي عن مالك وجماعة من العلماء كراهة الانتصاب[(٢)] للدعاء من أئمة المساجد وغيرهم، وعلل الكراهة بتوقع فساد القلوب وحصول الكبر والخيلاء، ومعلوم أنه إذا تحقق ذلك المتوقع كان الانتصاب محرمًا، وقد يفضي المنتصب أو غيره إلى الشرك باعتقاد أنه واسطة بين الخلق والحق في قضاء الحاجات واستدرار الخيرات[(٣)].

ومراده أن ما وقع منهم من اتخاذ وسائط بينهم وبين الله قد يفضي إلى دعائهم من دون الله أو مع الله، وهو الشرك الأكبر.

ومما تقدم يعلم أن المالكية قد حذروا من هذا الشرك، وذلك لقبحه وشناعته، وما يحصل بسببه من الظلم العظيم والجرم الكبير، من دعاء غير الله ﷻ، ورفعه في مقام لا يليق إلّا بالله تعالى، ومن ثم طلب النفع ودفع الضر منه، وهو الشرك بعينه عياذًا بالله.

******

---

(١) المحرر (٧/ ٢٢٩).

(٢) بين الميلي معنى الانتصاب بقوله: «قد وجد في عصرنا من الطرقيين والمرابطين من ينتصب للدعاء ويصرح بكونه واسطة بين الله وخلقه في جلب المحبوب ودفع المكروه». انظر رسالة الشرك (١٩١).

(٣) انظر: رسالة الشرك (١٩١)، والفروق (٤/ ٣٠٠). ط. عالم الكتب.

المسألة الثانية: شرك الطاعة

لا شك أن الغاية التي خلق الله لأجلها الخلق طاعته تعالى، فإذا ما أقدم العبد على طاعة مخلوق في معصية الله تعالى فقد ولج في الشرك[١]، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله! لسنا نعبدهم. قال: «**أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرّمونه؟**». قال: بلى. قال النبي ﷺ: «فتلك عبادتهم»[٢].

وقد فسّر النبي ﷺ فيه اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بأنه ليس معناه عبادتهم، وإنما معناه طاعتهم في تغيير أحكام الله وتبديل شريعته، وتلك عبادتهم من دون الله، وهو من الشرك الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد بين أئمة المالكية هذا المعنى، ودارت عبارتهم حوله.

---

(١) وهذا يبيّنه ما بعده كما في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) خرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير (٦/ ٣٥٤)، والبيهقي (١٠/ ١١٦) عن عدي بن حاتم. قال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلّا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث». والحديث حسنه الألباني. انظر صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٤٧).

[١] وفي ذلك يقول محمّد الأمين ـ مصرّحًا بهذا النوع من الشرك ـ عند قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]:

«ومعنى عبادته للشيطان في قوله: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي، فذلك الشرك شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]»[١].

[٢] وفسر ابن عطية قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ...﴾ [سبأ: ٤١] بقوله: «عبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن: طاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم، فهذا نوع من العبادة»[٢].

[٣] وعلى هذا بين معنى عبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] فقال: «وعبادة الشيطان: طاعته والانقياد لأعوانه»[٣].

ومراده أنهم أشركوا في طاعة الله تعالى غيره، وبذلك عبدوهم.

[٤] يبين هذا المعنى ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] بقوله: «ثم نهى الله تعالى عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بالمشرك»[٤].

والمعنى أن المشركين أطاعوا الشياطين فيما يوحونه إليهم ويأمرونهم به من

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٨٦).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ١٩٨).

(٣) المحرر الوجيز (١٢/ ٣١٥).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٣٣٥).

الشرك بالله تعالى، وهكذا إذا فعل فعلهم أهل الإيمان وتشبهوا بهم فإنهم يشركون بالله تعالى.

[٥] ولذا قال ابن عاشور عند هذه الآية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾: «. . . وتأكيد الخبر بأن لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشياطين، وإن لم يدعوا لله شركاء»[(١)].

[٦] وعند قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عطية: «سماهم أربابًا وهم لا يعبدونهم، ولكن حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أمر لا يتلقى إلّا من جهة الله ﷻ». ثم ذكر قصة عدي بن حاتم، ثم قال ـ مؤكدًا خطورة هذا العمل ـ: «والغير يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأرباب ضرب من الإشراك»[(٢)].

[٧] وهو ما أشار إليه ابن العربي عند هذه الآية: ﴿. . اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾ وذلك بإيراده ما رواه الترمذي وغيره عن عدي ابن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**ما هذا يا عدي؟ اطرح عنك هذا الوثن**». وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه. ثم قال:

«وفيه دليل على أن التحريم والتحليل لله وحده، وهذا مثل قوله: ﴿ولا

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٤٢).

(٢) المحرر الوجيز (٦/ ٤٦٨).

يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾، بل يجعلون التحريم لغيره»[١].

[٨] وأورد الشاطبي حديث عدي بن حاتم وقول حذيفة: «أما إنهم لم يصلوا لهم، ولكنهم كانوا ما أحلوا لهم من حرام استحلوه، وما حرموا عليهم من حلال حرموه، فتلك ربوبيتهم»[٢]؛ مما يبين أن طاعة أولئك عبادة لهم وشرك بالله تعالى.

[٩] وهذا المعنى ذكره القرطبي عند تفسيره للآية نفسها: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا..﴾ بقوله: «قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء»[٣].

[١٠] وصرح بأن هذا الفعل شرك بالله ﷻ عند تفسيره قول الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فقال: «دلت الآية على أن من استحل شيئًا مما حرم الله تعالى صار به مشركًا، وقد حرم الله الميتة، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك»[٤].

وعند قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي ذكره الله تعالى في محاورته لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ﴾ قال القرطبي: «أي: لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئًا في معصية فقد عبده»[٥]. وذلك لأنه جعل لله شريكًا في طاعته.

[١١] وبين ابن جزي معنى اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بقوله:

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٤٨٥).

(٢) انظر الاعتصام (٢/ ٣٥٤).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٢٠).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ٧٧).

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ١١١).

«أي أطاعوهم كما يطاع الرب، وإن كانوا لم يعبدوهم»(١).

أي أنهم أطاعوهم في أمر التشريع الذي هو لله وحده، وبهذا أشركوا بتلك الطاعة.

[١٢] وذكر ابن عاشور أن هذا ما فعله اليهود والنصارى، حيث «كانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله..». ثم أورد قصة عدي ومراجعته للنبي ﷺ بقوله: لسنا نعبدهم، فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحرمون ما أحل الله فتستحلونه؟**». فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**». فحصل من مجموع أقوال اليهود والنصارى أنهم جعلوا لبعض أحبارهم ورهبانهم مرتبة الربوبية في اعتقادهم، فكانت الشناعة لازمة للأمتين»(٢).

أي أن هؤلاء لما تركوا شرع الله، واستبدلوا بذلك طاعة الأحبار والرهبان، كانوا بتلك الطاعة عابدين لهم من دون الله.

[١٣] ولهذا بيَّن محمّد المكي أن «السلطة الإلهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بتحليل ما هو حلال، وتحريم ما هو حرام، وأن القول الأول والأخير في هذا الشأن مرجعه إلى الله لا إلى هوى الإنسان ﴿ألا له الخلق والأمر﴾»(٣).

[١٤] وعليه؛ فقد نبه على أن الطاعة تكون لله وحده دون سواه، فعند قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١] قال: «أي أنت ربنا الذي نتولاه وحده بالعبادة، ونخلص له الطاعة، لا نتولى غيرك ولا نعبد

---

(١) التسهيل (٢/ ١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٠).

(٣) التيسير (٤/ ٣٦٤).

سواك»[١].

[١٥] ثم ذكر حال صنف من الناس يتسابقون «إلى الطاعة العمياء لمن يشركونهم بالله من السادة والكبراء، وإن كان في رضاهم سخط الله، وفي الاعتماد عليهم شرك بالله...». ثم أكد هذا المعنى بقوله: «وإلى هذا الموقف الذي يقفه ضعفاء الإيمان في وقفتهم الخاسرة ينظر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾ [الزمر: ٨]، بينما المتحررون من ربقة الشرك الظاهر والخفي، ومن كل عبودية لغير الله جاءتهم البشرى من الحق ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾»[٢].

وبهذا الذي سبق يتبين أن المالكية يرون أن الطاعة تكون لله وحده، ومن أطاع مخلوقًا في أمر التشريع فقد وقع في الشرك الأكبر، وذلك لأن الطاعة فيه لا تكون إلّا لله تعالى وحده.

*****

(١) التيسير (٥/ ٢٧٤).

(٢) التيسير (٥/ ٣٤٨).

المسألة الثالثة: شرك السُّجود

تقدم في الكلام على العبادة أنها حق الله تعالى وحده، ومن ذلك السجود، إذ هو من أعظم العبادات، فلا يكون العبد في حال أقرب ما يكون إلى الله كما في السجود، ولذا كان في التقرب إلى غير الله ﷻ بالسجود من الشرك ما ينتقض معه الإسلام ويزول به الإيمان.

[١] ولا غرو؛ «فإنّ السجود معارج القرب ومدارج رفعة الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ في الحديث الآخر: «**لا تسجد لله سجدةً إلّا رفعك الله بها درجة**»[١]. ولأنّ السجود غايته التواضع لله والعبودية له، وتمكين أعز عضو في الإنسان وأرفعه ـ وهو وجهه ـ من أدنى الأشياء وأخسها، وهو التراب والأرض المدوسة بالأرجل والنعال»[٢]؛ فلا يكون لغير الله ﷻ.

وحيث إن متقدمي المالكية كغيرهم من أهل العلم لم يكونوا يتصورون وقوع السجود لغير الله من مسلم، فقد كان حديثهم عن السجود هو حديث عن سجود المشركين[٣].

ومن هنا فقد اختار مالك أن لا يسجد أحد مطلقًا لله تعالى في وقت النهي، حتى وإن كان سجود تلاوة؛ خشية التشبه بالمشركين، وذلك من باب الحرص أن لا يقع السجود لغير الله.

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود (١/ ٣٥٣) برقم (٤٨٨).

(٢) من كلام القاضي عياض يصف فضل السجود. إكمال المعلم (٣/ ٤٠٣).

(٣) قال ابن عبدالبر: «وقالوا: أراد بذكره (قرن الشيطان أمة تعبد الشمس وتسجد لها وتصلي في حين طلوعها وغروبها من دون الله». التمهيد (٤/ ١١).

[٢] قال مالك: «لا ينبغي لأحد يقرأ من سجود القرآن شيئًا بعد صلاة الصبح ولا بعد صلاة العصر، وذلك أنّ رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وعن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، والسجدة من الصلاة فلا ينبغي لأحد أن يقرأ سجدة في تينك الساعتين»(١).

[٣] ونحو من قول مالك هذا قول الباجي، حيث ذكر عند هذا الأثر قوله: «وهذا يقتضي المنع من السجود في ذلك الوقت»(٢).

[٤] وكذا ابن عبدالبر حيث عقب على قول مالك بقوله: «قول صحيح، وحجة واضحة»(٣).

[٥] وكذلك ابن أبي زيد اختار قول مالك، فقال: «ويسجدها من قرأها بعد الصبح ما لم يسفر، وبعد العصر ما لم تصفرّ الشمس»(٤).

[٦] ونقل القاضي عياض الإجماع على أن السجود لغير الله تعالى لا يقع من مسلم، فقال: «وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر [إلّا](٥) من كافر، وإن كان صاحبه مصرحًا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل، كالسجود للصنم، وللشمس والقمر، والصليب والنار»(٦).

---

(١) الموطأ (١/ ١٨٢).

(٢) المنتقى (١/ ٢٥٢).

(٣) الاستذكار (٨/ ١٠٩).

(٤) الرسالة (٦٠).

(٥) ما بين المعكوفين غير موجود في النص، وهي زيادة يقتضيها السياق.

(٦) الشفا (٢/ ١٠٧٢).

[٧] ونقل هذا الإجماع أيضًا أبو بكر الباقلاني[١].

فنقلهم لهذا الإجماع يبين الوجهة السائدة عندهم من أن السجود لغير الله تعالى لا يتصور وقوعه من مسلم يؤمن بالله.

[٨] قال ابن عبدالبر ـ في شرح حديث: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ـ: «في هذا الحديث تحريم السجود على قبور الأنبياء، وفي معنى هذا أنه لا يحل السجود لغير الله ﷿. . .»[٢].

فنصَّ على منع السجود لغير الله ﷿.

[٩] بل إنه صرّح رحمه الله بأن السجود لغير الله تعالى هو الشرك الأكبر، فقال ـ في شرح حديث: «اللهُم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»[٣] ـ: «. . . وكان يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين يصلون إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلةً ومسجدًا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون لها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر. .»[٤].

[١٠] وقد قرر القرافي أن «الكفر هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية؛ بالجهل بوجوده أو صفاته، أو بفعلٍ كرمي المصحف في القاذورات والسجود للصنم»[٥].

[١١] وأبطل القرطبي أبو عبدالله ما يفعله بعض جهلة المتصوفة من السجود على أقدام مشايخهم، مبينًا سوء صنيعهم وقبح فعلهم، فبعد إيراده حديث معاذ الذي

---

(١) انظر الشفا (٢/ ١٠٨٠).

(٢) التمهيد (٦/ ٢٨٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٤٠٦.

(٤) التمهيد (٥/ ٤٥).

(٥) الذخيرة (١٢/ ٢٨).

رواه ابن ماجه في سننه عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذا؟!**». فقال: يا رسول الله! قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم[١] وأساقفتهم[٢]، فأردتُ أن أفعل ذلك بك. قال: «**فلا تفعلْ؛ فإني لو أمرتُ شيئًا أن يسجد لشيء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها...**»[٣] ـ قال القرطبي: «وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقبلة أم غيرها، جهالةً منه ضل سعيهم وخاب عملهم»[٤].

فحكم على عمل هؤلاء الذين سجدوا لغير الله تعالى بالخيبة والخسران وذلك بسبب ارتكاب الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

[١٢] وجعل هذا السجود للصنم هو أحد المعاني المرادة بشهادة المشركين على أنفسهم بالكفر في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ

---

(١) قال ابن الأثير: البطارقة جمع بطريق، وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو ذو منصب وتقدّم عندهم. النهاية (١/ ١٣٥).

(٢) الأسقف: هو القس، وهو رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم. وقس بن ساعدة الإيادي: أسقف نجران، وكان أحد حكماء العرب. انظر: الصحاح للجوهري (٣/ ٩٦٣).

(٣) خرجه ابن ماجه برقم (١٨٥٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٧ـ٣١١). وفي الباب عن أبي هريرة، وسراقة، وعائشة، وابن عباس، وطلق بن علي، وأم سلمة، وابن عمر، وأنس. وهو عند الترمذي (١١٥٩)، وابن حبان (٤١٦٢)، والبيهقي (٧/ ٢٩١)، ومسند أحمد (٣/ ١٥٩). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٥٩٣). وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره. المسند (٣/ ١٥٩).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٢٩٣).

﴿أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، فقال: «قال ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم لأصنامهم»[١].

[١٣] ونظيره أيضًا ما ذكره ابن عاشور عند نفس الآية بقوله: «وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية: «لبيك لا شريك لك، إلّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك». ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها»[٢].

فعدد مظاهر الشرك الذي ارتكبه هؤلاء، ومن ذلك السجود للأصنام. إذ السجود لا يكون إلّا لله تعالى وحده دون سواه.

[١٤] وهو ما أوضحه عند آية الأعراف ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] بقوله: «للدلالة على الاختصاص؛ أي: لا يسجدون لغيره»[٣]. إذ هو المستحق للسجود وحده دون سائر المخلوقات، إذ هي مربوبة مدبَّرة.

[١٥] وهو ما أشار إليه ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] بقوله: «لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم؛ لأن النفع بها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها، فهو الذي ينبغي أن يسجد له»[٤].

[١٦] ومن هنا بين ابن رشد أنه من لم يسجد لله وحده فقد تنكب الصراط، كحال

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٨٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٠).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٤).
(٤) المحرر الوجيز (١٣/ ١١٧).

المشركين الكفرة، فقال: «فإن استكبر الكفار عن السجود لله، فالذين عنده لا يستكبرون عن ذلك»[١].

[١٧] وذكر محمَّد الأمين هذا المعنى الذي ذكره ابن رشد عند قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾: «أي: فإن تكبر الكفار عن توحيد الله والسجود له وحده وإخلاص العبادة له، فالذين عند ربك ـ وهم الملائكة ـ يسبحون له بالليل، أي: يعبدونه وينزهونه دائمًا ليلًا ونهارًا، وهم لا يسأمون...»[٢].

[١٨] ونبه ابن العربي على أن السجود الذي وقع ليوسف سجود تحية لا سجود عبادة، مبيّنًا أن ذلك قد نسخ في شرعنا، فلم يبق إلّا السجود لله تعالى، فقال ـ فيما نقله عن العلماء عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا..﴾ [يوسف: ١٠٠] ـ: «كان هذا سجود تحية لا سجود عبادة، وهكذا كان سلامهم بالتكبير والانحناء، وقد نسخ في شرعنا ذلك[٣]»[٤].

---

(١) المقدمات الممهدات (١/ ١٩٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٣٨).

(٣) مجمل ما ذكره المفسرون من المالكية عن هذا السجود أنه سجود تحية لا عبادة. قال ابن عطية: «أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي هيئة كان فإنما كان تحية لا عبادة». التحرير (٨/ ٨٠). وانظر تفسير القرطبي (٩/ ٢٦٥). وبعضهم يذكر أنه انحناء الإجلال والتوقير لا السجود المعهود في عبادة الله. انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٧٧). وانظر التيسير (٣/ ٢٠٤).
وهذا السجود وإن كان يجوز في شرع من قبلنا إلّا أنه لا يجوز في شريعتنا، حتى وإن كان سجود تحية وإكرام، وأما سجود العبادة فإنه شرك في كل الشرائع السماوية؛ لأنه حق خالص لله تعالى وحده.

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٧٧).

[١٩] وصرح بأن أول ما عبدت الشمس كان بالسجود لها، فقد ذكر «أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقًا وغربًا، سهلًا وجبلًا، وقتل وأسر، وبه سمي سبأ، ودان له الخلق، فلما قال ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام، ثم خرج عليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت. فسجدوا لها، فكان ذلك أول عبادة الشمس، فهذه عاقبة الكبر والخيلاء والمرح»(١).

[٢٠] وقد أوضح محمّد المكي أن السجود والعبادة لا تكون إلّا لله وحده، فعند قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] قال ـ حكاية عن الهدهد ـ: «. . ثم عقب على ذلك مستنكرًا ما وجد عليه أهل سبأ من عبادة الشمس والسجود لها، بدلًا من عبادة الله والسجود له»(٢).

والمعنى أن من سجد لشيء فقد اتخذ لله شريكًا في عبادته، إذ إن العبادة والسجود حق الله وحده.

[٢١] لذا فقد بين عليش أن الرِّدَّة كما تقع بالقول فهي تقع أيضًا بالفعل، «كلبس الزنار(٣)، وإلقاء المصحف في صريح النجاسة، والسجود للصنم، ونحو ذلك»(٤).

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٢٠٣).

(٢) التيسير (٤/ ٤٢٤).

(٣) قال في القاموس: زنره: ملأه، والرجل: ألبسه الزنّار، وهو على ما وسط النصارى والمجوس كالزناره والزنانير كقبيط من تزنر الشيء: دقّ. انظر: ترتيب القاموس المحيط (٢/ ٤٨٢).

(٤) منح الجليل (٩/ ٢٠٦). وهذه الأفعال لا شك أنها من الردة والعياذ بالله، ولكن يستثنى من لبس الزنّار جاهلًا فإنه لا يكفر بذلك، والله أعلم.

[٢٢ ـ ٢٣] وقد قال بذلك الحطاب[(١)]، والأزهري[(٢)].

فعدّوا السجود للصنم ردّةً عن الإسلام، وذلك أن السجود لله تعالى له مكانة عظيمة، ومنـزلة رفيعة، ومن ثم فصرفه لغير الله تعالى شرك لا شكّ فيه[(٣)].

وبهذا الذي سبق يتضح جهود المالكية في بيان هذا النوع من الشرك، إذ إنّ نصوصهم ظاهرة في بيان هذا المعنى والتحذير منه، كما في ذكرهم بعض الأفعال التي تقع بها الرِّدَّة، ومنها السجود لغير الله تعالى، والله أعلم.

*****

(١) انظر مواهب الجليل (٨/ ٣٧١).

(٢) انظر جواهر الإكليل (٢/ ٢٧٨).

(٣) وقد جعل بعض المالكية الامتناع عن السجود ـ الذي هو من أعمال الصلاة ـ ردّةً، وبعضهم حكم بقتل من امتنع عن ذلك. قال النفراوي: «من ترك الصلاة المفروضة جحدًا لها أو لشيء من أركانها ـ كركوعها أو سجودها أو نحوهما ـ فهو كالمرتد». الفواكه الدواني (٢/ ٢٧٦).
وقال العدوي: «حكم من قال: لا أتوضأ ولا أغتسل من جنابة، أو لا أستر عورتي في الصلاة، أو لا أركع لها، أو لا أسجد كسلًا حكم تاركها... وحينئذ يُقتل». حاشية العدوي (٢/ ٤١١).

المسألة الرابعة: شرك الذبح

لما كان الذبح عبادةً عظيمةً يتقرب بها إلى الله جلّ وعلا، فإنّ من ذبح لغير الله ﷻ فقد أشرك في تلك العبادة الشرك الأكبر المخرج عن الملة، كما قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وقد بيّن أئمة المالكية هذا المعنى، وإن كان المتقدمون منهم لم يكن هذا المظهر الشركي موجودًا في زمنهم، إلّا أنهم حذّروا منه خشية وقوعه مستقبلًا، كما سلف ذكره.

[١] ومن ذلك أنّ الإمام مالكًا رحمه الله امتنع أن يذكر اسم النبي ﷺ عند الذبح[1]؛ مبيّنًا «أنّ تلك الذبيحة التي يصلى على النبي ﷺ عندها مما أهلّ به لغير الله»[2].

[٢] وهذا المعنى هو الذي أراده ابن القاسم بقوله: «وذلك موضع لا يذكر هنا إلا اسم الله وحده»[3].

[٣] ونقل القاضي عياض على سبيل الإقرار ما ذكره أصبغ عن ابن القاسم قال: «موطنان لا يذكر فيهما إلّا الله: الذبيحة والعطاس، فلا تقل بعد ذكر الله: محمّد

(١) انظر الأم للشافعي (٢/ ٢٤٠).

(٢) انظر الحاوي للماوردي (١٥/ ٩٦).

(٣) المدونة (٢/ ٦٦).

رسول الله»[١].

[٤] وأكّد القرطبي هذا المعنى فيما نقله عن علماء المالكية وغيرهم بقوله: «وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح، وقالوا: لا يذكر هنا إلّا الله وحده»[٢].

[٥] وبنحوه ما ذكره القرافي، فقد ذكر ما يفعله الذابح من التسمية والتكبير، ثم قال: «وليس موضع الصلاة على النبي ﷺ»[٣].

فالذي جعلهم يكرهون الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح خشية التشريك في هذه العبادة العظيمة، وحرصهم على أن تكون خالصة لله تعالى، مع أنّ الصلاة على النبي ﷺ عبادة وقربة، إلّا أنه لما خيف الالتباس في الإهلال منعوا من الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع.

[٦] ومن هنا فقد جعل الإمام مالك المهل لغير الله هو الذابح للأنصاب ونحوها، وعدّه فسقًا، فلا يذبح إلّا لله وحده، فقال: «قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]... والفسوق الذبح للأنصاب، والله أعلم، قال تبارك وتعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]»[٤].

[٧] قال ابن بطال ـ في معنى التكبير ـ: «لأنه تصل الذبائح لله تعالى حتى لا يذكر في أيام الذبح غيره، ومعنى اشتراط التسمية على الذبح لئلا يذكر غيره ويعلن

(١) الصلاة على النبي ﷺ ومعانيها وأحكامها وفضائلها للقاضي عياض (٣٠). ط. المختار الإسلامي ـ مصر.
(٢) المفهم (٥/ ٣٦٣).
(٣) الذخيرة (٤/ ١٣٥).
(٤) الموطأ (١/ ٣٨٩).

بذكره حتى تنسى عبادة الجاهلية»[١].

فبين أن ذكر غير اسم الله تعالى على الذبيحة هو من عبادة الجاهلية الذين أشركوا بالله تعالى، وأهل الإسلام على الضد من ذلك، فلا يذبحون إلّا لله تعالى وحده وعلى اسمه.

[٨] وبين محمّد الأمين أن من ذبح لغير الله كائنًا من كان فقد جعله معبودًا له من دون الله، فقال: «... فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله فقد جعله شريكًا مع الله في هذه العبادة التي هي الذبح، سواء كان نبيًا أو ملكًا أو بناءً أو شجرًا أو حجرًا، أو غير ذلك، لا فرق في ذلك بين صالح أو طالح، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]»[٢].

[٩] ومن عنايته بهذه العبادة العظيمة أن تصرف لغير الله تعالى فقد ردّ قول من فرق بين ما ذبحه أهل الكتاب لصنم، وبين ما ذبحوه لعيسى أو واحد من الملائكة، حيث جعلوا الأول محرّمًا والآخر مكروهًا، فقال: «إن هذا الفرق باطل بشهادة القرآن؛ لأن الذبح على وجه القربة عبادة بالإجماع، وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٦٢]».

ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣]، فقال: «وقوله: ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيه الملك والنبي، كما يدخل فيه الصنم والنصب والشيطان، وقد

---

(١) شرح البخاري (٢/ ٥٦٤).

(٢) دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان (١٠/ ١٠٤).

وافقونا في منع ما ذبحوه باسم الصنم، وقد دلّ الدليل على أنه لا فرق في ذلك بين النبي والملك وبين الصنم والنصب، فلزمهم القول بالمنع، وأما استدلالهم بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] فلا دليل فيه؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ ليس بمخصص لقوله ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه ذكر فيه بعض ما دل عليه عموم ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾»(١).

[١٠] ولهذا فإن الإمام مالكًا رحمه الله منع من ذبائح أهل الكتاب المخصصة لعيدهم وأنصابهم، فعند قوله تعالى: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ [المائدة: ؟؟]قال مالك: «تؤكل ذبائحهم المطلقة، إلّا ما ذبحوا يوم عيدهم لأنصابهم»(٢).

[١١] ولما كان هذا الذبح منهم لغير الله شركًا، فإن مشاركتهم في ذلك إقرار لهم وتأييد على هذا الشرك، ولذا قال ابن حبيب: «في أكل ما ذبح لأعيادهم وكنائسهم تعظيم لشركهم»(٣).

فمنع من الأكل مما ذبحوه لغير الله، وذلك ليعلموا سوء فعلهم وقبح صنيعهم بهذا الشرك.

[١٢] وأقر ابن عبدالبر مقالة مالك في ذلك فقال: «وكره مالك ما صنعه الكفار لأعيادهم من الطعام، وخشي أن يكون مما أهل به لغير الله»(٤).

---

(١) دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان (١/ ١٠٤ـ١٠٥).

(٢) الإمام مالك مفسّرًا (١٦٩)، وأحكام القرآن (٢/ ٥٥٤).

(٣) المنتقى (٣/ ١١٢).

(٤) الكافي (١/ ٣٧٨).

فلم ير الإمام مالك حل ذبائحهم، وذلك لأنها ذبحت لمعبوداتهم، ولا ريب أن هذا الفعل شرك بالله تعالى.

[١٣] ولأجل هذا فقد ذكر ابن رشد رواية ابن القاسم عن مالك كراهيته ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم وأعيادهم؛ لأنه رآه مضاهيًا لقول الله عز وجل: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ثم قال: «لأن الآية معناها عنده فيما ذبحوا لآلهتهم مما لا يأكلون»[١].

والمعنى أن ما ذبحوه إنما هو لمعبودهم وليس لله تعالى المستحق للعبادة وحده.

[١٤] وعند قول الله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ذكر ابن عطية أثرًا عن ابن عباس أن المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان، ثم قال: «ألا ترى أن علي بن أبي طالب راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق، فقال: إنها مما أهل به لغير الله، فتركها الناس... ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرسًا، فذبحت جزورًا، فقال الحسن: لا يحل أكلها؛ فإنها إنما ذبحت لصنم[٢]»[٣].

فأنكر أن يذبح لغير الله وجعله شركًا.

[١٥] وأوضح أن الذبح إنما يكون لله تعالى وحده، وعلى اسمه؛ لأنه المتفضّل بذلك، فذكر عند قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨] أن «معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، أن يكون الذبح لله؛ لأنه رازق ذلك...» إلى أن قال: «فالإله

---

(١) البيان والتحصيل (٣/ ٢٧٢). وانظر: المدونة (٢/ ٥٦)، والنوازل (٢/ ٣٢٣).

(٢) الأثر أورده القرطبي في التفسير (٢/ ٢٢٤).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٧٠).

واحد لجميعكم، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له»(١).

[١٦] ونقل قول ابن عطية السابق القرطبي على سبيل الإقرار(٢).

[١٧] ولما كانت تلك القرابين هي من خلق الله ﷻ، فإن التقرب بها إلى غيره شرك بالله تعالى، وهو ما بينه ابن العربي عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] بقوله: «أي: أظهر بالخلق والإيجاد من الحرث والأنعام نصيبًا، وجميعه له لا شريك معه في خلقه، فكيف فعلوا له شريكًا في القربان به من الأوثان التي نصبوها للعبادة معه...»(٣).

[١٨] وذكر وجهًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] نقله عن ثعلب بين فيه أن الذبح عبادة مختصة بالله تعالى وحده، فقال: «قال ثعلب:.. يقال للذبح نسك لأنه من جملة العبادات الخالصة لله؛ لأنه لا يذبح لغيره»(٤).

وبهذا يتبين أن الذبح لغير الله هو فعل المشركين، وأما أهل الإسلام فإنهم لا يذبحون إلّا لله.

[١٩] كما ذكر ذلك القرطبي عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾: «أي: ذكر عليه اسم غير الله، وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعطل، فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئًا فيذبح لنفسه، ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره والوثني لوثنه لا يؤكل...»(٥).

---

(١) المحرر الوجيز (١٠/ ٢٧٨).

(٢) انظر تفسير القرطبي (٢/ ٢٢٤).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٢٧٧).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٢٩٠).

(٥) تفسير القرطبي (٢/ ٢٢٣).

فجعل الذبح لغير الله تعالى صنيع أهل الشرك الذين يذبحون لمعبوداتهم، وعلى هذا فذبح المسلم إنما يكون لمعبوده، وهو الله وحده.

[٢٠] وقال القرطبي أبو العباس ـ مبيّنًا استحقاق اللعن لمن ذبح لغير الله تعالى، سواء وقع هذا الفعل من مسلم أو كافر ـ: «... وأما لعن من ذبح لغير الله فإن كان كافرًا يذبح للأصنام فلا خفاء بحاله، وهي التي أهل بها لغير الله، التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]... وأما إن كان مسلمًا فيتناوله عموم هذا اللعن، ثم لا تحل ذبيحته»[١].

فلم ير حلّ ذبيحة من أهل لغير الله تعالى؛ لما في هذا العمل من الشرك المحقق.

وحيث إنّ من ذبح لأحد فإنه إنما يتقرب إلى من ذبح له، فإن الذبح لغير الله تعالى محظور كل الحظر.

[٢١] ولهذا قال ابن جزي عن آية الحج: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج: ٣٤]: «... إشارة إلى الذبائح، أي: إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقربًا لغيره»[٢].

فخص الذبح على وجه التقرب لله تعالى، فلا يذبح لغيره كائنًا من كان[٣].

[٢٢] ولذلك فإن الشاطبي عدّ من الأعمال التي هي مغايرة لمقصد الشرع،

---

(١) المفهم (٥/ ٢٤٤_٢٤٥).

(٢) التسهيل (٣/ ٨٩).

(٣) فالذبح لا يجوز أن يكون إلّا لله تعالى، ولا معنى للتفريق بين من أراد بذبحه التقرب للمذبوح له أو غير ذلك، ما لم يكن لغرض مباح، كإكرام الضيف وطلب اللحم ونحوه، وعلى كل حال فالذبح عبادة تختص بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾.

وحكم ببطلانها: الذبح لغير الله، فهي كما يقول: «وما كان من شأنه هذا نقض لإبرام الشارع وهدم لما بناه»[١].

ومراده أن هذا العمل (الذبح لغير الله) من الشرك الذي يناقض الإسلام.

[٢٣] وعلى هذا ذكر عليش أن من شروط حل الذبيحة «أن لا يذبحه لمعبود غير الله تعالى»[٢].

فمن اتخذ معبودًا سوى الله ﷻ يذبح له فقد أشرك.

[٢٤] وبعد أن نقل الوزاني ما أورده النووي[٣] عن المروزي[٤]: ما يفعله بعض الناس من الذبح لغير الله تعالى كمن يذبح للسلطان تقرّبًا إليه.. قال: «ويشبه هذا الذبحُ للدار بعد الفراغ من بنائها وكمالها، فإن قصد به الجنون[٥] الساكنون[٦] بها، وتطييب خاطرهم فهو مما أهل به لغير الله، وإن قصد بها الفرح وشكر النعمة على

---

(١) الموافقات (٢/ ٦١٧).

(٢) منح الجليل (٢/ ٤١٢).

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري الحوراني الشافعي، محي الدين أبو زكريا، الحافظ المحدث الفقيه، له تصانيف، منها «شرح صحيح مسلم»، و«رياض الصالحين»، و«الأذكار»، و«الأربعين»، و«الإرشاد»، و«التبيان»، وغيرها. مات سنة ٦٧٦هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٠)، وطبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٣٩٥).

(٤) هو إبراهيم بن أحمد أبو إسحاق المروزي، أخذ الفقه عن ابن سريج، ومن تلامذته أبو زيد المروزي انتهت إليه الرئاسة بعد ابن سريج، ثم ارتحل إلى مصر، له من الكتب: مختصر المزني، مات سنة ٣٤٠هـ. انظر: العقد المذهب (٤٢)، مقدمة كتاب المجموع للنووي (١/ ١١٢).

(٥) هكذا في النص، ويعني «الجن».

(٦) والصواب: الساكنين.

اكتسابها والفراغ من بنائها فلا بأس به»[١].

ومراده أن من ذبح للسلطان تقرّبًا إليه فقد أشرك بالله، ومثله من يذبح للجن أو غيرهم؛ لأن الذبح عبادة لا يستحقها إلّا الله وحده.

[٢٥] وأوضح ابن عاشور أن سمة أهل الشرك ذكر اسم غير الله تعالى على ذبائحهم، فعند قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] نبه على أن ختم الآية بوصف الإيمان علامة تدل على إيمان من ذكر اسم الله عند ذبحه، ومن لم يفعل فقد وقع في الشرك، «حيث كان شعار أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح»[٢].

[٢٦] وحكم في موضع آخر على أن الذبح لغير الله كفر، فعند قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥] قال: «جملة ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة أو بيانًا لـ ﴿فسقًا﴾، وفي هذا تنبيه على أن تحريم ما أهل لغير الله به ليس لأن لحمه مضرّ، بل لأن ذلك كفر بالله»[٣].

وختامًا فهذا جزء مما ذكره المالكية حيال هذا النوع من العبادة، وهو الذبح، وفيما ذكروه ما يبرز الإخلاص في هذه العبادة العظيمة، وأن من صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك، سواء كان لطلب القربة من غير الله ﷻ أو لتسمية أحد سواه.

(١) النوازل (٢/ ٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٩).

المسألة الخامسة: شرك الطواف

تقدم أن المالكية ذكروا عند بيانهم الطواف العبادي أن هذه العبادة مختصة ببيت الله الحرام، فلا يشرع الطواف إلّا بالكعبة على وجه التذلّل والخضوع لله تعالى، الذي أمر عباده بذلك فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وعلى هذا فالطواف عبادة مخصوصة بمكان مخصوص لا يحل لأحد أن يصرفه لغير الله تعالى.

وقد ذكر بعض المالكية تفضيل البقعة التي تحوي قبر النبي ﷺ على سائر البقاع، ومن ذلك الكعبة التي هي محل الطواف.

[١] قال الإمام مالك رحمه الله: «من فضل المدينة على مكة إني لا أعلم بقعة فيها قبر نبي معروف غيرها»(١).

[٢] وقال القاضي عبدالوهاب بن نصر: «المدينة عند أصحابنا أفضل البقاع كلها»(٢).

[٣] وقال القاضي عياض: «اجتمعوا على أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض»(٣).

[٤ ـ ١٢] وقد قال بذلك أيضًا ابن أبي زيد القيرواني(٤)، وابن العربي(٥)، وأبو

(١) التمهيد (٢/ ٢٨٩).

(٢) المعونة (٢/ ٦٠٥).

(٣) إكمال المعلم (٤/ ٥١١).

(٤) انظر الرسالة (١٨٦).

(٥) القبس (٣/ ١٠٨٥).

العباس القرطبي[(١)]، وأبو الحسن المنوفي[(٢)]، والنفراوي[(٣)]، وخليل[(٤)]، والشاطبي[(٥)]، والجعلي[(٦)]، وابن الحاج[(٧)].

وقد تقدم أنهم يرون أن الطواف لا يحل في أي مكان سوى بيت الله تعالى[(٨)]، فهم مع تفضيلهم للمدينة على مكة[(٩)] إلّا أنهم جعلوا تلك العبادة تختص بالكعبة.

فإذا لم يشرع الطواف في مدينة النبي ﷺ التي هي من أفضل البقاع عندهم فإنّ

(١) المفهم (٣/ ٥٠٤).

(٢) حاشية العدوي (٢/ ٥٣٤).

(٣) الفواكه الدواني (٢/ ٣٦٥).

(٤) مختصر خليل (٩٠).

(٥) الاعتصام (٢/ ٥٣).

(٦) سراج السالك (٢/ ٢٣).

(٧) انظر المدخل (١/ ١٨٥).

(٨) انظر كلامهم في ذلك ص ٣٦٩ ـ ٣٧١.

(٩) قال ابن عبدالبر رحمه الله: «إنما يحتج بقبر رسول الله ﷺ وبفضائل المدينة، وبما جاء فيها عن النبي ﷺ وعن أصحابه على من أنكر فضلها وكرامتها، وأما من أقرّ بفضلها وعرف لها موضعها وأقر على أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها، فقد أنزلها منـزلتها وعرف لها حقها، واستعمل القول بما جاء عن النبي ﷺ في مكة وفيها، فإن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط، وإنما سبيلها التوقيف، فكل يقول بما بلغه وصح عنده غير حرج. والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر، وفيها بيت الله الذي رضي من عباده على الحط لأوزارهم بقصده مرة في العمر...» إلى قوله: «وإني لأعجب ممن يترك قول رسول الله ﷺ إذ وقف بمكة على الحزورة ـ وقيل: على الحجون ـ، وقال: «والله إني لأعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»، وهذا حديث صحيح... فكيف يترك مثل هذا النص الثابت ويمال إلى تأويل لا يجامع متأوله عليه» اهـ. التمهيد (٢/ ٢٨٨ـ٢٩٠).

غيرها من سائر البقاع أحرى بالمنع .

[١٣] وقد ذكر ابن الحاج حرمة الطواف بقبر النبي ﷺ، فقال : « . . . فترى من لا علم عنده يطوف بالقبر الشريف كما يطوف بالكعبة الحرام، ويتمسح به ويقبّله، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم، يقصدون به التبرك، وذلك كله من البدع ؛ لأن التبرك إنما يكون بالاتباع له عليه الصلاة والسلام، وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلّا من هذا الباب»(١) .

[١٤] وقال الإحسائي في سياق ذكره آداب زيارة مسجد رسول الله ﷺ: «ولا يطوف بالقبر»(٢) .

[١٥] وحيث إن الطواف عبادة من العبادات كما سلف بيانه، فقد بين القاضي عياض الحكمة من نهية عليه الصلاة والسلام عن أن يتخذ قبره مسجدًا، فقال : « . . . وتغليظ النبي ﷺ في النهي عن اتخاذ قبره مسجدًا لما خشيه من تفاقم الأمر وخروجه عن حد المبرة إلى المنكر، وقطعًا للذريعة، وقد نبه ﷺ في قوله : «**لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد**»(٣)، ولأن هذا كان أصل عبادة الأصنام»(٤) .

فإذا كان هذا حال أهل الجاهلية الذين أشركوا بالله تعالى بهذا الفعل الذي هو الطواف حول أصنامهم ومعبوداتهم .

[١٦] كما قال ابن عاشور : « . . وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم

---

(١) المدخل (١/ ١٩١) . دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط . الأولى ١٤١٥هـ .

(٢) تبيين المسالك (٢/ ٣٠٩) .

(٣) سبق تخريجه ص ٤١٢ .

(٤) إكمال المعلم (٢/ ٤٥٠) .

كما يطوفون بالكعبة»[١].

فإنه لا يفعل فعلهم إلّا من رضي ضلالهم وشركهم، وهو ما بينه بعض المالكية عند قول النبي ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة»**[٢].

[١٧] قال القرطبي أبو العباس: «ومعنى هذا الحديث أن دوسًا يظهر فيها الارتداد، ويرجعون إلى ما كانوا عليه من عبادة الأوثان، كما قال في حديث عائشة رضي الله عنها: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى»[٣]... وتضطرب: تتحرك عند الطواف بذلك الصنم»[٤].

[١٨] وقال محمّد المختار في معنى الحديث: «أي: لا تقوم الساعة حتى تتحرك أعجاز نساء دوس من الطواف حول ذي الخلصة، أي: يكفرن ويرجعن إلى عبادة الأصنام»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١).

(٢) خرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٤/ ٢٢٣٠) برقم (٢٩٠٦). قال القاضي عياض: أليات ـ بفتح الهمزة واللام ـ: يعني أعجازهن، جمع ألية، أي: تضطرب من الطواف حولها. انظر إكمال المعلم (٨/ ٤٤٩).

(٣) خرجه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٤/ ٢٢٣٠) برقم (٢٩٧٠).

(٤) المفهم (٧/ ٢٤٤). وذكر أن ذا الخلصة بيت فيه صنم يسمى ذا الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، وكان يسمى الكعبة اليمانية، بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبدالله فحرقه بالنار. وانظر النهاية في غريب الحديث (٢/ ٦٢).

(٥) نور الحق (١٠/ ٤٤٣).

[١٩ ـ ٢١] وبنحو ذلك قال القاضي عياض[١]، والأبي[٢]، وكذلك أشار إلى هذا المعنى ابن بطال[٣]، إلّا أنه نبه إلى أن ذلك لا يعني انقطاع الدِّين كله من الأرض، بل يضعف ويعود غريبًا كما بدأ.

وبهذا يعلم أن الطواف بغير بيت الله ﷻ ليس هو من عمل أهل الإسلام، بل هو من أفعال المشركين أهل الجاهلية ومن سلك مسلكهم واتبع طريقتهم، فهم على آثارهم مقتفون.

[٢٢] ولأجل ذلك فقد أنكر ابن الحاج الطواف بغير الكعبة، كمن يطوف بالصخرة، فقال: «وليحذر مما يفعله بعضهم من هذه البدعة المستهجنة، وهو أنهم يطوفون بالصخرة كما يطوفون بالبيت العتيق»[٤].

[٢٣] وكذلك أنكر في موضع آخر على من يطوف بالأضرحة، فقال: «لا يجوز الطواف حول الأضرحة، فإنه لا يطاف إلّا بالبيت العتيق»[٥].

وبهذا يتبين أن الطواف عبادة عظيمة تختص ببقعة معيّنة هي الكعبة، فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى؛ لما في ذلك من الشرك، سواء كان الطواف بمعظَّم كقبر النبي ﷺ أو غير ذلك.

---

(١) انظر إكمال المعلم (٨/ ٤٤٩).

(٢) انظر إكمال إكمال المعلم (٩/ ٣٥٧).

(٣) انظر شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٩).

(٤) المدخل (٤/ ٢٢٢).

(٥) المدخل (١/ ٩١).

المسألة السادسة: شرك النذر

أوضح أئمة المالكية فيما سبق أن النذر قربة وعبادة لله وحده[١]، وذلك باعتبار الباعث للعبد على عقده، من جهة اعتقاده أنّ ربه الذي نذر له قادر على جلب النفع ودفع الضرّ. فالعبد حين يقدم على النذر ويتلبس به فإنه يستشعر ذله وخضوعه لمن نذر له، وأن النفع والضر بيده تعالى، فيقبل عليه راجيًا تحقق مطلوبه من النفع ودفع الضر عنه، مبتغيًا إليه الوسيلة في ذلك، عسى أن يظفر بما ينشده ويؤمله.

[١] ومن ثم وصف ابن العربي النذر بقوله: «قد نهي عن النذر وندب إلى الدعاء، والسبب فيه أنّ الدعاء عبادة عاجلة ويظهر به التوجُّه إلى الله والتضرُّع له، وهذا بخلاف النذر، فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول، وترك العمل إلى حين الضرورة»[٢].

فسمى النذر عبادةً، فمن صرفه لغير الله تعالى تقرّبًا لمخلوق أو تعظيمًا لشعيرة أو بقعة[٣] لم يأت الشرع بتعظيمها فقد أشرك بالله تعالى.

وقد نص الإمام مالك رحمه الله على مسائل لها تعلق وصلة بهذا النوع من الشرك.

[٢] فمن ذلك أنه نص على أن «من نذر أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر أو إلى

---

(١) كلامهم في (ص ٣٥٨) يثبت أن النذر مكروه، فهو إذًا يكون عبادةً بالوجه الذي ذكرته أعلاه، وعلى ذلك يحمل الكلام على النذر عندهم بكونه عبادةً.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٧).

(٣) وقد اتخذ الله بيتًا وجعله مباركًا، كما قال تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك ومن يعظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾.

الربذة أو ما أشبه ذلك مما ليس لله فيه طاعة فليس عليه في شيء من ذلك شيء»، وعلل ذلك بقوله: «لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة، وإنما يوفي لله بما له فيه طاعة»(١). وإنما يكون المشي إلى المواضع التي يرتجى فيها الخير وجاء بها النص.

[٣] ولهذا قال مالك فيمن نذر المشي إلى غير الحرمين والمسجد الأقصى: «من قال: عليّ المشي إلى غير هذه الثلاثة المساجد فليس عليه أن يأتيه، مثل قوله: عليّ المشي إلى مسجد البصرة، أو إلى مسجد الكوفة فأصلي فيهما أربع ركعات، قال: فليس عليه أن يأتيهما، وليصلّ في موضعه حيث هو أربع ركعات»(٢).

[٤] ونص على عدم انعقاد نذر إتيان ما سوى هذه المواضع، حتى وإن كان من مواضع مكة، والعلة في ذلك عنده والله أعلم كما قال: «ليس لله في هذه الأشياء طاعة»(٣) أي: ليس لله في المشي إليها طاعة.

[٥] ومن عنايته وحرصه على سد منافذ الشرك منع من نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ(٤)، مع أنه بداخل المسجد، فلم ير انعقاد نذره، وقال: «إن كان أراد القبر فلا يأته، وإن أراد المسجد فليأته»، ثم ذكر الحديث: «**لا تشدُّ الرِّحال إلّا إلى ثلاثة**

---

(١) الموطأ (٢/ ٣٧٩).

(٢) المدونة (٢/ ٨٦).

(٣) الموطأ (٢/ ٣٧٩).

(٤) ذكر القاضي عياض أن كراهة مالك قول من قال: زرت قبر النبي ﷺ؛ لقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد من بعدي، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ثم قال: «فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك قطعًا للذريعة وحسمًا للباب والله أعلم». الشفا (٢/ ٦٦٩).

فإذا كان هذا في حق من قال: زرتُ قبر النبي ﷺ، فكيف بمن ينذر ذلك نذرًا؟!

مساجد»(١).

وبهذا يُعلم أن الإمام مالكًا رحمه الله لم ير أنّ هناك موضعًا في الأرض له مزية حتى تصرف النذور إليه، سوى المساجد الثلاثة كما جاء النص بذلك، وما عداها فلا ينعقد النذر بالمشي إليها، حتى وإن كانت من بيوت الله.

[٦] وسلك الباجي مسلك الإمام مالك في ذلك، فقال: «. . . وأما من كان بغير المدينة ممن يتكلف سفرًا فإنه لا يجوز قصده، ومن نذر ذلك لم يلزمه، والأصل في ذلك حديث: «**لا تُعمل المطيّ إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد إيلياء . . .**» إلى قوله: «فمن هو منها على سفر فلا ينعقد نذره؛ لأنه نذر نذرًا محظورًا ممنوعًا منه»(٢).

[٧] ونظيره قول القرطبي في ذلك(٣).

[٨] ولذا قال ابن العربي: «من أغرب ما قال علماؤنا أنّ من نذر المشي إلى الصفا والمروة وعرفة ومنى لا يلزمه، وإن كانت موضع قرب فرائض ونوافل».

ثم بين ما يزيل تلك الغرابة بقوله: «ولعلهم تعلقوا بذلك إلى قوله: «ثلاثة مساجد» فعين المسجدية»(٤).

[٩] ولم يقتصر الإمام مالك في بيانه على نذر إتيان المواضع، فقد نص على أن من نذر أن ينحر جزورًا فعليه أن ينحره في الموضع الذي هو فيه. قال: (فقلنا

(١) خرجه مسلم في كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (٢/ ٩٧٥) برقم (٨٢٧).
(٢) المنتقى (٣/ ٢٣١).
(٣) انظر المفهم (٣/ ٤٥١).
(٤) القبس (٢/ ٦٦٣).

لمالك: فإن نذرها لمساكين بالبصرة أو مصر وكان من غير أهل البصرة أو من غير أهل مصر؟ قال مالك: «نعم؛ وإن نذرها لمساكين أهل البصرة أو أهل مصر فلينحرها بموضعه، وليتصدق بها على مساكين من عنده...»، وعلل ذلك بقوله: «وسوق البدن إلى غير مكة من الضلال»[1].

[١٠] وتبعه على ذلك ابن الجلاب[2] بقوله: «ومن نذر أن ينحر بدنة بغير مكة ولم يرد بذلك تعظيم البلدة التي نذر النحر فيها ففيها روايتان: أحدهما: أنه يلزمه النحر بها. والأخرى: أنه ينحر البدنة في مكانه ولا يسوقها إلى غيره، إلّا إلى مكة وحدها»[3].

[١١ ـ ١٢] ونظير قول ابن الجلاب هذا قول ابن عبدالبر[4] وعليش[5].

ففي قول مالك رحمه الله: «وسوق البدن إلى غير مكة من الضلال» دليل على أنه ليس ثمة موضع سوى مكة يشرع تخصيصه بالنذر لمزية تعود إلى بقعة[6] أو موضع، فمن اعتقد أن في الأرض بقعة تقبل النذر من الناذر لعظمتها واختصاصها

---

(١) المدونة (٢/ ٩١).

(٢) هو أبو القاسم عبيدالله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري المالكي، وهو أحد المجتهدين، وله دور كبير في نشر المذهب، وهو ممن تفقه على أبي بكر الأبهري، له كتاب في مسائل الخلاف، وشرح المدونة. توفي ٣٧٨هـ. انظر: الديباج (٢٣٧)، شجرة النور (١/ ٩٢).

(٣) التفريع (١/ ٣٧٦).

(٤) الكافي (١/ ٤٥٩).

(٥) انظر منح الجليل (٣/ ١٢٧).

(٦) ومن نذر النحر في غير مكة فيلزمه الوفاء في موضعه لمساكين في بلده، كما نبه عليه الإمام مالك، فلا تعلق له بالموضع.

فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وعلى هذا فإن ما يعتقده بعض الجهلة من صرف النذور لموضع قبر أو مزار أو مشهد من أعظم الباطل.

[١٣] وهذا ما بينه الميلي رحمه الله بيانًا تامًا عند كلامه عن حال أولئك الناذرين، كمن يعتقدون فيهم، وطلب القربة لديهم حتى ولجوا الشرك، فقال: «. . . وقد أصبح الناس في جاهليتهم الحاضرة ينذرون ـ لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات ـ الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة، وسائر المتموّلات، ويعتقدون أن نذرهم سبب يقرّبهم من رضى المنذور له، وأن لذلك المنذور له دخلًا في حصول غرضهم، فإن حصل مطلوبهم ازدادوا تعلّقًا بمن نذروا له، واشتدّت خشيتهم فيه، وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له، ولم يستسيغوا لأنفسهم التقصير أو التأخير، كما استساغه جاهلية العرب في تعويض الغنم بالظباء، فالعرب مع أصنامهم أقل هيبةً من هؤلاء مع أوليائهم، وإن تساوى الفريقان في حق من ألّهوه أكثر من اعتبار حق الإله الحق، وذلك أنّ جاهليتنا ـ على شدة اهتمامها بحق أوليائها ـ منها من لا يبالي مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة، أو بهما معًا، ومن صلّى وزكى لا ينكر على تاركهما ما ينكره على من تراخى في زيارة شيخ طريقة أو إقامة زَرْدَة أو أداء وَعْدَة[١]، وكذلك ما حكاه القرآن عن العرب في آياته: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . . .﴾ [الأنعام: ١٠٠]»[٢].

---

(١) قال الميلي: «الزرده فهي في لسان العرب المرة من زرد اللقمة ـ كَفَهِمَ ـ زردًا: بلعها، وازدردها: ابتلعها. وهي في عُرفنا طعام يُتخذ على ذبائح من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم». انظر رسالة الشرك (٢٥٦). قال الميلي في كلامه عن نذر المجازاة: «وتسميه عامتنا الوعدة». رسالة الشرك (٢٦٥).

(٢) رسالة الشرك (٢٦٨).

فأبان رحمه الله أن طلب أولئك الناذرين القربة من هؤلاء المنذور لهم، وتعلقهم بهم وبقاعهم ومزاراتهم أشدّ من تعلّق أهل الجاهلية بأصنامها التي عبدوها من دون الله، التي يرجون بركتها من جلب نفع أو دفع ضرّ، وبهذا فاقوا أهل الجاهلية في شركهم وضلالهم.

[١٤] وقد ذكر محمّد الأمين ما يدلّ على وجوب مفارقة أهل الجاهلية وعدم التشبه بهم في شركهم وضلالهم، فقال: «من نذر أن ينحر تقرّبًا لله في مكان معين فلا بأس بإيفائه بنذره، بأن ينحر في ذلك المحل المعيّن إذا لم يتقدم عليه أنه كان به وثن يُعبد، أو عيد من أعياد الجاهلية، ومفهومه أنه إن كان قد سبق أن فيه وثنًا يُعبد أو عيدًا من أعياد الجاهلية أنه لا يجوز النحر فيه». ثم استدلّ بحديث الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة[١] فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرتُ أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي ﷺ: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟»**. قالوا: لا. قال: **«هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»**. قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: **«أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[٢].

ثم قال: «وفيه الدلالة الظاهرة على أن النحر بموضع كان فيه وثن يُعبد أو عيد من أعياد الجاهلية من معصية الله تعالى، وأنه لا يجوز بحال، والعلم عند الله تعالى»[٣].

[١٥] وحيث كان النذر يُقصد منه التقرّب لله ﷻ، كما قال القاضي عياض في سياق كلامه عند قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا نذر في معصية الله»**، فقال: «نفى

(١) بوانة: قال ابن الأثير: هي بضم الباء، وقيل: بفتحها: هضبة من وراء ينبع. النهاية (١/ ١٦٤).
(٢) خرجه أبو داود (٣٣١٣)، والبيهقي (١٠/ ٨٣)، والطبراني (١٣٤١)، والإمام أحمد (٦/ ٣٦٦). قال الأرنؤوط: إسناده حسن. وصححه الحافظ في التلخيص (٤/ ١٨٠).
(٣) أضواء البيان (٥/ ٦٨٠ـ٦٨١).

النذر عنها، إذ النذر المقصد فيه التبرك والتقرب، والمعصية تنافيه، فلا نذر يصح فيها ولا يلزم»(١).

فقد نبه بعض المالكية على مسألة مهمة، وهي أنهم قد شددوا على الناذر إذا تغيّرت نيته مع أن نذره لله، ويعدّون ذلك شركًا، فكيف بمن نذر لغير الله أصلًا.

[١٦] ومن ذلك ما ذكره المازري عند حديث: نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير...» بقوله: «يحتمل أن يكون الناذر لما لم يبذل ما بذل من القربة إلّا بشرط أن يفعل له ما يختار صار ذلك كالمعاوضة التي تقدح في نية المتقرّب، ويذهب الأجر الثابت للقربة المجرّدة، وفي الحديث: **«من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو له»**(٢)»(٣).

[١٧] وزاد القرطبي أبو العباس على كلام المازري بقوله ـ عند حديث النهي عن النذر ـ:

«محل النهي أن يقول: إن شفى الله مريضي فعليّ عتق أو صدقة أو نحوه، ووجهه أنه لما وقف فعل القربة على حصول غرض عاجل ظهر أنه لم تتمحّض فيه نية التقرّب إلى الله تعالى، بل سلك سبيل المعاوضات، وهذا حال البخيل الذي لا يخرج من ماله إلّا بعوض عاجل أكره فيه، ثم ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض لأجل النذر، وإليها الإشارة بقوله: **«فإنّ النذر لا**

---

(١) إكمال المعلم (٥/ ٣٨٣).

(٢) خرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٥).

(٣) المعلم (٢/ ٢٣٦).

يرد من قضاء الله شيئًا». فالأولى تقارب الكفر، والثانية خطأ صراح»[(١)].

[١٨] وذكر الصاوي كراهية هذا النذر، معللًا تلك الكراهة بأنه «لم يجعله خالصًا لوجه الله الكريم»[(٢)].

[١٩] ومثله الأزهري أيضًا قائلًا: «لأن فيه شائبة المعاوضة، ولتوهم أنه يجلب الخير ويدفع الشر»[(٣)].

[٢٠] وقال بنحوه أيضًا عليش[(٤)].

[٢١] من هنا فقد أقرّ الحطاب ما ذكره القرطبي من تحريم نذر المجازاة «في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد»[(٥)].

فإذا كان هذا هو تشديدهم في حق من تغيرت نيته وقصده في نذره، فكيف بالنذر لغير الله؟

[٢٢] كما قال الشنقيطي ـ في هذا المعنى معقبًا على قول الحطاب السابق ـ: «فأين الصفة التي قرر الحطاب تحريمها من النذر لرجل غني اعتادت العامة النذر له، معتقدين أنه لا ينذر له في شيء إلّا حصل؟! وشاع الأمر حتى فوض المذكور جباةً يجبون له نذوره!».

ثم بين تنافي هذا الفعل مع قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ...﴾ [الأنعام: ١٦٢ـ١٦٣]، ثم قال: «إنّ النذر عبادة،

---

(١) المفهم (٤/ ٦٠٧).

(٢) بلغة السالك (١/ ٣٢٤).

(٣) جواهر الإكليل (١/ ٢٤٤).

(٤) منح الجليل (٣/ ١٠١).

(٥) انظر مواهب الجليل للحطاب (٤/ ٤٩٤).

وإن صرفها لمخلوق لا يخفى على موحِّد ما فيه والعياذ بالله»[١] .

يريد أن هذا العمل شرك بالله تعالى ينقض التوحيد . وبهذا يتبين أن النذر لا يجوز إلّا لله وحده، لذا فقد منعوا من التقرُّب إلى غير الله بالنذر، مؤكّدين على أنه حقّ لله تعالى وحده دون سواه .

*****

(١) مواهب الجليل من أدلة خليل . أحمد المختار الجكني الشنقيطي (٢/ ٢٨٠) . ط . دار إحياء التراث الإسلامي ـ قطر .

المسألة السابعة: شرك السِّحر

السحر كما يعرّفه أهل اللغة بأنه يطلق على كل شيء خفي سببه ولطُف ودق، ولذا تقول العرب: أخفى من السحر[١].

والسحر له أنواع كثيرة، منه ما هو تخييل لا حقيقة له في الخارج، ومنه ما يعتمد على التلبيس والخداع وخفة اليد، ومنه ما له حقيقة يحصل بسببه السقم والقتل، والتفريق بين الأحبة[٢].

وقد تمسك من نفى حقيقته[٣] ببعض النصوص التي فيها وصف السحر بالتخييل، كقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وقد جانبوا الصواب في ذلك[٤].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ٢٩)، والمعجم الوسيط (١/ ٤١٩).

(٢) انظر: أنواع السحر في تفسير القرطبي (٢/ ٤٤)، واستقصى عددها الميلي في رسالة الشرك (١٥٦)، وذكر أصولها بتوسّع ابن عاشور في التحرير (١/ ٦٣٣).

(٣) وهم المعتزلة.

(٤) الذي عليه أهل السنة والجماعة أنّ للسحر حقيقة كما دلت على ذلك النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. قال ابن القصار: «فنفى الله السحر عن سليمان وأضافه إلى الشياطين، وأخبر أنهم يفعلونه ويعلمونه الناس، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس». شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٤٤١).

وأمر الله تعالى بالاستعاذة منه في قوله: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾، فلو لم يكن له حقيقة =

وسوف يكون الحديث عن السحر من جهة ارتباطه بالشرك، وبالتالي فما يلحق بذلك فإنما يذكر تبعًا لا أصلًا، وقد ذكر المالكية حكم السحر وأن من يفعله يكفر، واعتنى بعضهم بذكر الحال التي يكون السحر فيها نوعًا من الشرك الذي يحكم معه بحل دم الساحر ومروقه من الدين.

[١] ولذا فقد ذكر ابن عاشور أن مراد مالك في الساحر الذي يُقتل «ما دل سحره على الرِّدّة؛ لأنه قال في روايات عنه في المدونة: «يقتل الساحر كفرًا لا حدًّا»».

[٢] وأشار إلى ذلك هنا في الموطأ بقوله: «هو مثل الذي قال الله تعالى في

= لم يأمر الله بالاستعاذة منه. وأثبت الله ﷻ أن له أثرًا بقوله: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾، فدلت الآية على أن السحر شيء موجود حصل بسببه التفريق بين المرء وزوجه. ولكن لا يحصل الضرر إلّا بإذن الله القدري، وقد ثبت أن النبي سُحر حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما يفعله. (البخاري كتاب الطب، باب السحر، ومسلم في الطب والمرض، باب السحر).

والنبي ﷺ بشر تجوز عليه الأمراض والآلام، والسحر كما قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، ولكنه عليه الصلاة والسلام معصوم فيما يبلغه عن الله، فقد «شهد له العلي الأعلى بأن بصره ما زاغ وما طغى، وبأن فؤاده ما كذب ما رأى، وبأن قوله وحي يوحى، وأنه ما ينطق عن الهوى». ما بين القوسين من كلام القرطبي في المفهم (٥/ ٥٧٠).

وقد نص علماء المالكية ـ كغيرهم من أهل العلم ـ على أن للسحر حقيقة. انظر كلامهم في ذلك لدى: ابن نصر في المعونة (٢/ ٢٩٧)، وابن بطال في شرح البخاري (٩/ ٤٤٢)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/ ٢٣٩)، وأبي عمرو الداني في الرسالة الوافية (١٢٩)، والباجي في المنتقى (٧/ ١١٨)، وابن العربي في عارضة الأحوذي (٦/ ٢٤٧)، والمازري في المعلم (٣/ ٩٣)، والقرطبي في التفسير (٢/ ٤٤)، والقرطبي أبي العباس في المفهم (٥/ ٥٦٨)، والقرافي في ترتيب الفروق (٢/ ٤٣١)، ومحمد الأمين في أضواء البيان (٤/ ٤٣٧)، ومعاج الصعود (٥١ـ٥٢).

كتابه: ﴿ولقد علموا لَمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾، على أنه كان كفرًا، فحقه الاستتابة[(١)]»[(٢)].

[٣] وقد ذكر الإمام مالك ما يثبت أن الساحر مشرك بالله تعالى، فقال في تعريفه «للطاغوت بأنه: كل ما عُبد من دون الله من صنم أو كاهن أو ساحر، أو كيفما تصرف الشرك فيه»[(٣)].

فقرن الإمام مالك للساحر بغيره من المعبودات أثناء بيانه لمعنى الشرك يفهم منه أن الساحر كافر عنده بسبب شركه.

[٤] ومما يرجح هذا المعنى عند مالك ويقويه وأن السحر عنده منبنٍ على الشرك اتهامه للساحر بعبادة الأصنام، كما قال رحمه الله: «الأسماء التي يكتبها السحرة في التمائم أسماء أصنام»[(٤)].

ومعلوم أنهم لم يكتبوا أسماءهم إلّا لعبادتهم والاستغاثة بهم في جلب النفع ودفع الضر عياذًا بالله.

[٥] ونقل ابن عاشور عن الباجي ما ينص على رأي مالك صراحة في أن السحر

---

(١) ومن كلامه عن أفعال السحرة قال: «وليس شيء من هذا بموجب هدر دم المسلم، غير ما يدل على أنه نقض به إسلامه وارتد به عن الإسلام إلى عبادة الأوثان، فما كان منه جهرًا فهو ردة حقها أن يستتاب صاحبها ثلاثًا، فإن لم يتب قتل، وما كان سرًّا فهو زندقة تجري على حكم الزندقة في عدم الاستتابة فيها عند مالك».
وأراد بهذا التفصيل بيان ما جاء عن مالك من أن الساحر كالزنديق يقتل ولا تقبل له توبة. كشف المغطا (٣٢٨).

(٢) كشف المغطا (٣٢٨ـ٣٢٩).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٤٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٣٧).

شرك، فقال: «رأي مالك أن السحر كفر وشرك ودليل عليه»[١].

[٦] وذكر ابن بطال ما روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قالا: «الرقى والتمائم والتولة شرك»[٢]، ثم قال: «المراد بذلك رقى الجاهلية وما يضاهي السحر»[٣].

ففي قوله هذا إشارة إلى أن السحر شرك بالله تعالى، إذ إنّ رقى الجاهلية تشتمل على الشرك فأشبهت السحر من هذا الوجه.

وقد ذكر بعض المالكية أحوال الساحر المتعلقة بعمله التي جعلته يمرق من الدين، كتقربه إلى الكواكب[٤] والشياطين وعبادتها، إذ بذلك يتضح وجه ارتباط السحر بالشرك.

---

(١) نفس المرجع (١/ ٦٣٧).

(٢) خرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٥٦_١٥٧)، والحاكم من طريق آخر (٤/ ٢١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه الأرنؤوط. المسند (١/ ٣٨١).
الرقى: هو العوذة. والتمائم: جمع تميمة، وهي الخرزات التي تعلق على الأولاد لدفع العين. والتولة ـ بكسر التاء المثناة من فوق وفتح الواو واللام ـ: نوع من السحر يحبب المرأة إلى زوجها.

(٣) شرح البخاري (٩/ ٤٣٢).

(٤) ذكر المالكية أنّ التنجيم ـ وهو اعتقاد تأثير النجوم ـ كُفر بالله تعالى، كما قال المازري: «وأما التنجيم فمن اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها، وكل فلك يفعل ما تحته حتى ينتهي الأمر إلينا، وسائر الحيوان والمعادن والنبات ولا صنيع للباري سبحانه وتعالى في ذلك، فإنّ ذلك مروق من الإسلام». إكمال المعلم (٧/ ١٥٩).
وقال ابن العربي: «ولا تغترّوا بمنجم ولا عرّاف ولا تستدلوا بأمارة في السماء من كوكب أو في الأرض من مذهب على ما يكون غدًا بحال، فإنه تيه في الضلال قد تبرأ النبي ﷺ منه». =

[٧] وفي هذا بين القرافي الحال التي يقع بها كفر الساحر؛ لأن السحر عنده طريق إلى الكفر، فيقول: «. . والسحر لا يتم إلّا بالكفر، كقيامه إذا أراد سحر سلطان لبرج الأسد مائلًا خاضعًا متقرّبًا له، فيناديه: يا سيده! يا عظيم! أنت الذي إليك تدبير الملك والجبابرة والأسود، أسألك أن تذلل لي قلب فلان الجبار»(١).

ولا ريب أن هذا العمل الذي يقوم به الساحر ـ من التقرب للكوكب وسؤاله على وجه الذلة والخضوع واستغاثته به من دون الله ـ شرك أكبر يمرق به من الإسلام.

[٨] وما ذكره القرافي هنا من ضرب المثل في بيان ما اشتمل عليه عمل السحر من الشرك بالله تعالى هو تبيين لما أجمله الطرطوشي فيما ينقله عن قدماء أصحابه

= القبس (٣/ ٨٧٤).

وقال القرطبي: «النجوم لا يعرف بها علم الغيب ولا القضاء، ولو كان كذلك لكان الملائكة أعلم بذلك وأحق به، وكل ما يتعاطاه المنجمون من ذلك فليس شيء منه علماً يقينًا، وإنما هو رجم بظن وتخمين بوهم، الإصابة فيه نادرة، والخطأ والكذب فيه غالب. وهذا مشاهد من أحوال المنجمين، والمطلوب من الغلوم النجوميات ما يهتدى به في الظلمات وتعرف به الأوقات، وما سوى ذلك فمخارق وترهات، ويكفي في الرد عليهم ظهور كذبهم، واضطراب قولهم، وقد اتفقت الشرائع على أن القضاء بالنجوم محرم مذموم». انظر المفهم (٥/ ٦٣٨).

وقال ابن أبي زيد القيرواني: «ولا ينظر في النجوم إلّا ما يستدل به على القبلة وأجزاء الليل ويترك ما سوى ذلك». متن الرسالة (٢٠٩).

وقد ذكر المالكية ذلك في كل من: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ٣٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٢٦)، القبس لابن العربي (١/ ٣٨٧)، وصية الباجي لولديه (٤٠)، الذخيرة للقرافي (١٣/ ٣٤٢)، الموافقات للشاطبي (٢/ ١١٧)، نور الحق (٥/ ٤٥٨، ٢/ ٣٠٤)، كوثر المعاني الدراري (١٠/ ٣٩٣)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٧/ ٣٤٠).

(١) الذخيرة (١٢/ ٣٥).

المالكية في بيانهم ما يقع به كفر الساحر: «إنا لا نكفره حتى يثبت أنه من السحر الذي كفر الله تعالى به، أو يكون سحرًا مشتملًا على كفر»(١).

[٩] يدل على هذا أن القرافي أورد ما حكاه الطرطوشي بعد كلامه عن السحر وصلته بعبادة الكواكب، فقال: «والذي يستقيم في هذه المسألة ما حكاه الطرطوشي...»(٢).

[١٠] وعلى هذا فإن شرك السحر بهذا المعنى قد أشار إليه قدماء المالكية، كما حكاه عنهم الطرطوشي.

[١١] ولذا فقد نص محمّد الأمين على أن الساحر لا يكفر إلّا أن يكون في سحره شرك بالله، فقال: «والتحقيق في هذه المسألة التفصيل؛ فإن كان السحر مما يعظّم فيه غير الله ـ كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر ـ فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت في سورة البقرة، فإنه كفر بلا نزاع كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]. وإن كان السحر لا يقتضي الكفر ـ كالاستعانة بخواص الأشياء من دهانات وغيرها ـ فهو حرام حرمةً شديدة...»(٣).

فقد ربط محمّد الأمين حكم السحر بما يتصل به من أسباب شركية، كالتقرب

(١) ترتيب الفروق (٢/ ٤٣٦)، والذخيرة (١٢/ ٣٧).
(٢) انظر الذخيرة (١٢/ ٣٧).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٤٥٦).

إلى الشياطين والكواكب، ولا ريب بكفر متعاطيها.

[١٢] وقد نقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًا له في عده للأنواع التي هي سبب كفر الساحر، فقال: «ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم».

[١٣] واستنزال هذه الروحانيات المزعومة تكون بضروب من التقرُّب للكواكب، كما بينه أيضًا محمّد المختار فيما نقله عن الرازي[(١)] من حال أهل بابل[(٢)] من أنهم «يعبدون الكواكب السبعة، ويسمّونها آلهة ويعتقدون أنها الفعالة لكل ما في العالم، وعملوا أوثانًا على أسمائها ولكل واحد هيكل فيها صنمه يتقرّب إليها بما يوافقه في زعمهم من أدعية وبخور...»[(٣)].

[١٤] ولما ذكر ابن عاشور تعلق السحرة برسم أشكال وطلاسم، أو عقد خيوط والنفث عليها برقيات معينة تتضمّن الاستنجاد بالكواكب أبان حكمه فقال: «فهو معدود من خصال الشرك»[(٤)].

[١٥] وعند ذكر الميلي أنواع السحر قال: «ومنها سحر البابليين الذين كانوا يعبدون الكواكب، ويرونها مدبِّرةً لهذا العالم، فيستميلونها إليهم أو يصرفون ضررها

---

(١) انظر تفسير الرازي مفاتح الغيب (٣/ ١٩٠ـ١٩١). ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى ١٤١١هـ ـ بيروت.

(٢) بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة والحِلّة، يُنسب إليها السحر والخمر في العراق، ويقال: إنّ أوّل من سكنها نوح (، وهو أول من عمرها. انظر معجم البلدان (١/ ٣٠٩).

(٣) نور الحق (٩/ ١٠٠ـ١٠١). وانظر فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٤) انظر التحرير والتنوير (١/ ٦٣٢ـ٦٣٣).

عنهم بالرقى والدخن»[١].

[١٦] وأوضح أن السحر معصية شرك وكفر، ونسبه قولًا لأكثر الفقهاء، ومنهم من لا ينتهي به إلى الكفر ما لم ينضم إليها اعتقاد ينافي التوحيد[٢].

ولا ريب أن السحر بهذه الحالة شرك يناقض التوحيد.

وكما بين المالكية أن السحرة الذين صرفوا العبادة لتلك الكواكب مرقوا من الدين، فقد بيّنوا أيضًا أن هذا المعنى في الجميع واحد، فالإشكال فيما انطوى عليه السحر من عبادة غير الله أيًا كان نوع هذا المعبود.

[١٧] ولهذا فإنّ محمّد المختار بيّن ـ فيما نقله عن ابن حجر مقرًا له ـ ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن السحر كفر، مستدلّين بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وعقّب بذكر السبب في ذلك، وهو «التعبّد للشياطين والكواكب»[٣].

والمعنى المراد من ذلك أنّ السحر الذي ينضوي على التقرب إلى غير الله شرك وكفر.

[١٨] وهو ما أوضحه ابن عاشور من أنّ السحر يتضمّن «الاستنجاد بالكواكب أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين»[٤].

ثم قال معقّبًا على ذلك بأنه خبث وفساد ومروق من الدّين[٥].

---

(١) رسالة الشرك (١٥٦).

(٢) انظر المرجع نفسه (١٦٢).

(٣) نور الحق (٩/ ١٠٤). وانظر فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٣٢ـ٦٣٣).

(٥) المرجع نفسه (١/ ٦٣٥).

[١٩] وفي موضع آخر قال عن السِّحر: «.. وفيه استصراخ بالأصنام، وعبادة للجن جهرًا أو خفيةً»[١].

[٢٠] وفي ذكره لأنواع السحر بين الميلي أن «سحر أصحاب العزائم هو سحر عبدة الشياطين وخدمة الجان يتقربون إليهم بالرقى والعزائم والدخن»[٢].

وقد سبق في كلامه عن السحر بأنه معصية شرك وكفر؛ لمنافاته للتوحيد أو بفعل يخالف الإسلام[٣].

فأبان أنّ السحر المشتمل على التقرّب للشياطين شرك بالله تعالى؛ لصرفهم شيئًا من العبادة لأولئك الشياطين.

[٢١] ولما كان التعظيم معنى من معاني العبادة فقد عرف ابن العربي السحر بقوله: «حقيقته أنه كلام مؤلّف يعظّم به غير الله، وتنسب إليه الأفعال والمقادير والكائنات»[٤].

ومراده أنّ ذلك التعظيم من معاني التعبُّد لله تعالى، إذ فرق بينه وبين الربوبية، وفي ذلك إشارة إلى أن السحر يقع به الشرك بالله تعالى.

[٢٢ ـ ٢٤] وأقرّ قول ابن العربي هذا عليش[٥]، والجكني[٦]، والأحسائي[٧].

---

(١) كشف المغطا (٣٢٨).

(٢) رسالة الشرك (١٥٧).

(٣) انظر كلامه ص ٤٨٢ .

(٤) أحكام القرآن (١/ ٣١).

(٥) انظر منح الجليل (٩/ ٢٠٧).

(٦) انظر نصيحة المرابط (٣/ ١٣٨).

(٧) تبيين المسالك (٤/ ٤٧٦).

[٢٥] وذكر القرطبي «أن السحر لا يتم إلّا مع الكفر والاستكبار، أو تعظيم الشيطان»(١).

وهو في معنى ما ذكر ابن العربي، من وقوع الشرك بتعظيم غير الله تعالى.

[٢٦] ونظيره ما ذكره الدسوقي(٢) في ذلك.

هذا؛ وقد أشار بعض المالكية إلى أن استحلال السحر كفر وردّة، وسبب كفره هنا بما اعتقده من اعتقاد فاسد لا بما عمله من السحر.

[٢٧ ـ ٢٨] وفي هذا ما نقله القرافي مقرًّا له من تعليق الطرطوشي على قول الشافعية: «من اعتقد إباحته فهو كفر» بقوله: «وهذا متفق عليه؛ لأن القرآن نطق بتحريمه»(٣).

وقول الطرطوشي: «هذا متفق عليه». يبين أن هذا الحكم أيضًا عند المالكية كما هو عند الشافعية.

[٢٩] ونص على كفر المستحل أيضًا الميلي(٤).

ومن خلال ما تقدم يعلم أن المالكية قد بينوا المعنى الذي يكفر به الساحر، وهو إذا ما اشتمل سحره على صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، من الكواكب والشياطين وغير ذلك، وقد ذكر بعضهم كفر معتقد الحل، وذلك لأجل اعتقاده لا عمله.

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٤٨).

(٢) انظر حاشية الدسوقي (٤/ ٣٠٢).

(٣) الذخيرة (١٢/ ٣٤).

(٤) انظر رسالة الشرك (١٦٢).

المسألة الثامنة: شرك الرُّقى والتَّمائم

لما كانت الرقى والتمائم التي تستخدم في الجاهلية للعلاج ودفع العين، وغيرها من الأمراض، تشتمل على أمور شركية، كالتوكل على غير الله، والاستعانة بالجن ودعائهم، فقد جاءت النصوص الشرعية بالمنع من ذلك كله، كما قال ﷺ: «**إنّ الرقى والتمائم والتولة شرك**»(١).

وهذا يختصّ بما كان شركًا، فقد جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»(٢)»(٣).

وعلى هذا فقد فسر بعض المالكية الشرك الذي وصفت به الرقى والتمائم الممنوعة بأنه شرك أكبر؛ لأنهم فسروه بشرك أهل الجاهلية المتضمن ألفاظًا شركية صريحة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) خرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (٤/ ١٧٢٧).

(٣) وحديث عوف ﷺ يبين المشروع من الرقى، فليس كل الرقى ممنوعة، «والرقى هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة، يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركًا هي الرقى التي فيها شرك، من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له، فليست شركًا بل ولا ممنوعة، بل مستحبة أو جائزة». تيسير العزيز الحميد (١٦٥).

وسيأتي بيان المالكية إن شاء الله للرقى والتمائم المشروع منها وغير المشروع.

وبما أن الحديث هنا عن الرقى الشركية، فيحسن البداءة هنا بذكر الشروط التي يجب توافرها في الرقية.

[١] كما بينها الزرقاني بقوله: «الرقية المأذون فيها ما كانت باللسان العربي، أو بما يفهم معناه، ويجوز شرعًا مع اعتقاد أنها لا تؤثّر بذاتها، بل بتقدير الله، والمنهي عنها ما فقد فيها شرط من ذلك»(١).

وبين في موضع آخر بأن الرقية تكون بأسماء الله وصفاته(٢).

[٢] وقال القرطبي: «فجازت الرقية من كل الآفات والأمراض والجراح والقروح والحُمَة والعين وغير ذلك، إذا كان الرقى بما يفهم ولم يكن فيه شرك ولا شيء ممنوع، وأفضل ذلك وأنفعه ما كان بأسماء الله تعالى وكلامه وكلام رسوله ﷺ»(٣).

[٣ ـ ٤] وذكر هذه الشروط أيضًا محمّد المختار نقلًا عن ابن حجر(٤)، والعدوي نقلًا عن القسطلاني(٥).

والمتأمل في هذه الشروط يتبين له أنها احتراز لما يقع في بعض الرقى من الشرك بذكر غير الله تعالى واعتقاد أنّ تلك الرقى والتمائم تؤثّر بذاتها لا من الله ﷻ.

وقد أفهم كلام المالكية في هذه المسألة أن شرك الرقى والتمائم ضرب من

---

(١) شرح الزرقاني (٤/ ٣٢٣).

(٢) المرجع نفسه (٤/ ٣٢٨).

(٣) المفهم (٥/ ٥٨١).

(٤) انظر نور الحق (٩/ ٧٠ ـ ٧١).

(٥) انظر حاشية العدوي (٢/ ٦٤٣). وإرشاد الساري للقسطلاني (٨/ ٣٨٨)، وفتح الباري (١٠/ ١٩٥).

الشرك الأكبر(١).

[٥ـ٦] وفي هذا يقول القرافي عند بيانه الرقى التي لم تشرع:

«كرقى الجاهلية والهند وغيرهم، وربما كان كفرًا، ولذلك نهى مالك رحمه الله عن الرقى بالعجمية»(٢).

والمعنى الذي نهى مالك عن الرقية من أجله هنا هو ما قد تشتمل عليه من معان مجهولة، كذكر غير الله تعالى.

[٧] وهو ما أفصح عنه المازري فقال: «وينهى عنها بالكلام الأعجمي وما لا يعرف معناه؛ لجواز أن يكون فيه كفر أو إشراك»(٣).

[٨] من هنا يعلم وجه كراهية مالك لرقية أهل الكتاب، كما أوضحه الباجي بقوله: «وذلك ـ والله أعلم ـ إذا لم تكن رقيتهم موافقة لما في كتاب الله، وإنما كانت من جنس السحر ومامنه كفر مناف للشرع»(٤).

[٩] وفي موضع آخر بين أن المنع من الرقى في أول الأمر لاحتمال أن يكون فيها شيء من أقوال أهل الكفر، وقد استدلّ على ذلك بحديث علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما: «إنّ الرقى والتمائم والتولة شرك»، وحديث عوف بن

---

(١) هذه الشروط كما هي في الرقية فهي كذلك تنطبق على التمائم عندهم، فهي باب واحد عندهم، وقد سرت على طريقتهم في الكلام أولًا عن الرقى ثم التمائم كما سيأتي إن شاء الله.

(٢) ترتيب الفروق (٢/ ٤٢٨).

(٣) إكمال المعلم (٧/ ٩٨). وأضاف أيضًا: «وقد كره مالك أن يحلف بالعجمية، وقال: ما يدريه أن الذي قال كما قال». فالذي تخوفه مالك هو وقوع الشرك في الرقى بذكر غير الله، كما يقع بالحلف بغير الله.

(٤) المنتقى (٧/ ٢٦١).

مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم، فلا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»(١).

[١٠] ونظيره ما ذكره ابن عبدالبر في توجيه كراهية مالك لرقية أهل الكتاب(٢).

وبهذا يتبين أن الإمام مالكًا رحمه الله أراد أن لا تشوب تلك الرقى شائبة الإشراك بالله تعالى، فيتحقق حينئذ سلامة الألفاظ واتضاح المعاني.

[١١] وعلى هذا جعل القرطبي الرقى مجهولة المعاني أو التي كان يتعاطاها أهل الجاهلية ممنوعة على سائر أهل الإسلام، فقال في تقسيمه للرقى: «فما كان فيه من رقى الجاهلية أو بما لا يعرف فواجب اجتنابه على سائر المسلمين»(٣).

وما ذاك إلّا لما يعتقده أهل الجاهلية من أن النفع والضرّ موكول إلى تلك الرقى، وذلك لما اشتملت عليه من ذكر الجن وسؤالهم من دون الله تعالى.

[١٢ ـ ١٣] كما نقل ذلك القاضي عياض والقرطبي عن الخطابي مقرين له، فقال ـ في كلامه عن الرقى المكروهة ـ: «... وإنما جاءت الكراهية منها مما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا أو قولًا يدخله الشرك... ويحتمل الذي ذكره من الرقية ما كان منها على مذاهب الجاهلية في العوذ التي كانوا يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أنّ ذلك من قبل الجن ومعونتهم»(٤).

ولا ريب أنّ هذا من الشرك الأكبر؛ لما فيه من دعاء غير الله ﷻ.

---

(١) المنتقى (٧/ ٢٥٨).

(٢) الاستذكار (٢٧/ ٣٢).

(٣) المفهم (١/ ٤٦٦).

(٤) إكمال المعلم (١/ ٦٠٦). وانظر المفهم (١/ ٤٦٢)، ومعالم السنن للخطابي (٤/ ٢٠٩).

[١٤] وعند حديث عائشة رضي الله عنها «أنّ النبي ﷺ رخّص في الرقية من كل ذي حُمة[١]»[٢]، قال ابن بطال: «هذا الحديث يبين ما روي عن علي وابن مسعود أنهما قالا: «الرقى والتمائم والتولة شرك»: أنّ المراد بذلك رقى الجاهلية وما يضاهي السحر من الرقى المكروهة، ونقل عن ابن شهاب قال: «بلغني عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون: إنّ رسول الله ﷺ نهى عن الرقى حين قدم المدينة، وكان الرقى في ذلك الزمن فيها كثير من كلام الشرك...»[٣].

فجعل النهي عن الرقى هنا بسبب ما اشتملت عليه من الشرك، فما خلا من ذلك فإنه جائز إذا استوفى الشروط المذكورة آنفًا.

[١٥] ونقل محمّد المختار على سبيل الإقرار ما أورده ابن حجر من حديث عوف بن مالك الأشجعي، ثم قال: «.. دل حديث عوف على أنّ ما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يمنع، وما يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك، فيمنع احتياطًا»[٤].

وأما اعتقاد تأثير الرقى والتمائم بذاتها فقد أنكره أئمة المالكية.

[١٦] وفي هذا يقول ابن الحاج في كلامه عن الرقى والتداوي: «الأشياء لا تؤثر بذواتها ولا بخاصية فيها، بل بمحض اعتقاده بأنه لا فاعل على الحقيقة إلّا الله ﷻ، وأنه

---

(١) قال ابن الأثير: الحُمة بالتخفيف: السُّمُّ. انظر النهاية (١/ ٤٤٦).

(٢) خرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٩٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٣٩)، والترمذي (٢٠٥٦) عن أبي أنس ﷺ. وصححه الألباني والأرنؤوط. انظر صحيح سنن الترمذي (٢/ ٤٠٤)، والمسند (٦/ ١٩٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٣١_٤٣٢).

(٤) نور الحق (٩/ ٧١). وانظر فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

لا تأثير لشيء من المحدثات في شيء، فالدواء لا ينفع بنفسه بل الشفاء وغيره خلق من خلق الله ﷻ»[١].

[١٧] ونص الصاوي على أنّ من اعتقد أن الرقيا تؤثر بنفسها فإنه كفر[٢].

[١٨] ولذا حين خرج الإمام مالك بسنده حديث أبي بشير الأنصاري أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولًا ـ قال عبدالله بن أبي بكر: حسبت أنه قال: والناس في مقيلهم ـ: «**لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلّا قطعت**»[٣]، قال رحمه الله: «أرى ذلك من العين»[٤].

ومراد الإمام مالك أنه بتعليقهم هذه القلائد والتمائم يعتقدون أنها تصرف عنهم الضرر، ومن ذلك العين.

[١٩] يدل على هذا ما عرف به ابن عبدالبر التمائم بقوله: «ما علّق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها من أنواع البلاء»[٥].

[٢٠] وقد علق ابن بطال على كلام الإمام مالك هنا في «الذي قلدها إذا اعتقد أنها ترد العين فقد ظنّ أنها تردّ القدر، ولا يجوز اعتقاد هذا»[٦].

---

(١) المدخل (٤/ ٣٢٤ـ٣٢٥).

(٢) بلغة السالك (٤/ ٤٣٧).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (٦/ ١٤١) برقم (٣٠٠٥)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير (٣/ ١٦٧٢) برقم (٢١١٥).

(٤) الموطأ (٢/ ٩٣٧).

(٥) التمهيد (١٧/ ١٦٢).

(٦) شرح البخاري (٥/ ١٥٩).

[٢١] ونظيره قال به الباجي في بيانه معنى قول مالك(١).

[٢٢] ونحو من قول ابن بطال والباجي ما ذكره الزرقاني عند إيراده مقالة مالك، ثم عقب بقوله: «يؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه: «**من علّق تميمةً فلا أتمّ الله له**»(٢)»(٣).

وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ لتعصمهم من الآفات.

[٢٣] كما بين ذلك ابن عبدالبر بقوله: «وهذا كله تحذير ومنع مما كان أهل الجاهلية يصنعون من تعليق التمائم والقلائد يظنون أنها تقيهم وتصرف البلاء عنهم، وذلك لا يصرفه إلّا الله ﷻ، وهو المعافي والمبتلي لا شريك له، فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم»(٤).

[٢٤] وقد ذكر القرطبي النهي عن ذلك بإيراده «فعل ابن مسعود ﵁ حين رأى على أم ولده(٥) تميمةً مربوطةً فجبذها جبذًا شديدًا، فقطعها وقال: إنّ آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك! ثم قال: «إنّ التمائم والرقى والتولة شرك»، وحديث عقبة بن

(١) المنتقى (٧/ ٢٥٥).

(٢) خرجه الإمام أحمد (٤/ ١٥٤)، والحاكم (٤/ ٢١٦) وصححه، ووافقه الذهبي. قال المنذري في الترغيب والترهيب: «إسناده جيد». (٤/ ٣٠٦). وقال الهيثمي (٥/ ١٠٣) بعدما عزاه لأحمد وأبي يعلى والطبراني: «رجالهم ثقات». قال الأرنؤوط بعد أن ساق طرقه: «حديث حسن». المسند (٤/ ١٥٤).

(٣) شرح الزرقاني (٤/ ٣١٩).

(٤) التمهيد (١٧/ ١٦٢).

(٥) ولعلها زوجته كما سبق في الحديث. انظر الحاشية ص ٣٩٧.

عامر الجهني: «من علق تميمةً فلا أتمّ الله له، ومن علّق ودعة فلا ودع الله له قلبًا».

[٢٥] ثم عقب على ذلك بنقل قول ابن عبدالبر السابق مقرًّا له بيانه عقيدة أهل الجاهلية في التمائم والقلائد[١].

ولا ريب أنّ من اعتقد أن إلى التمائم والقلائد صرف البلاء ودفعه فهو مشرك بالله تعالى، فالنفع والضر من الله وحده.

وذلك لأنّ من تعلّق شيئًا من هذه الأشياء فإنما يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينـزل خوفه ورجاؤه وأمله به، وهذا الذي أراده السحرة في صنيعهم التمائم كي يُعبد غير الله تعالى ويتعلق به.

[٢٦] كما بينه الإمام مالك بقوله: «الأسماء التي يكتبها السحرة في التمائم أسماء أصنام»[٢].

[٢٧] وأبان القرطبي أبو العباس عند حديث أبي بشير وقول مالك السابق وما كان عليه القوم بقوله: «يعني أنهم كانوا يتعوّذون بتعليق أوتار قسيّهم في أعناق إبلهم من العين، فأمر النبي ﷺ بقطعها لأجل توقع ذلك»[٣].

ومعلوم أن الاستعاذة عبادة لا تجوز بغير الله تعالى، فمن استعاذ بما تعلقه من وتر أو قلادة فقد أشرك بالله تعالى.

[٢٨] ولما سئل ابن العربي عما يتعلقه الناس من الأحراز والأحجار: ما قولكم فيها؟ قال: «روى أبو عيسى وغيره من حديث عبدالله بن عكيم أنه نزلت به حمرة

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٣٧).

(٣) المفهم (٥/ ٤٣٥).

فقيل: ألا تعلّق شيئًا؟ قال: قال النبي ﷺ: «**من تعلّق شيئًا وكل إليه**»[(١)]، وذلك أن الجهال يزعمون أن في الجمادات والحيوانات خصائص من الوقاية وكلام أهل الإلحاد و الصنارات، وذلك شرك. . .

[٢٩] ثم نبه على مسألة مهمة لها صلة بالتمائم، وهي مسألة تعليق التمائم من القرآن، فقال: «**إذا تعلق قرآنًا فإنه وإن كان تقاة لكنه ليس من طريق السنة، وإنما السنة فيه الذكر دون التعليق**»[(٢)].

فلو كان تعليق ما فيه ذكر مشروعًا لبيّنه النبي ﷺ كما بين المشروع من الرقى[(٣)].

---

(١) خرجه الإمام أحمد (٤/ ٣١٠ـ٣١١)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٤/ ٢١٦) عن عبدالله ابن عكيم مرسلًا، وفيه عبدالرحمن بن أبي ليلى صدوق سيئ الحفظ، قال الترمذي: لم يسمع من النبي ﷺ. اهـ. وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين وعقبة ابن عامر ﷺ يحسّن بها الحديث. قال الأرنؤوط: «حسن لغيره». انظر المسند (٤/ ٣١٠).

(٢) عارضة الأحوذي (٨/ ٢٢٢).

(٣) وهذه المسألة ـ أعني تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته ـ قالت طائفة بجوازها، وهو قول عبدالله بن عمرو وغيره، وظاهر ما روي عن عائشة، وحملوا النهي في ذلك على التمائم الشركية. وقالت طائفة: لا يجوز ذلك. وهو قول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال جماعة من التابعين. انظر أقوال العلماء في هذه المسألة في: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٤) ط. الدار السلفية، وتيسير العزيز الحميد (١٦٨)، ومعارج القبول (١/ ٣٨٢).

والذي ورد هو القراءة على المريض دون التعليق؛ لأن التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم فإنه ينفع بإذن الله، وقد يحصل الامتهان لهذه التميمة، سيما إذا علقت على الصغار، وحيث كان الخلاف في هذه المسألة قديمًا فإن الباجي وابن عبدالبر نقلا عن مالك جواز تعليق العوذة من القرآن، وقال به الباجي. انظر: المنتقى (٧/ ٢٥٥).

قال مالك: «لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله ﷻ على أعناق المرضى على وجه =

[٣٠] ونقل القرافي قول ابن رشد مقرًا له عن التمائم ما كان منها «بالعبراني وما لا يُعرف فيحرم للمريض والصحيح ؛ لما يخشى أن يكون فيها من الكفر»[(١)] .

[٣١ ـ ٣٢] وذكر هذا المعنى أيضًا ابن جزي[(٢)] ، وابن أبي جمرة[(٣)] .

والمعنى الذي تخوفوه هو ما سبق بيانه من التعلق بغير الله تعالى لدفع الضر وجلب النفع .

= التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين» . انظر التمهيد (١٧/ ١٦١) . وقال بذلك ابن عبدالبر بعد نزول البلاء . وانظر التمهيد (١٧/ ١٦٤) ، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٠) ، وابن بطال في شرح البخاري (٥/ ١٦٠) .

والصواب عدم جواز تعليق التمائم التي من القرآن والأدعية ، وذلك لأن قول عائشة : «إن التميمة ما علق قبل البلاء لا بعده» ـ البيهقي (٩/ ٣٥١) ، والمستدرك (٤/ ٢١٧) ـ مجمل لم تذكر فيه تعليق القرآن وإنما ذكرت أن التميمة ما علق قبل نزول البلاء لا بعده ، وقولها محتمل فلا ينسب لها القول بجواز تعليق القرآن لمجرد هذه الرواية .

وأما ما روي عن عبدالله بن عمرو فإنه لا يصح ، لعنعنة محمّد بن إسحاق ، وهو مدلس يقول الشيخ محمّد حامد الفقي رحمه الله في تعليقه على ما روي عن عبدالله بن عمرو : « . . . الرواية بذلك ضعيفة ولا تدل على هذا ؛ لأن فيها أن ابن عمرو كان يحفظه أولاده الكبار ويكتبه في ألواح ويعلقه في عنق الصغار ، فالظاهر أنه كان يعلقه في اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة ، والتميمة تكتب في ورقة لا في لوح ، بدليل تحفيظه للكبار» .

انظر هامش فتح المجيد (١٣٢) ، والسلسلة الصحيحة (١/ ٥٨٥) ، والنهج السديد (٦١) ، وصحيح سنن أبي داود (٢/ ٧٣٧) . وانظر كتاب التمائم في ميزان العقيدة ، د . علي بن نفيع العلياني ، وأحكام الرقى والتمائم ، د . فهد السحيمي .

(١) الذخيرة (١٣/ ٣١١) .

(٢) انظر القوانين الفقهية (٤٨٦) . ط . دار الملايين .

(٣) انظر بهجة النفوس (٢/ ٢٢٧) .

وهذا المعنى سواء كان في الرقى أو التمائم فإنه ممنوع، وهذا يبين أن المالكية جعلوا الرقى والتمائم بابًا واحدًا كما تقدم.

وبالجملة؛ فإن المتأمّل حال أهل الرقى والتمائم الشركية يرى أنهم سلكوا مسلك أهل الجاهلية من حيث الألفاظ التي اشملت على دعاء غير الله فيما لا يملكه إلّا الله، أو في الاعتقاد الباطل بأن تلك الرقى والتمائم تجلب النفع أو تدفع الضر.

فهم بهذا إنما أرادوا ذكر غير الله تعالى من الشياطين والجن، والاستعاذة بهم وبمردتهم، وتعلق الناس بهم، ومن كان هذا قصده فلن يلتفت إلى الرقى المشروعة بشروطها المعتبرة، ولا إلى ما اختلف فيه من التمائم كما سلف بيانه.

ولا ريب أن هذا شرك أكبر؛ لما فيه من دعاء غير الله واعتقادهم أن النفع والضر جاء من قبل تلك الرقى والتمائم.

*****

المبحث الثاني

الشرك المنافي لكمال التوحيد

وفيه المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الحلف بغير الله.

المسألة الثانية: التعبيد لغير الله ﷻ.

المسألة الثالثة: التسمي بملك الملوك.

المسألة الرابعة: الطيرة.

المسألة الخامسة: التبرك الممنوع.

المسألة السادسة: سبّ الدهر.

المسألة الأولى: الحلف بغير الله عز وجل

لما كان الحلف بغير الله تعالى مما تعجّ به الجاهلية، فقد جاء النهي عنه والتشديد في ذلك بصفته ضربًا من الشرك بالله تعالى، كما تظاهرت النصوص الشرعية بذلك. ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**(١).

ومنها حديث قتيلة الجهنية رضي الله عنها أنّ حبرًا أتى النبي ﷺ فقال: يا محمّد! نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون. قال: **«سبحان الله! وما ذاك؟»**. قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة، قالت: فأمهل رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال: **«إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة»**(٢).

فأقرّ عليه الصلاة والسلام تسمية هذا الحلف بالشرك ونهى عنه. ولذا فإن من أشرك بالحلف بغير الله ناسيًا أو جاهلًا فكفارته أن ينطق بالتوحيد عقب ذلك؛ لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «من حلف فقال في حلفه: باللات

---

(١) خرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٤-٨٦)، والطيالسي (١٨٩٦)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) وحسنه، وابن حبان (١١٧٧) وحسنه، والحاكم (١/ ١٨ و٤/ ٢٩٧) وصححه على شرطهما، وأقرّه الذهبي، وصححه الألباني. صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٧٥). وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات. المسند (٢/ ٣٤).

(٢) خرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والنسائي (٧/ ٦)، والحاكم (٤/ ٢٩٧) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣/ ٢١٦). وصححه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٨٩)، وصححه الألباني. انظر صحيح سنن النسائي (٣/ ٩).

والعزى، فليقل: لا إله إلّا الله»[(١)].

[١] قال ابن بطال: «فإنه علمهم ﷺ أنه من نسي أو جهل فحلف بذلك أن كفارته أن يشهد شهادة التوحيد؛ لأنه قد تقدم ﷺ إليهم بالنهي عن أن يحلف أحد بغير الله، فعذر الناسي والجاهل»[(٢)].

ولا ريب أنّ المسلم قد اختل توحيده من جراء هذا الحلف، فأمر حينئذ بتجديد إسلامه مرةً أخرى.

ومما يدل على التغليظ على من حلف بغير الله ما جاء في حديث بريدة المرفوع: «من حلف بالأمانة فليس منّا»[(٣)].

وكذلك ما جاء عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[(٤)].

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت (١١/ ٥٣٦) برقم (٦٦٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلّا الله (٣/ ١٢٦٧) برقم (١٦٤٧).

(٢) شرح البخاري (٩/ ٢٩٢).

(٣) خرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٢)، وأبو داود (٣٢٥٣)، وابن حبان (١٣١٨)، والحاكم (٤/ ٢٩٨) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٨٢)، وصححه الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود (٢/ ٣١٤)، والأرنؤوط في المسند (٥/ ٣٥٢).

(٤) خرجه عبدالرزاق (٨/ ٤٦٩)، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) عن ابن مسعود بسند صحيح. وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٦٠٧) ـ وتبعه الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧) ـ: «رواته رواة الصحيح». وأما المرفوع عن ابن مسعود كما في الحلية (٧/ ٢٦٧) فسنده لا يصح؛ لأنّ فيه محمّد بن معاوية بن أعين النيسابوري كذبه ابن معين والدارقطني وأبو طاهر المدني، كما في التهذيب (٩/ ٤٦٤ـ٤٦٥).

وما ذاك إلّا لأجل أن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، ولأن تبعة الشرك أعظم من تبعة الكذب.

وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] بقوله: «الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهي أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي...»(١).

وهذا كله يبين أنّ الحلف بغير الله ﷻ منكر عظيم وشرك وضلال.

وقد بين أئمة المالكية حرمة الحلف بغير الله تعالى، إلّا أنه خالف بعض متأخري(٢) المالكية متقدميهم فقالوا بكراهة الحلف بغير الله ﷻ(٣).

ولعل هذا القول سرى إليهم من الشافعية، حيث يقول جمهورهم بكراهة الحلف بغير الله(٤).

ولهذا لم يرتض القرطبي أبو العباس هذا القول لأصحابه المالكية، وجعل

---

(١) خرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٢) ـ كما في تفسير ابن كثير (١/ ٢١٠) عند قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾ ـ عنه بسند حسن، فيه شبيب بن بشير وهو حسن الحديث. انظر النهج السديد (٢٢٢).

(٢) ذكر القرافي القول بالكراهة، ونقله عن ابن رشد في تقسيمه لليمين. انظر الفروق (٣/ ٥١)، ونقله ابن جزي في القوانين الفقهية (١٥٣)، والمقدمات لابن رشد (٢/ ٤٠٨)، والذخيرة (٤/ ٦).

(٣) ذكر الزرقاني أنّ القول بتحريم الحلف بغير الله قد اشتهر عند المالكية، فقال ـ عند حديث عمر ﷺ: «هل النهي للتحريم أو للتنـزيه؟ قولان شهرا عند المالكية، والمشهور عند الشافعية أنه للتنـزيه، وعند الحنابلة للتحريم». شرح الزرقاني (٣/ ٦٧).

(٤) نسبه ابن حجر في الفتح (٢٥/ ٢٠) لجمهور الشافعية، ونسبه السبكي في الطبقات (٥/ ٢٨٠) لمعظمهم.

الحلف بغير الله تعالى كفرًا أو كبيرة من كبائر الذنوب، وذلك حسب قصد الحالف، وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: «**من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال ـ وفي رواية: متعمّدًا ـ**»(١).

[٢] حيث قال: «قوله: «كاذبًا متعمّدًا» يحتمل أنه يريد به النبي ﷺ من كان معتقدًا لتعظيم تلك الملة المغايرة لملة الإسلام، وحينئذ يكون كافرًا حقيقة... وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثم مرتكب كبيرةً، إذ قد نسبه في قوله لمن يعظم تلك الملة ويعتقدها، فغلظ عليه الوعيد بأن صيَّره كواحد منهم مبالغةً في الردع والزجر»(٢).

[٣] وعند نهي النبي ﷺ عن الحلف بالآباء بين القرطبي أن المراد تعظيمهم بذلك، فلا يكون الحلف إلّا بالله، إذ هو المستحق للتعظيم، فقال: «إنما نهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء لما فيه من تعظيمهم بصيغ الأيمان؛ لأنّ العادة جارية بأن الحالف منا إنما يحلف بأعظم ما يعتقده كما بيناه، وإذا كان كذلك فلا أعظم عند المؤمن من الله تعالى، فينبغي ألّا يحلف بغيره، فإذا حلف بغير الله فقد عظّم ذلك الغير بمثل ما عظم به الله تعالى، وذلك ممنوع منه، وهذا الذي ذكرناه في الآباء جاء في كل محلوف به غير الله تعالى، وإنما جرى ذكر الآباء هنا لأنه هو السبب الذي أثار الحديث حين سمع النبي ﷺ عمر يحلف بأبيه، وقد شهد لهذا المعنى قوله: «من كان حالفًا فلا يحلف إلّا بالله»، وهذا حصر، وعلى ما قررناه فظاهر النهي التحريم، فيتحقق فيما إذا حلف بملة غير الإسلام أو بشيء من المعبودات دون الله تعالى، أو

(١) خرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١/ ١٠٤ـ١٠٥) برقم (١١٠).

(٢) المفهم (١/ ٣١٢).

ما كانت الجاهلية تحلف به، كالدمى والدماء والأنصاب، فهذا لا يشك في تحريمه. وأما الحلف بالآباء والأشراف ورؤوس السلاطين وحياتهم ونعمهم وما شكل ذلك فظاهر هذا الحديث يتناولهم بحكم عمومه، ولا ينبغي أن يختلف في تحريمه. وأما ما كان معظَّمًا في الشرع ـ مثل النبي ﷺ، والكعبة، والعرش، والكرسي، وحرمة الصالحين ـ فأصحابنا يطلقون على الحلف بها الكراهية، وظاهر الحديث وما قدّمناه من النظر في المعنى يقتضي التحريم»[(١)].

فما ذكره رحمه الله من تحريم الحلف بغير الله هو الصواب الذي عليه عامة العلماء.

[٤] كما ذكره ابن عبدالبر بقوله: «لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ في شيء من الأشياء، ولا حال من الأحوال، وهذا أمر مجتمع عليه...». ثم عقب بذكر حديث: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وحديث عمر رضي الله عنه: «**لا تحلفوا بآبائكم**»، ثم قال: «والحلف بالمخلوقات كلها في حكم الحلف بالآباء لا يجوز بشيء من ذلك»[(٢)].

فنقله رحمه الله الإجماع ثم تعقيبه على ذلك بحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وحديث عمر يدلّ على أنه يرى تحريم الحلف بغير الله ﷻ، كما هو رأي متقدمي المالكية أيضًا.

[٥] فقد خرج الإمام مالك في موطئه حديث عمر رضي الله عنه النهي عن الحلف بالآباء في باب جامع الإيمان، ولم يعلق عليه، مما يدل على أنه يقول بموجبه.

روى الإمام مالك بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) المفهم (٤/ ٦٢١).

(٢) التمهيد (١٤/ ٣٦٦).

«إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[١].

[٦] يوضح هذا المعنى ما ذكره القرطبي عن مالك: «أنه حمل الحديث على ظاهره»[٢].

[٧] وقد أهدر الإمام مالك رحمه الله حلف النصارى والمجوس بما يعظمونه، مع أنهم قد يصدقون إذا حلفوا بها، وذلك منه حماية للتوحيد حتى لا يحلف إلّا بالله تعالى وحده.

فحين سئل عن النصرانية تكون تحت المسلم أن تلتعن؟ قال: «في كنيستها، وحيث تعظم وتحلف بالله فقط».

قال ابن القاسم: ما سمعته يقول: يحلفون إلّا بالله فقط.. وكذلك في المجوس قال: لا يحلفون إلّا بالله حيث يعظمون»[٣].

[٨] وذكر القرطبي «أنّ المشهور عن مالك أنه إنما يحلف بالله الذي لا إله إلّا هو، سواء كان يهوديًا أو نصرانيًا أو غيرهما من الأديان، كما يحلف المسلم»[٤].

وذلك لما تقرر عنده من أن المسلم لا يحلف إلّا بالله تعالى.

فتأكيده رحمه الله على أن لا يحلف أحد إلّا بالله يبين أنه يرى المنع من أن

---

(١) الموطأ (٢/ ٤٨٠). وخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم (١١/ ٥٣٠) برقم (٦٦٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٣/ ١٢٦٦) برقم (١٦٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٤٢).

(٣) المدونة (٥/ ١٣٥).

(٤) المفهم (٥/ ١٥).

يحلف بغيره تعالى مطلقًا[١]، كما نص على ذلك بقوله: «من كان حالفًا فليحلف بالله»[٢].

[٩] يوضح هذا المعنى عن مالك ويؤكده كراهته أن يحلف أحد بلسان أعجمي، إذ لا يعلم هل حلف بالله أم لا. فحين سئل مالك عن الرجل يحلف بالعجمية فكره ذلك.. وقال: «وما يدريه الذي قال أهو كما قال؟» أي الذي حلف به أنه هو الله، ما يدريه أنه هو أم لا[٣].

فالمعنى الذي كره مالك الحلف من أجله هنا هو أن يحلف أحد بغير الله تعالى.

[١٠] وقد منع ابن نصر الحلف بغير الله تعالى، مبيّنًا أن الحلف إنما يكون بالله تعالى وبصفاته فقط، فقال: «الحلف الجائز هو بالله وبصفات ذاته، والحلف بغيره ممنوع، كالحلف بالأنبياء والآباء أو بالكعبة، أو ما أشبه ذلك من المخلوقات؛ لقوله ﷺ: **«لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا تحلفوا إلّا بالله، ومن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»**[٤].

[١١] وذكر ابن بطال عند شرحه حديث عمر رضي الله عنه أن الحلف بغير الله تعالى شرك، فقال: «... فلم ير النبي ﷺ إكفار عمر حين حلف بأبيه وترك الحلف بربه الذي خلقه ورزقه وهداه، وقصد اليمين بغير الله تشريك لله في حقه... إذ لا يحلف

---

(١) وقد جاء عن مالك النهي عن الحلف بغير الله، كما ذكره ابن عبدالبر في التمهيد (١٤/ ٣٦٦)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٤٠)، والمقدمات لابن رشد (٣٠٨ـ٣٠٩)، وشرح الصغير للدرديري (٢/ ٢٠٣).

(٢) المدونة (٢/ ١٠٧).

(٣) المدونة (١/ ٦٢ـ٦٣).

(٤) المعونة (١/ ٤١٢).

الحالف إلّا بأعظم ما عنده من الحقوق، ولا أعظم من حق الله على عباده»[(١)].

[١٢] وبين فيما نقله عن الطبري مقرًا له أنّ الحلف لا يجوز بغير الله تعالى أبدًا، فقال: «إن الأيمان لا تصلح بغير الله تعالى كائنًا من كان، وأن من قال: والكعبة، أو وجبريل وميكائيل، أو آدم وحواء، ونوح، أو قال: وعذاب الله، أو ثواب الله، أنه قد قال من القول هجرًا»[(٢)].

وهذا يدل على تحريم الحلف بغير الله تعالى، إذ هو في حقيقته شرك ومنكر من القول.

[١٣] وأما الباجي فقد بين عند حديث عمر ﷺ أنّ النهي يعم ما سوى الله تعالى، مستدلّا على ذلك بقوله ﷺ: **«من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»** ثم قال: «فلا يكون الحلف إلّا بالله، ومن تعدّاه فلا يتعداه إلا إلى الصمت. . . وعلى هذا جماعة المسلمين، امتثالًا لأمر النبي ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يحلف بالشمس، ولا بالقمر، ولا بالنجوم، ولا بالسماء، ولا بالأرض، ولا بشيء من المخلوقات، ومن حلف بذلك فقد أثم، ولا شيء عليه»[(٣)].

وعقب على ذلك بأثر عبدالله بن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا».

فنص على تحريم الحلف بغير الله تعالى، فمن أقدم عليه فقد وقع في الإثم ولا يلزمه شيء من جهة الكفارة لو حنث.

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٢٩٢).

(٢) المرجع السابق (٦/ ٩٦_٩٧).

(٣) المنتقى (٣/ ٢٥٩).

[١٤] وقرر المازري تحريم الحلف بغير الله تعالى، وذلك عند تعليقه على قوله ﷺ: «**إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**»، وجوابه عن الإشكال من الحكم بتحريم الحلف بالآباء والنبي ﷺ قد حلف بذلك، وما في القرآن من القسم بغير الله، فقال: «هذا لئلا يشرك في التعظيم بالقسم غير الله سبحانه، وقد قال ابن عباس: لأن أحلف بالله فآثم أحبّ إليّ من أن أضاهي. فقيل: معناه الحلف بغير الله، وقيل: معناه الخديعة يري أنه حلف وما حلف، وقد قال ابن عباس أيضًا: أن أحلف بالله مائة مرة فآثم خير من أحلف بغيره فأبر. ولهذا ينهى عن اليمين بسائر المخلوقات، ولا يعترض علي هذا بقوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»؛ لأنه لا يراد بها القسم، وإنما هذا قول جار على ألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ قيل: معناه ورب التين والزيتون، أو يكون المراد به التنبيه على ما فيها من العجائب والمنة بها عليهم، ولا يراد بهما القسم، ولو سلمنا أن المرد بهما القسم من غير حذف وإضمار لم يبعد أن يكون الباري سبحانه يقسم بهما ويمنعنا من القسم بهما، وتعظيم الباري جلت قدرته للأشياء بخلف تعظيمنا لها؛ لأن كل حق بالإضافة إلى حقه سبحانه حقير، وكل عظيم عند الإضافة إليه هيّن... وإنما تعظيمه لبعض الأمور تنبيه لنا على قدرها عنده، أو تعبد لنا بأن نعظمها فلا يقاس هذا على هذا»[(١)][(٢)].

---

(١) المعلم (٢/ ٢٤٠).

(٢) وقد أجاب كثير من المالكية عن هذا الإشكال، والخلاصة في ذلك ما ذكره القرطبي بأن هذا كان قبل النهي عن الحلف بالآباء، أو أن يكون جرى على اللسان بحكم السبق من غير قصد للحلف به، كما جرى منه: تربت يمينك، وعقرى حلقى، عادة بشرية لا مؤاخذة عليها ولا ذم يتعلق بها.

ويرى ابن عبدالبر أن لفظة حديث «**أفلح وأبيه إن صدق**» غير محفوظة، وعلى فرض ثبوتها =

[١٥] وأورد ابن العربي أحاديث النهي عن الحلف بغير الله، وهي حديث ابن عمر: «**من حلف بغير الله فقد كفر ـ أو قد أشرك ـ**»، وحديث أبي هريرة: «**من حلف منكم فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلّا الله**»، وحديث ثابت بن الضحاك: أن النبي ﷺ قال: «**من حلف بملة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال**»، ثم قال: «لما كانت اليمين عقدًا بالقلب على فعل أو ترك وعزم عليه أخبر عنه الحالف ثم أكده بمعظَّم عنده حجر الشرع التعظيم على غير الله... فإذا عظّم غير الله أثم إثمًا عظيمًا على قدر حال المعظم، فقد يكون منه الذنب وقد يكون منه الكفر..»(١).

ومراده بالمنع من الحلف بغير الله، فهي إما شرك(٢) بالله تعالى أو دون ذلك،

= فهي منسوخة بحديث النهي عن الحلف بغير الله، حيث يقول: «هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث في حديث من يحتج به، وقد روى هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل، ولم يقولوا ذلك فيه، وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث، وفيه: «**أفلح والله إن صدق**»، أو «**دخل الجنة إن صدق**»، وهذا أولى من رواية من روى «أبيه»؛ لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح». التمهيد (١٤/ ٣٦٧).

انظر أجوبة المالكية عن الأحاديث المشار إليها: المفهم (١/ ١٦٠)، والمنتقى للباجي (٣/ ٢٥٩)، وإكمال المعلم للقاضي عياض (١/ ٢٢٤)، وأضواء البيان لمحمد الأمين (٣/ ٣٤)، وشرح البخاري لابن بطال (٦/ ١٠٢).

(١) عارضة الأحوذي (٧/ ١٦ـ١٧).

(٢) بين ابن العربي أن المراد بالشرك الشرك الأصغر فقال: «وأما قوله: «**من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر**» فيريد به شرك الأعمال وكفرها، وليس بشرك الاعتقاد ولا كفره، كقوله ﷺ: «**من أبق من مواليه فقد كفر**»، ونسبة الكفر لحديث النسائي وقوله عند ربه: «**إني لا أقبل عملًا أشرك معي فيه غيري، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك**». عارضة الأحوذي (٧/ ١٩).

وهذا يبين أن الحلف بغير الله من الشرك الأصغر، وقد يتمادى إلى الشرك الأكبر إذا وصل تعظيم المحلوف به كتعظيم الله واعتقاد ذلك.

ولا تخلو من الإثم، فهي محرّمة بكل حال.

[١٦ ـ ٢٠] وممن قال بالتحريم الفاسي حيث يقول: «وأما القسم فلا يجوز بحال بغير الله...»[(١)]، والأبي[(٢)]، والعدوي[(٣)]، الهادي الدرقاش[(٤)]، والحطاب[(٥)].

[٢١] ورد[(٦)] القرطبي أبو عبدالله على من قال: إنّ اليمين تنعقد إذا حلف بالنبي ﷺ بقوله: «وهذا يرده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر ابن الخطاب في ركب يحلف بأبيه... الحديث».

وهذا حصر في عدم الحلف بكل شيء سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته كما ذكرنا، ومما يحقق ذلك ما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلّا بالله، ولا تحلفوا بالله إلّا وأنتم صادقون»**[(٧)]. »[(٨)].

فقصر الحلف على الله تعالى بأسمائه وصفاته، وما سوى ذلك فهي أيمان محرمة

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٢/ ٣٧).

(٢) انظر جواهر الإكليل (١/ ٢٢٥ـ٢٢٦).

(٣) انظر حاشية العدوي (٢/ ٢٥).

(٤) انظر فقه الرسالة (٢٤٨). ط. دار قتيبة ـ بيروت.

(٥) انظر مواهب الجليل (٣/ ٢٦٤). ط. دار الفكر.

(٦) فقد نقل قول الإمام أحمد بن حنبل ثم ردّ عليه. انظر التفسير (٦/ ٢٧٠).

(٧) خرجه ابن حبان (٤٣٥٧)، وأبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٠٤)، والحافظ في التلخيص (٤/ ١٦٨). وصححه الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود (٢/ ٣١٣)، وصحيح سنن النسائي (٣/ ٧).

(٨) تفسير القرطبي (٦/ ٢٧٠ـ٢٧١).

غير منعقدة، فإذا لم يصح الحلف بالنبي ﷺ فغيره من سائر المخلوقات من باب أولى.

[٢٢] ولذا قال محمّد الأمين: «اعلم أنّ اليمين لا تنعقد إلّا بأسماء الله وصفاته، فلا يجوز القسم بمخلوق؛ لقوله ﷺ: **«من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»**[١].»[٢].

[٢٣] وردّ على من جوّز الحلف بالنبي ﷺ، مبينًا مصادمته لأمر النبي ﷺ المانع من الحلف بغير الله، فقال: «ولا تنعقد يمين بمخلوق كائنًا من كان، كما أنه لا تجوز بإجماع من يُعتدّ به من أهل العلم، وبالنص الصحيح الصريح في منع الحلف بغير الله»[٣].

وما قرّره رحمه الله ـ من حرمة الحلف بمخلوق كائنًا من كان ـ هو الصواب الذي عليه عامة علماء المسلمين[٤]، إذ إنّ في حلف المخلوق بغير الخالق ما قد يجر إلى الخروج من الملة، وذلك لأن الحلف بغير الله ممنوع؛ لصراحة الأحاديث الدالة على النهي وعدم وجود الاستثناء فيها، مما قد يجرّ إلى نوع من الشرك الأكبر، إذ إنّ الحالف قد يتدرّج في تعظيم المحلوف حتى يصل به إلى درجة المساواة مع الخالق جل وعلا، وبهذا يكون شركًا أكبر عياذًا بالله.

[٢٤] ولهذا المعنى فقد منع الميلي الحلف بغير الله تعالى، مبيّنًا أنّ أولئك القوم قد فاقوا المثلّثة في شركهم بهذا الفعل، فقال: «نهى الرسول ﷺ عن الحلف

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٦.

(٢) أضواء البيان (٢/ ١٢٣ و٣/ ٣٤).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٢٣).

(٤) تقدم نقل الإجماع من قول ابن عبدالبر والباجي ص ٥٠٦ ـ ٥٠٩.

بالمخلوق فأبى أكثر الناس إلّا الحلف به، وأغلظ في النهي حتى بلغ به نهي الشرك والكفر فأجروا هذه اليمين على ألسنتهم أكثر من اليمين بالله، وأمر من حلف بالله أن يصدق فتلاعبوا باليمين الشرعية واحترموا اليمين الشركية، وأمر من حلف بالله أن يرضى ويكل أمر الحالف إلى الله فلم يطمئنّوا إلّا للحلف بأوليائهم، وهكذا تراهم يُعظّمون الأيمان بأوليائهم ويخشون الحنث أكثر من تعظيم اليمين بالله وخشية الحنث فيها. وكم بلغنا أنهم يستحلفون بالله على الشيء فيسرعون إلى الحلف على خلاف الواقع، ثم يستحلفون بشيوخهم أو آبائهم فتخرس ألسنتهم وتجف أرياقهم، ويعترفون بكذبهم في اليمين بالله ولا يستحون، يا لله للمسلمين ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]!»(١).

ثم نقل هذا المعنى عن الشوكاني قوله: «وقد تواتر إلينا من الأخبار ما لا شك معه أنّ كثيرًا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجرًا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني، تلعثم وتلكّأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه ـ تعالى ـ ثاني اثنين، أو ثالث ثلاثة»(٢).

ولا ريب أن من كانت هذه حاله فقد اتخذ هذا المحلوف به شريكًا لله تعالى يعظّمه كتعظيم الله أو أشدّ، وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة عياذًا بالله.

وخلاصة القول: أنّ الحلف بغير الله تعالى منكر وشرك بالله تعالى، كما دلّت

---

(١) رسالة الشرك (٢٧٧ـ٢٧٨).

(٢) رسالة الشرك (٢٧٧ـ٢٧٨). وانظر كتاب الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني (٤٢ـ٤٣).

عليه النصوص التي استند إليها المالكية في بيان هذا الحكم، بيد أنه من الشرك الأصغر وقد يصل إلى الشرك الأكبر إذا اعتقد في المحلوف به من التعظيم ما يعتقده في الله تعالى كما سلف ذكره.

*****

المسألة الثانية: التعبيد لغير الله عز وجل

تقدّم في التعريف بالشرك أنه: اتخاذ شريك مع الله تعالى في عبادته، ومن صور الشرك المنهي عنه أيضًا الشرك في التسمية، وهي الأسماء التي عُبّدت لغير الله تعالى.

وقد غيّر عليه الصلاة والسلام أسماء رجال عُبّدوا لغير الله تعالى(١)، وبيّن بعض المالكية أن جعل العبودية بالاسم لغيره تعالى من الشرك به عز وجل.

وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠].

وغالب أهل التأويل يوردون عند هذه الآية قصة مجملها أنّ آدم وحواء كان لا يعيش لهما ولد، فقال لها إبليس: سمّيه عبدالحارث فإنه يعيش، فسمته فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وعلى هذا حملوا وقوع الشرك المذكور في

(١) كما قال ابن عبدالبر عن عبدالرحمن بن عوف: «كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل: عبدالكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبدالرحمن». الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ٣٣٣). ط. دار الكتب العلمية ـ لبنان، ط. الأولى ١٤١٥هـ.

وكذلك أبو هريرة فقد روى الحاكم عن أبي هريرة أنه قال: «كان اسمي في الجاهلية عبدشمس بن صخر، فسميت في الإسلام عبدالرحمن». المستدرك (٣/ ٥٧٩).

قال ابن عبدالبر: «.. وقد يمكن أن يكون له في الجاهلية اسمان عبدشمس وعبد عمرو».

ويأتي كلام ابن عبدالبر إن شاء الله.

الآية: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ من آدم وحواء بتسميتهما ولدهما عبدالحارث .

ولم يرتض آخرون هذا التأويل ؛ لما فيه من الشرك الذي ينـزّه عنه أنبياء الله تعالى .

وعلى أي حال ؛ فالذي يخص البحث هنا هو التعبيد لغير الله تعالى ، مع أن المالكية برؤوا آدم وحواء من هذا الشرك .

[١] وفي هذا رأى ابن العربي بطلان ما ينسب إلى آدم وحواء مضعّفًا الحديث في ذلك(١) ، ثم قال : « . . فإنّ آدم وحواء وإن كان غرهما بالله الغرور فلا يلدغ

(١) القصة رواها الإمام أحمد (٥/ ١١) ، والترمذي (٣٠٧٧) في تفسير سورة الأعراف .
وجاءت مرفوعة من طريق الحسن البصري عن سمرة بن جندب ، وهي بهذا الطريق معلولة كما قال الحافظ ابن كثير من ثلاثة أوجه :
أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا ، فالله أعلم .
الثاني : أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعًا .
الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه . تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٤) .
وأورد بسنده عن الحسن في تفسير الآية قوله : «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم» .
وقال أيضًا من طريق آخر : «عنى بهما ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعني جعلا له شركاء فيما آتاهما» . وقال أيضًا : «هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله ولدًا فهودوا ونصروا» . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن في تفسير الآية ، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث ـ يعني حديث سمرة المذكور ـ عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لا سيما مع تقواه لله وورعه .
وأما ما ورد موقوفًا عن ابن عباس وغيره فمحتمل أنه مأخوذ من الإسرائيليات ، كما قرر ذلك ابن العربي . انظر أحكام القرآن (٢/ ٨٢٠) . والحافظ ابن كثير حيث قال ـ بعد ذكره الطرق =

المؤمن من جحر مرتين، وما كانا ليقبلا له نصحًا ولا يسمعا منه قولًا»[(١)].

وبين أن المراد بالآية جنس الآدميين؛ لأنه «أقرب للصدق وأشبه بالحق، وهو ظاهر الآية وعمومها، ويسلم منها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجهال البشر، فكيف بسادتهم وأنبيائهم»[(٢)].

ومراده أن التعبيد لغير الله تعالى من الشرك الذي لا يليق نسبته إلى آحاد الناس فضلًا عن فضلائهم وأنبيائهم.

[٢ ـ ٣] وقد أقرّ قول ابن العربي هذا القرطبي عند تفسيره للآية[(٣)]، والثعالبي حيث نقل مقالة ابن العربي ثم عقب عليها بقوله: «وهو كلام حسن»[(٤)].

[٤] وكذلك قال محمّد الأمين في معنى الآية[(٥)].

= المتعددة بالألفاظ المختلفة ـ ما لفظه: «وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف، وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأن أصله مأخوذ من أهل الكتاب..». انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٤).

وقد ضعف إسناد هذه القصة المنسوبة لآدم وحواء: الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣٢٥)، والأرنؤوط في حاشية المسند (٥/ ١١).

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٢٠).

(٢) المرجع نفسه (٢/ ٨٢٠).

(٣) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٨). ونقل ما قاله حسن بن الفضل: «وهذا أعجب إلى أهل النظر لما في القول الأول من المضاف من العظائم بنبي الله آدم». يعني الشرك.

(٤) انظر الجواهر الحسان (٢/ ٦٨ـ٦٩).

(٥) انظر أضواء البيان (٢/ ٣٤٠).

[٥] وذكر البلنسي[١] أنّ «آدم وحواء بريئان من الشرك الذي هو كفر ـ وضعّف الحديث الوارد ـ ثم نقل قول الخطيب في ذلك: «لا نسلم أن النفس المذكورة في الآية هي آدم وليس في الآية ما يدل عليه، بل نقول: هذا الخطاب لقريش والإشارة إلى قصي، والمعنى: خلقكم من نفس قصي[٢]، وجعل منها زوجها، أي: من جنسها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح سميا أولادهما عبد مناف، وعبد مناة، وعبدالعزى، وعبدالدار، وعبد قصي، فالضمير في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك»[٣].

[٦] وكذلك رجح ابن جزي براءة آدم وحواء من الشرك عند تفسيره للآية مدلّلا على ذلك بأمور ثلاثة:

١ ـ براءة آدم وزوجه من قليل الشرك وكثيره، وذلك حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ أن الذين أشركوا أولاد آدم وذريته؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

---

(١) هو محمّد بن علي بن محمّد البلنسي الغرناطي أبو عبدالله، حافظ متقن، عالم بالعربية، له كتب منها: «صلة الجمع وعائد التذييل» خ، «وتفسير مبهمات القرآن»، وله تفسير كبير ذكره ابن الخطيب، مات سنة ٧٨٢هـ. انظر: الإحاطة بأخبار غرناطة (٣/ ٣٨)، ونيل الابتهاج (٤٥٥).

(٢) ما ذكره الخطيب من جعل المراد من الآية قصي فيه نظر؛ فالله ﷻ يقول في سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ أي: آدم، وبالتالي يعلم أن المراد في آية الأعراف المشركون من ذرية آدم، وإنما نقلت ما أورده البلنسي هنا لأجل مسألة التعبيد لغير الله تعالى حيث جاءت ضمن قوله.

(٣) تفسير مبهمات القرآن (١/ ٥٠٣ـ٥٠٤). ط. دار الغرب.

بضمير الجمع.

٣ ـ أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبدالحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح»[١]. وهو غير موجود في هذه القصة.

[٧] وأوضح ابن عاشور صور هذا الشرك بقوله: «تسمية بعضهم عبد كذا مضافًا إلى اسم صنم، كما سموا عبدالعزى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليل، وعبد ضخم، وكذلك امرؤ القيس، وزيد مناءة؛ لأن الإضافة على معنى التمليك والتعبيد»[٢].

فجعل التعبيد لغير الله تعالى من فعل المشركين.

[٨] وأوضح ابن عطية أن الشرك الذي وقع إنما هو في التسمية لا غير، مرجحًا أنّ المراد بالآية مشركو العرب[٣].

وقد ذكر بعض المالكية أنّ ما ذكره الله تعالى في كتابه من تكنية أبي لهب دون ذكر اسمه عائد لأمور، منها: قبح التعبيد لغير الله تعالى، فإنّ اسم أبي لهب عبدالعزى، أي: نسبةً إلى الصنم الذي يعبدونه.

[٩] وفي هذا ذكر ابن العربي المعاني التي عدل من أجلها بتكنية أبي لهب عن ذكر اسمه، ومنها: «أنه لما كان اسمه عبدالعزى، فلم يضف الله العبودية إلى صنم في كتابه الكريم»[٤].

---

(١) التسهيل (٢/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٤).

(٣) المحرر الوجيز (٦/ ١٧٦).

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٩٩٤).

[١٠ ـ ١١] ونظيره ما ذكره القرطبي[(١)]، وابن جزي[(٢)] عند قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

[١٢] وقال ابن عاشور: «فسماه القرآن بكنيته دون اسمه؛ لأن في اسمه عبادة العزى، وذلك لا يقرّه القرآن»[(٣)].

وهكذا كل ما عبّد لغير الله تعالى يمنع في الإسلام لكونه من الشرك.

[١٣] وعند ذكر ابن بطال الاحتمالات التي من أجلها كنى الله أبا لهب نقل قول ثعلب: «إنما كنى الله أبا لهب؛ لأن اسمه عبدالعزى، والله تعالى لا يجعله عبدًا لغيره»[(٤)].

[١٤] وقال السهيلي: «أبو لهب اسمه عبدالعزى بن عبدالمطلب، ولما كان اسمه اسمًا كاذبًا من حيث أضيف إلى العزى ذكره الله بالكنية دون الاسم؛ لأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل»[(٥)].

[١٥] وأقرّ هذا القول البلنسي[(٦)].

وعلى هذا فالتعبيد لغير الله فعل قبيح وأمر شنيع، ولذا عدل إلى الكنية مع ما فيه من التكريم، حذرًا من التسمية الشركية.

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٦).
(٢) التسهيل (٤/ ٤٤٢).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠١).
(٤) شرح البخاري (٩/ ٣٥٥).
(٥) التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلي (٣٩٧). تحقيق عبدالله النقراط. ط. منشورات كلية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ. ليبيا.
(٦) تفسير مبهمات القرآن (٢/ ٧٥٧).

[١٦] ولما ذكر ابن عبدالبر الخلاف في اسم أبي هريرة هل هو عبد شمس أو عبد عمرو . . . صحح هذه التسمية له في الجاهلية ، ثم قال : «ومحال أن يكون اسمه في الإسلام عبد شمس وعبد عمرو أو عبد غنم أو عبد نهم ، وهذا وإن كان شيء منه فإنما كان في الجاهلية ، وأما في الإسلام فاسمه عبدالله أو عبدالرحمن . . »(١) .

فما ذكره من استحالة هذا الاسم بعد الإسلام لما تقرر عنده من أن التعبيد لغير الله تعالى من الشرك الذي هو صنيع أهل الجاهلية ، حيث إنهم يعتقدون استحقاق العبادة بهذا التعبيد ، وعلى هذا فمن اعتقد ذلك فهو كحال أهل الجاهلية في شركهم الشرك الأكبر عياذًا بالله عند المالكية وغيرهم من أهل العلم ، وأما ما كان من التعبيد لغير الله خاليًا من هذا الاعتقاد الفاسد فهو من الشرك الأصغر .

وهذا يشمل كل من عُبّد له غير الله تعالى سواء كان من الأنبياء والصالحين أو عند ذلك من أسماء الأصنام ونحوها ؛ لأن التعبيد لغير الله تعالى شرك بغض النظر عن نوعية الشريك .

ولهذا لم يقدم أصحاب النبي ﷺ على التسمي بعبدالنبي وعبدالرسول مع شدّة حبهم وتعظيمهم له عليه الصلاة والسلام ، ولو كان التعبيد له من الخير لسبقوا إليه رضوان الله عليهم .

ولما علموا أنّ التعبيد إنما هو لله تعالى وحده اجتنبوه وتركوه فيما سوى الله ، مع أن النبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين ، ولم يعبّدوا له فغيره من باب أولى .

وبهذا يعلم أنّ المالكية لا يرون التعبيد لغير الله تعالى لما تقرر عندهم من كونه من الشرك الذي لا يجوز فعله ولا السكوت على فاعله .

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٣٢ـ٣٣٣) .

المسألة الثالثة: التسمي بملك الأملاك

لما كانت الأسماء لها معان يعرف بها المسمى وتدل عليه اختصّ الخالق تعالى بما يناسب كماله وجلاله وعبودية الخلق له من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى التي لا يجوز بحال أن تطلق على مخلوق.

كما قال عليه الصلاة والسلام: **«إنّ أخنع[1] اسم عند الله رجلٌ تسمّى ملك الأملاك»**[2].

وفي لفظ لمسلم: **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجلٌ كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلّا الله»**.

وعليه؛ فالتسمي بهذا الاسم سبب للذل والضعة. وقد منع المالكية من تسمي المخلوق بهذا الاسم؛ لاختصاصه بالله تعالى وحده لا شريك له.

[١] وفي هذا يذكر ابن بطال أن المخلوق إنما اتصف بالرق والذلة لخالقه، وفي إطلاق هذه التسمية عليه ما يجعله مضاهيًا للخالق، فقال: «إنما كان ملك الأملاك أبغض إلى الله وأكره إليه أن يسمى به مخلوق لأنه صفة الله، ولا تليق بمخلوق صفته

(١) أخنع: معناه أوضع، وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد عن أبي عمر الشيباني. د عياض: معناه: إنه أشدّ الأسماء صغارًا. انظر إكمال المعلم (٧/ ١٨).

(٢) خرجه البخاري في كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (١٠/ ٥٨٨) برقم (٦٢٠٥-٦٢٠٦)، ومسلم في كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك المد (٣/ ١٦٨٨) برقم (٢١٤٣).

ولا أسماؤه، ولا ينبغي أن يتسمى أحد بشيء من ذلك؛ لأن العباد لا يوصفون إلّا بالذل والخضوع والعبودية . . . ـ وساق حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تسموا أبناءكم حَكَمًا**[١] **ولا أبا الحكم، فإن الله هو الحكيم العليم**»[٢]، ثم بين سوء عاقبة من تسمى بما اختص الله تعالى به، فقال ـ: فعاقب الله من طلب الرفعة في الدنيا بما لا يحل له من صفات ربه بالذل يوم القيامة، كما جاء في الحديث: «**إنّ المتكبّرين يحشرون يوم القيامة في صور الذر، يطؤهم الناس بأقدامهم**»[٣]»[٤].

فجعل انتحال هذه الصفة من المخلوق مما يخل بالعبودية ويجرئ على المعبود بالتشبه به واتخاذ الشريك له في ذلك.

وهو ما أشار إليه القاضي عياض من تعليل النهي هنا بالتشبه بأسماء الله تعالى،

---

(١) الحكَم من أسماء الله تعالى. قال البغوي: «الحكَم: هو الحاكم الذي إذا حكم لا يُردّ حكمُه، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى». شرح السنة (١٢/ ٣٤٣).

(٢) خرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦ـ٢٢٧)، وخرجه البيهقي (١٠/ ١٤٥) وابن سعد في الطبقات من طريق آخر، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣/ ٤٣٣).

(٣) ذكره القرطبي (١٠/ ٩٥)، والهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٤) وقال: «رواه البزار، وفيه القاسم بن عبدالله العمري وهو متروك».

وخرج الترمذي (٢٤٩٢)، والمنذري في الترغيب (٣/ ٥٦٧) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**». قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني. انظر صحيح سنن الترمذي (٢/ ٦٠٢).

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٥٣ـ٣٥٤).

فقال: «وقد غيّر ﷺ اسم حكيم وعزيز[١]؛ لما فيه من التسمية بأسماء الله وصفاته، وكذلك بملك الأملاك؛ لما في ذلك من التعاظم والكبر المذموم عند الله، وإن «ملك الأملاك» صفة لا تليق لغير الله تعالى»[٢].

[٢ ـ ٣] وذكر نحوًا منه القرطبي[٣]، وابن أبي جمرة[٤].

[٤] وقرر القرطبي في موضع آخر «أنّ المسمى بهذا الاسم قد انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق، إذ لا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلّا على الله تعالى، فعوقب على ذلك من الإذلال والإخساس والاسترذال بما لم يعاقب به أحد من المخلوقين»[٥].

[٥] وهو المعنى الذي نقله الأبي[٦] عن النووي مقرًّا له، فقال: «التسمية بذلك حرام؛ لما فيه من التعاظم والكبرياء التي لا تليق إلّا بالله ﷻ، وكذلك التسمية

---

(١) قال ابن العربي: «روي أنه غير اسم عزيز؛ لأن القوة لله، ولم يصح، فإن الله تعالى قد أخبر في كتابه بهذا الاسم عن مسمى به فقال سبحانه: ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا﴾، ولو كان ممنوعًا لما كان الباري به متكلما». عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٧٧). وهذا ليس مما اختص الله به، فيجوز إطلاقه على المخلوق.

(٢) إكمال المعلم (٧/ ١٦).

(٣) المفهم (٥/ ٤٦٦).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ١٥٨).

(٥) المفهم (٥/ ٤٥٥).

(٦) هو محمّد بن خليفة بن عمر التونسي الوشتاتي المشهور بالأبي، محدث حافظ، فقيه مفسّر ناظم، ولي قضاء الجزيرة، من تصانيفه: إكمال الإكمال في شرح مسلم، وشرح المدونة في فروع الفقه المالكي. مات سنة ٨٢٧ أو ٨٢٨. انظر: البدر الطالع (٢/ ١٦٩)، ومعجم المؤلفين (٩/ ٢٨٧).

بالأسماء المختصة به ﷻ، كالرحمن والمهيمن»[(١)].

[٦] وأكد هذا المعنى عند ذكره الوجوه التي يكره لأجلها الاسم بقوله: «.. وإما لما فيها من التعظيم الذي لا يليق إلّا بالله ﷻ، كما في ملك الأملاك»[(٢)].

[٧] وذكر القرافي أن التسمية بذلك (تمتنع منع تحريم لما فيها من التعاظم الذي لا يصلح إلّا لله تعالى، كما في مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ أخنع الأسماء رجل تسمى بشاه شاه مالك الأملاك**»)[(٣)].

[٨] وقد ذكر القرطبي أبو عبدالله المنع من هذه التسمية أيضًا[(٤)].

[٩] وقال الباجي: «ويحرم بملك الأملاك؛ لحديث: «هو أقبح الأسماء عند الله»[(٥)].

[١٠ ـ ١٢] وأقرّ هذا القول الحطاب[(٦)]، وعليش[(٧)]، والجكني[(٨)].

[١٣] وذكر ابن عاشور عظمة ملك الله ﷻ وديمومته، فلا ينقضي ولا ينتهي، وكل شيء تحت قهره وملكه، فكيف يطلق على المخلوق ملك الملوك، أو شاهان شاه، أو ملك الزمان، وملك الدنيا، وما شابه ذلك؟![(٩)].

(١) إكمال إكمال المعلم (٧/ ٣٠١ـ٣٠٢).

(٢) إكمال إكمال المعلم (٧/ ٣٠٢).

(٣) الذخيرة (١٣/ ٣٣٨). ومعنى شاه: ملك، وشاهان: الملوك. انظر إكمال المعلم (٩/ ١٩).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ١٤١).

(٥) نقله عنه الحطاب في مواهب الجليل (٤/ ٣٩١).

(٦) انظر مواهب الجليل (٤/ ٣٩١).

(٧) انظر منح الجليل (٢/ ٤٩٢).

(٨) نصيحة المرابط (١/ ٢٣٢).

(٩) انظر التحرير والتنوير (١/ ١٧٧).

ومراده أن هذا الوصف يختصّ بالله ﷻ، فلا يشرك معه سواه في ذلك.

[١٤] وقال ابن العربي: «أبغض اسم إلى الله وأخنع اسم عند الله، أي: أذلّ رجُل يسمى بشاهان شاه، يعني ملك الأملاك»[(١)].

[١٥] ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًا له عند شرحه للحديث: «واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم؛ لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه، مثل: خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء»[(٢)].

وقد ألحق بعض المالكية بهذا الاسم التسمي بقاضي القضاة أو ما في معناه، كما سبق ذكره مثل سلطان السلاطين وغيره.

[١٦] ومن ذلك ما ذكره القرافي عند تحريمه التسمي بملك الأملاك بقوله: «قال بعض العلماء: يلحق به قاضي القضاة»[(٣)].

[١٧] وكذا ابن أبي جمرة فقد ألحق بملك الأملاك قاضي القضاة، وذكر أنه اشتهر في بلاد المشرق من قديم الزمان، وأما في الغرب[(٤)] فقد سلموا من ذلك حيث يطلقون على كبير القضاة «قاضي الجماعة»[(٥)].

[١٨] ونقل محمّد المختار قول ابن أبي جمرة هذا ضمن ما نقله عن ابن حجر

---

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٧٥).

(٢) نور الحق (٩/ ٤٢٥). وانظر فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

(٣) الذخيرة (١٣/ ٣٣٨).

(٤) ومن المعلوم أن المذهب المالكي هو المنتشر في الغرب، أي بلاد المغرب والأندلس آنذاك.

(٥) بهجة النفوس (٤/ ١٨٦). وأضاف أيضًا قولهم: «سيد الناس»؛ لأنه يدخل في النهي؛ لكن غفلات توالت وعوائد سوء اتخذت راح الأمر عليها..

مقرًا له[١].

وبهذا يعلم أن التسمي بملك الملوك إخلال بالعبودية كما قرره أئمة المالكية، ومنعوا من التسمي به، ومنع بعضهم ما يلحق به مما هو في معناه، إذ هو مما اختص الله تعالى به، فلا يجوز أن يشرك معه أحد سواه.

*****

(١) انظر نور الحق (٩/ ٤٢٦).

المسألة الرابعة: الطِّيرة

لما كانت الطيرة[١] بابًا من الشرك منافيًا للتوحيد أو لكماله من حيث إنّ المتطيّر قطع توكله على الله واعتمد على غيره، وتعلق بأمر لا حقيقة له، إذ لا رابطة بين هذا الأمر وبين ما يقع ويحصل، فقد جاء النهي عنها كما قالت عائشة رضي الله عنها: «إنّ النبي ﷺ تزوجها في شوال وبنى بها في شوال، وكانت أحظى نسائه إليه، وأحبّهنّ إليه»[٢]. وذلك أنّ العرب يتشاءمون بالزيجة في هذا الشهر.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا عدوى ولا طيرة، ويُعجبني الفأل»**. قالوا: وما الفأل؟ قال: **«الكلمة الطيبة»**[٣].

والتطيّر: هو التشاؤم بمرئيّ أو مسموع[٤]، فإذا ما وقع من المسلم فقد وقع في

---

(١) الطيرة: مصدر تطيّر، وأصله مأخوذ من الطير، وهو التشاؤم بالشيء يُعرف بزجر الطير، وهي السوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها. وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم.
والسانح: ما مر من الطير والوحش عن يسارك، والبارح عكسه.
قال الزرقاني: «كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لحاجة فإن رأى الطير طار عن يمينه تيمّن به واستمرّ، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع، وربما هيّجوا الطير ليطير فيعتمدون ذلك ويصح معهم في الغالب؛ لتزيين الشيطان لهم..». شرح الزرقاني (٤/ ٤٣٢).

(٢) خرجه مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال (٢/ ١٠٣٩) برقم (١٤٢٣)، وابن حبان (٤٠٥٨)، وأبو عوانة (٤٢٧٢).

(٣) خرجه البخاري في كتاب الطب، باب لا عدوى (١٠/ ٢٤٤) برقم (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٦) برقم (٢٢٢٤).

(٤) التشاؤم بالمرئي: أي ما لو رأى طيرًا أو وحشًا فتشاءم منه، وأما المسموع: كمن يسمع =

الشرك عياذًا بالله، كما بينه النبي ﷺ بقوله: «**الطيرة شرك**»، وتبعه بعض أئمة المالكية.

[١] وفي ذلك يقول ابن العربي في بيان معنى الطيرة: «بأنها زجر الطير، وهو نوع من التعلق بأسباب يزعم المتعلق بها على أنها تطلعه على الغيب، وهي كلها كفر وريب، وهم يستعجله المرء إن كان حقًّا، ولا يقدر على دفعه إن كان قدرًا مقدورًا، ولذلك جعله رسول الله ﷺ من الشرك، فإنهم يريدون أن يشركوا الله في غيبه ويساو(١) في علمه»(٢).

[٢] وكلام ابن العربي هذا فيه إجمال بينه التفصيل الذي ذكره القرطبي بقوله: «... وإنما كان يكره الطيرة لأنها من أعمال الشرك، ولأنها تجلب ظن السوء بالله تعالى، كما روى أبو داود عن عبدالله بن مسعود ﷺ: «الطيرة شرك ـ ثلاثًا ـ وما منّا إلّا ولكن الله يذهبه بالتوكل»(٣). أي: من اعتقد في الطيرة ما كانت الجاهلية تعتقده فيها فقد أشرك مع الله خالقًا آخر، ومن لم يعتقد فقد تشبّه بأهل الشرك»(٤).

ومراده أن الطيرة على نوعين: فما كان على ما تعتقده الجاهلية فهو من الشرك

= صوت الغراب أو البومة ونحوهما.

(١) الصواب أن يقال: «ويساووه في علمه»؛ لأنه معطوف على قوله: «أن يشركوا الله في غيبه».

(٢) عارضة الأحوذي (٧/ ١١٦ـ١١٧).

(٣) خرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم (١/ ١٧ـ١٨) وصححه ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٧٧ـ١٧٨).
قال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٤): «والصواب ما ذكره البخاري وغيره أن قوله: «وما منا..» إلى آخره من كلام ابن مسعود مدرج غير موفوع». اهـ. وصححه الألباني. انظر صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢١٦).

(٤) المفهم (٥/ ٦٢٦ـ٦٢٨).

الأكبر، وما لم يكن بهذا الاعتقاد من الطيرة فهو من الشرك الأصغر. ولعل كلام ابن العربي مجمل على الصورة الأولى التي أشار إليها القرطبي من شرك الجاهلية الذي لا يذهبه التوكل، وأما ما يقع من الطيرة من بعض المسلمين فهو المراد من حديث ابن مسعود ﷺ: «الطيرة شرك، وما منا ولكن الله يذهبه بالتوكل» أي: إنه من الشرك الأصغر الذي ينافي كمال التوحيد.

[٣] وقد نقل محمّد المختار ما أورده ابن حجر عن الحليمي[١] فيما تطرق إليه من الطيرة، فقال ـ في بيانه لحديث: «الطيرة شرك» ـ: «وذلك إذا اعتقد أن الذي شاهده من حال الطير موجبًا ما ظنه ولم يضف التدبير إلى الله تعالى، فأما إذا علم أن الله هو المدبر ولكنه أشفق من الشرك؛ لأن التجارب قضت بأن صوتًا من أصواتها معلومًا، أو حالًا من أحوالها معلومة تردفها مكروه، فإن وطّن نفسه على ذلك أساء، وإن سأل الله الخيرة واستعاذ به من الشر ومضى متوكّلًا لم يضرّه ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ به وربما وقع في ذلك المكروه بعينه الذي اعتقده عقوبة له، كما كان يقع كثيرًا لأهل الجاهلية»[٢]. فقسمها إلى ثلاثة أحوال:

أحدها: من يجعل مع الله تعالى في تدبيره شريكًا آخر، وذلك أن يتحقّق ما تطيّر به، ويعمل بما يراه أو سمعه فيقبل أو يُعرض.

الثاني: من يقبل وإن وقع في قلبه شيء من الخوف، ولكن يمضي ويتوكل على

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمّد بن حليم، أبو عبدالله الحليمي، الشافعي، رئيس المحدِّثين والمتكلمين بما وراء النهر، من كتبه: «المنهاج في شعب الإيمان»، مات سنة ٤٠٣هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٣٣٣)، والسير (١٧/ ٢٣١).

(٢) نور الحق (٩/ ٩٤)، وانظر الفتح (١٠/ ٢١٥).

الله تعالى، فلا يضرّه شيء من الطيرة؛ لأن التوكل يذهبه.

الثالث: ما يكون من التلبس بالطيرة والمضي لما عزم عليه، فهو بهذه الحال لم يحقق التوكل المذهب للطيرة المستحوذة عليه عقوبةً له، كما في حديث أنس مرفوعًا: «**لا طيرة، والطيرة على من تطيّر**»(١). أي: أنها تكون سببًا لوقوع الشر بالمتطيّر.

[٤] ولذا قال القرافي: «إنّ المتطيّر لا يكاد يسلم ممن تطير منه إذا فعله وغيره لا يصيبه شيء من ذلك، وهذا لأنه أساء الظن بالله، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي...**»(٢)»(٣).

ولا ريب أن سوء الظن بالله تعالى ينافي التوحيد، كما وصف الله تعالى به المنافقين بقوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ...﴾ [آل عمران: ١٥٤]. والطيرة سوء ظن بالله ﷻ دون ذلك(٤).

---

(١) خرجه ابن حبان (١٤٢٨) عن أنس، وفيه عتبة بن حميد: ضعّفه أحمد. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٦٣): «وفي صحته نظر؛ لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيدالله بن أبي بكر عن أنس، وعتبة مختلف فيه». وقال الذهبي في المغني (٣٩٩٤): «ضعيف».

(٢) خرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (١٣/ ٣٨٤) برقم (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥).

(٣) ترتيب الفروق (٢/ ٤٦٢)، والذخيرة (١٣/ ٢٥٤).

(٤) وسوء الظن ليس مقصورًا على الكافرين والمنافقين، بل هو على أحوال، ولا يكاد يسلم منه أحد إلّا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده وما له من الحكم والأمر فيما يقدره ويشرعه، وغالب الناس يسيؤون الظن بالله إلّا الكمّل الخلّص من المؤمنين.

[٥] وقال القرطبي: «وكان ﷺ يكره[١] الطيرة؛ لأنها من أعمال أهل الشرك، ولأنها تجلب سوء الظن بالله ﷻ[٢]»[٣].

والطيرة لا تكون إلّا فيما يسوء، فهي سوء ظن بالله تعالى، وما وقع له من الطيرة إلّا على قدر سوء ظنه بربه.

[٦] وذكر ابن عاشور حال أهل الجاهلية وزجرهم الطير، وما ذكره قوم موسى من التشاؤم به، ثم قال: «ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك؛ لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها... وفي الحديث: **«الطيرة شرك»**، على تأويلها أنها بقايا دين الشرك»[٤].

فبين أنه لا ارتباط بين ما يرونه سببًا لحدوث الشرك، كصياح الطير، وبين الأمر المخوف، فمن اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سببًا فقد أشرك.

[٧] ولهذا أنكر الباجي ما يتطير به من الطير والسانح والبارح، وذلك لأنه لا يمنع من شيء ولا يبعث على آخر، ولأنه لم يكن لتلك العين تأثير معتاد ولا نادر ولا أمر مطرد ثابت[٥].

[٨] وأوضح ابن عبدالبر أنّ التطير مأخوذ من زجر الطير ومروره سانحًا أو بارحًا، ثم أورد بسنده عن سعد بن أبي وقاص ؓ قال: «خرج سعد في سفر،

---

(١) ومراده كراهة التحريم؛ لأنه وصفها بأنها شرك، فكيف يكون الشرك مكروهًا؟

(٢) ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ويعجبني الفأل»، وبينه بأنه الكلمة الطيبة، وإنما أعجبه الفأل لأنه حسن ظن بالله، والعبد مأمور أن يحسن الظن بالله ﷻ.

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٦٦).

(٥) المنتقى (٧/ ٢٩٥).

فأقبلت الظباء نحوه، فلما دنت منه رجعت، فقال له رجل: ارجع أيها الأمير! قال: أخبرني من أيها تطيرت أمن قرونها حين أقبلت أم من أذنابها حين أدبرت؟ ثم قال سعد عند ذلك: إنّ الطيرة لشعبة من الشرك»(١).

وأورد أيضًا حديث عمر بن العاص عن النبي ﷺ: **«من رجعته الطيرة من حاجة فقد أشرك»**. قال: وما كفارة ذلك يا نبي الله؟ قال: **«أن يقول أحدهم: اللهم لا طير إلّا طيرك، ولا خير إلّا خيرك، ولا إله غيرك»**(٢)(٣).

فإيراده رحمه الله للأثر والحديث وعدم تعليقه عليهما يبين أنه يقول بموجبهما، من أن الطيرة شرك بالله تعالى، ومما يؤكد هذا المعنى عنه:

[٩] قوله في موضع آخر: «إنّ من تطير فقد أثم، وإثمه على نفسه في تطيره؛ لترك التوكل وصريح الإيمان..»(٤).

---

(١) التمهيد (٢٤/ ١٩٣). وخرجه عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (١/ ٣٦١) برقم (٧٧٧)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٠٤) برقم (١٩٥٠٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٤١) برقم (٦٤٥٠).

(٢) خرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وابن السني (٢٩٣) عن عبد الله بن عمرو بسند صحيح، وفيه ابن لهيعة ولكن الراوي عنه عند ابن السني هو ابن وهب ممن رووا عن ابن لهيعة قبل اختلاطه، وقد صرح ابن لهيعة بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه. وقال الهيثمي (١٠٥/ ٥) بعد ما عزاه لأحمد والطبراني: «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات». وقال الأرنؤوط: «حديث حسن». حاشية المسند (٢/ ٢٢٠).

(٣) التمهيد (٢٤/ ٢٠١).

(٤) التمهيد (٩/ ٢٨٥). ولذا نقل ما أنشده الشافعي للحطيئة يمدح أبا موسى الأشعري ﷺ:

لا يزجر الطير شيخًا إن عرضن له ... ولا يفيض على قسم بأزلام

ثم قال: قال الشافعي: يعني أنه سلك طريق الإسلام في التوكل على الله تعالى وترك زجر =

[١٠ ـ ١١] ونقل ابن بطال والقرطبي قول الخطابي على سبيل الإقرار من أن «الطيرة إنما هي طريق الاتكال على شيء سواه»[(١)(٢)]. فمن اتكل على غير الله تعالى فقد أشرك.

[١٢] وأورد قول عكرمة: «كنت عند ابن عباس، فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير: ! خير: ! فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شرّ!»[(٣)].

والمعنى أنّ من حقق التوكل على الله تعالى فلا يلتفت إلى شيء سواه، وكذلك لا يعتقد تأثير غير الله تعالى في الخير والشر، فمن وقعت منه الطيرة فقد أشرك ـ لعدم توكله على الله واعتماده على غيره تعالى ـ الشرك الأصغر. وأما من تطير حتى اعتقد وجود شركة بين الله وبين ما تطير به في أمر التأثير فقد وقع في الشرك الأكبر، وما كان دون ذلك كحال بعض المسلمين الذين انحرفوا في هذه المزالق فهو من الشرك الأصغر، والله أعلم.

[١٣] وأوضح محمّد الأمين أن التشاؤم بزجر الطير ومواقعها وأسمائها وألوانها وجهاتها التي تطير بها بأنه من ادعاء علم الغيب، ولقد صدق من قال: لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ وحكم بكفر من ادعى ذلك؛ لأنه ادعى ما استأثر الله تعالى به دون خلقه، وكذب القرآن الوارد بذلك، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥][(٤)].

= الطير. الاستذكار (٢٧/ ٥٥).

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٣٥).

(٢) انظر تفسير القرطبي (٦/ ٦٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٣٦).

(٤) انظر أضواء البيان (٢/ ١٩٩).

[١٤] وسبق إلى هذا القرطبي عند إيراده قول الشاعر:

الفأل والزَّجر والكُهان كلهمُ مضللون ودون الغيب أقفالُ

فقال: «هذا كلام صحيح؛ إلّا في الفأل فإنّ الشرع استثناه وأمر به، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه، فإنه تكلّم بجهل، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم»(١).

ومرادهما هنا أن: ادعاء علم الغيب قد يكون من خلال الطيرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من تطيّر أو تُطير له...**»، وكذا ليس هناك تأثير لحركة الطير فيما يقدره الله، فهي تتحرك وتطير على أي وجهة شاءت بإذن الله، من غير أن تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا عن أحد، أو تدل على شيء، فمن اعتقد فيها شيئًا من ذلك فقد أشرك.

[١٥] من هنا قال القرطبي: «قال علماؤنا: وأما أحوال الطير فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلًا عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير، إلّا ما كان الله تعالى خص به سليمان ﷺ من ذلك فالتحق الطير بجملة الباطل والله أعلم»(٢).

ولما كانت العدوى تشبه الطيرة من حيث اعتقاد أن المرض ينتقل بطبعه، كحال من اعتقد تأثير ما تطيّر به استقلالًا، إلّا أنّ شرك الطيرة من جهة اعتقاد تأثير الطيور وغيرها، وشرك صاحب العدوى من جهة تأثير تلك الأمراض، فاجتمعا على أنّ كلاهما اعتقاد شركي..

[١٦] فقد ترجم الإمام مالك في موطئه: «باب عيادة المريض والطيرة»، ولم

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٨١).

(٢) التفسير (٧/ ٢٦٦).

يذكر إلّا أحاديث العدوى(١) على اعتبار أن العدوى من الطيرة.

[١٧] ولذا قال ابن العربي: «وأما الطيرة فأدخلها مالك ﷺ تحت حديث: «لا عدوى»، وهو اعتقاد المرء أنّ مكروهًا جلب إليه مكروهًا، وأصلهم في ذلك السانح والبارح، فعبروا بكل مكروه يجلب في اعتقادهم مكروهًا عنه. فقول النبي ﷺ: «**لا عدوى**» نفيًا لأن تكون الأدواء تجلب الأدواء»(٢).

ولا ريب أن العدوى والطيرة كلاهما بهذا الاعتقاد من الشرك.

[١٨] كما قال القرطبي: «وإنما نهي عن إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد ذلك..» يعني: أن المرض يعدي بطبعه(٣)، وأما من اعتقد أن العدوى مجرّد سبب(٤) ينتقل بإذن الله فهي عنده

---

(١) الموطأ (٢/ ٩٤٦).

(٢) القبس (٣/ ١١٣٣).

(٣) ولذا قال في آخر كلامه: «وإنما الذي يليق بالعقلاء ويناسب تصرف الفضلاء أن يباعد أسباب الآلام ويجانب طرق الأوهام، ويجتهد في مجانبة ذلك بكل ممكن، مع علمه بأنه لا ينجي حذر من قدر». فأثبت أن للعدوى أسبابًا يتقيها العبد للسلامة مشيئة الله.

(٤) سئل الإمام مالك عن حديث «**فرّ من المجذوم فرارك من الأسد**» فقال: «ما سمعتُ فيه بكراهية، وما أرى ما جاء في ذلك إلّا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء». ومعنى هذا أنه نفى العدوى أصلًا، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسدّ الذريعة، وعلى هذا جماعة من العلماء، منهم ابن جرير، والطحاوي، وأبو عبيد. ومن أهل العلم من أثبت العدوى ورأى أن النفي على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية، من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأنّ هذه الأمراض تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله أسبابًا تنقل الأمراض عن طريقها من السقيم إلى الصحيح، وعلى هذا فاجتناب المجذوم والدخول إلى موضع الطاعون وإيراد الممرض على المصح من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسبابًا =

تفارق الطيرة؛ لأن المتطيّر يتعلق بأسباب موهومة، بخلاف العدوى فإنها تكون بأسباب معلومة يتقيها العبد مع اعتقاده أن النفع والضر من الله وحده، فلا لوم عليه بهذا الصنيع.

*****

= للهلاك والأذى.

انظر: الاستذكار (٢٧/ ٥٤)، وشرح البخاري (٩/ ٤١١)، والمفهم (٥/ ٦٢٠)، ونور الحق (٩/ ٣٢)، وتيسير العزيز الحميد (٤٢٣).

المسألة الخامسة: التبرُّك الممنوع

التبرك: هو طلب البركة، وهي النماء والزيادة. قال في الصحاح: البركة النماء والزيادة، والتبرك الدعاء بالبركة، وطعام بريك كأنه مبارك.

ويقال: بارك الله لك، وفيك، وعليك، وباركك. قال تعالى: ﴿أن بورك من في النار﴾ [النمل: ٩](١).

وهي ثبوت الخير في الشيء وزيادته(٢)، وطلب ثبوت الخير وزيادته إنما يكون ممن يملك ذلك ويقدر عليه، وهو الله ﷻ، فهو الذي ينـزل البركة ويثبتها. أما المخلوق فإنه لا يقدر على منح البركة وإيجادها، ولا على إبقائها وتثبيتها، فالتبرك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياءً وأمواتًا لا يجوز؛ لأنه إما شرك إن اعتقد أنّ ذلك الشيء يمنح البركة(٣)، أو وسيلة إلى الشرك إن اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسّح به سبب لحصولها من الله.

وقد جعل الله تعالى البركة في كتابه وبعض مخلوقاته(٤)، غير أنه لا تجوز

---

(١) الصحاح للجوهري (٤/ ٥٧٥).

(٢) قال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن: «البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء. قال تعالى: ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير». المفردات (٤٤). ط. مصطفى الحلبي ـ مصر ١٣٨١هـ.

(٣) أي الشرك الأكبر؛ لأنه لا يمنح البركة إلّا الله تعالى.

(٤) لا ريب أن الله تعالى جعل البركة في كتابه، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾، =

الزيادة على المشروع لالتماس هذه البركة.

ولذا حذَّر النبي ﷺ أصحابه كما في حديث أبي واقد الليثي من فعل الجاهلية من التبرك بشجرة يقال لها: ذات أنواط، يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم(١).

= وفي أنبيائه كما قال تعالى: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾، وقوله: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾، وفي بيته الحرام كما قال تعالى: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا﴾. والذي ينبغي للمؤمن السعي لنيل هذه البركة بما شرعه الله ﷻ من العبادات والطاعات، كقراءة القرآن وتدبره والعمل به، وطلب بركة المسجد الحرام بالحج والعمرة والصلاة والطواف... الخ.

(١) حديث أبي واقد الليثي خرجه الترمذي (٢١٨٠) وقال: حديث حسن صحيح، وعبدالرزاق (٤/ ٨٤ـ٨٥)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، والطبراني (٣٢٩٠، ٣٢٩٤). وصححه الألباني. انظر صحيح سنن الترمذي (٢/ ٤٦٥). وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. المسند (٥/ ٢١٨).

وزيد في الحديث زيادة منكرة، فقد قال الزرقاني: «روى الحاكم عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: حججنا مع عمر، فلما طاف استقبل الحجر فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله (يقبّلك ما قبّلتك. ثم قبله، فقال له علي: بل إنه يضرّ وينفع! قال: بم؟ قال: بكتاب الله ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾، خلق الله آدم ومسح على ظهره فقررهم بأنه الرب، وأنهم العبيد وأخذ عهودهم ومواثيقهم، وكتب ذلك في رق، وكان لهذا الحجر عينان ولسان، فقال: افتح، ففتح فاه فألقمه ذلك الرق، وقال: اشهد لمن وافاك الموافاة يوم القيامة، وإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد**»، فهو يا أمير المؤمنين يضرّ وينفع. فقال عمر: أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن!

قال الحاكم: ليس من شرط الشيخين، فإنهما لم يحتجا بأبي هارون عمارة بن جوين العبدي. قال غيره: ولا من شرط غيرهما، فأبو هارون ضعفه الناس كلهم، ونسبه إلى =

وعليه فقد أنكر سلف الأمة هذا الفعل وحذّروا الناس منه باعتباره صنيع أهل الجاهلية. ولما قبل أمير المؤمنين عمر ﷺ الحجر الأسود قال: «**إني أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك**»(١).

وقد اعتنى علماء المالكية بمقالة عمر ﷺ تلك، وبينوا سبب قول عمر ﷺ لها.

[١] فنقل ابن بطال قول الطبري في ذلك مقرًا له، ونصه: «إنما قال ذلك عمر ﷺ والله أعلم لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر هو مثل ما كانت العرب تفعله في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم أن استلامه لا يقصد به إلّا تعظيم الله تعالى والوقوف عند أمر نبيه ﷺ، إذ ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها، وأن استلامه مخالف لفعل أهل الجاهلية في عبادتهم الأصنام؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقرّبهم إلى الله زلفى، فنبه عمر على مجانبة هذا الاعتقاد وأنه لا ينبغي أن يعبد إلّا من يملك الضر والنفع، وهو الله تعالى»(٢).

= الكذب جماعة من الأئمة». شرح الزرقاني (٢/ ٣٠٦).

كما ذكر ذلك ابن حجر في التهذيب (٧/ ٤١٢) ط. دار صادر. الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ - الهند.

وقد أكثر الشيعة واختلقوا الأحاديث لإظهار فضائل علي ومناقبه على الشيخين لإثبات زعمهم بأنه أحق بالخلافة، فليتنبه لهذا.

وعلى هذا فلا يعوّل على تلك الرواية الضعيفة؛ لضعف الراوي لها أبي هارون العبدي الشيعي.

(١) خرجه البخاري في كتاب الحج، باب تقبيل الحجر (٣/ ٤٧٥) برقم (١٦١٠)، ومسلم في كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (٢/ ٩٢٥) برقم (١٢٧٠).

(٢) شرح البخاري (٤/ ٢٧٨).

[٢] وقال الباجي: «قول عمر: «إنما أنت حجر..» يريد أن ينفي عنه ظن من يظن أن تعظيم النبي ﷺ الحجر وأمته إنما كان على حسب تعظيم الجاهلية الأوثان؛ لاعتقادهم أنها آلهة وأنها تضر وتنفع، فأراد عمر أن يُعلم الناس أن تعظيمه للحجر إنما كان لتعظيم النبي ﷺ طاعة لله وإفرادًا له بالعبادة على حسب ما أمرنا بتعظيم البيت، وعلى حسب ما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم عبادة لله لا على أن آدم معبود بذلك، وأنه يضر وينفع، فقال: «إني لأعلم أنك حجر»، يريد: من سائر أجناس الحجارة التي لا تقبّل، وفي بعض الروايات: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع».. فتقبيله وتعظيمه ليس لذاته ولا لمعنى فيه، وإنما هو لأن النبي ﷺ شرع ذلك طاعةً لله تعالى»[١].

[٣] وقال القاضي عياض عند حديث عمر: «فيه الاقتداء وترك الاعتراض على السنن بالعقول، وأن تقبيله الحجر ليس عبادة له، بل لله تعالى بامتثال أمره فيه، كأمره بسجود الملائكة لآدم... وسر ذلك محض العبودية»[٢].

[٤] وقال الزرقاني عند الحديث نفسه: «معناه: إنه لا قدرة له على ضر ولا نفع كباقي المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع، فأشاع عمر هذا في الموسم ليشتهر في البلدان ويحفظه أهل الموسم المختلفو الأوطان؛ لئلّا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذي ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها بذلك قريب، فخاف عمر أن بعضهم يراه فيفتن به ويشتبه عليه»[٣].

---

(١) المنتقى (٢/ ٢٨٧).

(٢) إكمال المعلم (٤/ ٣٤٥).

(٣) شرح الزرقاني (٢/ ٣٠٦).

[٥] ونظيره ما ذكره محمّد المختار عند حديث عمر(١).

[٦] وأوضح القرطبي أنّ مقولة عمر هذه «دفع لتوهم من وقع له من الجهال أن للحجر الأسود خاصية ترجع إلى ذاته، كما توهمه بعض الباطنية، وبيّن أنه ليس في تقبيله إلّا الاقتداء المحض، ولو كان هناك شيء مما يفترى لكان عمر ﷺ أحق الناس بعلمه»(٢).

هذا؛ وقد اعتنى المالكية أيضًا بإيراد الأفعال التي لم يرد بها الشرع ويقصد منها التبرك، كالتمسح بمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيره من المقامات والمشاهد.

[٧] فقد نقل الطرطوشي ما رواه الأزرقي بإسناده عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥] قال: «إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه(٣). ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثره وأصابعه فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وانماح»(٤).

[٨] وحيث كان هذا المسح ذريعة قد تفضي إلى الشرك فقد قطع الإمام مالك تلك الذريعة، كما في رواية ابن وهب عنه في ذكره آداب زيارة مسجد رسول الله ﷺ بقوله: «ويدنو ويسلم لا يمس القبر بيده»(٥).

---

(١) نور الحق (٣/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) المفهم (٣/ ٣٧٨).

(٣) وذلك لأنه لا يمسح غير الحجر الأسود والركن اليماني من الكعبة فقط، وما سوى ذلك كله لا يشرع التمسح به ولا تقبيله، كالمقام والجدران والأركان والسترة.

(٤) الحوادث والبدع (٢٦٨). والأثر في إخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٩). ط. دار الأندلس، ط. الثالثة ـ بيروت ١٤٠٣هـ.

(٥) انظر الشفا (٢/ ٦٧١).

[٩] وقال الطرطوشي: «ولا يتمسح بقبر النبي ﷺ، ولا يمس، وكذلك المنبر»[١].

[١٠] ونقل محمّد المكي قول الغزالي وأقرّه في أن الزائر «لا يمسح القبر، ولا يمسه، ولا يقبله، فإنّ ذلك من عادة النصارى»[٢].

[١١] وأقرّ زروق مقالة الغزالي في عدم التمسح بالقبر والادهان بالماء الذي يكون عليه، وأخذ التراب منه[٣]، مبيّنًا أنه لا يصلى على المقابر ولا يبنى عليها المساجد للتبرك.

[١٢] وأنكر ابن الحاج الطواف بقبر النبي ﷺ، والتمسح به، وتقبيله، وإلقاء المناديل عليه والثياب بقصد التبرك، مبيّنًا أن هذا هو سبب عبادة الأصنام في الجاهلية، ثم قال: «ولذلك كره علماؤنا رحمهم الله التمسح بجدار الكعبة، أو بجدران المسجد، أو بالمصحف، إلى غير ذلك مما يتبرك به سدًّا لهذا الباب»[٤].

ومن عناية الإمام مالك وأصحابه بمسألة التبرك الممنوع طرقهم لها في مناسبات كثيرة، وذلك لغرض تحذير الأمة من هذا المزلق الخطير.

[١٣] ومن ذلك ما ذكره ابن وضاح: أن الإمام مالكًا وغيره من علماء المدينة كانوا يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وحده. وجميع هذا سد للذريعة لئلا يتخذ سنة ما ليس بسنة، أو يعدّ مشروعًا ما ليس مشروعًا.

---

(١) الحوادث والبدع (٣٠٤).

(٢) التيسير (٣/ ٢١٢-٢١٣). وانظر إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٤٢١).

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٢/ ٣٣).

(٤) المدخل (١/ ١٩١).

[١٤] وقد كان مالك يكره المجيء إلى بيت المقدس خيفة أن يتخذ ذلك سنة، وقد كان يكره مجيء قبور الشهداء، ويكره مجيء قباء خوفًا من ذلك مع ما جاء في الآثار من الترغيب فيه، ولكن لما خاف العلماء عاقبة ذلك تركوه.

[١٥] وسئل ابن كنانة عن الآثار التي تركوا بالمدينة، فقال: «أثبت ما في ذلك عندنا قباء، إلّا أن مالكًا كان يكره مجيئها خوفًا من أن يتّخذ سنةً[١]»[٢].

وهذا من الإمام مالك رحمه الله غاية في الاحتراز من الآثار والمزارات خشية التبرك بها، ولا غرو أن يكون هذا موقف الإمام مالك وهو إمام من أئمة الهدى، سيما وهو الذي يروي حديث عمر ﷺ السالف ذكره حين طاف بالحجر فقال: «إنما أنت حجر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك»[٣].

وبهذا يتبين موقف الإمام مالك رحمه الله ـ وهو إمام دار الهجرة ـ في أنه لا يشرع تتبع الآثار في المدينة النبوية وزيارتها، وعلى هذا يعلم بطلان ما أحدثه الناس من المزارات والأماكن، كالمساجد السبعة وغيرها مما لم تشرع زيارته. وهكذا الآثار التي في مكة، كالغار الذي أنزل فيه الوحي، والغار الذي اختفى فيه، ومكان شجرة بيعة الرضوان، إلى غير ذلك. والأصل في ذلك الوقف والاتباع؛ لأنها عبادة، فما جاء به النص نسلم به ونتبع هدي النبي ﷺ ونسلم في ذلك وما لا فلا. قال ابن وضاح: «فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين، فقد قال بعض من مضى:

---

(١) وقد كان عليه الصلاة والسلام يزور قباء ويصلي فيه، وحض على ذلك، وما زاد على ذلك فهو زيادة على العبادة المشروعة، ولعله ما تخوفه الإمام مالك رحمه الله.

(٢) الاعتصام (١/ ٣٤٧)، والبدع والنهي عنها لابن وضاح (٩٤ـ٩٥).

(٣) الموطأ (١/ ٣٦٧)، باب تقبيل الركن الأسود في الاستلام.

كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكرًا عند من مضى»[١] .

[١٦] وذكر الطرطوشي أن الإمام مالكًا رحمه الله في هذا كله مقتدٍ بالفاروق ﷺ، كما روى محمّد بن وضاح أنّ عمر بن الخطاب ﷺ «أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ؛ لأن الناس كانوا يذهبون تحتها، فخاف عمر الفتنة عليهم»[٢] . ثم ساق تلك الآثار السالفة عن مالك .

[١٧] ونبه القاضي عياض إلى أنهم نسوا موقع الشجرة من العام المقبل ـ كما قال جابر ﷺ : «لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة»[٣] ـ رحمةً للمؤمنين وعصمة لهم، إذ لو بقي مكانها لخيف تعظيم الأعراب والجهال لها، وعبادتهم إياها[٤] .

ولهذا المعنى حذّر النبي ﷺ الصحابة من اتباع سنن الأمم السالفة حين طلبوا أن يكون لهم سدرة ينوطون[٥] بها أسلحتهم، كما في حديث أبي واقد الليثي ﷺ[٦] .

[١٨] قال الطرطوشي ـ معقبًا على هذا الحديث ـ: «فانظروا رحمكم الله أينما

---

(١) البدع والنهي عنها (٩٢). ط. دار الصميعي، الأولى ١٤١٦هـ تحقيق بدر البدر .

(٢) انظر: الحوادث والبدع (٢٩٥)، والبدع والنهي عنها لابن وضاح (٩١). وقد رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٠٠)، وصحح سنده الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٨).

(٣) وقطع عمر للشجرة يتبين منه معرفة مكانها، كما قال سعيد بن المسيب: «كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ عند الشجرة. قال: فانطلقنا في قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإن كانت تبينت لكم فأنتم أعلم».
وقد يكون خفاؤها في أول الأمر صيانة للصحابة وحماية لهم، إذ إن العهد قريب، ثم تبينت لهم بعد ذلك، والله أعلم. إكمال المعلم (٦/ ٢٧١).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٢٧٢).

(٥) أي: يعلقون عليها أسلحتهم للبركة .

(٦) سبق تخريجه .

وجدت سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظّمونها ويرجون البر والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها!»[(١)].

فهذا كلام في غاية الحسن منه رحمه الله.

فإزالة كل ما يتعلق به الناس ويعظّمونه رجاء بركته الموهومة هو المتعيّن.

[١٩] كما فعل أبو إسحاق الجبنياني[(٢)] حيث «كان إلى جانبه عين تسمّى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذّر عليه نكاح أو ولد قال: امضوا بي إلى عين العافية، فتعرف بها الفتنة. قال أبو عبدالله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعتُ أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجتُ فوجدته قد هدمها، وأذّن الصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا. فما رفع لها رأس إلى الآن»[(٣)].

فإقدامه رحمه الله على ذلك لما رأى من سوء حال أولئك المتوهمين للبركة من أن يجرهم ذلك إلى الشرك بالله تعالى من اعتقاد النفع والضر من غير الله تعالى.

[٢٠] ولذا حين حج بعض أصحابه وأحضر معه حجارةً من المسجد الحرام قال له: يا أبا إسحاق! إني أتيت معي بحصيات من حصى المسجد الحرام، أتحبّ أن أعطيك منهن شيئًا تسبّح بهن؟ فقال: «يا أحمق! ارم بهنّ، فعلى أقل من هذا

---

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي (١٠٥).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي الجبنياني، أحد أئمة المسلمين والعلماء العاملين، مجمع على فضله وورعه، كان إذا رئي ذكر الله تعالى من هيئته، كثير الصمت، قليل الكلام، فإذا تكلم نطق بالحكمة، مات سنة ٣٦٩هـ. انظر: ترتيب المدارك (٦/ ٢٢٢)، وشجرة النور (٩٥)، والديباج (١٤٢).

(٣) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (٣٦)، وتيسير العزيز الحميد (١٨٣).

عبدت الحجارة»[١].

[٢١] وردّ الطرطوشي رحمه الله على من احتجّ لمشروعية وضع الجريدة ونحوها على القبر بأنّ النبي ﷺ مرّ على قبرين فأخبر أنّ صاحبيهما يعذّبان، ثم كسر جريدة كسرتين ووضع على كل قبر كسرة، وقال: «**لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا**» ـ بقوله: «إنّ ذلك خاص بالنبي ﷺ، ببركة يده المقدسة الشريفة وعلمه بما في القبور»[٢].

[٢٢ ـ ٢٣] وكذلك قال ابن الحاج[٣]، ومحمد المختار[٤].

ولما كان المتبركون بذوات الصالحين وآثارهم يتمسكون بأحاديث تبرك الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ، وبفضل وضوئه، والتدلك بنخامته، والاستشفاء بآثاره، فقد تكلم الشاطبي بكلام نفيس ردّ به على أولئك، مبيّنًا أن ذلك خاص بالنبي ﷺ، ولا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين ولو كانوا من الخلفاء الراشدين أو العشرة المبشرين، فضلًا عن غيرهم؛ لأن التبرك عبادة مبناها على التوقيف والاتباع.

[٢٤] فقال: «إنّ الصحابة ﷺ بعد موته عليه الصلاة والسلام لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق ﷺ، فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر ﷺ، وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان ثم علي، ثم سائر الصحابة الذي لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركًا يتبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا فيهم على الاقتداء بالأفعال

(١) ترتيب المدارك (٦/ ٢٤٣).

(٢) سراج الملوك (١٣٤).

(٣) المدخل (٣/ ٢١٨).

(٤) نور الحق (٢/ ٧٣٤).

والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذًا إجماع منهم على ترك تلك الأشياء، وبقي النظر في وجه ما تركوا منه، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يعتقدوا فيه الاختصاص، وأن مرتبة النبوة يسع فيها ذلك كله؛ للقطع بوجود ما التمسوا من البركة والخير؛ لأنه ﷺ كان نورًا كله في ظاهره وباطنه، فمن التمس منه نورًا وجده على أي جهة التمسه، بخلاف غيره من الأمة ـ وإن حصل له من نور الاقتداء به والاهتداء بهديه ما شاء الله ـ لا يبلغ مبلغه على حال توازيه في مرتبته ولا تقاربه. فصار هذا النوع مختصًا به كاختصاصه بنكاح ما زاد على الأربع، وإحلال بضع الواهبة نفسها له... فعلى هذا المأخذ لا يصح لمن بعده الاقتداء به في التبرك على أحد تلك الوجوه ونحوها، ومن اقتدى به كان اقتداؤه بدعةً، كما كان الاقتداء به في الزيادة على أربع نسوة بدعةً.

الثاني: أن لا يعتقدوا الاختصاص، ولكنهم تركوا ذلك من باب الذرائع؛ خوفًا من أن يُجعل ذلك سنةً، وعلل أن العامة لا تقتصر فيه على حد، بل تتجاوز الحدود وتبالغ بجهلها في التماس البركة، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به الحد، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية حسبما ذكره أهل السير، فخاف عمر رضي الله عنه أن يتمادى الحال في الصلاة إلى تلك الشجرة حتى تُعبد من دون الله، فكذلك يتفق عند التوغل في التعظيم، ولقد حكى الفرغاني مذيل تاريخ الطبري عن الحلاج أن أصحابه بالغوا في التبرك به حتى كانوا يتمسّحون ببوله ويتبخرون بعذرته! حتى ادعوا فيه الإلهية تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا»[1].

---

(١) الاعتصام (٢/ ٨ـ١٠).

فهذه هي العاقبة الوخيمة للمتبركين بالآثار، لم يزل بهم وهم البركة حتى آل بهم الأمر إلى اتخاذ شريك لله تعالى في ألوهيته!

[٢٥] وقد ذكر الميلي نوعًا من التبرك «يُعبّرون عنه بالاستمداد من أرواح[١] الصالحين، ويعتقدون أنهم أحياء في قبورهم يتصرفون في العالم، ويقضون حاجات قاصديهم. فيتخذون المزارات يبنون عليها البناءات، ويرون أن روح الصالح فلان هنالك، إما لأنه دفن أو جلس به، بل تجد بناءات كثيرة على مزارات عديدة كلها منسوبة للشيخ عبدالقادر الجيلاني دفين بغداد رحمه الله، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها!

ومن مظاهر هذا التبرك الاستمدادي تقبيل الجدران، والمسح بالحيطان، وكل ما يضاف إلى ذلك المكان، وكل هذا جهل وضلال»[٢].

---

(١) ينسب القول بالاستمداد من الأرواح إلى الملاحدة من الفلاسفة «حيث يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية! فيقولون: إن الإنسان إذا أحب رجلًا صالحًا قد مات ـ لا سيما إذا زار قبره ـ فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك، بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها ذلك، ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة، وإن قابل تلك المرآة حائط أوما فاض عليه من شعاع تلك المرآة.. وهكذا الشفاعة عندهم، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر!

وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبّره، ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم». انظر رسالة الشرك (٢٤٥).

(٢) رسالة الشرك (٢٤٤).

ولا ريب أن هذا النوع من التبرك شرك بالله تعالى، فإذا كان الحي القادر عاجزًا عن التصرف في العالم وقضاء الحوائج فكيف بتلك الأرواح التي ليس لها تأثير في هذا العالم قطعًا، بل هي بحاجة إلى دعاء الأحياء؟! ولكن هذا ما جره وهم التبرك لهم.

وبعد؛ فهذا ما تيسر جمعه حيال هذه المسألة المهمة: التبرك الممنوع، ومن خلال بيانهم يعلم أن التبرك الممنوع يختلف باختلاف المقاصد، فقد يكون شركًا أكبر، أو دون ذلك من الشرك الأصغر، أو يكون من البدع المنهي عنها. وعليه حصل اتفاق الجميع على منع التبرك الذي لم يقم عليه دليل من الشرع، إذ إنّ من المتقرر أن دعوى وجود البركة في الأشياء بغير برهان أمر مردود، فالبركة من الله تعالى وحده.

*****

المسألة السادسة: سبّ الدهر

لما كان العرب في جاهليتهم إذا نزل بهم بلاء أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر، وعادوا باللوم عليه وذمّوه وسبّوه؛ فقد جاء الإسلام بمنع ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار**»(١).

وروى الإمام مالك بإسناده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: يا خيبة الدهر! فإنّ الله هو الدهر»(٢).

[١] فروايته لهذا الحديث في «باب ما يكره(٣) من الكلام» تدل على ما استقرّ عنده من النهي عن سبّ الدهر، إذ هي عقيدة جاهلية، كما أوضحه غير واحد من المالكية.

[٢] وفي ذلك يقول ابن عبدالبر: «... والمعنى فيه أن أهل الجاهلية كانوا يذمّون الدهر في أشعارهم وأخبارهم(٤)، ويضيفون إليه كل ما يصنعه الله بهم، وقد

---

(١) خرجه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الجاثية (٨/ ٥٨ـ٥٧٤) برقم (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٢) برقم (٢٢٤٦).

(٢) الموطأ (٢/ ٩٨٤). وخرجه أيضًا البخاري في كتاب الأدب، باب لا تسبوا الدهر (١٠/ ٥٦٤) برقم (٦١٨٢)، ومسلم في كتاب الألفاظ، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٢) برقم (٢٢٤٦).

(٣) إطلاق الكراهة عند المتقدمين يفيد التحريم في الغالب.

(٤) من ذلك ما قاله ابن المعتز: =

حكى الله عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] فنهى الله عن قولهم ذلك، ونهى رسوله ﷺ عنه أيضًا بقوله: «لا تسبّوا الدهر»، يعني: لأنكم إذا سببتموه وذممتموه ـ لما يصيبكم فيه من المحن والآفات والمصائب ـ وقع السب والذمّ على الله؛ لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له، وهذا ما لا يسع أحدًا جهله والوقوف على معناه، لما يتعلق به الدهرية أهل التعطيل والإلحاد، وقد نطق القرآن وصحت السنة بما ذكرناه، وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينـزل بها من المكاره فيقولون: أصابتنا قوارع الدهر، وأبادنا الدهر..»[١].

[٣ ـ ٤] وذكر الباجي[٢]، والمازري[٣] في معنى الحديث نحوًا مما ذكره

= يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا ... وأنت والد السوء تأكل الولدا

وقول أبي الطيب:

قبحًا لوجهك يا زمان إنه ... وجه له من كل قبح برقع

وقول الشاعر:

أمن المنون وريبها تتفجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقول الشاعر:

المرء يجمع والزمان يفرق ... ويظل يرقع والخطوب تُمزق

وقد اعتذر عنهم ابن عبدالبر بأنهم لا يقصدون ما يقصده الدهرية في كلامهم، ولا شك في ذلك، ولكن هذا لا يعذرهم ولا يبيح لهم ما وقع منهم، فالحديث صريح في النهي كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

(١) التمهيد (١٨/ ١٥٤).

(٢) المنتقى (٧/ ٣٠٩).

(٣) المعلم (٣/ ١١٠ـ١١١).

ابن عبدالبر.

[٥] ونقل ابن بطال قول الخطابي في شرحه للحديث مقرًا له، فقال: «كان أهل الجاهلية يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر الذي هو مر الليل والنهار، وهم في ذلك فرقتان: فرقة لا تؤمن بالله، لا تعرف إلّا الدهر والليل والنهار اللذين هما محل للحوادث وظرف لمساقط الأقدار، فنسبت المكاره إليه على أنها من فعله، ولا ترى أن لها مدبّرًا غيره، وهذه الفرقة هي الدهرية التي حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. وفرقة ثانية: تعرف الخالق متنزّهة أن تنسب إليه المكاره تضيفها إلى الدهر والزمان، وعلى هذين الوجهين كانوا يذمون الدهر ويسبونه، فيقول القائل منهم: يا خيبة الدهر! ويا بؤس الدهر! فقال لهم النبي ﷺ مبطلًا ذلك من مذهبهم: «لا يسبن أحد منكم الدهر، فإنّ الله هو الدهر» يريد ـ والله أعلم ـ: لا تسبوا الدهر على أنه الفاعل لهذا الصنيع بكم، إنّ الله هو الفاعل له، فإذا سببتم الذي أنزل بكم المكاره رجع السب إلى الله وانصرف إليه»(١).

[٦] وبين ابن العربي أنّ المراد من الحديث ما كان عليه أهل الجاهلية من نسبة الأفعال إلى غير الله تعالى من الأسباب المترددة والحوادث المتعاقبة «فإذا جاء الخلق ما يحبون فرحوا بذلك المتاع، وإذا جاءهم ما يكرهون عكفوا على الدهر يسبونه وينسبونه إلى اللوم والإذاية، فأراد النبي ﷺ أن يطهر عقائدهم من هذا المنزع الخبيث، ويُعلمهم بأن هذه الأفعال التي يكرهون والأفعال التي يحبون ليست منسوبةً إلى الأسباب ولا محسوبةً على الحوادث، وإنما هي كلها مضافة إلى الله تعالى تقديرًا وخلقًا، وسبّ الحكم والمعلول سبّ العلة، فإنك إذا قلت: فعل

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٣٧ـ٣٣٨).

الله بفلان كذا وكذا، وكان المشار إليه باللوم موجودًا في غيره فقد دخل في حكمه»[(١)].

[٧] وذكر نحوًا من ذلك القرطبي أبو العباس في معنى الحديث، فقال: «فلذلك قال الله تعالى: «**يسبّ ابن آدم الدهر، وأنا الدهر**»[(٢)]، أي: أنا الذي أفعل ما ينسبونه إلى الدهر لا الدهر، فإنه ليل ونهار وأنا أقلبهما، أي أتصرّف فيهما بالإطالة والإقصار، والإضاءة والظلام، وفيه تنبيه على أن ما يفعل ويتصرف فيه لا يصلح لأن يفعل...»[(٣)].

[٨] وهو أيضًا قول تلميذه أبي عبدالله القرطبي في بيان معنى الحديث، حيث يقول: «إنّ الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر، فيرجع السبّ إلى الله سبحانه، فنهوا عن ذلك. ودل على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم..**» الحديث»[(٤)].

[٩] وقال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على المنع من سب الدهر؛ لأنه يعود إلى سبّ خالقه ومصوره، وهو الله ﷻ.... فمن سب الصنعة فقد

---

(١) القبس (٣/ ١١٦٥).

(٢) رد بعض المالكية على من قال: إن الدهر من أسماء الله تعالى. قال القاضي عياض: «ذكر من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله، وهذا جهل من قائله وذريعة إلى مضاهاة قول الدهرية والمعطلة.. ويفسره الحديث الآخر نفسه بقوله: «فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره»، وهذا هو معنى ما أشار إليه المفسرون من أن فاعل ذلك في الدهر هو الله ﷻ، والدهر مدة زمان الدنيا». إكمال المعلم (٧/ ١٨٤).
وانظر أيضًا ما قاله الباجي في المنتقى (٧/ ٣٠٩)، وشرح الزرقاني (٤/ ٤٠١)، والقرطبي في المفهم (٥/ ٥٤٨).

(٣) المفهم (٥/ ٥٤٩).

(٤) تفسير القرطبي (١٦/ ١٧١).

سب صانعها»[١].

[١٠] وذكر الزرقاني ثلاثة أوجه في توجيه حديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، فقال: «أي: المدبر للأمور، ما ينسبونه إلى الدهر، فقال ذلك ردًا لاعتقادهم، وفي رواية: «**فإن الدهر هو الله الخالق له**»، وقيل: تقديره مقلب الدهر، ولذا عقبه بقوله: «**بيدي الليل والنهار**»، أي: فإن جالب الحوادث ومتوليها هو الله لا غيره، وقيل: إنه على حذف مضاف، أي: صاحب الدهر، فمعنى النهي عن سبه أن من اعتقد أنه فاعل للمكروه فسبه خطأ، فإن الله هو الفاعل[٢]، فإذا سبه رجع إلى الله، كما رواه الشيخان عن أبي هريرة رفعه: «**يسبّ بنو آدم الدهر، وأنا الدهر**»، وفي رواية: «**يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر**..»[٣].

[١١] ونظير قول الزرقاني هذا ما نقله محمّد المختار عن ابن حجر مقرًا له[٤].

[١٢] وأوضح ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] أنّ هذه الكلمات تجري على ألسنتهم لقلة التدبر في الأمور، وإن كانوا يعلمون أنّ الله هو الخالق للعوالم.. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لا علم لهم أن الدهر هو المميت، إذ لا دليل على ذلك، وإنما توهم عامة الناس أن الزمان متصرف، وهي توهمات شاعت حتى استقرّت في الأذهان الساذجة»[٥].

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ١٧٧).

(٢) سبق التنبيه على هذه العبارة، فإن الله هو الفاعل، والأولى أن يقال: هو المقدّر.

(٣) شرح الزرقاني (٤/ ٤٠١).

(٤) نور الحق (٩/ ٤٠٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦٢ـ٣٦٣).

[١٣] وذكر ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿... وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أن الله تعالى نفى علمهم بأن طول الزمان هو المهلك، وإنما هي مجرد ظنون وتخرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى(١).

وبهذا البيان من أئمة المالكية يتبين أن سب الدهر يعود على الله في الحقيقة؛ لأن الدهر خلق مسخَّر من خلق الله، منقاد لأمره، وهو محل لما يقع من تقدير الله تعالى، فإذا لم ترق للمخلوق تلك الأقدار عاد باللوم والسب للدهر على اعتبار أنه وقع فيه ما يكرهه، فيكون السب متجهًا إلى الله تعالى؛ لأنه هو الفاعل حقيقة(٢).

من هنا فقد ذكروا أن سب الدهر يشتمل على معنى خطير، وهو نسبة الحوادث إلى غير الله، ولا ريب أن من اعتقد أن مع الله تعالى خالقًا فهو كافر.

[١٤] وقد نبه بعض المالكية عند شرحهم لهذه المسألة إلى تفصيل مهم، فذكر القرطبي «أن الغالب من أحوال بني آدم إطلاق نسبة الأفعال إلى الدهر، فيذمونه ويسفهونه إذا لم تحصل لهم أغراضهم، ويمدحونه إذا حصلت لهم، وأكثر ما يوجد ذلك في كلام الشعراء والفصحاء، ولا شك في كفر من نسب تلك الأفعال أو شيئًا منها للدهر حقيقة واعتقد ذلك، وأما من جرت هذه الألفاظ على لسانه ولا يعتقد صحة تلك فليس بكافر، ولكنه قد تشبه بأهل الكفر وبالجاهلية في الإطلاق، وقد

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٨٧).

(٢) قال القرطبي أبو عبدالله: «وقد أحسن من قال:

يا عاتب الدهر إذا نابه ... لا تلم الدهر على غدره
الدهر مأمور له آمرٌ ... وينتهي الدهر إلى أمره»

تفسير القرطبي (١٦/ ١٧١).

ارتكب ما نهاه رسول الله ﷺ عنه، فليتب وليستغفر الله تعالى»[١].

ومراد القرطبي ظاهر في أنّ من أسند تلك الأمور للدهر استقلالًا بها دون الله تعالى فهو كافر خارج من الملة، ومن سلم من ذلك الاعتقاد فقد شابه أهل الجاهلية والكفر فيما قاله، بيد أنه لا يكفر بذلك ولا يسلم من الإثم، وذلك لأن من سبّ الدهر فقد آذى الله تعالى، كما في الحديث: «**يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر**».

[١٥] وكذلك ذكر هذا التفصيل الزرقاني فيما نقله عن المحققين: «من نسب شيئًا من الأفعال إلى الدهر حقيقةً كفر، ومن جرى على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، ولكن يكره ذلك لتشبهه بأهل الكفر والإطلاق»[٢].

[١٦] ونظيره ما نقله محمّد المختار عن ابن حجر في ذلك[٣].

ولعلهما أرادا كراهة التحريم فيما نقلاه، وكأنهما يشيران إلى قول القرطبي السابق، وفيه ما يدل على التحريم، وإلّا فلا يسلم لهما القول بالكراهة، إذ إنّ سب الدهر فيه إيذاء لله تعالى، كما قال الله: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر**»، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، فكيف لا يقال بالتحريم؟

[١٧] وقد ذكر بعض المفسرين عند هذه الآية أحاديث النهي عن سب الدهر، عند شرحهم لمعنى الآية، وذلك لبيان ما في سب الدهر من إذاية لله تعالى[٤].

---

(١) المفهم (٥/ ٥٤٧).

(٢) شرح الزرقاني (٤/ ٤٠١).

(٣) نور الحق (٩/ ٤٠٨ـ٤٠٩).

(٤) انظر تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٥١٤)، والبغوي (٦/ ٣٧٥).

[١٨] وأشار ابن أبي جمرة إلى أن النهي عن سب الدهر الذي هو الليل والنهار، وهما من أعظم مخلوقات الله تعالى يفضي إلى سب خالقها، فقال: «لا يخفى أن من سب الصنعة فقد سبّ صانعها»(١).

وخلاصة القول: أنّ سبّ الدهر على حالين:

فمنه ما هو كفر لا شك فيه، وهو ما اشتمل على الاعتقاد الباطل كما سبق.

ومنه ما هو دون ذلك، فيمن سب الدهر بلسانه ظاهرًا(٢)، فهو وإن سلم من الاعتقاد الفاسد إلّا أنه لا يسلم من الإثم في ذلك. لا سيما أن النص في ذلك قد جاء بلفظ: «يشتمني عبدي»، و «يؤذيني ابن آدم» أي: يلحق بي الأذى، وإلحاق الأذى بالله تعالى وشتمه أمر بالغ مبلغًا عظيمًا في التنفير منه.

وبهذا يعلم أن سب الدهر فعل أهل الجاهلية، وهو محرم على كل حال؛ لما فيه من الأذى لله تعالى ونسبة ما قدره تعالى إلى غيره، والله أعلم.

*****

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ١٧٧).

(٢) وذلك لأنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه، تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر»، ولم يذكر قصدًا، وعليه فإنه يكون مؤذيًا لله تعالى وإن لم يقصده.

الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي هو بعض من جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة تتبيّن عنايتهم الكبيرة بتوحيد العبادة، حيث بلغت النقول عنهم ما يزيد على الألف ومائتي قول.

وهم كغيرهم من الأئمة وعلماء الأمة الذي خلفوا الرسل في الدعوة إلى توحيد العبادة، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبُدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. وبهذه النقول السالفة عنهم تثبت الحقائق التالية:

أولًا: أن التوحيد في الشرع هو «لا إله إلّا الله»، فبهذه الكلمة يحكم للكافر بدخول الإسلام إذا انضمّ إليها الشهادة بعموم الرسالة لمحمد عليه الصلاة والسلام، فمن لم يقل بذلك فقد خالف الكتاب والسنة وما سار عليه عمل سلف الأمة.

ثانيًا: بيان معنى الإله في قول «لا إله إلّا الله»، وأنه المعبود، كما هو في أصل اللغة والشرع، فكلمة التوحيد إذًا تعني أنّ المستحق للعبادة هو الله وحده، إذ إنّ المراد بقولنا «لا إله» نفي جميع المعبودات، و قولنا «إلّا الله» حصر استحقاق العبادة لله وحده لا شريك له.

ثالثًا: أنّ لكلمة التوحيد شروطًا لا بد من التزامها لمن نطق بها، وإلا لم تنفعه.

رابعًا: أن هذا التوحيد هو أول واجب على المكلف، فهو أول ما بدأ به الرسل دعوتهم لأقوامهم، وبهذا يتبين بطلان ما عليه أهل الكلام من أنّ أول واجب هو النظر أو القصد إليه!

خامسًا : أنّ توحيد الربوبية يكاد يطبق عليه غالب البشر ؛ لما فطر الله عليه الخلائق من الإيمان بالله تعالى ربًا وخالقًا ، فلزم من أقرّ بذلك إفراده تعالى بالعبادة وحده .

وعليه ؛ فلا يمكن أن يكون التوحيد الذي بعثت الرسل للدعوة إليه هو توحيد الربوبية ؛ لإقرارهم به ، وإنما يكون فيما جحدوه ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة .

سادسًا : أنّ العبادة تشمل سائر القرب الظاهرة والباطنة ، من قول أو فعل أو ترك ، فيجب على العبد أن يصرفها لله تعالى وحده .

سابعًا : أنّ هذه الأنواع الظاهرة والباطنة للعبادة بها يتضح معنى العبادة ، كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والصبر والتوبة ، وكذا الذكر والدعاء والذبح والطواف والنذر ، وغيرها من الأنواع التي أوضح المالكية تعلقها بالعبادة واستحقاق الرب إياها وحده .

ثامنًا : أن هذه العبادة يتوقف قبولها على شرطين : أولهما إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، والثاني : أن تكون العبادة على وفق شرعه ، فمن فرط في واحد منهما رد عليه عمله .

تاسعًا : أنّ الأمر بالتوحيد نهي عن ضدّه من الشرك بالله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ . والرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك ، وحقيقته الشرك في العبادة .

عاشرًا : أنّ أول ما وقع الشرك في الأرض كان في قوم نوح ، وسببه الغلو ، ثم نشأ بعد ذلك في الأرض بحجة أنهم يرجون شفاعة من غلوا فيهم ، فلم يزل بهم صنيعهم حتى أوقعهم في عبادتهم من دون الله تعالى .

حادي عشر : أن الشرك ينقسم إلى قسمين : أحدهما الشرك المنافي لأصل

التوحيد، وهو المخرج من الملة. والثاني: الشرك المنافي لكمال التوحيد، وهو لا يخرج من الملة، إلّا أنه قد يوصل إلى الأكبر بسبب ما انضاف إليه من الاعتقاد السيِّئ.

ثاني عشر: الشرك منه ما ينافي التوحيد ومنه ما ينافي كماله، ومن ذلك: شرك الدعاء، وشرك الطاعة، وشرك الذبح، وشرك السجود، وشرك الطواف، وشرك النذر، وشرك الرقى والتمائم، والسحر المتضمن لصرف العبادة إلى الشياطين أو الكواكب، وكذا الحلف بغير الله، والتعبيد لغير الله، والتسمي بملك الملوك، والطيرة، وسب الدهر، وبعض من صور التبرك الممنوع.

ثالث عشر: أن المتقدمين من أهل الإسلام تحدثوا عن الشرك الأكبر على أنه لم يكن موجودًا عندهم، وإنما كان حديثهم عنه من باب وقوعه من غير المسلمين للتحذير منه، أما المتأخرون فتحدّثوا عنه لإنكاره حين وقع فيه المسلمون.

وختامًا؛ فرحم الله أولئك الأئمة من المالكية حيث ركزوا على أجلّ وأعظم مشهود، وهو توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، وهم بذلك مقتفون للنبي ﷺ وسلف هذه الأمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

(ق)

(ي)

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

١ـ الإجماع، لابن المنذر، ط. دار طيبة.

٢ـ الأحاديث المختارة، محمّد بن عبدالواحد المقدسي، تحقيق د. عبدالملك بن دهيش، دار خضر ـ بيروت، لبنان ط. الأولى ١٤١١هـ.

٣ـ إحكام الفصول في أحكام الأصول، للباجي، ط. دار الغرب ١٤٠٧هـ، ط. الثانية ١٤١٥هـ.

٤ـ أحكام القرآن، لابن العربي، ط. دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

٥ـ أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية، تحقيق د. صبحي الصالح، ط. دار العلم للملايين، ط. الرابعة ١٩٩٤م ـ بيروت، لبنان.

٦ـ أحكام الرقى والتمائم، د. فهد السحيمي، ط. أضواء السلف، ط. الأولى ١٤١٩هـ.

٧ـ إحياء السنة وإخماد البدعة، لعثمان فودي، ط. المؤتمر العالمي الرابع للسيرة النبوية بالأزهر ١٤٠٦هـ. ط. الثانية.

٨ـ إحياء علوم الدين، للغزالي، ط. دار الحديث ـ القاهرة.

٩ـ الإرشاد، للجويني، تحقيق أسعد تميم، توسعة الكتب الثقافية، ط. الأولى ـ بيروت ١٤٠٥هـ.

١٠ـ الإسلام الجزائري من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات، جورج المراسي، ط. دار الجديد ـ بيروت، ط. الأولى ١٩٩٧م.

١١ـ الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل، للباجي، ط. دار البشائر ـ بيروت، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

١٢ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

١٣ـ أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط . على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز ١٤٠٣هـ .

١٤ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط . دار العلم للملايين .

١٥ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، ط . دار إحياء التراث العربي، ط . السابعة، بولاق ١٣٠٥هـ ـ مصر .

١٦ـ أعلام المغرب العربي، عبدالوهاب بن منصور مؤرخ المملكة، المطبعة الملكية ـ الرباط ١٣٩٩هـ .

١٧ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، لعباس إبراهيم، ط . الدار الملكية ـ الرباط .

١٨ـ إكمال إكمال المعلم بشرح مسلم، للأبي السنوسي، ط . دار الكتب العلمية، ط . الأولى ١٤١٠هـ .

١٩ـ إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، ط . دار الوفاء ـ مصر، ط . الأولى ١٤١٩هـ، تحقيق يحيى إسماعيل .

٢٠ـ الأم، للشافعي، ط . دار المعرفة ـ بيروت، ط . الثانية ١٩٩٣م .

٢١ـ الإمام مالك مفسّرًا، حميد لحمير، ط . دار الفكر ١٤١٥هـ .

٢٢ـ الأنساب، للسمعاني، ط . محمّد أمين ـ بيروت، ط . الأولى ١٣٩٦هـ.

٢٣ـ الإنصاف، للباقلاني، ط . مؤسسة الخانجي، ط . الثانية ١٣٨٢هـ .

٢٤ـ ابن جزي ومنهجه في التفسير، لعلي بن محمّد الزبيري، ط . دار القلم، ط . الأولى ـ بيروت ١٤٠٧هـ .

٢٥ـ اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، تحقيق د . عواد العتيق، ط . الأولى ـ الرياض، مطابع الفرزدق ١٤٠٨هـ .

٢٦ـ الاستذكار، لابن عبدالبر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٧ـ الاعتصام، للشاطبي، ط. دار المعرفة ـ بيروت ١٤٠٢هـ.

٢٨ـ أصول الدين، أبو منصور عبدالقاهر البغدادي ـ إستانبول، مدرسة الإلهيات، دار الفنون ١٣٤٦هـ.

٢٩ـ اعتقاد أهل السنة، للالكائي، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، ط. دار طيبة، ط. الرابعة ١٤١٦هـ.

٣٠ـ اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، تحقيق د. ناصر العقل، ط. الأولى ـ الرياض ١٤٠٤هـ.

(ب)

٣١ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة، ط. مكتبة المؤيد، ط. الأولى ١٤١٢هـ ـ بيروت.

٣٢ـ بغية الملتمس، للضبي، ط. دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.

٣٣ـ بلغة السالك لأقرب المسالك، للصاوي، ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى ١٤١٥هـ ـ بيروت، لبنان.

٣٤ـ بهجة النفوس لابن أبي جمرة، ط. دار الجيل، ط. الثالثة ـ بيروت.

٣٥ـ البيان والتحصيل، لابن رشد، ط. دار الغرب، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ لبنان.

(ت)

٣٦ـ تاريخ بغداد مدينة السلام، للخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

٣٧ـ تاريخ بغداد، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

٣٨ـ تبيين المسالك شرح تدريب السالك إلى أقرب المسالك، للأحسائي، ط. دار الغرب ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

٣٩ـ تحرير التنبيه، للنووي، ط. دار الفكر ـ سوريا، ط. الأولى ١٤١٠هـ.

٤٠ـ التحرير والتنوير، لابن عاشور، بدون طبعة .

٤١ـ تحفة الأحوذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان .

٤٢ـ التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ط. مكتبة دار البيان، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

٤٣ـ تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، لبنان .

٤٤ـ ترتيب الفروق واختصارها، لمحمد بن إبراهيم البقوري، تحقيق الأستاذ عمر بن عباد، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ١٤١٤هـ .

٤٥ـ ترتيب القاموس المحيط، للطاهر أحمد الزواوي، ط. دار الفكر، الطبعة الثالثة .

٤٦ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض السبتي، تحقيق عبدالقادر الصحراوي، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المملكة المغربية، ط. الثانية ١٤٠٣هـ .

٤٧ـ الترغيب والترهيب، للمنذري، ط. دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ ـ القاهرة .

٤٨ـ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي، ط. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

٤٩ـ تعظيم قدر الصلاة، محمّد بن نصر المروزي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط. الأولى ١٤٠٦هـ .

٥٠ـ التفريع، لابن الجلاب، ط. دار الغرب ـ بيروت، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

٥١ـ تفسير القرآن العظيم، للحافظ عبدالرحمن بن محمّد بن أبي حاتم الرازي، تحقيق أسعد الطيب، ط. مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة، ط. الأولى ١٤١٧هـ .

٥٢ـ تفسير ابن باديس، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت ط. الأولى ١٤١٦هـ.

٥٣ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق د. محمّد إبراهيم البنا، دار ابن حزم، ط. الأولى ١٤١٩هـ ـ بيروت لبنان .

٥٤ـ تفسير البغوي معالم التنزيل، ط. دار طيبة ـ الرياض ١٤١٧هـ .

٥٥ـ تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، ط. دار الكتب العلمية، ط. الثانية ـ بيروت ١٤١٨هـ.

٥٦ـ تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.

٥٧ـ تقريب الوصول، لأبي القاسم بن جزي الغرناطي، تحقيق د. محمّد المختار بن الشيخ محمّد الأمين، ط. مكتبة ابن تيمية، ط. الأولى ١٤١٤هـ.

٥٨ـ تقريب الوصول إلى علم الأصول، لأبي القاسم بن جزي الغرناطي، تحقيق د. محمّد المختار، ط. كتبة ابن تيمية، ط. الأولى ١٤١٤هـ.

٥٩ـ تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ط. دار الكتب العلمية.

٦٠ـ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر، دار المعرفة ـ بيروت.

٦١ـ التمهيد، لابن عبدالبر، ط. المملكة المغربية ١٤٠٧هـ.

٦٢ـ التمائم في ميزان العقيدة، د. علي بن نفيع العلياني، ط. دار الوطن للنشر، ط. الأولى ١٤١١هـ ـ الرياض.

٦٣ـ تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة، للتتائي، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.

٦٤ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار صادر ـ بيروت، ط. الأولى ١٣٢٦هـ.

٦٥ـ تهذيب اللغة، للأزهري، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦٦ـ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبدالله آل الشيخ ط. المكتب الإسلامي، ط. الخامسة ١٤٠٢هـ.

٦٧ـ التيسير في أحاديث التفسير، لمحمد المكي الناصري، ط. دار الغرب.

(ث)

٦٨ـ الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لصالح بن

عبدالسميع الأبي الأزهري، ط . دار المعرفة ـ بيروت .

(ج)

٦٩ـ الجامع، لابن أبي زيد القيرواني، ط . دار الغرب الإسلامي، تحقيق عبدالمجيد تركي، ط . الثانية ـ بيروت ١٩٩٠م .

٧٠ـ جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ط . مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ .

٧١ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، ط . دار ابن الجوزي، ط . الثانية ١٤١٨هـ .

٧٢ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن القاضي المكناسي، ط . دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط ١٩٧٤م .

٧٣ـ جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف، لعبدالعزيز الطويان، ط . مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .

٧٤ـ جواهر الإكليل شرح مختصر خليل، لصالح بن عبدالسميع الأبي الأزهري ط . مصطفى الحلبي، ط . الثانية ١٣٦٦هـ .

٧٥ـ الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة، للمشاط، ط . دار الغرب، ط . الأولى ١٤٠٦هـ .

٧٦ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي، ط . دار إحياء التراث العربي ط . الأولى ـ بيروت، لبنان .

(ح)

٧٧ـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، ط . دار إحياء الكتب العربية .

٧٨ـ حاشية العدوي على كفاية الطالب، ط . دار الفكر .

٧٩ـ حاشية سنية وتحقيقات بهية، للصفتي، ط . الحلبي ١٣٦٧هـ .

٨٠ـ الحاوي، للماوردي، ط . الكتب العلمية ـ بيروت، ط . الأولى ١٤١٤هـ.

٨١ـ الحجة في بيان المحجة، للتيمي، ط. دار الراية، ط. الأولى ـ الرياض ١٤١١هـ.

٨٢ـ الحدود، للباجي، ط. دار الآفاق الجديدة، ط. الأولى ـ القاهرة، مصر ١٤٢٠هـ.

٨٣ـ الحلية، لأبي نعيم الأصفهاني، ط. دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط. الثانية ١٣٨٧هـ.

٨٤ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان.

٨٥ـ الحوادث والبدع، للطرطوشي.

(خ)

٨٦ـ الخرشي على مختصر سيدي خليل، ط. دار صادر ـ بيروت.

٨٧ـ خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي، شرح: عصام شعيتو، ط. الأولى، ط. دار مكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٨٧م.

٨٨ـ خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، محمّد بن إسماعيل البخاري، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الأولى ١٤٠٤هـ.

(د)

٨٩ـ الدر الثمين والمورد المعين، لميارة، ط. دار الفكر، وط. الحلبي مصر، الطبعة الأخيرة ١٣٧٣هـ.

٩٠ـ الدر المنثور، للسيوطي، دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

٩١ـ الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للشوكاني، حققه أبو عبدالله الحلبي، ط. دار ابن خزيمة، ط. الأولى ١٤١٤هـ ـ الرياض.

٩٢ـ درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمّد رشاد سالم، ط. الكنوز الأدبية.

٩٣ـ درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد، الرسالة الثانية عشرة ضمن رسائل عبدالله بن سعدي الغامدي، بعنوان: عقيدة الموحدين، مكتبة الطرفين، ط. الأولى ١٤١١هـ.

٩٤ـ الدعاء، للطبراني، تحقيق د. محمّد سعيد بن محمّد حسن البخاري، دار البشائر الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

٩٥ـ الدعاء المأثور وآدابه، ط. دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ـ بيروت.

٩٦ـ دفع إيهام الاضطراب، للشيخ محمّد الأمين الشنقيطي، ملحق بأضواء البيان، ط. مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ.

٩٧ـ دلائل التوحيد، محمّد جمال الدين القاسمي، ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى ـ بيروت ١٤٠٥هـ.

٩٨ـ ديوان أبي العتاهية، ط. دار صادر ـ بيروت.

(ذ)

٩٩ـ الذخيرة، للقرافي، تحقيق محمّد حجي، ط. دار الغرب، ط. الأولى ـ بيروت ١٤١٤هـ.

١٠٠ـ ذم الكلام، للهروي، تحقيق عبدالرحمن الشبل، ط. مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

(ر)

١٠١ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ط. الثالثة ١٤١٥هـ.

١٠٢ـ رسالة الشرك ومظاهره، للميلي، ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

١٠٣ـ الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة والاعتقادات وأصول الديانات، لأبي عمرو الداني، تحقيق د. محمّد سعيد القحطاني، ط. دار ابن الجوزي ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

١٠٤ـ رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين، للباجي، ط. البحوث العلمية، الطبعة

الثانية ١٤٠٧هـ .

١٠٥ـ الروض الأنف، للسهيلي، ط. مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٠هـ .

١٠٦ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية .

(ز)

١٠٧ـ الزهد، الإمام أحمد، دار الكتاب العربي، تحقيق محمّد السعيد بسيوني زغلول، ط. الثالثة ١٤١٧هـ .

١٠٨ـ الزهد، لابن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط. الأولى ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(س)

١٠٩ـ سراج السالك شرح أسهل المسالك، لعثمان بن حسين الجعلي، ط. دار الحلبي ـ مصر .

١١٠ـ سراج الملوك، للطرطوشي، ط. الكتاب الإسلامي ـ القاهرة، ط. الثانية ١٤٠٢هـ .

١١١ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض ١٤١٥هـ .

١١٢ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، للمرادي، ط. دار ابن حزم، ط. الثالثة ١٤٠٨هـ ـ بيروت .

١١٣ـ سنن أبي داود، ط. دار السلام للنشر والتوزيع، بإشراف الشيخ صالح آل الشيخ ـ الرياض، ط. الأولى ١٤٢٠هـ .

١١٤ـ سنن الترمذي، ط. الحلبي، ط. الثانية ١٣٩٥هـ ـ مصر .

١١٥ـ سنن الدارمي، ط. رئاسة البحوث العلمية والإفتاء ١٤٠٤هـ .

١١٦ـ السنن الكبرى، للبيهقي، ط. دار الكتب العلمية، تحقيق محمّد عبدالقادر عطا، ط. الأولى ١٤١٤هـ ـ بيروت .

١١٧ـ السهروردي حياته وتصوفه، عائشة المناعي، ط. دار الثقافة ـ الدوحة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١١٨ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الثانية ـ بيروت ١٤١٨هـ.

(ش)

١١٩ـ الشرح الجديد لجوهرة التوحيد، محمّد أحمد العدوي، ط. الأولى ١٣٦٦هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

١٢٠ـ شرح الزرقاني على موطأ مالك، ط. دار المعرفة ـ بيروت ١٤٠١هـ.

١٢١ـ شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ط. المكتب الإسلامي، ط. التاسعة ـ بيروت ١٤٠٨هـ.

١٢٢ـ شرح المعلقات السبع، للزوزني، طبعة دار صادر ـ بيروت، لبنان.

١٢٣ـ شرح جوهرة التوحيد مع تحفة المريد، لإبراهيم للقاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

١٢٤ـ شرح خليل بن إسحاق المسمى نصيحة المرابط، للشنقيطي، ط. الأولى ١٤١٣هـ.

١٢٥ـ شرح صحيح البخاري، لابن بطال، ط. مكتبة الرشد، ط. الأولى ـ الرياض ١٤٢٠هـ.

١٢٦ـ شرح منح الجليل على مختصر خليل، محمّد عليش، ط. دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٩هـ.

١٢٧ـ شرح أسماء الله الحسنى، للفخر الرازي، مراجعة طه عبدالرؤوف سعد ـ بيروت، دار الكتاب العربي، ط. الأولى ١٤٠٤هـ.

١٢٨ـ شعب الإيمان، للبيهقي، ط. دار الكتب العلمية، تحقيق محمّد سعيد زغلول، ط. الأولى ١٤١٠هـ.

١٢٩ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض، ط. دار الكتاب العربي.

(ص)

١٣٠ـ الصحاح، للجوهري، ط. دار العلم للملايين، ط. الثانية ١٣٩٩هـ.

١٣١ـ صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط. الأولى ١٤٢١هـ.

١٣٢ـ صفة الصفوة، ابن الجوزي، دار المعرفة، ط. الثانية ١٤١٧هـ ـ بيروت، لبنان.

١٣٣ـ صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، ط. ابن تيمية ـ القاهرة، ط. الرابعة ١٤١٠هـ.

(ض)

١٣٤ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، ط. دار الجيل ـ بيروت لبنان.

(ط)

١٣٥ـ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي، ط. دار إحياء الكتب العربية.

١٣٦ـ طبقات الصوفية، لأبي عبدالرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة، ط. مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط. الثالثة ١٤١٨هـ.

١٣٧ـ طبقات الفقهاء الشافعية، لابن قاضي شهبة، تحقيق د. علي محمّد عمر مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة.

١٣٨ـ طبقات المحدثين بأصبهان، ط. الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ بيروت.

١٣٩ـ طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين الداودي، مكتبة وهبة، ط. الأولى ١٣٩٢هـ.

١٤٠ـ طبقات المناوي الكبرى ـ للمناوي، تحقيق د. عبدالحميد صالح حمدان المكتبة الأزهرية، ط. الأولى ١٤١٢هـ.

(ع)

١٤١ـ عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، لابن العربي المالكي، ط. دار الفكر.

١٤٢ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، لعبد الحق الإشبيلي، ط. مكتبة دار الأقصى ـ الكويت، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.

١٤٣ـ عقائد الثلاث والسبعين فرقة، لأبي محمّد اليماني (من علماء القرن السادس)، تحقيق ودراسة محمّد بن عبدالله الغامدي، مكتبة العلوم والحكم ط. الأولى ١٤١٤هـ ـ المدينة المنورة.

١٤٤ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدين الفاسي، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية ١٤٠٦هـ ـ بيروت، لبنان.

١٤٥ـ العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، لابن الملقن، تحقيق أيمن نصر الأزهري وسعيد مهنا، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

١٤٦ـ عقيدة السلف، للصابوني، تحقيق د. ناصر الجديع، ط. دار العاصمة، ط. الثانية ـ الرياض ١٤١٩هـ.

١٤٧ـ العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية، للمغراوي، ط. المنار، ط. الأولى ـ الخرج ١٤١٢هـ.

١٤٨ـ عمل اليوم والليلة، النسائي، تحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة ط. الثانية ١٤٠٦هـ ـ بيروت.

١٤٩ـ عيون المجالس، لابن نصر البغدادي، ط. مكتبة الرشد، ط. الأولى ـ الرياض ١٤٢١هـ.

(غ)

١٥٠ـ الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، ط. دار الغرب، الأولى ـ بيروت.

(ف)

١٥١ـ فتاوى ابن رشد، ط. دار الغرب.

١٥٢ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط. السلفية.

١٥٣ـ فتح البر بالترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبدالبر، عطية محمّد سالم، ط. مجموعة النفائس الدولية، مكتبة الرياض الحديثة، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

١٥٤ـ الفتح الرباني شرح على نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني، محمّد الشنقيطي، ط. مكتبة القاهرة.

١٥٥ـ فتح المالك بتبويب التمهيد لابن عبدالبر، مصطفى صميدة، ط. الباز ـ مكة المكرمة، ط. الأولى ١٤١٨هـ.

١٥٦ـ فرض العين، للغلاوي، ط. دار القلم للنشر والتوزيع، ط. الأولى، دبي ١٤١٩هـ.

١٥٧ـ الفروق، للقرافي، ط. دار الكتب العلمية.

١٥٨ـ فضائل شهر رمضان، للأجهوري، ط. دار القاضي عياض ـ القاهرة.

١٥٩ـ فقه الرسالة، الهادي الدرقاشي، ط. دار قتيبة ـ بيروت.

١٦٠ـ الفواكه الدواني، لأحمد بن غنيم النفراوي الأزهري، ط. دار الفكر ـ بيروت ١٤١٥هـ.

١٦١ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، محمّد عبدالرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية، ط. الأولى ١٤١٥هـ ـ بيروت لبنان.

(ق)

١٦٢ـ قانون التأويل، لابن العربي، ط. دار الغرب.

١٦٣ـ القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، لابن العربي، تحقيق محمّد ولد كريم، ط. دار الغرب، ط. الأولى ـ بيروت ١٩٩٢م.

١٦٤ـ القدرية والمرجئة نشأتهما وأصولهما وموقف السلف منهما، د. ناصر العقل، دار الوطن، ط. الأولى ١٤١٨هـ.

١٦٥ـ القوانين الفقهية، لابن جزي، ط. دار الكتب العلمية، وطبعة دار الملايين.

(ك)

١٦٦ـ الكافي، لابن عبدالبر، ط. مكتبة الرياض الحديثة، ط. الأولى ١٣٩٨هـ.

١٦٧ـ كتاب التعريفات، للجرجاني، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٦٨ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني، ط. دار التراث ـ القاهرة.

١٦٩ـ كفاية الطالب، ط. دار الفكر ـ بيروت ١٤١٢هـ.

١٧٠ـ كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، للشنقيطي، ط. مؤسسة الريان، ط. الأولى ـ بيروت ١٤١٥هـ.

(ل)

١٧١ـ لسان العرب، لابن منظور، ط. الثانية، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٤١٧هـ.

(م)

١٧٢ـ مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمّد أبو زهرة، ط. دار الفكر ـ القاهرة.

١٧٣ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان.

١٧٤ـ المجموع، للنووي، دار إحياء التراث العربي ١٤١٥هـ.

١٧٥ـ محبة الله والحب بين العبد والرب، لشيخ الإسلام، ط. دار الخير، ط. الأولى ١٤١٣هـ.

١٧٦ـ المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، ط. القطرية الأولى ـ الدوحة ١٤٠٢هـ.

١٧٧ـ مختصر خليل، ط. الحلبي ١٣٤١هـ.

١٧٨ـ المدخل لابن الحاج، ط. دار الفكر ١٤٠١هـ، وطبعة دار الكتب العلمية ط. الأولى ـ بيروت ١٤١٥هـ.

١٧٩ـ المدونة، ط. دار صادر، ط. الأولى، مطبعة السعادة ـ مصر .
١٨٠ـ مذكرة في أصول الفقه، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط. السلفية .
١٨١ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم، وبذيله التلخيص للذهبي، مكتبة المعارف ـ الرياض .
١٨٢ـ المسند، للإمام أحمد، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الأولى ١٤١٨هـ ـ بيروت .
١٨٣ـ مسند أبي عوانة، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، ط. دار المعرفة ـ بيروت، ط. الأولى ١٤١٩هـ .
١٨٤ـ مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية ط. الأولى ١٤١٢هـ ـ بيروت .
١٨٥ـ مسند البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، ط. مكتبة دار العلوم والحكم ـ المدينة المنورة . ط. الأولى ١٤١٥هـ .
١٨٦ـ مسند الشافعي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، ط. الأولى ١٤٠٠هـ .
١٨٧ـ مسند الشاميين، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الثانية ١٤١٧هـ ـ بيروت، لبنان .
١٨٨ـ مسند الفردوس بمأثور الخطاب، للديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، ط. الأولى ١٤٠٦هـ ـ بيروت، لبنان .
١٨٩ـ مصرع الشرك والخرافة، خالد محمّد علي الحاج، تحقيق عبدالله الأنصاري ط. إدارة الشؤون الدينية بقطر ١٣٩٨هـ .
١٩٠ـ مصنف عبدالرزاق، المكتب الإسلامي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ـ بيروت، ط. الثانية ١٤٠٣هـ .
١٩١ـ معارج الصعود، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط. الجامعة الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠٨هـ .

١٩٢ـ معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي، ط. ابن القيم، ط. الأولى ١٤١٣هـ.
١٩٣ـ معالم السنن شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان الخطابي، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، ط. الأولى ١٤١١هـ.
١٩٤ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون ـ مصر.
١٩٥ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط. دار صادر ـ بيروت، ط. الثانية ١٩٩٥م.
١٩٦ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٩٧ـ المعجم الوسيط، ط. المكتبة الإسلامية، إستانبول ـ تركيا.
١٩٨ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ط. دار الجيل ـ بيروت.
١٩٩ـ المعلم بفوائد مسلم، للمازري، دار الغرب، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.
٢٠٠ـ المعونة على مذهب عالم المدينة، لابن نصر، ط. دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ـ بيروت، لبنان ١٤١٨هـ.
٢٠١ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس، للونشريسي، ط. دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠١هـ.
٢٠٢ـ المعين والزاد، جمع سيد بن المامي الجكني، ط. الأولى ١٣٩٦هـ.
٢٠٣ـ المغني في الضعفاء، للذهبي، تحقيق نور الدين عتر.
٢٠٤ـ المفردات في غريب القرآن، ط. دار المعرفة ـ بيروت.
٢٠٥ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، ط. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، ط. الأولى ١٤١٧هـ.
٢٠٦ـ المقدمات الممهدات، لابن رشد، ط. دار الغرب الإسلامي.
٢٠٧ـ مقدمة في أصول الفقه، لابن القصار، ط. دار المعلمة ـ الرياض، ط. الأولى ١٤٢٠هـ.
٢٠٨ـ المنتقى شرح الموطأ للباجي، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ـ مصر ١٣٣٢هـ.

٢٠٩ـ منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الخالق، عبدالله محمّد نور، ط. الغرباء ـ المدينة المنورة، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

٢١٠ـ منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة، د. عبدالرحمن المحمود، ط. مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤١٤هـ.

٢١١ـ منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة، سعود بن عبدالعزيز الدعجان، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

٢١٢ـ منهج التشريع، للشنقيطي، ط. الجامعة الإسلامية، ط. الأولى.

٢١٣ـ منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، عرض وتقويم، إعداد محمّد السحيباني، ط. دار الوطن، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

٢١٤ـ الموافقات، للشاطبي، ط. دار المعرفة، ط. الأولى ـ بيروت، لبنان ١٤١٥هـ.

٢١٥ـ مواهب الجليل، للمغربي، ط. دار الفكر، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٣٩٨هـ.

٢١٦ـ مواهب الجليل من أدلة خليل، أحمد المختار الجكني الشنقيطي، ط. دار إحياء التراث الإسلامي ـ قطر.

٢١٧ـ موسوعة أعلام المغرب، محمّد بن الطيب القادري، تحقيق وتنسيق محمّد حجي وأحمد التوفيق، ط. دار الغرب الإسلامي.

٢١٨ـ موطأ مالك. ط. دار الحديث ـ القاهرة.

٢١٩ـ موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي، ط. دار الغرب، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤١٧هـ.

(ن)

٢٢٠ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لابن المقري، ط. دار صادر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

٢٢١ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزواوي ومحمود

الطناحي، ط. المكتبة العلمية ـ بيروت .
٢٢٢ـ النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد، جاسم الفهيد الدوسري، ط. دار الخلفاء لكتاب الإسلامي، ط. الأولى ١٤٠٤هـ ـ الكويت .
٢٢٣ـ النوادر والزيادات، لابن أبي زيد القيرواني، ط. دار الغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .
٢٢٤ـ النوازل، لأبي الحسن العلمي، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤٠٩هـ .
٢٢٥ـ نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح، ط. دار عالم الكتب ـ الرياض .
٢٢٦ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد التنبكتي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس، ط. الأولى ١٣٩٨هـ ـ ليبيا .

(و)

٢٢٧ـ وصية الباجي لولديه، للباجي، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
٢٢٨ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، ط. دار صادر ـ بيروت .

الرسائل العلمية :

٢٢٩ـ مسائل العقيدة في كتابي المعلم والمفهم، رسالة دكتوراه، لعبدالله بن محمّد الرميان، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة .
٢٣٠ـ جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة، رسالة دكتوراه، لعبدالله بن عبدالعزيز العنقري، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة .

فهرس الموضوعات